

رسائل ومقالات(1)



رسائل ومقالات (١)

إشراقات فكرية

بقلم

السيد الشهيد محمد الصدر (قدس سره)

تحقيق

مؤسسة المنتظر لإحياء تراث آل الصدر

سرشناسه: صدر، سید محمد، ۱۹۴۳ - ۱۹۹۹م.
عنوان و نام پدیدآور: رسائل ومقالات - إشراقات فكرية/ تأليف السيد محمد الصدرﷺ.
مشخصات نشر: قم: مدين، ۱۳۹۳.
مشخصات ظاهری: ۳ج.
شابك: دوره: 978-964-227-082-8؛ ج۱: 978-964-227-079-8؛
ج۲. 978-964-227-080-4؛ ج۳، 978-964-227-081-1:
وضعیت فهرست نویسی: فیپا
یادداشت: عربی.
یادداشت: کتابنامه.
موضوع: شیعه -- عقائد
موضوع: اسلام -- مسائل متفرّقه
رده بندی کنگره: ۱۳۹۳ ۵ر ٤ص/ ٥/ ۲۱۱ BP
رده بندی دیویی: ٤١٧٢/ ٢٩٧
شماره کتابشناسی ملی: ٣٤٦٢٣٧٥

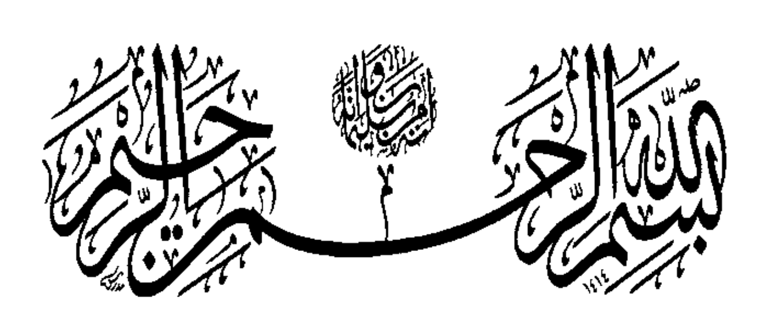
مؤسّسة مدين للطباعة والنشر - هاتف : ٧٧٢٢٦٠١-٠٢٥١

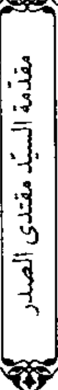
رسائل ومقالات - إشراقات فكرية

الجزء الأوّل

- المؤلف: آية الله العظمى السيّد الشهيد محمد الصدرﷺ
- تحقيق: مؤسّسة المنتظر لإحياء تراث آل الصدر
- المراجعة اللّغويّة: الحاجّ عبد الرضا عبد الحسين
- الناشر: مدين للطباعة والنشر
- العدد: ٢٠٠٠
- المطبعة: وفا
- الطبعة: الأولى -١٤٣٥ هـ-٢٠١٤م
- الزينگراف: مدين
- رقم الإيداع الدولي: 978-964-227-079-8
- رقم الإيداع الدولي للدورة: 978-964-227-082-8

+٩٨ ٢٥١-٧٨٣٣٣٣٧ +٩٨ -٩١٢٧٤٧٣٨٥٢
Email: Al_montazer16@yahoo.com


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

لا زالت إشراقاته وفيوضاته تتلألأ علينا بين الحين والآخر، ولا زالت كتبه وعلومه وجواهره تنهال علينا بما لم نعهده من علمائنا الأعلام الأحياء منهم والأموات، وها هي أنامله قد خطّت لنا ما هو خارج عن النطاق الحوزويّ المتعارف من فقهٍ وأُصولٍ ومنطق.

فقد خطّ لنا بأنامله كتاباً آخر بعلم الأدب وكذلك بالأُمور الفكريّة المعمّقة، بعد أن كتب لنا بالشعر أبياتاً وقصائد وأرجوزات يعجز اللسان عن وصفها؛ ليضع بهذا الكتاب الأدبيّ اللمسات الأدبيّة الراقية ليفتح باباً واسعاً للحوزة العلميّة من أجل الخوض في غمار هذا العلم الذي لا يكون إلّا عن أحاسيس وذوقٍ رفيع لا يستطيع الكثير النيل منه؛ لصعوبة الإبحار في ثناياه، وليضع لنا بكتابه الآخر أُسساً وقواعد فكريّةً يحتاجها كلّ ذوي الاختصاص.

وهو «قدّس سرّه الشريف» قد دخل هذا المجال من أوسع أبوابه من خلال المقالات الأدبيّة والفكريّة التي تعطي صورةً جميلةً وحقيقيّةً عن مضمونها وموضوعها، فكم من قلمٍ خطّ الكلمات فانحرفت عن مجراها وبعدت عن إفهام العقول، إلّا أنّهقدس سره قد كتبها بأسلوبٍ يصل إلى القلوب سريعاً وإلى العقول بطريقةٍ أسرع لا يكتنفها الغموض أو الصعوبة، بل قد كتبها باختيار الكلمات المناسبة في الزمان المناسب؛ لتخترق جدار النفس فتتجذّر في قلب القارئ ليلج في ثناياها وكأنّه يتعايش معها أوّلاً بأوّل.

فالحمد لله الذي مَنَّ علينا بتلك الشخصيّة الهامة والبارعة، والعقليّة الفكريّة الفذّة التي كسّرت جدران السجن وحجب التقوقع؛ لتخرج إلى عوالم الشعر والأدب والقصص وما إلى ذلك، اللّهم فاجعلنا من السائرين على نهجه إلى يوم يبعثون.

وأخيراً أشكر جهود القائمين على إخراج وتحقيق مثل هذا الكنز العظيم إلى النور؛ لينهل منه المحبّ والمبغض على السواء؛ وليكون الجميع على بيّنةٍ من أمرهم.

وشكراً لفضل الله أوّلاً وآخراً، ونسأله تعالى أن يَمُنَّ على الجميع بالتفهّم وحسن القراءة.

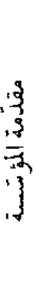
مقتدى الصدر

٣/ ربيع الأوّل/ ١٤٣٥هـ

النجف الأشرف



مقدّمة المؤسّسة



الحمد لله ربِّ العالمين، المتفضّل على الخلق أجمعين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمةً للعالمين، محمّدٍ المصطفى وعلى آله الطيّبين الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

من أهمِّ الفترات الزمنيّة وأشدّها حساسيّةً في تاريخ الحركات والاتّجاهات الإسلاميّة المعاصرة، هي العقود الثلاثة التي امتدّت من الخمسينيّات حتّى السبعينيّات الميلاديّة من القرن العشرين؛ فقد شهدت هذه العقود - في الوسط الشيعيّ على الأقلّ - ولادة أكثر الأُطروحات أهمّيّةً وأشدّها تأثيراً وحضوراً في ذاكرة أبنائها؛ لأنّها ولِدت في ظرفٍ تاريخيٍّ حسّاس كان الإسلاميّون يعيشون فيه همّ إثبات الذات، والبرهنة على جدارة الإسلام في قيادة المجتمع والإنسانيّة.

إنَّ مَن يطالع تراث المسلمين الأقدمين يرى بوضوحٍ أنَّ عطاءاتهم - وعلى الرغم من نزوعهم إلى الدراسات الموضوعيّة منذ مطلع ظهور مختلف العلوم لديهم - كانت منغمسةً بهمّ تقديم المعلومات الجزئيّة وتحليل المواقف الموضعيّة، وكانت نتاجاتهم - بشكلٍ عامّ - مجرّدةً عن التحليل الكلّي الذي يستهدف تقديم أفكارٍ عامّةٍ مصاغةٍ في قالب نظريّة متكاملة.

وما يصلح أن يكون تفسيراً لهذه الظاهرة أنّهم لم يرزحوا تحت سؤال

الشرعيّة، ولم يكونـوا مـسكونين بالدرجـة الأُولى بهـاجس الـشرعنة النظريّـة لانتمائهم إلى الإسلام.

وقد كان المشهد مختلفاً في الغرب إذا أرّخنا له ابتداءً من عصر النهـضة؛ فقد دفع الانقلابُ الفكريُّ الذي شهدته أوروبا المفكّـرين الجـدد إلى اسـتنفاد طاقاتهم في سبيل تقعيد نظريّاتٍ كليّةٍ يخضع لها المجتمع النـاهض في مجـالات الاجتماع والسياسة والفلسفة وغيرها، فظهرت نزعة التنظـير الكـلّي الـشامل بشكلٍ واضح وبنحوٍ لم يسبق له مثيل، وبدأت عناوين من قبيل: نظام الحكم، روح القانون، نظريّة المعرفة .. بالظهور إلى الساحة، بعد أن كانـت في الـسابق موضوعاً للبحث بشكلٍ جزئيّ ومبعثر؛ فأرسطو مثلاً تحدّث عـن معلومـاتٍ جزئيّة تفيد في بناء نظريّةٍ في المعرفة، ولكنّه لم يقدّم لنـا تلـك النظريّـة؛ لأنّـه لم يكن يعيش همّ بنائها.

ومع حلول القرن التاسع عشر، وتسرّب هذه النزعة إلى بلاد المسلمين، وانطلاقاً من مصر على وجه التحديد، وبفعل المساعي التي بـذلها محمّـد عـلي باشا، تأثّر المسلمون بهذا النمط وبدأوا يحيكون على منواله، وبـدأ المحـافظون على اعتقادهم بالإسلام يدرسون عقيدتهم الإسلاميّة بهـذه الخلفيّـة، وراحـوا يصبّون معتقداتهم في قالب نظريّاتٍ كليّة.

وبعد انتهاء الحرب العالميّة الأُولى وتشييد النظـام الـشيوعيّ، اجتاحـت البلاد العربيّة والإسلاميّة عموماً سيولُ الدراسات المعمّقة التي قدّمها فلاسفة الشيوعيّة ومنظّروها، والتي كانت موفّقةً في التمكّن من عقل الإنسان العـربيّ وقلبه؛ حيث وجد فيها حبل خلاصه من كثيرٍ من مشاكله.

وهكذا اجتاحت الشيوعيّة بفكرها الذي قدّمته وصاغته في قوالـب نظريّـة

مميّزة الدولَ العربيّة والإسلاميّة، حتّى وصلت إلى عاصمة المعرفة الدينيّة عند الإماميّة: النجف الأشرف، فاجتاحت حوزتها ودخلت بيوت أهل العلم فيها، حتّى انتمت إليها طائفةٌ من أبناء (بيوتات) أهل العلم، بعد أن وجدوا في الانتماء إليها تسكيناً لآلامهم وجواباً عن سؤال الانتماء الذي كان يثقل كواهلهم.

وبعد أن كان ناقوسُ الخطر قد دقّ لسنواتٍ عجاف، وفي نهاية الخمسينيات الميلاديّة من القرن المنصرم، انتفضت المرجعيّة العليا في النجف الأشرف المتمثّلة يومذاك في المرجع المغفور له السيّد محسن الحكيمقدس سره، معلنةً بداية المواجهة الفكريّة مع الشيوعيّة، وهي مواجهةٌ لم يكن ليُكتب لها النجاح النسبيّ دون التسلّح بالسلاح الفكريّ نفسه، فشكّلت المرجعيّة لهذا الغرض جماعةً العلماء في النجف الأشرف، والتي تبنّت مطلع الستّينيات إصدار مجلّة فكريّة حملت اسم (الأضواء).

وفي إطار هذا الاتّجاه الجديد الذي نحتته المرجعيّة الدينيّة، تلاقت جهود العديد من الشخصيّات الدينيّة الفتيّة التي جمعتها وحدةُ الهاجس، فانشغل فريقٌ بالكتابة في مجلّة (الأضواء)، بينما فضّل فريقٌ آخرُ الكتابة المستقلّة، وجمع فريقٌ ثالثٌ بين المجالين.

وعلى الرغم من توقّف مجلّة الأضواء عن الصدور بعد نحو خمس سنوات، إلّا أنّها ساهمت في إعداد جملة من الكتّاب الذين أكملوا طريقهم الرساليّ بالنحو المتاح لهم، وأنتجوا خلال عقدَي الستّينيّات والسبعينيّات أجمل ما أنتجته الحركة الإسلاميّة الشيعيّة الواعية، فانتعشت المكتبة الإسلاميّة بجملةٍ من النتاجات التي ستظلّ أسماؤها مع أسماء مؤلّفيها محفورةً في الذاكرة الشيعيّة، والتي حملت في مضمونها ثلاثة هموم اختلف تمظهُرُها بين كتابٍ وآخر:

الهمّ الأوّل: همٌّ دفاعيّ، استهدف التصدّي للحملات القويّة التي طالت الكيان الإسلاميّ بوجودَيه النظريّ والخارجيّ.

الهمّ الثاني: همٌّ هجوميّ، استهدف النيل من مبادئ الأنظمة الأُخرى التي طرحت نفسها منافساً للإسلام.

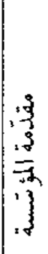
الهمّ الثالث: همٌّ حلّي، استهدف تقديم الإسلام في إطارٍ نظريٍّ متكاملٍ ومتماسكٍ بعيداً عن الدفاع عن الأنا أو الهجوم على الآخر.

وفي هذا الإطار يُلاحظ المتتبّع أنَّ أكثر كتابات هذه المرحلة أو أهمّها حمل - وكما أشرنا في مطلع الحديث- همّ إثبات الذات في مقابل مَن يحاول إنكارها، فظهر ضمير الجمع المتّصل (نا) الذي زيّن به الشهيد محمّد باقر الصدر مشروعه (كتابنا) الذي لم يبصر الضوء منه سوى (فلسفتنا) و(اقتصادنا)، كما شكّلت كلمة (الإسلام) أو (في الإسلام) جزءاً من عناوين كثيرٍ من كتابات هذه المرحلة، بل بدأ يظهر للمرّة الأُولى الحديثُ عن (نظام الإسلام) أو (المدرسة الإسلاميّة)، وظهرت في هذا السياق - على سبيل المثال لا الحصر- كتب الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر، والشيخ محمّد مهدي شمس الدين، والسيّد محمّد حسين فضل الله، والشيخ محمّد أمين زين الدين، والشيخ محمّد مهدي الآصفي ... وغيرهم. كما ظهرت في عرض ذلك في إيران كتاباتُ العلاّمة الطباطبائيّ، والشهيد الشيخ مرتضى المطهّريّ، إضافةً إلى كتابات الشيخ ناصر مكارم الشيرازيّ والشيخ جعفر السبحانيّ... وغيرهم الكثير.

وقد كان الجامع بين هذه الدراسات - سواءٌ في العراق أم في إيران- أنّها كانت عابقةً بهمّ تثبيت الإسلام منهجاً يقود الحياة، فبثّت في عروق الجيل الصاعد أملاً جديداً بالإسلام.

مشاركة الشهيد السيّد محمّد الصدر ودوره في رفد هذه الحركة

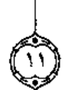
ومن جملة الشخصيّات العلميّة الفتيّة التي التحقت مبكّراً بقافلة كتّاب الحركة الإسلاميّة ومنظّريها، ورفدوا المكتبة الإسلاميّة بمقالاتهم ومؤلّفاتهم: الشهيد السعيد السيّد محمّد الصدر (رضوان الله تعالى عليه) (١٣٦٢ – ١٤١٩هـ)، الذي سجّل – على رغم صغر سنّه يوم صدور مجلّة (الأضواء)– حضوره الفاعل في صفحات المجلّة، فنشر مقاله الأوّل (الله ضرورة عقليّة) في العدد ٢٣–٢٤ من سنتها الأُولى، بتاريخ ١/ ذي الحجّة/ ١٣٨٠هـ، حيث كان عمره آنذاك لم يتجاوز الثامنة عشرة، ثُمَّ أعقبه بمقالاتٍ أُخرى في المجلّة نفسها، وفي مجلّتَي (الإيمان) و(النجف).



ومع تقادم السنين وتقدّم السيّد الشهيد علميّاً في دراساته الحوزويّة، قام بإثراء المكتبة الإسلاميّة بأطروحاتٍ علميّةٍ أكثر عمقاً وأشدّ خطورةً، وكان على رأسها موسوعة الإمام المهديّ عليه السلام، التي فرغ من جزئها الأوّل سنة ١٣٩٠هـ، إلى عشرات المؤلّفات في مختلف الميادين القرآنيّة والتاريخيّة والأُصوليّة والفقهيّة، وهو ما سنعرضه في كشّاف آثاره من هذه المقدّمة.

وبين (الأضواء) سنة ١٣٨٠هـ وموسوعة الإمام المهديّ عليه السلام (١٣٩٠هـ) سطّر الشهيد الصدر خلال عقدٍ من الزمن عشرات المقالات، قُدّر لقسمٍ منها أن يرى النور في حينه، بينما بقي القسم الأغلب أسير الأوراق الصفراء منتظراً مَن ينفض عنه غبار الزمن، وهو ما وفّقنا إلى تحقيقه في هذه المجموعة بحمد الله تعالى.

فالكتاب الذي بين يديك – قارئي العزيز– عبارةٌ عن مجموعة من البحوث والمقالات التي سطّرتها يراع فقيدنا الكبير الشهيد السيّد محمّد

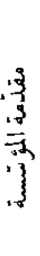


الصدر قُدّسَ سِرّه خلال عقدٍ من الزمن، امتدّ من سنة ١٣٨٠ هـ إلى سنة ١٣٩٠ هـ، وقد بلغ عددها (٦٢) مقالاً في مختلف المجالات الفكريّة والأدبيّة، مضافاً إلى المقطوعات الشعريّة التي لم تنشر إلى الآن. وقد نَشَرَ من المقالات في حينه (١٨) مقالاً تقريباً، بينما ينشر الباقي - وعدده (٤٤)- للمرّة الأُولى عبر هذه الأوراق.

وبعد دراسة مضمون هذه المقالات، عمدنا إلى تقسيمها إلى مجموعتين رئيسيّتين:

١. مجموعة المقالات الفكريّة: وقد ضمّت بين طيّاتها مجموعةً كبيرةً من المقالات التي عالجت بشكلٍ رئيسٍ مختلف المفاهيم من وجهة نظر الإسلام، من قبيل: التوحيد الإلهيّ، القانون، الأُسرة، الكفاءة، العلاقات الاجتماعيّة، الوعي، الموت، البعث، العبادة، الفطرة، المعجزة، السلوك الإنسانيّ، الإرادة، التربية، الحريّة، إلى غير ذلك من المقالات العلميّة المختصّة والمرتبطة بعلم أُصول الفقه.

٢. مجموعة المقالات الأدبيّة: وقد ضمّت بين طيّاتها جملةً من المقالات القرآنيّة التي تعالج جوانب مختلفة من القصص القرآنيّ، إضافة إلى تعليقاتٍ نقديّة على جملة من الكتب الأدبيّة المعروفة لكتّاب كبار، من أمثال: توفيق الحكيم، وسيّد قطب، وطه حسين، وعبّاس محمود العقّاد، إلى جانب العديد من المقالات التي عالجت موضوعاتٍ أدبيّةً من وجهة نظرٍ رساليّة.



منهجنا في التحقيق

اقتصر عملنا في تحقيق هذا الكتاب على ما يلي:

أوّلاً: المقابلة مع النسخة الخطّيّة بيد السيّد الشهيد قُدِّسَ سِرُّه.

ثانياً: تقويم النصّ ومراجعته وتصحيحه طبقاً للمعايير المعهودة في التحقيق والتدقيق.

ثالثاً: تقطيع المتن وتنظيم فقراته بحسب اقتضاء الحال.

رابعاً: تخريج الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة من المجاميع الروائيّة المعتبرة، وضبطها وتمييزها عن غيرها.

خامساً: إرجاع الآراء الواردة في الكتاب إلى أصحابها ومصادرها الأصليّة.

سادساً: إضافة بعض العناوين في ثنايا الكتاب.

سابعاً: تقسيم الأبحاث والمقالات موضوعيّاً.

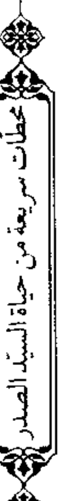
نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لكلِّ ما فيه خيرٌ وصلاح، إنّه سميعٌ مجيب.

كما نستغفره - تعالى شأنه- من كلِّ زللٍ وخطأ، سائلين العلماء والباحثين الكرام أن يتجاوزوا عن كلِّ عيب ونقصٍ لُوحظ في إخراج هذا الكتاب؛ فإنَّ الكمال لله وحده.

عادل الطائي

١٢ / ربيع الثاني/ ١٤٣٥هـ

مؤسّسة المنتظر لإحياء تراث آل الصدر



محطات سريعة من
حياة آية الله العظمى
السيد الشهيد محمد الصدرقدس سره

نسبه الشريف

يرجع نسب السيّد الشهيد محمّد الصدرقدس سره إلى الإمام موسى بن جعفرعليه السلام في سلسلةٍ نسبيّةٍ قليلة النظير في صحّتها ووضوحها وتواترها، حتّى وصفت بـ(السلسلة الذهبيّة)؛ لما فيها من رجالاتٍ عُرفوا بالزعامة والسيادة، ولعلَّ هذه المزيّة قد انفردت بها هذه العائلة الكريمة؛ حيث إنَّها من لدن المعصومين عليهم الصلاة والسلام وحتّى الآن في كلِّ جيلٍ منهم هو سيّد جيله والمعترف له بالعلم والفضل والزعامة في عصره؛ فهو (١)محمّد بن (٢)محمّد صادق بن (٣) محمّد مهدي بن (٤) إسماعيل بن (٥) محمّد صدر الدين بن (٦) صالح بن (٧) محمّد بن (٨) إبراهيم شرف الدين بن (٩) زين العابدين إبراهيم بن (١٠) نور الدين علي بن (١١) علي نور الدين بن (١٢) الحسين عزّ الدين بن (١٣) محمّد بن (١٤) الحسين بن (١٥) علي بن (١٦) محمّد بن (١٧) عبّاس تاج الدين أبي الحسن بن (١٨) محمّد شمس الدين بن (١٩) عبد الله جلال الدين بن (٢٠) أحمد بن (٢١) حمزة أبي الفوارس بن (٢٢) سعد الله أبي محمّد بن (٢٣) حمزة القصير أبي أحمد بن (٢٤) محمّد أبي السعادات بن (٢٥) عبد الله أبي محمّد بن (٢٦) محمّد الحارث أبي الحرث بن

(٢٧) علي ابن الديلميّة أبي الحسن بن (٢٨) عبد الله أبي طاهر بن (٢٩) محمّد المحدّث أبي الحسن بن (٣٠) طاهر أبي الطيّب بن (٣١) الحسين القطعي بن (٣٢) موسى أبي سبحة بن (٣٣) إبراهيم المرتضى الأصغر ابن (٣٤) الإمام موسى الكاظم عليه السلام ابن (٣٥) الإمام جعفر الصادق عليه السلام ابن (٣٦) الإمام محمّد الباقر عليه السلام ابن (٣٧) الإمام علي زين العابدين عليه السلام ابن (٣٨) الإمام الحسين الشهيد عليه السلام ابن (٣٩) الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[1].

ولادته ونشأته

ولد قدس سره في السابع عشر من ربيع الأوّل عام ١٣٦٢ هـ.ق، أي: يوم المولد النبويّ الشريف.

عاش في كنف جدّه لأُمّه آية الله العظمى الشيخ محمّد رضا آل ياسين قدس سره، وهو من المراجع المشهورين آنذاك، وقد زامنت فترة مرجعيّته مرجعيّة السيّد أبي الحسن الأصفهاني قدس سره، ليعود المرجع الأعلى بعد رحيله[2].

ومن الجدير بالذكر أنّ أباه السيّد الحجّة محمّد صادق الصدر قدس سره لم يرزق ولداً بعد زواجه، حتّى اتّفق أن ذهب مع زوجته إلى بيت الله الحرام، وعندما تشرّفا بزيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله دَعَوَا ربّهما أن يرزقهما ولداً صالحاً يسمّيانه (محمّد)، فكان أن مَنّ الله تعالى شأنه عليهما بعد فترةٍ يسيرةٍ بهذا المولود المبارك في يوم ولادة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، فكان الولد الوحيد لهما[3].

---

(١) راجع النسب في بغية الراغبين ١: ١٢ - ١٣، وخاتمة مستدرك وسائل الشيعة ٢: ١١١، وتكملة أمل الآمل: ١٠٤ - ١٠٦، وطبقات أعلام الشيعة ٢: ٦٨٣.

(٢) راجع المواعظ واللّقاءات (للسيّد الشهيد محمّد الصدر قدس سره): ١٠ - ١١، و٨١.

(٣) راجع المصدر السابق: ٨٥.

نشأ سماحته في بيت علمٍ وفضلٍ، وزقّ العلم منذ صباه بواسطة والده الحجّةقدس سره . وقد كان لنشأته وتربيته الدينيّة انعكاسٌ في خُلُقه الرفيع وسماحته وبشاشته وصدره الرحب، فكان قلبه - بعد تسنّمه المرجعيّة العامّة- يستوعب كلّ ما يُطرح عليه من أسئلة وشبهات دون أيّما شعور بالحرج أو الخجل أو التردّد. وليس هذا بعجيب؛ إذ ليست نفسه الشريفة إلّا ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[1].

تزوّج من بنت عمّه السيّد الحجّة محمّد جعفر الصدرقدس سره، ورُزق بأربعة أولاد، هم: السيّد مصطفى، والسيّد مرتضى، والسيّد مؤمّل، والسيّد مقتدى، وقد تزوّج ثلاثة منهم من بنات السيّد الشهيد الصدر الأوّلقدس سره، وله بنتان تزوّجنَ من ابنَي السيّد الحجّة محمّد كلانترقدس سره .

نشأته العلمية

بدأ قدس سره الدرس الحوزويّ في سنٍّ مبكّرةٍ، حيث كان ذلك في سنة ١٣٧٣ هـ، وقد ارتدى الزيّ الحوزويّ وهو ابن إحدى عشرة سنة، مبتدئاً بدراسة النحو والمنطق والفقه وغير ذلك من دروس المقدّمات على يد والده الحجّة السيّد محمّد صادق الصدرقدس سره، ثُمَّ على يد السيّد طالب الرفاعيّ، ثُمَّ على يد الشيخ حسن طرّاد العامليّ، وأكمل بقيّة دروسه على يد السيّد الحجّة محمّد تقي الحكيمقدس سره والحجّة الشيخ محمّد تقي الإيروانيّقدس سره .

دخل كلّيّة الفقه سنة ١٣٧٩هـ . دارساً على يد ألمع أساتذتها، فدرس:

١ . الفلسفة الإلهيّة على يد آية الله الشيخ محمّد رضا المظفّرقدس سره .

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٤.

٢. الأُصول والفقه المقارن على يد آية الله السيّد محمّد تقي الحكيمقدس سره.

٣. الفقه على يد الحجّة الشيخ محمّد تقي الإيروانيقدس سره.

٤. علوم اللّغة العربيّة على يد الحجّة الشيخ عبد المهدي مطرقدس سره.

كما أفاد من بعض الأساتذة من ذوي الاختصاصات والدراسات غير الحوزويّة: كالسيّد عبد الوهّاب الكربلائي مدرِّس اللغة الإنجليزيّة، حيث كان سماحته أفضل طلّاب صفّه في هذا المجال، والدكتور حاتم الكعبيّ في علم النفس، والدكتور فاضل حسين في التاريخ، وكذا درس الرياضيّات في الكلّيّة نفسها حيث كان من المتميّزين فيه، وكذا الفلسفة الحديثة على يد الدكتور صالح الشمّاع[1].

تخرّج من كلّيّة الفقه سنة ١٣٨٤ هـ. ضمن الدفعة الأُولى من خرِّيجي كلّيّة الفقه. وانتدب للتدريس في مدرسة العلوم الإسلاميّة للسيّد محسن الحكيمقدس سره في النجف الأشرف[2].

ثُمَّ دخل مرحلة السطوح العليا، فدرس كتاب الكفاية على يد أُستاذه السيّد الشهيد محمّد باقر الصدرقدس سره[3]، وكتاب المكاسب على يد السيّد محمّد تقي الحكيمقدس سره[4]. وقد كان لدراسته عند هذين العلَمين الأثر الأكبر في صقل شخصيّته العلمائيّة ونموّ موهبته العلميّة التي شهد له بها أساتذته أنفسهم، ثُمَّ أكمل دراسة كتاب المكاسب عند الشيخ الحجّة صدر

---

(١) راجع المواعظ واللّقاءات (للسيّد الشهيد محمّد الصدرقدس سره): ١٤، و٨٢- ٨٤.

(٢) راجع بغية الراغبين ١: ٢٣٩، في ترجمة السيّد محمّد الصدر.

(٣) راجع المواعظ واللّقاءات: ٨٤.

(٤) راجع المصدر السابق.

البادكوبيّ قدس سره، الذي كان من مبرّزي الحوزة وفضلائها.

ثُمَّ حضر دروس البحث الخارج عند جملة من أعلام النجف الأشرف، وهم:

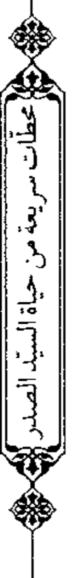
١. آية الله العظمى السيّد الشهيد السعيد محمّد باقر الصدر قدس سره فقهاً وأُصولاً.

٢. آية الله العظمى السيّد أبو القاسم الخوئيّ قدس سره فقهاً وأُصولاً.

٣. آية الله العظمى السيّد روح الله الموسويّ الخمينيّ قدس سره فقهاً.

٤. آية الله العظمى السيّد محسن الحكيم قدس سره فقهاً.

٥. آية الله الحجّة السيّد إسماعيل الصدر قدس سره فقهاً[1].



ولابدَّ لنا أن نذكر إلى جانب مسيرته العلميّة وأساتذته في هذا المجال مسيرتَه في طريق المعرفة الإلهيّة والعلوم الأخلاقيّة، حيث تلقّى المعارف الإلهيّة الحقّة على يد أُستاذه الكبير الحاجّ عبد الزهراء الكَرعاوي (رضوان الله عليه)، الذي كان من تلامذة العارف الكبير الشيخ محمّد جواد الأنصاريّ الهمدانيّ قدس سره، وكان هذا الجانب واضحاً جدّاً في شخصيّة المترجَم له، بل طغى هذا الجانب على أكثر تصانيفه ودروسه الثمينة، فراجع وتفطّن.

ثُمَّ إنَّ ممّا يدلّ على نبوغه وتقدّمه العلميّ أمرين:

الأوّل: اطّلاعه قدس سره على آراء أربعة من أشهر المجتهدين في ذلك الوقت، وهم السيّد الشهيد الصدر الأوّل والسيّد الخوئيّ والسيّد الخمينيّ والسيّد الحكيم (قدّس الله أسرارهم أجمعين). وهذا الاطّلاع الذي حصل له من خلال حضور أبحاثهم ودروسهم الشريفة أدّى بطبيعة الحال إلى نموّ

(١) أُنظر: بغية الراغبين ١: ٢٣٩، والمواعظ واللّقاءات: ١٥ - ١٩، و١٠٥.

وتطوّر المستوى العلمي له بوضوح.

الثاني: تميّز أُستاذه السيّد الشهيد الصدر الأوّل بالإبداع والتجديد في الأُصول، وهذا يعني أنّه قد أفاد - بلا شكٍّ - من هذا التجديد والإبداع.

وبلحاظ هاتين النقطتين يمكن لنا الحكم ابتداءً بأعلميّته وغزارة علمه، بل وأعلميّته على أقرانه، فقد شهد له بذلك كلّ مَن حضر دروسه من الفضلاء والأعلام، لا سيّما درسه في الأُصول؛ إذ أصبح آنذاك الدرس الرئيس في حوزة النجف الأشرف.

من مميزات تقريراته لأبحاث أساتذته

كانقُدِّسَ سِرُّهُ غاية بالجدِّ والاجتهاد في حضوره أبحاث أساتذته؛ حيث كان معروفاً عند أقرانه بتميّزه لكتابة تلك الأبحاث، فلم يكن يترك شاردةً وواردةً إلّا وسجّلها، سواء كان ذلك إشكالاً له أم لغيره في داخل الدرس وخارجه، حتّى أنّه أثبت تأخّر الأُستاذ عن الدرس أو غيابه، ومن تلك المميّزات أيضاً:

• حضوره المتواصل وعدم انقطاعه عن الحضور، ما أنتج استيعاب كتاباته لتلك الأبحاث.

• جامعيّة ما كتبه لأبحاث أساتذته، وهذه المزيّة تفتقدها أكثر كتابات زملائه.

• كان أغلب زملائه يستعينون بكتاباته؛ حيث كان جملة منهم كثير السفر والانقطاع، حتّى أنّ أحد التلامذة كان جديد العهد في حضوره عند السيّد الشهيد الصدر الأوّلقُدِّسَ سِرُّهُ ولم يدرك درس الأُستاذ إلّا قليلاً، فأخذ من كتابات السيّد الشهيد الصدر الثانيقُدِّسَ سِرُّهُ قرابة ألف وثمانمائة صفحة. وهذه المزيّة قلّما تُوجد عند الآخرين، فهي تعبّر عن نفسٍ طيّبةٍ همّها خدمة الشريعة

سواء كان عن طريق نفسها أم كان عن طريق الآخرين.

نعم، إنّ جملة من أبحاث أُصول السيّد الصدر الأوّل قدس سره لم نعثر عليها، وأغلب الظنّ أنّ ذلك كان للسبب المذكور، أي: بسبب إعارته الآخرين كتاباته.

إجازته في الرواية

أمّا إجازته في الرواية فله إجازات من عدّة مشايخ، أعلاها من الملّا محسن الطهراني الشهير بـ(آغا بزرگ الطهراني قدس سره) عن أعلى مشايخه، أي: الميرزا حسين النوريّ صاحب كتاب «مستدرك الوسائل».

ومنهم أيضاً والده الحجّة السيّد محمّد صادق الصدر قدس سره، وخاله الشيخ مرتضى آل ياسين قدس سره، وابن عمّه السيّد آقا حسين خادم الشريعة قدس سره، والسيّد رضا الصدر قدس سره، والسيّد عبد الرزّاق المقرّم قدس سره، والسيّد حسن الخرسان قدس سره، والسيّد عبد الأعلى السبزواريّ قدس سره، والدكتور حسين علي محفوظ رحمه الله[1].

اجتهاده وتدريسه

أُجيز بالاجتهاد من قِبَل أُستاذه السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر قدس سره في سنة ١٣٩٨ هـ.ق (وكان عمره آنذاك ٣٦ سنة)؛ حيث اتّفق أنّ جملة من الفضلاء طلبوا من السيّد الشهيد محمّد الصدر أن يباحثهم على مستوى أبحاث الخارج، وقد سألوا السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر عن ذلك، فبارك لهم وشجّعهم عليه، وذكر لهم تمام الأهليّة للسيّد محمّد الصدر، وقد اتّفقوا

---

(١) راجع المصدر السابق ١: ٢٤٠.

على أن تكون مادّة البحث في الفقه الاستدلاليّ كتاب «المختصر النافع» للمحقق الحلّي؛ لأنّه يمثّل دورةً فقهيّةً كاملةً ومختصرةً في الوقت نفسه، وكان مكان الدرس آنذاك مسجد الشيخ الطوسيّ قدس سره، وقد استمرّ الدرس قرابة أربعة أشهر، وقد أدّت صعوبة الظروف حينها إلى انقطاع البحث وتفرّق الطلّاب[1].

ثُمَّ بتسديد الله وعونه عاد سيّدنا الشهيد قدس سره إلى إلقاء البحث الفقهيّ بعد سنوات عدّة في جامعة النجف الدينيّة على متن كتاب «المختصر النافع» أيضاً، ثُمَّ توقّف الدرس، على أثر أحداث الانتفاضة الشعبانيّة ليعود بعدها لإلقاء دروسه المباركة في مسجد الرأس الملاصق للحرم العلويّ المقدّس، واستمرّ بحثه إلى آخر يومٍ من عمره الشريف. وكان يلقي في هذا المسجد أبحاثه في كلّ يوم كالتالي:

أوّلاً: البحث الفقهيّ صباحاً.

ثانياً: البحث الأُصوليّ عصراً.

ثالثاً: إلقاء محاضرات تاريخيّة وأخلاقيّة وعقائديّة.

رابعاً: دروس في شرح كفاية الأُصول.

خامساً: الدروس القرآنيّة في يومي الخميس والجمعة من كلِّ أُسبوعٍ.

وممّا تتميّز به هذه المحاضرات - أي: الدروس القرآنيّة- روح التجدّد والجُرأة في نقد الآراء وتفنيدها، كما اتّخذ سيّدنا قدس سره أُسلوباً مغايراً لأُسلوب سائر المفسّرين في تفسير القرآن الكريم؛ إذ إنّهم كانوا يبدؤون بتفسير القرآن الكريم من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، إلّا أنّه شرع تفسيره من سورة

(١) راجع المواعظ واللّقاءات: ١٨- ١٩.

الناس رجوعاً إلى باقي السور القرآنيّة المباركة، وهو منهجٌ في البحث لم يسبق إليه سابقٌ. وله في اتّخاذ هذا المنهج رأيٌ سديدٌ طرحه في بداية البحث، فقال موضّحاً السبب في ذلك: «سيجد القارئ الكريم أنّني بدأت من المصحف بنهايته، وجعلت التعرّض إلى سور القرآن بالعكس.

فإنَّ هذا ممّا التزمته في كتابي هذا نتيجةً لعاملين نفسيٍّ وعقليّ:

أمّا العامل النفسيّ: فهو تقديم الطرافة في الأُسلوب وترك التقليد للأُمور التقليديّة المشهورة، فيما يمكن ترك التقليد فيه.

وأمّا العامل العقليّ: فلأنَّ التفاسير العامّة كلّها تبدأ من أوّل القرآن الكريم طبعاً، فتكون أكثر مطالبها وأفكارها قد سردته فعلاً في حوالي النصف الأوّل من القرآن الكريم، وأمّا في النصف الثاني فلا يوجد غالباً إلَّا التحويل على ما سبق أن ذكره المؤلّف؛ الأمر الذي ينتج أن يقع الكلام في النصف الثاني من القرآن مختصراً ومقتضباً، ممّا يعطي انطباعاً لطبقةٍ من الناس أنّه أقلّ أهمّيّةً أو أنّه أقلّ في المضمون والمعنى ونحو ذلك.

في حين إنّنا لو عكسنا الأمر فبدأنا من الأخير، لاستطعنا إشباع البحث في السور القصيرة، وتفصيل ما اختصره الآخرون، ورفع الاشتباه المشار إليه. فإن لم نكن بمنهجنا قد استنتجنا أكثر من هذه الفائدة لكفى»[1].

فاتّخذ سيّدنا هذا المنهج من باب سدّ النقص الذي يُحتمل الوقوع فيه بملاك ما تقدّم، ولغرض إشباعٍ آخر للقرآن بحثاً ودفاعاً، ولأجل سدّ الفراغ الموجود.

(١) منّة المنان في الدفاع عن القرآن ١: ٤٤-٤٥، المقدّمة.

من أقوال العلماء في حقه

قال المفكّر الإسلاميّ الكبير آية الله العظمى السيّد الشهيد محمّد باقر الصدرقدّس سرّه عند تقديمه لكتاب (موسوعة الإمام المهديّ عليه السلام) للمترجَم له: «... وسأقتصر على هذا الموجز من الأفكار تاركاً التوسّع فيها وما يرتبط بها من تفاصيل إلى الكتاب القيّم الذي أمامنا؛ فإنّنا بين يدي موسوعةٍ جليلةٍ في الإمام المهديّ، وضعها أحد أولادنا وتلامذتنا الأعزّاء، وهو العلّامة البحّاثة السيّد محمّد الصدر حفظه الله تعالى، وهي موسوعةٌ لم يسبق لها نظير في تأريخ التصنيف الشيعيّ حول المهديّ عليه السلام في إحاطتها وشمولها لقضيّة الإمام المنتظر من كلِّ جوانبها، وفيها من سعة الأُفق وطول النفس العلميّ واستيعاب الكثير من النكات واللفتات، ما يعبِّر عن الجهود الجليلة التي بذلها المؤلِّف في إنجاز هذه الموسوعة الفريدة.

وإنّي لأحسّ بالسعادة وأنا أشعر بما تملؤه هذه الموسوعة من فراغ، وما تعبِّر عنه من فضل ونباهةٍ وألمعيّة. أسأل المولى سبحانه وتعالى أن يقرَّ عيني به ويريني فيه عَلَماً من أعلام الدين...»[1].

وقال والده آية الله الحجّة المقدّس السيّد محمّد صادق الصدرقدّس سرّه في حقّه: «... وإنَّ من نعم الله وآلائه على هذا العبد الفقير إلى عفوه وصفحه أن رزقني من الأولاد واحداً كألف، وبه يحفظ الله لنا هذه السلسلة الذهبيّة أن تفقد بعض حلقاتها، وبه تحتفظ السلسلة بكامل نضارتها وهيبتها وجميل هيأتها. ولد حفظه الله في السنة الثانية والستّين بعد الألف والثلاثمائة في ضحى

(١) كان ذلك بتاريخ: ١٧/ جمادى الثانية/ ١٣٩٧هـ. أُنظر: موسوعة الإمام المهديّ عليه السلام ١: ٤٠-٤١.

يوم عيد مولد النبيّ الأعظمﷺ؛ وبهذه المناسبة سميّته محمّداً.

نشأ والحمد لله نشأةً حسنةً تحت ظلّ جدّه شيخنا آية الله العظمى مرجع عصره الشيخ محمّد رضا آل يس رضوان الله عليه، فلمّا تقلّص ظلّ الشيخ عنّا في سنة ١٣٧٠هـ كان لا يزال ولدي طفلاً في الثامنة. فاشتغل في تعلّم مبادئ القراءة والكتابة والقرآن الكريم، ثُمَّ اشتغل بمقدّمات العلوم فأتمّها، وبعدها دَرَسَ السطوح فأتقنها.

وهو في الوقت الحاضر يحضر دروس الخارج على العلماء الأعلام وآيات الله العظام، وقد دنا من الاجتهاد قاب قوسين أو أدنى إن لم يكن قد لمسه باليسرى واليمنى. وزيادةً على ذلك حصّل من العلوم ما هو خارجٌ عن دائرة اختصاص المجتهدين، وألمّ إلمامةً بسيطةً بلغةٍ أجنبيّة، وقد أحاط كلّ ذلك بالتقوى والعفاف والطهر. فشكراً لله إن كان الشكر يفي ويكفي ... وهذا ولدي العالم الفاضل التقيّ النقيّ المؤلّف المجيد والشاعر الناثر محمّد الصدر... ولا أراني بحاجةٍ إلى نصحه ووعظه؛ فإنَّه مستغنٍ عن ذلك بل هو الذي يجب أن ينصح ويعظ الناس، وهنا يأتي المثل المشهور: ما المسؤول بأعلم من السائل، فقد رضع درّ الدين وتربّى في حجر الدين، والمأمول منه أن يصرف همّه وهمّته إلى نصرة الدين...»[1].

وقال آية الله العظمى الشيخ آغا بزرك الطهرانيقدس سره في إجازته إيّاه بالرواية: «فإنَّ الفاضل الكامل البارع الباهر المحقّق المصنّف الماهر، ثقة الإسلام وعماد الأعلام وسلالة الفقهاء الفخام، مولانا الممجّد جناب السيّد محمّد نجل العالم الجليل السيّد محمّد صادق ابن العلاّمة الأجل السيّد محمّد

(١) كان ذلك بتاريخ: ١٧/ ٦/ ١٣٨٧هـ، أي: في سنة: ١٩٦٧م. مخطوط.

مهديّ الصدر ابن آية الله العظمى السيّد إسماعيل الصدر الموسويّ العامليّ الكاظميّ طاب ثراه وجعل الجنّة مثواه، ووفّق حفيده المذكور لإنجاز ما رغب فيه من الخدمة لدين الإسلام الحنيف وإبلاغ أُصوله وفروعه إلى الخاصّ والعامّ والوضيع والشريف...»[1].

وقال العلّامة الحجّة السيّد عبد الرزاق المقرّم قدس سره في إجازته إيّاه بالرواية: «... فإنَّ العلّامة البارع في فنون المعارف الإلهيّة، والباحث عن مخبّئات حقايق الشريعة وآدابها، السيّد محمّد، نجل حجّة الإسلام التقيّ الورع السيّد محمّد صادق آل آية الله السيّد إسماعيل الصدر نوّر الله ضريحه، لما عرف من قدر العلم وقدر مساعي أعلام الأُمّة فأخذ بسيرتهم واستضاء بأنوار تعاليمهم...»[2].

وقال آية الله السيّد رضا الصدر قدس سره: «قرّة عيوننا المفدّى وكعبة آمالنا المرجّى، ركن التقى وحصن الهدى ملاذ الإسلام وكهفه، وقدوة المتّقين حبيبنا محمّد من آل الصدر حفظه الله بقدرته التي لا تضام، ورعاه بعينه التي لا تنام... قرأت كتابك العزيز فشممت من خلال سطوره رائحة التقوى والعلم، ولقيني منه روح الفضل والصدق، والفضائل النفسيّة والفواضل الإنسانيّة مزيّنة بالهمّة والجدّ والعمل. أسأله تعالى أن يوفّقكم لخدمة الإسلام وأن يجعلكم شرفاً لنا وفخراً، آمين يا ربّ العالمين...»[3].

---

(١) كان ذلك بتاريخ: ١٠/ جمادى الثانية/ ١٣٨٧هـ، أي: في سنة: ١٩٦٧م. مخطوط.

(٢) كان ذلك بتاريخ: ١٩/ جمادى الثانية/ ١٣٨٧هـ، أي: في سنة: ١٩٦٧م. مخطوط.

(٣) لم يثبّت فيها التاريخ، وأغلب الظنّ أنّها قبل سنة ١٣٩٠هـ. مخطوط.

صفاته وسجاياه

لقد شهد لسيّدنا الشهيدقدس سره جمعٌ غفيرٌ ممّن عرفوه منذ صباه بالتواضع ووضوح الشخصيّة، علاوةً على اتّصافه بسرعة البديهة في الإجابة على الأسئلة الفقهيّة والعلميّة والفكريّة.

وقد وصفه العلّامة الحجّة السيّد عبد الله شرف الدين حفظه الله في البغية قائلاً: وقد سطع نجمه، ولمع اسمه في الأندية العلميّة، وأصبح مرموقاً في وسطه، مشاراً إليه بالفضل، مقدَّراً عند أساتيذه وغيرهم. والحقّ أنّي رأيته من خيرة شباب هذا الجيل، فهو مفخرةٌ من مفاخر السادة الذين يرفعون الرأس عالياً، بنبوغهم وعلمهم، ويملؤون العين بسموِّ أخلاقهم وعلوِّ صفاتهم، وبهاء طلعتهم ... وعلاوة على ذلك، هو كاتبٌ مجيد، من أهل الأقلام العالية، ذو حظٍّ وافر من البراعة في الإنشاء والكتابة والنظم، له عدّة مؤلَّفاتٍ تدلّ على قلمٍ سيّال، ومكانةٍ في الفكر والبحث والتحقيق[1].

وبالاقتراب منهقدس سره يتّضح سلوكه العرفانيّ الذي يحاول إخفاءه قدر الإمكان، وكثيراً ما كان يؤكّد في عباراته على لزوم اليقظة، والحذر من الوقوع في الانحراف وعدم الاستقامة وعدم اتّباع خطّ أهل البيتعليهم السلام، مؤكّداً في ذلك على جانب الإخلاص مع الله في القول والفعل. لذا نجده لم يكن يرضى أن تُقبَّل يده، معلّلاً ذلك بقوله: أنت تدخل الجنّة وأنا أدخل النار؟! أي: تدخل الجنّة؛ لأنّك تفعل ذلك قربةً إلى الله، وأنا أدخل النار؛ لاحتمال حصول الكبر بتقبيل اليد.



(١) بغية الراغبين ١: ٢٣٩، في ترجمة السيّد محمّد الصدر.

وتراه يجيب عن بعض المسائل جواباً ناشئاً من أعلى مراتب التقوى قائلاً: بحسب القاعدة حلال، لكن إن كنت تحبّ الله وتحبّ أن تكون ورعاً، فلا تفعل ذلك.

ثُمَّ إنَّه يستشفّ أحياناً من بعض إجاباته لسائليه أسرار ما خفي من المعرفة الإلهيّة، حيث يحجب في كثيرٍ من الأحيان الإجابة قائلاً: هذا من الأسرار؛ رأفةً بالسائل أن لا يتحمّل الجواب، وهكذا كان الاقتراب منه قدس سره يكشف عن بعض الآفاق المعنويّة والعرفانيّة التي كان عليها، وما خفي أعظم.

وقد امتاز قدس سره بالأمانة العلميّة، كما اتّفق بعض الأحيان - وإن كان نادراً جدّاً- تأخّره عن بحث أساتذته، ممّا يضطّره إلى أخذ ما فاته من البحث من زملائه، إلّا أنّه كان يشير إلى ذلك مع أنَّ ما أفاده منهم لا يتجاوز الصفحة الواحدة، بالإضافة إلى أنّه كان يقرّر حسب فهمه الخاصّ لتلك الدروس والبحوث، إلّا أنّه كان يأبى إلّا أن يذكر أصحاب تلك الأقوال التي يوردها، وهو قلّما نلحظه عند الآخرين، فراجع وتبصّر[1].

أفكاره الاجتماعية إبان شبابه

زامن بداية شبابه قدس سره مجتمعه الذي كان يعاني - كما هو الحال اليوم- من الانحراف والفساد والمشاكل الاجتماعيّة، فأخذ على عاتقه أن يكون من

---

(١) راجع على سبيل المثال كتاب البيع (من أبحاث السيّد الخمينيّ قدس سره بقلم السيّد الشهيد محمّد الصدر قدس سره) ١: ١٨١، وكتاب الطهارة (من أبحاث السيّد الشهيد الصدر الأوّل قدس سره بقلم السيّد الشهيد الصدر الثاني قدس سره) ١: ٤٣٦.

أهل الإصلاح والهداية في ذلك المجتمع، فبادر لعلاج جملةٍ من المشاكل الاجتماعيّة بقلمه المبارك عن طريق كتاباته في المجلّات النجفيّة في ذلك الوقت، كمجلة الأضواء والنجف والإيمان، بالإضافة إلى الكتب التي أصدرها، ككتاب: الأُسرة في الإسلام، والقانون الإسلاميّ، وأشعة من عقائد الإمام المهديّ عليه السلام. وكذلك كان يلقي المحاضرات الإرشاديّة والبحوث العلميّة في المناسبات والمحافل. واستمرّ قدس سره على هذا المنوال إلى آخر يوم من حياته المعطاءة.

مرجعيته الصالحة وقيادة الأمة

لا نبالغ إذا قلنا: إنَّ سيّدنا الشهيد محمّد الصدر قدس سره ومرجعيّته أسّست حصناً رفيعاً للإسلام، وقلعةً شامخة للمسلمين، وملاذاً للأُمّة الإسلاميّة في العالم الإسلاميّ.

إنَّ المرجعيّة الدينيّة كانت على وشك الزوال والفناء في النجف الأشرف بسبب ظروف وأوضاع العراق الرهيبة، ووجود نظام جعل جُلّ همّه القضاء على شخصيّات المذهب الجعفريّ، ولم يبقَ منها إلّا صُبابة لا تروي من ظمأٍ، ولم يكن هناك من حَلٍّ حقيقيّ لمعالجة هذا الوضع المعقّد إلّا تصدّيه قدس سره؛ لأنّه أفضل علاجٍ ناجعٍ لأخطر قضيّةٍ عرفتْها المرجعيّة، برغم معرفته التامّة بما ستُقدم عليه السلطة الحاكمة في بغداد من إجراءات؛ إثر الإصلاحات التي قام بها في المجتمع العراقي، والحوزويّ على وجه الخصوص، والتي كانت تخرج منه على شكل تصريحاتٍ بين الحين والآخر.

كما أنَّ تصدّيه سدّ الطريق على المتطفّلين الذين يتربّصون الدوائر ويتحيّنون الفرص لاستغلال المناصب الربّانيّة لمصالحهم الخاصّة، حتّى لو



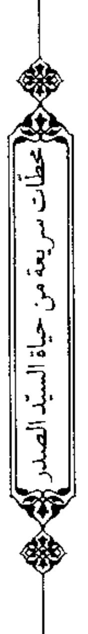
أدّى ذلك إلى الإضرار بالإسلام وقيمه السامية ورموزه المقدّسة.

ويجب أن نعرف أنَّ للمرجع الدينيّ مقوّماتٍ أساسيّة: منها: الأهليّة واللياقة والخبرة والقدرة على التفاعل مع الأُمّة بالمستوى الذي تترقّبه منه، فضلاً عن الاجتهاد الذي هو شرطٌ ضروريٌّ لعمليّة التصدّي. ولكن يجب أن نشير إلى أنَّ شرط الاجتهاد وحده ليس كافياً للتصدّي، بل يجب تَوفّر الشروط الأُخرى التي ذكرناها، ولعلّ عدم توفّرها يجعل تلك المرجعيّة وَبالاً على الإسلام والمسلمين. ولا نقول ذلك اعتباطاً؛ فإنَّ تأريخ المرجعيّة شاهد صدقٍ على صحّة ذلك؛ إذ إنَّ الساحة قد شهدت وعلى امتداد التاريخ نماذج كان عدم تصدّيهم أنفع للإسلام وأصلح للمسلمين.

كما كان تصدّيه‏قدس‌سره يمثّل امتداداً للخطّ المرجعيّ الصحيح الذي كان يجب أنْ يبقى وأنْ يستمرّ؛ لأنّه مدرسة خاصّة لا في العمق العلميّ - الفقهيّ والأُصولي- فقط، بل وفي الفهم الصحيح للمقام المرجعيّ وما يتطلّبه ويقتضيه.

إنَّ المرجعيّة بذاتها ليست هدفاً، وإنّما هي امتدادٌ لخطٍّ ومدرسة أهل البيت‏عليهم‌السلام، وما يجب أن يرشح عن هذا الفهم من أدوارٍ ومسؤوليّاتٍ كبيرةٍ وأهدافٍ ساميةٍ.

ولا نتخطّى الحقيقة إذا ما قلنا: إنَّ مرجعيّة سيّدنا الصدرقدس‌سره جاءت لتلبّي حاجات الأُمّة الدينيّة والعلميّة والثقافيّة؛ وذلك لأنّه‏قدس‌سره لم يكن فقيهاً محدود الأبعاد بما اعتاد العلماء دراسته والتعمّق فيه من علومٍ فقهيّة وأُصوليّة فقط، بل تميّز بالشمول والتنوّع في مختلف آفاق المعرفة التي تحتاجها الأُمّة، ولا سيّما تجاه الطبقة الرشيدة المثقفة.



إنَّ تصانيفهقُدِّسَ سِرُّهُ المتنوّعة تكشف لنا عن مدى اطّلاعه الواسع وثقافته العميقة من جانبٍ، وعن وعيه الكبير لحاجات الأُمّة الفكريّة والروحيّة والأخلاقيّة من جانبٍ آخر.

ولعلّ هذه الميزة التي اتّسمت بها شخصيّته العلميّة والقياديّة إحدى المحفّزات التي جعلت الأُمّة تلتفّ حوله وتسير تحت رايته.

وسعى شهيدنا السعيد في ظلّ تصدّيه للمرجعيّة إلى الحفاظ على الحوزة العلميّة في النجف الأشرف، بعد أن تفكّكت وآذنت بخطرٍ كبيرٍ على حاضرها ومستقبلها، فرمّم ما قد تلف، وبنى ما دعت الحاجة إليه، مع أنّه قد لا يدرك أهمّيّة عمله العظيم مَن لم يعاصر أو يعايش تلك الظروف والأوضاع القاسية، إلّا أنَّ ما قام بهقُدِّسَ سِرُّهُ وما بذله من جهودٍ جبّارةٍ لأجل حماية هذا الكيان الكبير وإمداده بالحياة والحيويّة كان مشهوداً وملحوظاً عند الجميع، فلولاه لَما كان للحوزة العلميّة في النجف الأشرف إلّا وجودٌ هامشيٌ لا قيمة له.

ومن خطواته الكبيرة إرسال العلماء والفضلاء إلى أنحاء العراق كافّة لممارسة مهامّهم الثقافيّة والتبليغيّة، وتلبية حاجات الأُمّة المختلفة. وعلى هذا الأساس شهدت الساحة حركةً لا سابقة لها في هذا المجال، رغم الصعاب الكبيرة التي تواجه المراجع في أمثال هذه الأُمور، إلّا أنّهقُدِّسَ سِرُّهُ استطاع - وبفترة زمنيّة قياسيّة - ملء شواغر وفراغاتٍ هائلةٍ لم يكن بالإمكان سدّها من دون تصدّيه للمرجعيّة.

كما نلحظ أنّهقُدِّسَ سِرُّهُ حرص على انتقاء النماذج الصالحة من العلماء والمبلّغين الذين يمثّلون القدوة الطيّبة؛ ليمثّلوا المرجعيّة الدينيّة بما تعنيه من قيمٍ وآمالٍ، وتجنّب إرسال مَن لا يتمتّع باللياقة، وحرص كلّ الحرص على

سلوك هذا المنهج رغم ما يسبّبه ذلك من مشاكل وإحراجاتٍ كبيرةٍ.

كما سعى إلى تربية طلّاب الحوزة العلميّة في النجف الأشرف تربيةً إسلاميّة نقيّة، موفّراً لهم كلّ ما هو ممكن من الأسباب المادّيّة والمعنويّة التي تتيح لهم جوّاً دراسيّاً مناسباً يمكنهم به تخطّي المراحل الدراسيّة بصورةٍ طبيعيّة.

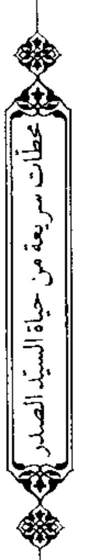
فبالإضافة إلى تلبية احتياجاتهم المادّيّة المختلفة كانت رعايته المعنويّة واضحةً ومشهودةً في كلّ شيء، ممّا يجعل طالب العلم يشعر بالاطمئنان الذي يحقّق له الراحة النفسيّة اللازمة لمواصلة طلب العلم والعمل به، ثُمَّ هداية الناس إلى ما يُرضي الله عزّ وجلّ. كما كان تجاوبه حقيقيّاً مع الأُمّة في تطلّعاتها وحاجاتها وإدراك مشاكلها، ولا سيّما فيما يرتبط بالطبقة المستضعفة منها، فسعى لتقديم كلّ ما هو متاحٌ له من إمكانات مادّيّة، فكان يساعد الفقراء والمحتاجين ويرعاهم بما عُرف عنه من خُلقٍ إسلاميّ رفيعٍ، فجذب قلوبهم دون عناءٍ، وشدّ إليه عقولهم دون مشقّةٍ، وهكذا تفعل مكارم الأخلاق التي هي سلاح الأنبياء والصالحين.

علاوةً على ذلك كلّه: فقد عمد إلى تأسيس المحاكم الشرعيّة في أغلب المدن الشيعيّة؛ من أجل رجوع الناس لها وفضّ نزاعاتهم بدل المحاكم الباطلة التابعة للدولة، وعلى أثر ذلك فقد كانت تتوافد الناس عليها بشكلٍ كبير، حتّى إنَّ العشائر - رغم عصبيّتهم- قد التزم عددٌ كبيرٌ منهم بما وضعه السيّدقدس‌سره من قانونٍ عشائريٍّ طبقاً لمذهب أهل البيتعليهم‌السلام.

ثُمَّ دعا من على منبر الجمعة المبارك في مسجد الكوفة: كلّ الفئات المنحرفة إلى التوبة عنده، سواء كانوا وزراء أو مدراء أو موظّفين أو عمّالاً،

وكذا دعا أهل السنّة للتكاتف والالتزام والتوحّد ضدّ العدوّ المشترك، ودعا الغجر إلى التوبة والإنابة، وكذا أهل اللّهو والغناء والممثّلين.

والحقّ أنّه لا يُنكر استجابة كلّ الأطراف لدعوته بنسبٍ متفاوتة، وقد جاءوا عنده وقدّموا توبتهم. بالإضافة إلى جملةٍ معتدٍّ بها من المسيح والصابئة قد أسلموا على يديه، وأصبحوا من أخيار الناس في المجتمع العراقيّ، ومنهم مَن نعرفه شخصيّاً.



شعره

ذكر قدس سره في مقدّمة ديوانه ما نصّه: قضيت حوالي أربعين عاماً من عمري[1] وأنا ناظمٌ للشعر، ولا أقول شاعر؛ لأنَّ الشاعر أحد شخصين: إمّا من يكرّس اهتمامه بشعره ويجعله الأهمَّ في حياته، وإمّا ذاك الذي اتّخذه صبغته الاجتماعية، يشارك في المدح والذمّ، وفي مختلف المناسبات، أو يطبع الدواوين. ولم أكن طيلة حياتي شيئاً من هذا القبيل، ولا طرفة عينٍ بعون ربّي العزيز الحميد.

وإنّما بدأ شعري منذ صباي لما أحسستُه من القابلية على ذلك من ناحية، ولما كنت أقرأه وألتهمه من مختلف أجناس الكتب - لو صحّ التعبير - بما فيها دواوين الشعراء من ناحيةٍ أُخرى، غير أنّ الهدف الأسمى ليس هو ذلك، ولا ينبغي أن يكون، وإنّما هو مجرّد طريقٍ وتمهيدٍ للهدف ليس إلّا ...

يتّضح من تواريخ الشعر أنّني بدأتُ نظم الشعر بالمستوى المعقول، وأنا في حوالي الاثني عشر عاماً من عمري، وبقيتُ على ذلك إلى حوالي الخمسين من عمري. والفرد بطبيعة الحال يمرّ في هذه الدنيا المتلاطمة بمختلف

(١) كان ذلك في تاريخ: ٢٢/ ربيع الأوّل/ ١٤١٩هـ، أي: في نفس عام شهادته قدس سره.

الحالات عقليّاً ونفسياً وعاطفياً واقتصادياً واجتماعياً، فمنها الحسن ومنها الرديء، ومنها المفرح ومنها المحزن، ومنها ما يتعلّق بالذات ومنها ما يتعلّق بالله سبحانه وتعالى، ومنها ما يتعلّق بالأُسرة، ومنها ما يتعلّق بالمجتمع، ومنها ما له مناسبة، ومنها ما ليس له مناسبة، وهكذا.

وقد فضَّلتُ أن يكون الترتيبُ التاريخيُّ هو المكفولَ في هذا الديوان، فهو أفضل من ترتيباتٍ أُخرى؛ لأنه سيكشف للقارئ تطوّرَ شعري من ناحية، والأزماتِ النفسية والاجتماعية التي مرّتْ بي، وكان لها صدىً في شعري من ناحيةٍ أُخرى. وحسْبه أن يحدِّد تاريخ بعض تلك الأزمات ليعرف أنَّ الحديث عن أيٍّ منها في هذه القصيدة أو تلك...

هذا، وقد أثبتُّ الشعر على ما فيه من بعض الأخطاء النحوية القليلة، أو من بعض الزحافات في الوزن أحياناً؛ لأنَّه إنَّما يمثّل مرحلةً من مراحل حياتي ووجودي ليس إلَّا. وممّا ينبغي للقارئ الالتفات إليه أنّ الوقف بالسكون على المنصوب، دون الوقف على الألف، أمرٌ يكاد يكون ملتزماً به في هذا الشعر كلّه.

هذا، وبالرغم من أنّي لم أبلغ - كما هو واضحٌ من هذا الديوان- مصاف الشعراء العظماء، إلاّ أنه لا يبعد أن يكون بعض شعري جيّداً جدّاً وملفتاً للنظر مادّةً ومضموناً وأدباً. وإنَّما يقاس الفرد بأجود شعره...

وقد أسميته (مجموعة أشعار الحياة) للإشارة إلى أمرين:

أحدهما: أنّه يمثّل كلَّ ما قلتُه من شعر، ومن البعيد جدّاً حصول غيره في الحاضر والمستقبل. ولئن كان ديوان الشاعر أو كمّية شعره لا يمكن ضبطها ما دام حيّاً؛ لاحتمال الزيادة فيه، فإنَّ شعري أمكن ضبطه لتعذُّر قولي للشعر فيما يلي من الزمان.

إذن، فهذه المجموعة هي كلُّ ما قلتُه في حياتي. ومن هنا صحّ عليها أنّها (مجموعة أشعار الحياة).

ثانيهما: أنّني تعمّدت الابتعاد عن العنوان الأدبي البرّاق لكي يمثّل حياتي الفعلية التي يسيطر عليها الجدّ والعمل، وتكاد تخلو من الوهم والخيال. ولو استلزم ذلك إعطاء قيمة أضعف لهذه المجموعة؛ لأنّني إنّما نشرتها لمجرّد الاطلاع لا للمفاخرة والابتهاج؛ لأنّني الآن وبالتأكيد في حال مختلفةٍ كلّ الاختلاف دنيويّاً وأُخرويّاً[1].

ومن جملة أشعاره الثمينة:

حسبي الله[2]

عَلَى اللهِ تَدْبِيرُ الْأُمُورِ وَلَا أَرَى ... يَداً غَيْرَ أَيْدِيهِ تُدِيرُ شُؤُونَنَا

فَإِنْ كَانَتِ الدُّنيَا رَخَاءً وَفُسْحَةً ... وَفَضْلاً مِنَ الْبَارِي يُقِرُّ عُيُونَنَا

فَفَضْلٌ لهُ يَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ دَائِماً ... مَدَى الدَّهْرِ إنْ كَانَتْ لَدَيْنَا عُقُولُنَا

وَإِنْ كَانَتِ الدُّنيَا شَقَاءً وَذِلَّةً ... وَآلَامَ عَيْشٍ تَسْتَذِيبُ قُلُوبَنَا

فَخَالِقُنَا أَدْرَى بِمَا نَسْتَحِقُّهُ ... وَلَمْ يَكُ مُخْتَاراً لَنَا مَا يُشِينُنَا

وَمَادَامَ رَبِّي عَالِماً بِالَّذِي أَرَى ... فَلَسْتُ أَرَى فِي الْأَمْرِ مَا قَدْ يُضِيرُنَا[3]

وَرَحْمَةُ رَبِّي خَيْرُ حِرْزٍ وَمَوْئِلٍ ... وخَيْرُ شَفِيعٍ عِنْدَ ذَنْبٍ يُدِينُنا

فَلَا تَيْأَسَنْ مِنْ فَضْلِ رَبِّي وَعَفْوِهِ ... فَلَيْسَ سِوَاهُ مِنْ رَحِيمٍ يُعِينُنَا

---

(١) مجموعة أشعار الحياة: ١١ - ١٥، المقدّمة.

(٢) مجموعة أشعار الحياة: ٣٠.

(٣) هَوَّنَ ما نَزَلَ بي أنّه بعين الله (منهﭬ).

بركات الولاية[1]

(وِلَايَتِي لِأَمِيرِ النَّحْلِ تَكْفِينِي ... عِنْدَ الْمَمَاتِ وَتَغْسِيلِي وَتَكْفِينِي)

(وَطِينَتِي عُجِنَتْ مِنْ قَبْلِ تَكْوِينِي ... بِحُبِّ حَيْدَرَ كَيْفَ النَّارُ تَكْوِينِي)

وَإِنْ أَكُنْ مُذْنِباً فِي جَنْبِ سَاحَتِهِ ... فَحُبُّهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ يُعْفِينِي

وإِنْ أَكُنْ قَاصِراً فِي شُكْرِ نِعْمَتِهِ ... فَعَطْفُهُ مِنْ ثَوَابِ اللهِ يُعْطِينِي

وَإِنْ أَكُنْ عَاطِشاً فِي يَوْمِ نِقْمَتِهِ ... فَلُطْفُهُ مِنْ لَذِيذِ الْمَاءِ يُرْوِينِي

وَإِنْ أَكُنْ خَائِفاً فِي يَوْمِ مِحْنَتِهِ ... فَنُورُهُ مِنْ عَظِيمِ الْهَوْلِ يُنْجِينِي

وَإِنْ أَكُنْ وَاطِئاً مِمَّا جَنَتْهُ يَدِي ... فَمَجْدُهُ فِي مَرَاقِي الْعِزِّ يُعْلِينِي

وَإِنْ أَكُنْ خَالِياً مِنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ ... عَطَاؤُهُ مِنْ عَظِيمِ الْبِرِّ يُغْنِينِي

وَإِنْ أَكُنْ وَاقِفاً لَا أَهْتَدِي سُبُلاً ... فَكَفُّهُ فِي بِحَارِ النُّورِ تُجْرِينِي

وَإِنْ أَكُنْ آسِفاً مِنْ فَقْدِ طَاعَتِهِ ... فَذِكْرُهُ بِجَمِيلِ الذِّكْرِ يُسْلِينِي

فَحُبُّهُ مِنْ عَذَابِ النَّارِ يُنْجِينِي ... وَنُورُهُ لِكَمَالِ الْحَقِّ يَهْدِينِي

وَذِكْرُهُ مَخْرَجٌ مِنْ كُلِّ مَنْقَصَةٍ ... وَوَجْهُهُ بِفَضَاءِ النُّورِ يُفْنِينِي

كَيْفَ السُّلُوُّ إِذَنْ، مِنْ دُونِ وُصْلَتِهِ ... وَهَلْ سِوَاهُ عَنِ الدُّنْيَا يُسَلِّينِي

وَهْوَ الَّذِي مِنْ عَظِيمِ الْكُرْبِ يُخْرِجُنِي ... وَهْوَ الَّذِي فِي رِحَابِ الْحَقِّ يُؤْوِينِي

وَهْوَ الَّذِي ذِكْرُهُ نُورٌ لِذَاكِرِهِ ... وَحُبُّهُ الْمِسْكُ يَجْرِي فِي شَرَايِينِي

مَنَّ الْإِلَهُ بِأَلْطَافٍ مُعَمَّقَةٍ ... وَإِنَّ أَعْظَمَهَا فِي أَصْلِ تَكْوِينِي

وِلَايَتِي لِأَمِيرِ النَّحْلِ أَذْخُرُهَا ... لِوَحْدَتِي فَهْيَ تَرْتِيبِي وَتَمْرِينِي

فَهْوَ الْمَفَازُ لَدَى الرَّبِّ الْعَظِيمِ غَداً ... فَكَيْفَ أَشْقَى وَكَيْفَ النَّارُ تُخْزِينِي



(١) مجموعة أشعار الحياة: ١٧٤ - ١٧٥.

حبّ الولاية[1]

إلَـهِي أَعْطِـنِي مِـنْ حُـبِّ مَـوْلىً عَظِـيمٍ كَيْ أَنَـالَ بِـهِ الْوِلَايَـةْ (الطاعـــة)

فَـإِنِّي قَـدْ وُلِدْتُ بِـأَرْضِ قُـدْسٍ وَوُدِّي أَنْ أُكَفَّـنَ فِي الْوِلَايَـة (البـــلدة)

عَـسَى رَبِّي إِذَا مَـا شَـاءَ نَفْـعِي بِرَحْمَتِـهِ يُبَـارِكُ لِي الْوِلَايَـة (ولايـــتي)

أُكَـرِّرُ حُبَّـهُ مَـا دُمْـتُ حَيَّـاً فَـلَا يَقْطَـعْ بِرَحْمَتِـهِ وِلَايَـهْ (تكـــرار)

تشطير لأبيات في رثاء الحسين عليه السلام[2]

(جَـاءُوا بِرَأْسِـكَ يَـا بْـنَ بِنْـتِ مُحَمَّـدٍ) مِـنْ فَـوْقِ رُمْـحٍ يَقْـرَأُ التَّـنْزِيلَا

قَـدْ كَانَ رُغْـمَ سُـمُوِّهِ وَعَطَائِـهِ (مُـتَزَمِّلاً بِدِمَائِـهِ تَـزْمِيلَا)

(قَتَلُـوكَ عَطْـشَاناً وَلَـمْ يَتَرَقَّبُـوا) غَـضَبَ الْإِلَهِ يُـصَبُّ وَالتَّنْكِـيلَا

لَـمْ يَعْرِفُـوا الـشَّأْنَ الْعَظِـيمَ وَأَسْقَطُوا (فِي قَتْلِـكَ التَّنْزِيـلَ وَالتَّـأْوِيلَا)

(وَكَأَنَّمَـا بِـكَ يَـا بْـنَ بِنَـتِ مُحَمَّـدٍ) قَتَلُـوا الْأَئِمَّـةَ وَالْمَـلَاكَ قَبِـيلَا

بَـلْ إِنَّهُـمْ بِنَكِـيرِ فِعْلِهُـمْ ضُـحىً (قَتَلُـوا جَهَـاراً عَامِـدِينَ رَسُـولَا)

(وَيُكَـبِّرونَ بِـأَنْ قُتِلْـتَ وإِنَّمَـا) عَـصَوُا الْكِتَـابَ وَقَـدَّمُوا التَّـسْوِيلَا

هَـلْ يَـدَّعِي الدِّيـنَ الْحَنِيـفَ جَمَاعَـةٌ (قَتَلُـوا بِـكَ التَّكْبِـيرَ وَالتَّهْلِـيلَا)

تشطير أبيات للحلاج قالها وهو على المقصلة[3]

(مَـــالِي جُفِيْـــتُ وَكُنْـــتُ لَا أُجْـــفَى)

وَقَطَعْـــتَ عَـــنِّي الْمَنْهَـــلَ الْأَصْـــفَى

---

(١) مجموعة أشعار الحياة: ١٧٥.

(٢) مجموعة أشعار الحياة: ١٩٢.

(٣) مجموعة أشعار الحياة: ٢٤٧.

وَهَجَــــرْتَنِي وَالـــــشَّوْقُ فِي كَبَــــدِي
(وَدَلَائِـــــلُ الْهِجْـــــرَانِ لَا تَخْــــفَى)

(وَأَرَاكَ تَمْــــــزُجُنِي وَتَـــــــشْرَبُنِي)
وَأُرِيــــــدُ مِنْــــكَ الْمَــــشْرَبَ الْأَوْفَى
حَاشَـــــاكَ أَنْ تَجْفُــــو بِعَادَتِنَـــــا
(وَلَقَـــدْ عَهِــــدْتُكَ شَــــارِبِي صِرْفَــــا)

وقال في حقِّ والده الحجّة المقدّس السيّد محمّد صادق الصدر قدس سره[1]:

أَبِي يَـا عَظِيمَ الْمَجْـدِ وَالْمَجْـدُ مُقْبِـلُ	وَمَـنْ هُــوَ فِي أُفْــقِ الْمَــكَارِمِ أَوَّلُ
وَيا غُرَّةَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ فِي الضُّحَى	وَيَـا بَـدْرَ تَـمٍّ لِلْعُـلَا لَـيْسَ يَأْفُـلُ
بِـكَ افْتَخَـرَ الْمَجْـدُ الْعَظِيمُ مَهَابَـةً	فَفَـضْلُكَ مِـن جَـمِّ الْفَـضَائِلِ أَفْـضَلُ
وَفَـاخَرَ فِيـكَ الْعَـصْرُ سَابِقَ عَهْـدِهِ	وَآتِيــهِ. وَالْفَخْــرُ بِــالْحَقِّ يَجْمُــلُ
سَطَعْتَ فَحَوَّلْـتَ الدُّجَى بَـارِقَ الضُّحَى	بِـأَنْوَارِ قُـدْسٍ بَـيْنَ جَنْبَيْـكَ تَحْمِـلُ
وَأَذْعَنَـتِ الْأَيَّـامُ وَالدَّهْـرُ والْـوَرَى	بِمَجْـدٍ لَهُ هَـامُ الـسَّمَاوَاتِ مَـنْزِلُ
سَمَوْتَ عُلاً مَا الْفَرْقَـدَانِ وَمَـا السُّهَا	وَأَخْفِـضْ بِهَـا إِنْ قَـارَنَ الْمُتَأَمِّـلُ
سَـبَقْتَ الْـوَرَى شَـأْواً وَعِـزّاً وَسُـؤْدُداً	وَصَـافَحْتَ آفَاقـاً لَهَـا لَـيْس تُؤْمَـلُ
وَلا غَـرْوَ يَـا لَيْـثَ الْمَـكَارِمِ وَالْعُـلَا	وَخَـيْرَ بَـنِي الدُّنْيَـا لَـوِ الْمَـرْءُ يَعْقِـلُ
شَأَوْتَ بِقُدْسِ النَّفْسِ وَالطُّهْـرِ وَالْعُـلَا	إِلَى مَوْقِــفٍ يَكْبُــو بِــهِ الْمُتَعَجِّــلُ
إِلَى اللهِ فِي نُــورِ الْهِدَايَــةِ خَــالِدٌ	وَفِي وَمَـضَاتِ الـسَّرْمَدِيَّةِ مِـشْعَلُ
لِـكَيْ تَحْـرِقَ النَّفْـسَ الْعَظِيمَـةَ بِـالتُّقَى	وَقَلْبـاً لِرَفْـعِ الْحَـقِّ وَالْخَـيْرِ يَعْمَـلُ
فَلَـوْ وُزِّعَ الْخَـيْرُ الَّذِي أَنْـتَ أَهْلُـهُ	عَلَى النَّـاسِ قَـدْ نَـالُوا الَّذِي هُـوَ أَفْـضَلُ

(1) مجموعة أشعار الحياة: ٩٧- ١٠١.

وَلَوْ قَبَسُوا التَّقْوَى إِذَنْ، لَرَأَيْتَهُمْ بِمَسْجِدِهِمْ صَلُّوا وَصَامُوا وَأَقْبَلُوا

وَلَو وُزِّعَتْ آيَاتُ زُهْدِكَ بَيْنَهُمْ لَمَصُّوا الْحَصَى حُبّاً بِهِ وَتَبَتَّلُوا

فَقَدْ فُزْتَ بِالْقِدْحِ الْمُعَلَّى مَكَارِماً وَأَعْزِزْ بِهِ مَجْداً مِنَ اللهِ يَنْزِلُ

*** ***

أَبِي لَا أَرَى فِكْراً وَقَلْباً وَجَانِحاً لَدَيَّ بِغَيْرِ الْحُبِّ نَحْوَكَ يَحْفِلُ

تَدانَيْتَ مِنِّي قَابَ قَوْسَيْنِ فِي الْحَشَا وَلَيْسَ بِأَعْصَابِي لِغَيْرِكَ مَنْزِلُ

تَفَتَّحَ قَلْبِي حِينَ نَوَّرْتَ قَلْبَهُ بِيَوْمِ التَّدَانِي وَالْمُحِبُّونَ جُفَّلُ

وَلَا غَرْوَ أَنِّي مِنْكَ قَلْبٌ وقَالَبٌ كَمَا أَنْتَ مِنِّي وَحْدَةٌ لَيْسَ تُفْصَلُ

فَمَا أَرْوَعَ الْحُبَّ الْعَظِيمَ بِجَانِحِي لِشَخْصِكَ مَا أَلْوَى بِأُفْقِي مَفْصِلُ

زَرَعْتَ بِقَلْبِي الطُّهْرَ وَالنُّورَ وَالصَّفَا رَيَاحِينَ مَا عَنْهَا الرَّيَاحِينُ تَفْضُلُ

تَعَهَّدْتَنِي بِالسَّقْيِ وَالرَّعْيِ سَاهِراً بِجِدِّ دَؤُوبٍ مُخْلِصٍ .. تَتَأَمَّلُ

تَخَيَّرْتَ لِي خَيْرَ الدُّرُوبِ وَسُقْتَنِي وَلَوْ وَجَدَتْ كَفَّاكَ مَا هُوَ أَعْدَلُ...

تَخَيَّرتَ لِي الْحَقَّ الصَّرِيحَ مُنَوَّراً وَعَرَّفْتَنِي فِي الْكَوْنِ مَا كُنْتُ أَجْهَلُ

وَذَلَّلْتَ صَعْبَ النَّائِبَاتِ لِصَالِحِي وَمَا كُنْتَ فِي ضِيقِ الشَّدَائِدِ تَحْفِلُ

مَشَيْتَ قَوِيّاً صَامِداً مُتَوَثِّباً بِقَلْبٍ عَلَى سُوءِ الرُّؤَى لَيْسَ يَجْفِلُ

وَعَبَّدْتَ دَرْبِي بِالصَّلَاحِ وَبِالتُّقَى وَبِالْخَيْرِ وَالإِحْسَانِ، وَالْخَيْرُ يُؤْمَلُ

وَإِنِّي وَإِنْ لَمْ أَبْلُغِ الْقِمَّةَ الَّتِي تُمَثِّلُ أَهْدَافِي الَّتِي أَنَا آمُلُ

وَلَا زِلْتُ مَحْفُوفاً بِنَقْصٍ وَرِيبَةٍ وَلَا زِلْتُ أَجْزَاءً مِنَ الْكَوْنِ أجْهَلُ

وَلَمْ أَرْتَفِعْ شَيْئاً لِمَا هُوَ بُغْيَتِي وَلَمْ يَكْتَنِفْنِي فِي الْحَقِيقَةِ مَنْزِلُ

وَلَكِنَّ عُذْرِي أَنَّنِي لَسْتُ وَاصِلاً لِشَأْوِكَ فِي مَجْدٍ لَهُ الْقُدْسُ مَعْقِلُ

وَمَهْمَا أَرَى عِنْدِي مِنَ الْفَضْلِ وَالْهُدَى فَمِنْ نُورِكَ الزَّاكِي بِهِ الفِكْرُ يَشْعَلُ

وَمَهْمَا أَرَى مِنْ خِسَّةٍ وَدَنَاءَةٍ بِطَبْعِي فَمِنْ نَفْسِي الَّتِي تَتَمَلْمَلُ

فَلَسْتَ لِنَفْسِي غَيْرَ مَشْعَلِ دَرْبِهَا وَأَبْوَابِ نُورٍ فَوْقَ مَا أَتَخَيَّلُ

وَلَنْ يُغْمَطَ الْفَضْلُ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ... بِجُهْدِكَ إِذْ تَبْنِي الْعُلَا وَالتَّفَضُّلُ
فَذَاكَ بِلُبِّ الْقَلْبِ أَضْحَى مَقَامُهُ ... وَمَنْ دَمُهُ الْفَوَّارُ يَحْيَا وَيَعْمَلُ

*** ***

أَبِي قَدْ غَمَطْنَا أَيَادِيكَ حَقَّهَا ... وَلَمْ نَتَمَيَّزْ حُسْنَ مَا هُوَ أَجْمَلُ
هَجَرْنَا مَزَايَاكَ الْعِظَامَ وَفَضْلَهَا ... وَأَشْغَلَنَا عَنْكَ الَّذِي هُوَ يُشغِلُ
جِهَاداً وَجُهْداً وَابْتِلَاءً وَمِحْنَةً ... تَحَمَّلْتَهَا وَالصَّبْرُ فِيهِنَّ يَجْمُلُ
وَجَابَهْتَ أَنْوَاءَ الزَّمَانِ عَظِيمَةً ... وَعَبَّدْتَ دَرْباً بِالْمَكَائِدِ يَحْفِلُ
فَمَا أَثَّرَتْ فِينَا الْجُهُودُ وَرَاعَنَا ... بِأَنَّكَ مِنْ طُولِ الشَّدَائِدِ تَذْبُلُ
لَقَدْ لَعِبَتْ فِينَا الْخِيَانَةُ دَوْرَهَا ... وَرَانَ عَلَى الْأَيَّامِ لِلشَّرِّ مَحْمَلُ
وَلَمْ نَتَفَهَّمْ مِن جِهَادِكَ مَوْقِفاً ... كَأَنَّ لَنَا قَلْباً مِنَ الصَّخْرِ يَعْمَلُ
تَحَكَّمَ فِينَا الْجَهْلُ لَا عَنْ بَلَادَةٍ ... وَلَكِنْ تَسَامَحْنَا بِمَا أَنْتَ تَبْذُلُ
وَمَا قَدْ أَجَبْنَا الْفَضْلَ حَقَّ جَوَابِهِ ... عَيِينَا .. وَبَعْضُ الْخَيْرِ بِالنُّطْقِ يَحْصُلُ
نَسِينَا جِهَادَ التَّضْحِيَاتِ وَعُنْفَهُ ... وَكَيْفَ بِتَيَّارَاتِهِ الْقَلْبُ يُؤْكَلُ
وَهَلَّا شَكَرْنَا سَعْيَكَ السَّابِغَ الَّذِي ... يُعَادِلُ ثِقْلَ الْكَوْنِ بَلْ هُوَ أَثْقَلُ
وَلَنْ يَبْلُغَ الشُّكْرُ الَّذِي نَسْتَطِيعُهُ ... لِبَعْضِ الَّذِي تَسْعَى إِلَيْهِ وَتَعْمَلُ
وَلَوْ خُصِّصَتْ كُلُّ الْحَيَاةِ لِشُكْرِهَا ... ثَنَاءً وَحَمْداً دَائِماً لَيْسَ نَغْفَلُ
لَمَا بَلَغَتْ مِعْشَارَ مَا أَنْتَ فَاعِلٌ ... وَكُنْتَ لَهُ يَوْمَ الْكَرِيهَةِ أَعْجَلُ
لَقَدْ زُرِعَتْ آيَاتُ فَضْلِكَ فِي الضُّحَى ... وَعَمَّتْ فَكَانَتْ لِلْبَرِيَّةِ تَشْمَلُ
وَزَادَ عَلَى عَدِّ الْحِسَابِ عَدِيدُهَا ... وَأَفْلَجَ عَنْ تَصوِيرِهَا الْمُتَخَيِّلُ
فَلَا غَرْوَ إِنْ ضَاقَ الْبَيَانُ بِمَنْطِقٍ ... وَلَا عَجَبٌ لَوْ أَقْصَرَ الْحَمْدَ مِقْوَلُ
فَحَسْبُكَ مِنَّا كُلُّ مَا نَسْتَطِيعُهُ ... بِمَا فِي رُبَى أَكْبَادِنَا يَتَغَلْغَلُ
مِنَ الْحُبِّ وَالْإِخْلَاصِ وَالْجَمْرَةِ الَّتِي ... تُضِيءُ سُفُوحَ الْقَلْبِ وَالْقَلْبُ مُقْفَلُ
وَتَقْدِيرُنا لِلْجُهْدِ وَالْحُبِّ وَالْعَنَا ... وَشُكْرَانُنَا دَوْماً.. لَعَلَّكَ تَقْبَلُ

أَبِي قَـدْ تَـرَى أَنِّي أَتَيْـتُ مُكَفِّـراً ... قَـصِيداً بِـهِ لُـبُّ الْقَرِيحَـةِ يَعْمَـلُ

فَـإِنِّي قَـدْ فَرَّقْـتُ شِـعْرِيَ فِي الْـوَرَى ... بِمَنْ لَيْسَ يَعْلُـو عَـنْ عُـلَاك وَيَفْـضُلُ

فَـشَرَّفْتُ شِـعْرِي بِالْمَـدِيحِ لَعَلَّـنِي ... أَقُـومُ بِـبَعْضِ الْوَاجِبَـاتِ وَأَعْمَـلُ

فَـذِكْرُكَ بَعْـضٌ مِـنْ مَـزِيجِ عَـوَاطِفِي ... وَنُـورُكَ مِـنْ شَـمِّ الرَّيَـاحِينِ أَجْمَـلُ

تَقَبَّـلْ إِذَنْ.. لَا شَـكَّ أَنَّـكَ فَاعِـلٌ ... فَعَطْفُـكَ أَسْـمَى مِـنْ نَـشِيدِي وأَجْـزَلُ

وَعُـذْراً إِذَا قَـصَّرْتُ فِي شَرْحِ مَـوْقِفِي ... فَفَـضْلُكَ يَنْبُـو عَنْـه شِـعْرٌ وَمِقْـوَلُ

وَدُمْ سَـابِغاً بِـالْعِزِّ دَوْمـاً مُؤَيَّـداً ... عَلَى جَنَبَـاتِ الْمَجْـدِ جَـوٌّ مُظَلَّـلُ

لِتَرْفَـعَ مِـنْ آيِ الْكِتَـابِ وَدِينِـهِ ... تُحَـصِّلُ فِي الْإِسْـلامِ مَـا لَـيْسَ يَحْـصُلُ

فَقَـدْ صَـانَكَ الرَّحمَـانُ ذُخْـراً وَمَـوْئِلاً ... فَأَنْتَ الرَّجَـا إِنْ حَـلَّ خَطْـبٌ وَمُعْـضِلُ

(وَلَا زِلْـتَ مَوْفُـورَ الْكَرَامَـةِ سَـالِماً) ... لِقَطْـفِ ثِمَـارِ العِلْـمِ ذُخْـرٌ مُؤَمَّـلُ

وَلَا زَالَ لُطْـفُ اللهِ يَـرْعَاك دَائِمـاً ... بِرَحْمَتِـهِ وَاللُّطْـفُ لِلْخَلْـقِ يَـشْمَلُ

وَوَفَّقَـنِي رَبِّي قِيَامَـاً بِـوَاجِبِي ... تِجَاهَـكَ .. آلَاءٌ بِهَـا لَـيْسَ يَبْخَـلُ

لَعَـلِّي أُوَفِّي مِـنْ ضَـمِيرِيَ حَقَّـهُ ... وَيَغْـدُو سُـلُوكِي عِنْـدَ نَفْـسِيَ أَعْـدَلُ

وَلَكِـنَّ ذَا شَـأْوٌ مِـنَ الْحَـقِّ بَـالِغٌ ... وَيَحْتَـاجُ عُمْـراً بِالْمَتَاعِـبِ يَحْفِـلُ

إِذَا كُنْـتُ أَرْجُـو أَن أُؤَدِّيَ بَعْـضَ مَـا ... عَمِلْـتَ.. وَأَنْـتَ الْمُـنْعِمُ الْمُتَفَـضِّلُ

وَلَكِـنَّ تَوْفِيـقَ الْإِلَهِ إِذَا أَتَى ... يُخَفِّـفُ مِـن غُلْـوَاءِ مَـا أَنَـا أَعْمَـلُ

فَـدُمْ سَـابِغَ النَّعْمَـاءِ بِالْبِـشْرِ وَالْهَنَـا ... بِـوَارِفِ عَـيْشٍ شَمْـسُهُ لَـيْسَ تَطْفَـلُ

وَفُـزْ بِلِـوَاءِ الْعِـزِّ بَنْـداً مُرَفْرِفـاً ... لَهُ فِي رُبَى الْعَلْيَـاءِ مَجْـدٌ مُؤَمَّـلُ

فَهَـذَا نَـشِيدِي، بَـلْ عُـصَارَةُ فِكْـرَتِي ... أُقَدِّمُـهُ طَـوْعاً .. لَعَلَّـكَ تَقْبَـلُ

وقال أيضاً في رثاء والده قدس سره[1]:

بـالحُزْنِ دَوْمـاً وَالْأَسَى ... قَـدْ عَاشَ قَلْـبُ والِهُ

(١) مجموعة أشعار الحياة: ٢٣٠.

خَطْبٌ دَهَى الدِّينَ وَقَدْ ... ذَوَتْ لَهُ الْحَقَائِقْ
بِهِ الْمُعَزَّى الْمُصْطَفَى ... مُحَمَّدٌ وَآلُهُ
وَبِالَّذِي دَهَاهُمُ ... يَكُونُ صَبْرٌ رَائِقْ
وَالْقَلْبُ بِالْخَطْبِ أَسِيٌّ ... يَصْرُخُ أَرَّخْتُ لَهُ
هَذَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ... يَنْعَى الْإِمَامَ الصَّادِقْ

وله في رثاء عمّه السيّد محمّد جعفر الصدر قدس سره:

بِالْحُزْنِ جَاءَ نَعْيُهُ ... يَنْعَاهُ رُزْءاً لِلْوَرَى
مَنْ زَالَ عَنْكُمْ لِلْعُلَى ... فِي يَوْمِ ضَمَّتْهُ الثَّرَى
قَدْ كَانَ ثَبْتاً صَامِداً ... فِي كُلِّ رُزْءٍ قَدْ جَرَى
مُتَقَلِّداً أَفْكَارَهُ ... مُسْتَحْكِماً مُتَبَحِّرَا
يَسَعُ الْأَنَامَ بِصَدْرِهِ ... وَبِجُبِّهِ كُلَّ الْقُرَى
لَا غَرْوَ إِنْ كَانَ السَّعَا ... دَةَ وَالْهَنَاءَ لِمَنْ يَرَى
وَالصَّبْرَ وَالْإِقْدَامَ وَالْـ ... ـكَفَّ الَّتِي لَنْ تُبْتَرَا
حَتَّى إِذَا جَاءَ النَّعِيُّ ... بِشَجْوِهِ مُتَعَثِّرَا
قُلْتُ: اسْتَفِقْ، مَنْ تَبْتَغِي؟ ... عَلَّ الْمُقَدَّرَ قَدْ جَرَى
فَأَجَابَنِي: سَهْمُ الْمَنِيَّةِ ... بِالْمُبَجَّلِ قَدْ سَرَى
مُتَوَجِّهاً فِي قَصْدِهِ ... أَرِّخْ: لِيَبْغِي جَعْفَرَا

وله في رثاء أُستاذه آية الله السيّد إسماعيل الصدر قدس سره[1]:

يَا رَائِدَ الدِّينِ الْحَنِيفِ وَمَعْقِلَ الْـ ... ـوَعْيِ الْكَبِيرِ وَقَائِدَ الْإِقْدَامِ
وَمُجَاهِداً فِي اللهِ قَلَّ نَظِيرُهُ ... بِصَرَاحَةٍ وَرَجَاحَةٍ وَتَسَامِي
للهِ أَيُّ حَرَارَةٍ خَلَّفْتَهَا ... فِي قَلْبِ كُلِّ فَتىً وَأَيُّ أُوَامِ

(١) مجموعة أشعر الحياة: ١٤٥ – ١٤٦.

تِلْكَ الْقُلُوبُ الصَّافِيَاتُ غَذَوْتَهَا ... نَهْلَ التُّقَى وَغَزَارَةَ الْإِسْلَامِ

أَعْطَيْتَهَا الْفِكْرَ الْكَبِيرَ هِدَايَةً ... وَرَفَعْتَهَا عَنْ رِبْقَةِ الْآثَامِ

وَوَهَبْتَهَا عُمْراً لِيَأْخُذَ حَقْلَهَا ... عُمْراً يَطُولُ عَلَى مَدَى الْأَيَّامِ

فَإِذَا اسْتَوَتْ حَلَقَاتُهَا وَتَرَعْرَعَتْ ... وَمَشَتْ بِنُورِكَ ضِدَّ أَيِّ صِدَامِ

فَارَقْتَهَا فَغَدَا الْجِهَادُ مُصَوَّحاً ... مِنْ دِقَّةٍ وَمَهَارَةٍ وَنِظَامِ

فَعُقُولُهَا مِنْ فَرْطِ نُورِكَ فِي الضِّيَا ... وَقُلُوبُهَا مِنْ وَجْدِهَا بِظَلَامِ

خَسِرتْ أَباً يَعْلُو بِثَاقِبِ وَعْيِهَا ... مِنْ وَهْدَةٍ نَحْوَ الْمَحَلِّ السَّامِي

وَمُجَاهِداً يَهَبُ انْدِفَاعَ جِهَادِهِ ... وَثِمَارَهُ فِي صَالِحِ الْأَقْوَامِ

خَسِئَ التُّرَابُ وَكُلُّ قَلْبٍ عَامِرٌ ... بِكَ، وَالْهُدَى فِي يَقْظَةٍ وَمَنَامِ

وَلْيَخْسَأِ الدَّهْرُ الْخَؤُونُ قَضِيَّتَهُ ... فِي نَكْبَةٍ وَتَأَوُّهٍ وَضِرَامِ

فَلَأَنْتَ نَجْمُ الْمَجْدِ خُلِّدَ فِي الْعُلَا ... لَا يَنْطَفِي بِصَرَامَةِ الْأَوْهَامِ

عِنْدَ الَّذِي طُلْتَ الزَّمَانَ بِنُورِهِ ... وَلِأَجْلِهِ اسْتَهْوَنْتَ كُلَّ صِدَامِ

وَمَشَيْتَ فِي دَرْبِ الْإِلَهِ بِهِمَّةٍ ... فَوَصَلْتَهُ بِعَدَالَةٍ وَسَلَامِ

فَالْقُدْسُ فِي مَغْنَى لِقَائِكَ حَافِلٌ ... وَالْقَلْبُ يُرْمَى فِي الْأَسَى بِسِهَامِ

خَلَّفْتَ فِي الدِّينِ الْحَنِيفِ مَآتِماً ... وَعَلَى الْجِنَانِ مَحَافِلَ الْأَحْلَامِ

لَا غَرْوَ أَنْ يَأْسَى حَشىً وَشَرِيعَةٌ ... وَتَفُوزَ فِيكَ مَلَائِكُ الْعَلَّامِ

مُذْ رُحْتَ لِلْفِرْدَوْسِ فَرْداً أَرَّخُوا: ... بُشْرى الْجِنَانِ بِثَلْمَةِ الْإِسْلَامِ[1]

وله بمناسبة رجوعِ أُستاذه آية الله العظمى السيّد الشهيد محمّد باقر الصّدر قدس سره من الحجّ[2]:

---

(١) إذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة (منه قدس سره).

(٢) مجموعة أشعار الحياة: ١٤٣.

تَهَـــادَتْ بُـــشْرَيَاتُ النُّــــورِ ... تَحْـــدُو مَوْكِـــبَ الْبَـــدْرِ
وَبَاهَـــتْ قِبْلَـــةُ الْإِسْـــلَامِ ... فِيـــهِ سَـــالِفَ الْعَـــصْرِ
وَلَا غَـــــــــرْوَ إِذَا كَانَ ... إِمَـــامَ الْعَقْـــلِ وَالْفِكْــــرِ
وَنِبرَاســـــــاً إِلَهِيّــــــاً ... لَدَى إِنْـــسَانِهِ الْغُــــرِّ
فَمُــــذْ عَادَ مِـــنَ الْحَـــجِّ ... سَـــلِيماً وَافِـــرَ الْفَخْـــرِ
أَتَى التَّـــــارِيخَ قَلْبِيّـــــاً ... عَلَى بَيْـــتٍ مِـــنَ الـــشِّعْرِ
بَــــدِيهاً: فَخَـــرَ الْحَـــجُّ ... بِحَـــجِّ الـــسَّيِّدِ الـــصَّدْرِ

وله في رثاء العلّامة الحجّة السيّد حسن الخرسانقدس سره[1]:

فِي سَـــوْرَةٍ مِـــنَ الْأَسَى وَالْحُـــزْنِ ... أَوْدَى فَأَضْـحَى الْقَلْـبُ رَهْـنَ الْمِحَـنِ
وَكَيْـفَ لَا وَالدِّيـنُ قَـدْ ثُـلَّ بِـهِ ... وَالْعِلْـــمُ وَالْإِيمَـــانُ لِلْمُـــؤْتَمَنِ
قَـدْ كَانَ لِلْإِسْـلَامِ بَنْـداً فَـانْطَوَى، ... بِـــهِ نَـــرُدُّ عَادِيَـــاتِ الـــزَّمَنِ
بِـــهِ الْمُعَـــزَّى أَحْمَـــدُ وَآلُهُ ... فَكَيْــفَ مَــنْ دَانَ لَهُــمْ بِــالْعَلَنِ
قَـــدْ كَانَ لِلْأَنَـــامِ خَـــيْرُ مُحْـــسِنٍ ... وَمُـــنْعِمٍ أَكْـــرِمْ بِـــهِ مِـــنْ مُحْـــسِنِ
وذَاكَ عِنْـــدَ اللهِ أَسْـــمَى عَلَـــمٍ ... بِـــالْعِلْمِ وَالتَّقْـــوَى عَظِـــيمُ الْمِـــنَنِ
أَعْلَى بِهَـــا الْإِيمَـــانَ فِي أَبْنَائِـــهِ ... وَبِالْهُـــدَى أَحْـــيَى جَمِيـــعَ الـــسُّنَنِ
وَمُـذْ سَـمَا نَحْـوَ الْفَـرَادِيسِ الْعُـلَى ... رُوحـــاً بِنُـــورٍ فَـــاقَ كُلَّ الْفِطَـــنِ
وَجَـــاوَرَ الـــرَّبَّ الْكَـــرِيمَ رَحْمَـــةً ... وَالْمُـــــصْطَفَى وَآلَهُ فِي عَـــــدَنِ
تَـــأَلَّمَ الْقَلْـــبُ لِفَقْـــدِ (شَـــيْخِهِ)[2] ... وَسَـــيِّدٍ يَعْلُـــو جَمِيـــعَ الْأَلْـــسُنِ
وَبِـــالْأَسَى يَقُـــولُ: أَرِّخْ بِـــبُكَا ... قَـدْ أَثْكَـلَ الْمَهْـدِيَّ فَـوْتُ الْحَـسَنِ

---

(١) مجموعة أشعار الحياة: ٢٣٢.

(٢) هو شيخي في إجازة الرواية رحمة الله عليه (منهقدس سره).

وقال بمناسبة زيارته لآية الله السيّد رضا الصدر قدس سره في بيته[1]:

وَمُذْ رَأَيْنَا الصُّبْحَ فِينَا قَدْ أَضَا ... لَقَدْ رَكِبْنَا كُلُّنَا نَحْوَ الرِّضَا

دَلِيلُنَا الشَّيْخُ اللَّطِيفُ فَوْمَنِي ... أَدْعُو وَقَاهُ اللهُ شَرَّ الزَّمَنِ

أَدْخَلَنَا فِي دَارِهِ الْمَنِيعَةْ ... شَامِخَةً لَطِيفَةً رَفِيعَةْ

كَانَ بِهَا السَّيِّدُ مَعْ أَنْجَالِهْ ... أَخُوهُ أَيْضاً مَعَ بَعْضِ آلِهْ

وَلَمْ يَقُمْ لَنَا لَدَى التَّحِيَّةْ ... مُعْتَذِراً عَنْ وَقْفَةٍ حَفِيَّةْ

قَالَ لَنَا بِأَنَّ فِيهِ مَرَضَا ... فَأَذْعَنَ الْجَمِيعُ مِنَّا لِلرِّضَا

لَكِنَّهُ أَبْدَى كَرِيمَ الْقَالَةْ ... وَلَمْ يُقَصِّرْ نَحْوَنَا بِالْحَالَةْ

وَقَدَّمُوا فَوَاكِهاً وَحَلْوَى ... وَبِسْكِتاً ذَا الْوَرَقِ الْمُقَوَّى

وَالشَّايَ وَالْقَهْوَةَ وَالدُّخَانِ ... وَكُنْتُ مِنْهُ فِي حِمَى الْأَمَانِ

كَانَ الْكَلَامُ فِي أُمُورٍ شَتَّى ... فِقْهاً وَتَفْسِيراً وَكُلَّ مَا أُتَى

رَوَى لَنَا عَنِ الْفَقِيدِ الصَّدْرِ ... أَخِيهِ إِذْ كَانَ سَجِينَ الْغَدْرِ

ذَاكَ الَّذِي سَمِيُّ مُوسَى الْكَاظِمْ ... فَكَمْ لَهُ فِي سِجْنِهِ مِنْ ظَالِمْ

ثُمَّ خَرَجْنَا فِي ارْتِيَاحٍ شَامِلِ ... حَفَاوَةً وَاضِحَةَ الدَّلَائِلِ

آثاره وتصانيفه الثمينة

ترك السيّد الشهيد محمّد الصدر قدس سره مؤلّفاتٍ كثيرة، امتازت كلّها بالإبداع والابتكار، ومنها:

١. نظراتٌ إسلاميّةٌ في إعلان حقوق الإنسان.

٢. فلسفة الحجّ ومصالحه في الإسلام.

٣. أشعّةٌ من عقائد الإسلام.

(١) مجموعة أشعار الحياة: ٢٩٢ - ٢٩٣.

٤. القانون الإسلاميّ وجوده، صعوباته، منهجه.

٥. موسوعة الإمام المهديّ عليه السلام، وتحتوي على:

أ. تاريخ الغيبة الصغرى.

ب. تاريخ الغيبة الكبرى.

جـ. تاريخ ما بعد الظهور.

د. اليوم الموعود بين الفكر المادّي والدينيّ.

هـ. هل الإمام المهديّ عليه السلام طويل العمر (مخطوط).

٦. ما وراء الفقه، في خمسة عشر مجلّداً.

٧. فقه الأخلاق، في مجلّدين.

٨. فقه الفضاء، وهو رسالة عمليّة في مسائل وأحكام الفضاء المستحدثة.

٩. فقه الموضوعات الحديثة، وهو رسالة عمليّة في المسائل المستحدثة أيضاً.

١٠. حديث حول الكذب.

١١. بحث حول الرجعة.

١٢. كلمة في البداء.

١٣. الصراط القويم، وهو رسالة عمليّة مختصرة.

١٤. منهج الصالحين، وهو رسالة عمليّة موسّعة في خمسة مجلّدات.

١٥. مناسك الحجّ.

١٦. أضواء على ثورة الإمام الحسين عليه السلام.

١٧. شذرات من تاريخ فلسفة الإمام الحسين عليه السلام.

١٨. منّة المنان في الدفاع عن القرآن، في خمسة مجلّدات. صدر منه (الجزء الأوّل) بقلم السيّد الشهيدقدس سره، وصدر (٤ أجزاء) تقريراً لدروسه القرآنيّة، على يد مؤسّسة المنتظر لإحياء تراث آل الصدر.

١٩. منهج الأُصول، في خمسة مجلّدات.

٢٠. مسائل في حرمة الغناء.

٢١. بين يدي القرآن الكريم، وهو فهرست موضوعيّ للقرآن الكريم.

٢٢. مجموعة أشعار الحياة، وهو ديوان شعر يمثّل مراحل حياة سيّدنا الشهيد.

٢٣. بيان الفقه، وهو بحثٌ فقهيّ استدلاليّ يتناول مبحث القبلة ولباس المصلّي، في خمسة مجلّدات تقريباً. صدر منه الجزء الأوّل.

٢٤. اللّمعة في حكم صلاة الجمعة، وهو تقريرٌ لأبحاث السيّد إسماعيل الصدرقدس سره.

٢٥. الإفحام لمدّعي الاختلاف في الأحكام.

٢٦. مسائل وردود.

٢٧. الرسائل الاستفتائيّة.

٢٨. حبّ الذات وتأثيره في السلوك الإنساني.

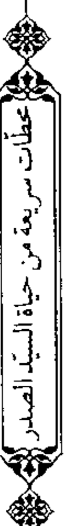
٢٩. مدارك الآراء في اعتبار حال الوجوب أو حال الأداء.

٣٠. الوافية في حكم صلاة الخوف في الإسلام.

٣١. حكم القضاء في مدارك فقه الفضاء.

٣٢. أُصول علم الأُصول.

٣٣. بحوث في صلاة الجمعة. تقرير مؤسّسة المنتظر.



٣٤. عشرات المقالات، كتبهاقُدِّسَ سِرُّهُ في الصحف النجفيّة، وجملة منها لا زال مخطوطاً. وكلّها تحت الطبع، تحت عنوان: رسائل ومقالات، في ثلاثة أجزاء.

٣٥. مبحث ولاية الفقيه.

٣٦. الأُسرة في الإسلام.

٣٧. رفع الشبهات عن الأنبياءعليهم السلام.

٣٨. الدرّ النضيد في شرح سبب صغر الجسم البعيد. بحث فيزيائيّ.

٣٩. محاضرات في علم أُصول الفقه (دورتان)، تقريراً لأبحاث السيّد الشهيد الصدر الأوّلقُدِّسَ سِرُّهُ.

٤٠. تقريرات في علم أُصول الفقه (دورة كاملة)، تقريراً لأبحاث السيّد الخوئيّقُدِّسَ سِرُّهُ، وتقع في ثلاثة عشر مجلّداً تقريباً.

٤١. كتاب الطهارة، تقريراً لأبحاث السيّد الشهيد الصّدر الأوّلقُدِّسَ سِرُّهُ، ويقع في ثمانية مجلّدات تقريباً.

٤٢. بحوث استدلاليّة في كتاب الطهارة، تقريراً لأبحاث السيّد الخوئيّقُدِّسَ سِرُّهُ.

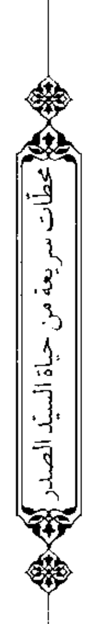
٤٣. كتاب البيع، وهو تقريرٌ لأبحاث السيّد الخمينيّقُدِّسَ سِرُّهُ، ويقع في أحد عشر مجلّداً تقريباً. صدر منه ستة أجزاء.

٤٤. دروس في شرح كفاية الأُصول، من أبحاث السيّد الشهيد الصدر الأوّلقُدِّسَ سِرُّهُ.

٤٥. الكتاب الحبيب إلى مختصر مغني اللبيب.

٤٦. تعليقة على رسالة السيّد الشهيد محمّد باقر الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ (الفتاوى الواضحة).

٤٧. تعليقة على الرسالة العمليّة (منهاج الصالحين) للسيّد الخوئيّقُدِّسَ سِرُّهُ.



٤٨. تعليقة على الرسالة العمليّة (مناسك الحجّ) للسيّد الخوئيّ قدس سره.

٤٩. تعليقة على كتاب (المهديّ) للسيّد صدر الدين الصدر قدس سره.

٥٠. حياة السيّد صدر الدين الصدر قدس سره.

٥١. الكلمة الحيّة في حكم حلق اللحية.

٥٢. تعليقة على الرسالة العمليّة (وسيلة النجاة) للسيّد أبي الحسن الأصفهاني قدس سره.

٥٣. المعجزة في المفهوم الإسلاميّ.

٥٤. رسالة في الفقه المتكامل.

٥٥. فوز الأنام في أدعية الليالي والأيّام.

٥٦. قصص من القرآن الكريم.

٥٧. السيّد الشهيد الصدر كما أعرفه. ترجمة أُستاذه الشهيد الصدر الأوّل قدس سره. مفقود.

٥٨. تعليقة على بعض كتب اللّمعة.

٥٩. تعليقة على بعض كتب شرائع الإسلام.

٦٠. محاضرات أساتذته في كليّة الفقه. فلسفة، فقه، أُصول، علم النفس، علم الاجتماع، والأدب، والتاريخ، وغيرها.

٦١. تعليقة على (مستحدثات المسائل) للسيّد الخوئيّ قدس سره.

٦٢. من ثمار الإسلام.

٦٣. ردود نقديّة على كتاب (الشيعة والسنّة) لإحسان إلهي ظهير.

٦٤. الكلمة التامّة في الولاية العامّة.

وغيرها ممّا لم نوفّق للاطّلاع عليه.

ومن خلال هذه الآثار والتصانيف القيّمة تتّضح بعض اهتمامات السيّد الشهيد الصدر الثاني قدس سره بالفقه المعاصر، وتلبية حاجات الأُمّة معرفيّاً، وأنَّ كلّ مؤلَّف من هذه المؤلّفات شكّل قضيّة من القضايا وحاجة من الحاجات الملحّة للكتابة فيها.

جريمة اغتياله قدس سره

كان من عادة السيّد قدس سره أنْ يجلس في مكتبه بعد صلاتي المغرب والعشاء في يومي الخميس والجمعة، ليخرج بعدها سماحته إلى بيته. وفي تلك الليلة خرج السيّد على عادته ومعه ولداه - السيّد مصطفى والسيّد مؤمّل قدّس سرهما- بلا حمايةٍ ولا حاشيةٍ، وفيما كانوا يقطعون الطريق إلى بداية منطقة (الحنّانة) في إحدى ضواحي النجف القريبة، وعند الساحة المعروفة بـ(ساحة ثورة العشرين)، جاءت سيّارة أميركيّة الصنع، ونزل منها مجموعة من عناصر السلطة الظالمة وبأيديهم أسلحة رشّاشة، وفتحوا النار على سيّارة السيّد، فاستشهدوا جميعاً.

وبعد استشهادهم حضر جمعٌ من مسؤولي السلطة إلى المستشفى، وذهب آخرون إلى بيته، ولم يسمحوا بتجمهر المعزّين أو الراغبين بتشييع جنازته، ولذا قام بمهمّة تغسيله وتكفينه مع نجلَيه مجموعةٌ من طلاّبه ومريديه، ثُمَّ شيّعوه ليلاً، حيث تمّ دفنه في المقبرة الجديدة الواقعة في وادي السلام.

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[1].

---

(١) سورة الفجر، الآيات: ٢٧-٣٠.

١٥/٨/١٣٨٢
١٢/١/١٩٦٣

الفطرة

وأثرها في العقيدة الإلهية والتوحيد

محمد الصدر

قال الإسلام بالعقيدة الإلهية وقال بالتوحيد، وجعلهما العقيدتين الرئيسيتين في دينه. ولكنه في نفس الوقت أكد على أن هاتين العقيدتين ليستا من مخترعاته ومبتكراته، وإنما هما من أساسيات الفطرة، وإنما وجبتا امتثالاً لندائها الحثيث. فمهما كان للناس من هاتين العقيدتين أكثر مما تقنع به نفوسهم، وتؤمن به براهين عقولهم، ولم يأخذهم في سبيل البرهنة عليهما إلى من الرجوع إلى صميم ضمائرهم وتلمس حقيقة فطرتهم، ليجدوا هنالك جذوة الإيمان متقدة في الأعماق تنشر دفء الإيمان وحرارة الشوق وأريج الفكر. فالنفوس كلها مطبوعة على الحق ومفطورة على الاعتراف بوجود الله جل وعلا والخضوع له، وعلى الإيمان بتوحيده، وإنما تشوبها وتبعدها عقائدها وأفكارها تلك الشوائب والمصالح التي تسير بالإنسان إلى جهة الفساد، وليس على الإنسان في سبيل الرجوع إلى ذلك الحق النابع في أعماقه إلا التجرد من هذه الشوائب الزائفة والنظر إلى الحقيقة بعين الإنصاف المجرد.

قال الله عز وعلا في كتابه الكريم: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون). فالدين إذن فطرة، وهي فطرة أودعها الله عز وجل في نفس الإنسان لترشده إلى الحق ولتهديه إلى الصراط المستقيم، ومن ثم كان الحق وكان الدين أمراً مفطوراً في النفس، قد جبل عليه الفرد في أصل خلقته التكوينية، وكانت النفس هي الهادية والمرشدة إلى ذلك الحق لمن يصغي إلى ندائها ويستجيب لأوامرها. ولا يمكن لأحد إنكار هذا النداء والكفر به، فضلاً عن تغيير الفطرة وتبديلها فإنه لا تبديل لخلق الله، وإن الإنسان لا يمكنه أن يغير من ذلك شيئاً إلا إذا استطاع أن يغير أي ملكة من ملكات نفسه. فإذن ليس على الإنسان الطالب للحق إلا أن يقيم وجهه للدين حنيفاً ويستجيب لنداء الفطرة لكي يهتدي ولكي يصل إلى الدين القيم والحق الصريح.

صورة من الأصل بخط السيد الشهيد

جمعة ٢/٨/١٣٨٦
١٩٦٦/١١/١٨ تقرير حول آية التوحيد
(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)

٧٨

هناك تقريب تقليدي للآية ذكره الكثيرون منهم الشيخ الطوسي في تفسيره، ومرده يقال: انه لو كان فيهما إلهين اثنين للزم المحال، فنعرف بطريق الإنّ عدم وجود الالهين. تقريب الملازمة: انا اذا نفرض الالهين فلابد انهما كاملان من جميع الجهات اذ لو كانا قاصرين او كان احدهما قاصراً لم يكونا الهين لامحالة، ومعنى كونهما كاملين هو تأثير ارادتهما الكاملة في المخلوقات، وح نقدر حدوث ان يريد احدهما وجود شيء والآخر عدمه، وح فاما ان لا تؤثر كلا الارادتين فيلزم تخلف المعلول عن علته واما ان تؤثر احداهما دون الاخرى فالاقوى هو الاله. واما ان تؤثر كلا الارادتين، فيلزم وجود الشيء وعدمه وهو محال. وكون نفس الشيء بالنسبة الى الضدين والى التفكيك بين المتلازمين ونحو ذلك.

الا ان هذا التقريب غير تام لانه مبني على العلم باختلاف الالهين او احتماله ليلزم منه العلم باجتماع النقيضين او احتماله وكلاهما محال. الا ان - الحقيقة - هي انه - كما ذكر سيدنا الخميني دام ظله - من ان مقتضى الحكمة الكاملة - المفروضة في كلا الالهين - هو الاتفاق من جميع الجهات.

وذلك: بان يقال - بتقريب مني - : انا بعد الاكتفاء في محله والتعميم مدركات العقل العملي والنظري معاً، اذن فالشيء - اي شيء في ذاته - اما ان يكون بحسب العقل النظري او العملي، ما ينبغي وجوده في الواقع او ما لا ينبغي وجوده. فان كان ما ينبغي وجوده فهذين الالهين بحكمتهما الكاملة

السبت ٢٤/٣/١٣٨٩
١٤/٦/١٩٦٩ فكرة عن المعاد

(١) ٦٧

يعيش الناس على هذه الارض ، يشتملهم ليل اذ يشملهم نهار ، و يتضمنهم دار اذ يضمهم مكان . يتحركون ويتصرفون في جو هذه الحياة بجد ونشاط ، لا يعرفان السأم والملل ، ويشعلهما حماس شديد لا يعرف الانطفاء . يتكيفون للحياة مع مقتضياتها ويستجيبون لمؤثراتها .

يزرع احدنا في هذه الحياة آماله وآلامه ~~ويسقيها بتطلعاته~~ ، ويتعهدها باتعابه وجهوده ويسقيها بقطرات عرقه المتساقطة . لكي يستطيع ان يجني منها بعض الثمرات حتى يستطيع ان يسعد في يوم ما وان يطمئن وان ينام ليلته مرتاح البال وادع النفس . الا ان الغاية تقرب كلما اقتربنا منها وتطفر بعيداً كلما حاولنا امساكها . والسعيد منا من ~~جلست~~ أسرعت ثمرات جهوده ~~...~~ الى النضوج ، وجاءت لذيذة الطعم جميلة المنظر .

ونحن خلال ذلك ، نتصرف ما استطعنا ان نتصرف ونكافح ونعمل ما شاءت لنا آمالنا ومصالحنا العمل والكفاح .

الا انا خلال هذه الحياة ، وخلال قيامنا بهذه التصرفات والاعمال ، لا نستطيع ان نقيّم العمل وان نضع الفعل موضعه الصحيح . فانما انما نقوم بالاعمال لاجل مقتضيات الحياة الآنية ، وليس منها ، في اغلب الاحيان ، ما يمكن ان يحمله هذا الفعل من قيمة واقعية و تاريخية . فانا حين نعيش في هذه الحياة ونتصرف خلالها ، انما نعيش عيش تنفيذ لا عيش تقييم ، عيش متصرف لا عيش مشرف ، عيش منهمك بالعمل لا عيش مراقب له مدرك لنقاط الضعف والقوة فيه .

فانا اذ نجد احد مقتضيات الحياة ، قد اصبح فعلياً ماثلاً بين يدينا يطلب استجابتنا له بقسوة والحاح ، فاننا نسرع بالاستجابة لداعيه ، بدون روية

فكانت كل هذه النظريات تتوارد على ذهني، فأعرف بعضها

[illegible] التفسير [illegible] يشوبه من الغموض والارتباك [illegible]

[illegible] أن يكون لي نظرية ذات طابع واحد تفسر لي ظاهرة [illegible]

[illegible] بعامل [illegible] عن تلك

١٣٨٢/٥/٨ — ١٩٦٢/٩/٢٧

بين الميكافيلية والاسلام

١٣

(١)

ان جوهر النظرية الميكافيلية، في تحديد مفاهيم الحياة، قائم على افتراض ان (الغاية تبرر الواسطة)، وذلك باعتبار ان الانسان اذا كان مؤمناً بعقيدة معينة جاعلاً منها الهدف الاسمى والمثل الاعلى في حياته، مكرساً لها جهده وفكره، فمن الممكن له، وهو جاهد في سبيل الوصول الى غايته المنشودة ويكافح عوائق الحياة لاجل الوصول اليها، ان يتذرع اليها بأي وسيلة كانت، مهما كان شكلها واياً كانت صفتها، حتى وان كانت جريمة بشعة او اعمالاً مخالفة للنظام والاخلاق. على اعتبار ان ذلك الهدف الاعلى الذي يسعى اليه، اهل للجهد والتعب ولان يوصل اليه عن هذا الطريق الوعر الطويل.

فان الغاية كلما كانت اهم واعظم وكلما كان اندفاع الانسان في سبيلها اقوى واشد! كلما كانت الوسائط مباحة في سبيلها اكثر فأكثر وجائزة بصورة اعمق وآكد.

الا ان هذه النظرية اصبحت على مرور الايام، نادرة مضحكة، تطفو على شفاه الناس، ونسبة مقيتة يوصم بها بعض الدعاة. الا انها من الناحية العملية، كانت موجودة في اعماق النفس البشرية منذ فجر تاريخها، ولازالت نافذة المفعول، وستبقى مع الانسان، ما دامت هناك بشرية مستغلة انتهازية.

وفي الحق، ان هذه النظرية بمحتواها المعروف شائن جداً، وقبيح تماماً، فما كان من شأن الغايات النبيلة ان يوصل اليها بالاعمال الرذيلة والجرائم الشنيعة. فان المفروض في تلك الغاية ان تكون خادمة للانسانية وباعثة على نشر العدل والرفاه في ربوعها، فكيف يمكن ان يتوصل الى مثل هذه الغاية، بالاعتداء على الانسانية والسير في الطرق المعوجة والفاسدة، وهل يمكن ان

٢٩٢

السيرة العقلائية: هي السلوك العام الذي يصدر من البشر بصفتهم عقلاء، اي بصفتهم ذواتاً متلبسة بالعقل. فان الذات العاقلة الخالية عن جميع الشوائب يكون لها حتماً سلوك معين، امام الحوادث والمؤثرات الخارجية، تختلف به عن الذوات المشوبة بالغرائز والانفعالات الاخرى كما انها تختلف به عن العقل، فان وظيفة العقل بقسميه العملي والنظري ليست الا الاحكام العقلية، بمعنى ادراك الامور الواقعية والتصديق بها. اما السيرة العقلائية فهو نفس السلوك الخارجي الذي يصدر من الذات العاقلة بصفتها ذاتاً عاقلة، ويستمد هذا السلوك من نكتة عامة وخصوصية تدركها الذات العاقلة مستمدة من العقل (حال كونه مطبقاً على حوادث الزمان وخصوصيات العائش) او مستمدة من رتبتها الخاصة، فان العقل عندما ينظر في نفسه مجرداً عن اي شيء تكون له رتبة خاصة واحكام معينة، وعندما ينظر العقل متحداً من الذات ومنسوباً اليها بنحو اتحاد النسبة، تكون مرتبته دون ذلك لامحالة وتكون له احكام خاصة تتعلق بالذات من روابط وعلاقات خارجية كضرورة حفظ النوع، وحسن التعايش، وحب الحياة وغير ذلك فالمدركات العقلية بهذه المرتبة هي التي تكون نكتة عامة للسيرة التي تقوم بها الذات العاقلة بحسب الخارج.

ومن هنا نعرف انه لابد للسيرة العقلائية بما هي عقلائية ان تكون نابعة من نكتة عامة من هذا القبيل، والا لم تكن سيرة عقلائية، بل كانت سيرة منسوبة الى مصدر النكتة، كأن يقال بانها

بحث
في الإرادة والمسؤولية
(في حرية الإرادة وحدود المسؤولية)

٣٠٠

اصلنا الموضوعي :

ينبغي ان نعرف ونحن على ابواب هذا البحث ، فكرة معينة ، نأخذها اصلاً موضوعياً مسلماً مبرهناً عليه في الفلسفة عادة ، وان كنا بصدد البرهنة عليه في الكلام ،

وهو ان الوجود مساوق في ذاته لامور ثلاثة ، القدرة والارادة و العلم ، وهذه الصفات الثلاث ذاتية له يستحيل انفكاكها عنه . فأي موجود في هذا الكون الا وله مرتبة معينة من القدرة والارادة والعلم ، مناسبة مع رتبته في الوجود (١) .

وحيث ان مراتب الوجود مختلفة جداً ومشككة فيما بينها بشكل شاسع كبير ، فان هذه الصفات تتفاوت في الموجودات بحسب مراتب الوجود ، فانها تتحقق في كل مرتبة بمقدار قابليتها واستحقاقها التكويني ، وتكون تابعة لها سعة وضيقاً واصالة وضآلة .

فكلما كان الوجود [illegible] ، وكانت الحالة الوجودية ، تلك

---

(١) وهذه النظرية تبناها صدر المتألهين الشيرازي في اسفاره الاربعة ، ويقول : الا ان عقول الجماهير من الاذكياء ، فضلاً عن غيرهم ، عاجزة قاصرة عن فهم سراية العلم والقدرة والارادة في جميع الموجودات ، حتى الاحجار والجمادات كسراية الوجود فيها . ولكنا بفضل الله والنور الذي انزل الينا من رحمته اهتدينا الى مشاهدة العلم والارادة والقدرة في جميع ما شاهدنا فيه الوجود على حسبه وبمقداره وقدره . (الاسفار الاربعة جـ ص ١٧٤) . وهي نظرية لا شك منسجمة مع الخط المنطقي العام الذي تسير عليه الفلسفة الالهية . وما ينبغي ملاحظته في المقام ان افتراض الذاتية لهذه الصفات للوجود ، اصلاً موضوعياً في البحث ليس ضرورياً بالدقة ، حيث يمكننا نفيه بشكل آخر

انتهيت منها بتاريخ
الخميس ٢٥/٤/١٣٨٦
الموافق ٢٤/٨/١٩٦٦

حول المعجزات في الاسلام

- أ -

٤٩١

(١)

يتصف الفكر الحديث بسمة مادية قاتمة، تعتبر من الأصول الموضوعية الرئيسية التي يصعب عليه التخلي عنها. وتعمل هذه المادية عملها بشكل شعوري او لاشعوري في اي انتاج علمي او ادبي او فني ينتجه الفرد الحديث.

فتظهر النزعة المادية الشعورية بوضوح، في تلك الفلسفات المادية والالحادية التي تحاول صراحة الاستدلال على أن ليس في هذا الكون سوى المادة الصماء، ولا يحتوي على اي قوانين سوى قوانين الطبيعة العمياء.

وتظهر النزعة المادية اللاشعورية، بدرجات متفاوتة، في النتاج الفكري المعاصر بوجه عام، ويكون مدلولها المباشر هو اسقاط ما سوى المادة في هذا الكون اسقاطاً لاشعورياً، واعتبار ان الجزء المعين الذي يتحدث عنه الفرد يتكون من مادة صرفة لا اثر لروح فيه. وهذه صفة عامة وروح سارية في النتاج الفكري الحديث بشكل يصعب عليه رفع اليد عنها بسهولة ويسر.

والباحثون الاسلاميون المعاصرون، بصفتهم ابناء هذا العصر، قد تعلموا عنه افكارهم وتلقوا على يديه علومهم، لم يفتهم وجود مثل هذه الروح المادية في احشاء الفكر الحديث.

الا ان الصحيح أغلبهم، ممن قويت عقيدته ورسخ ايمانه، وتشرب روح الاسلام وافكاره الصافية من منبعه الصحيح، لم تؤثر فيه هذه المادية ولم تسيطر على ذهنه مثل هذه الافكار. وانما اعتبر هذه الافكار احدى نقاط الضعف التي يتصف بها الفكر الحديث، واحدى الهنات التي حدثت فيه من جراء عجزه عن الصعود الى الافق الروحي الرحب

صورة من الأصل بخط السيد

محمد الصدر

وما هو [illegible] ... وقصر تفكيرهم عن

[illegible] ومستظهراً بالخوض على

[illegible] بحثاً موضوعياً. وذلك لأن

من شروط [illegible] وعدم التحيز إلى ناحية

معينة [illegible] عندما يحاول أن يستدل

على صحة الدين الذي يعتنقه [illegible] موضوع ديني، فإنه يفترض صحة

الدين سلفاً ثم يحاول البرهنة عليه وبناء الآراء على أساسه. وهذا مخل بحالة الموضوعية

العلمية والشك المنهجي.

ونحن إذ نكون بصدد مناقشة هذه الدعوى، [illegible] مقدار صحتها ومدى قربها

من الحقيقة، [illegible] على العلم والحقيقة. لابد

لنا أن نعرف معنى الموضوعية العلمية ومعنى الشك المنهجي، [illegible] لا يمكن أن يلتقي

معهما الباحث [illegible] ما يمكن أن يتصف البحث الديني الإسلامي بهذين العنصرين.

[illegible] الموضوعية العلمية، أن يتجه كباحث على

[illegible] من الرواسب الدينية والاجتماعية ومما

العوامل الشعورية واللاشعورية التي يمكن أن يتحسس تأثيرها في البحث، وأن يتجرد أيضاً

من تأثير [illegible] أسلوب بحثه، وأن يتطلع في النهاية

إلى [illegible] تجرداً موضوعياً خالصاً، لكي يكون بحثه أقرب إلى

الحقيقة [illegible].

ويعنى بالشك المنهجي [illegible] الموضوعية العلمية وهو [illegible] لا يأخذ [illegible]

مفترض الصحة سلفاً، وإنما [illegible] نظرة الشاك [illegible] لتستطيع أن تبرهن [illegible]

الموت في الوعي الإسلامي

أطروحة الموت الواعية

(١)

اعتقد ان الوعي لا يمكن ان يكون مقتصراً على بعض الحقول دون بعض، وخاصاً ببعض المسائل وغير شامل للاخرى. بل هو مستوعب بشموله لكل المسائل الإسلامية، مهما بدت مناطق الاستيعاب شديدة التخصص والبعد عن الصعيد الاجتماعي.

من ذلك مفهوم العبادة، الذي كان يظنه الأكثر من المسلمين واعداء الإسلام رابطة متمحضة بين الفرد وربه، سواء كان في الدين جوانب اخرى اجتماعية، كما يقول المتحمسون من المسلمين او لم يكن كما يقول اعداء الدين، واتفقوا على ان العبادة هي الأساس المركزي للتمحض الشخصي والفرد المتقشف المسلك بلا وعي. في حين استطاع الفكر الإسلامي الواعي - كما عرفنا في بعض مباحث السابقة - ان يحوّل من العبادة مفهوماً واعياً اجتماعياً وكونياً طافحاً بالنور والحياة، بل جعلها المركز الأساسي للوعي، وللوعي من دون عبادة.

هكذا الحال في الموت، فانه في حدود المعطى القديم لطروحته، مفهوم متمحض جامد وقدر صارم لا مجال للاستفادة منه اجتماعياً واسلامياً وشخصياً، بل يأتي محوطاً

السبت ٢٩/ ٣/ ١٣٨٢
المصادف ٨/ ٨/ ١٩٦٢

الماركسية تنتحر

٢٧٠٨

من سخرية القدر على فكرة ما ومن سطحيتها ورداءة تفكيرها، ان تنتحر الفكرة بيدها نفسها، وتكون هي بنفسها حكماً فصلاً للحكم الجازم ببطلانها وعدم صحتها. مما يجعلنا، بكل بساطة ووضوح، في غنى عن نقدها بامور اخرى خارجة عن هذا النطاق.

والنظرية الماركسية بعد ان تصدت لإعطاء فكرة عامة معينة عن الكون والحياة، وللتفسير التاريخ على اساس التطور الناتج عن وسائل الانتاج، اصبحت من هذا القبيل. فقد ابتليت في صميم نظريتها بمثل هذه الاسس، التي تحكم على مجموع النظرية بالاعدام وعلى تفاصيلها بالبطلان. ويندرج في ذلك اهم النظريات الماركسية واكثرها استراتيجية، مما يجعلنا نستطيع بسهولة ويسر ان نحكم على الماركسية من وجهة نظرها الخاصة، بعد ان وفرت لنا في صميم نظريتها الطريق الى ذلك. وبذلك نستغني عن الاسترسال بالنقد اكثر من هذا النطاق.

وتندرج تحت هذا الحكم نقاط متعددة من النظرية الماركسية، يمكن ان نعرضها خلال الموارد التالية:

المورد الاول: ان الماركسية اذ تقرر قانونها العام في الديالكتيك، ذلك القانون الذي يعبر عن تطور الشيء لوجود التناقضات في جوهره وصميم ذاته، وان كل شيء لا يمكن ان يكون اثباتاً مطلقاً وشيئاً متحققاً في الخارج منذ الازل. وانما يحتوي كل شيء على نقيضه ونفيه. وتسمي الماركسية النقيض الاول بالاطروحة والنقيض الثاني بالطباق. ويكون هذان النقيضان في

الجمعة ١٩/ شعبان/ ١٣٨٥ هـ
الموافق ١٢/ كانون الاول/ ١٩٦٥

الطائفية في نظر الاسلام

١١

اخي في الله، ورفيقي على درب الجهاد المسلح، (ابا حامد) ايده الله.

سألتني - دام توفيقك - عن وجهة النظر الاسلامية، في خضم هذه الثورة الكبرى التي نعيشها في ايامنا الحاضرة من جراء تفشي مشكلة (الطائفية)، وعن الاسلوب الذي ينبغي ان ننظر به الى هذه المشكلة وان نضع من خلاله الحلول لها في مقابل تيارات اخرى غير اسلامية قد تنظر الى هذه المشكلة من زاوية اخرى وتفسرها من وجهة ثانية، منافية مع تعاليم الاسلام. فاقول:

حين اخذت، والسنة اللهب الطائفي ترتفع في ربوع بلادنا محاولة بكل جهد وقسوة ان تأتي على الاخضر واليابس منا وان تلف في زوبعتها المريرة، المخلص والخائن والمؤمن والفاسق. ينبغي علينا ان نفهم جوهرها ومغزاها، وان نعرف اتجاهها وان نعين وجهة النظر الخاصة التي يجب ان ننظرها نحو هذه المشكلة، ونحو الحلول التي قد توضع لتلافيها. فنعرض ذلك كله على ضوء الاسلام وتعاليمه الرشيدة، لنكون على بصيرة من امرنا غير حائرين في هذا الخضم المتلاطم ولا مترددين في ميدان الجهاد الكبير.

- ١ -

والذي ينبغي ان نعرفه في اول المطاف، هو ان هذا الخلاف الطائفي، بشكله الحاضر الملموس، ليس خلافاً طائفياً قائماً على اساس الاسلام، وانما هو خلاف مصلحي، اقتضاه اصطدام المصالح والمنافع بين جهتين من الناس. وكان من الطبيعي ان تسيطر الجهة التي بيدها زمام الحكم وان تستغل

الاربعاء ١١/٢/١٣٨٣
٣/٧/١٩٦٣

الحرية
بين الإسلام والفكر الحديث

٣

الحديث عن الحرية، حديث ذو شجون.

فان الحرية، رغم كونها فكرة رئيسية في مجال الفكر الحديث، وكونها الهدف الاسمى والمثل الاعلى للانسان الحديث، ورغم كونها قضية بديهية غير قابلة للنقاش عند كثير من الاوساط.

رغم ذلك، فان الحديث عنها ذو شجون.

فان لفظ الحرية في نفسه من الالفاظ العامة المطاطة التي لا تحمل معنى محدد ينطبق على شيء مضبوط. ومن هنا نجد الناس ينظرون لها من زاوية مصلحته الخاصة وحسب افق تفكيره ومن خلال نظرته الى الحياة. ومن ثم يمكن ان تحصل للحرية على تعاريف وتفسيرات ومعاني متعددة بعدد مصالح الناس واختلاف مشاربهم واهوائهم. فهي عند القوي المستبد وسيلة لتنفيذ مآربه وبسط سيطرته، وهي عند الضعيف ذريعة للتمرد والاحتجاج على النظام المستبد، وهي عند الرأسمالي وسيلة لكسب المال وتوسيع التجارة الى اكبر حد مستطاع، وهي عند اصحاب المذاهب الهادفة، وسيلة لترويج آرائهم والدعوة الى مذاهبهم. ولهذا نجد الحرية في النتيجة وعند عامة المطالبين قيداً حديدياً يقيد الناس به بعضهم بعضاً، وسوطاً يلوحون به بعضهم بوجه بعض.

ولكننا اذا رجعنا الى ما يمكن ان نفهم من هذا اللفظ (الحرية) بطريقة علمية موضوعية، [فهو] يعني اطلاق السبيل واطلاق السرب، بمعنى ان يكون هناك مانع يقيد الفرد عن القيام بالتصرف المعين سوى ارادته الخاصة. والحرية بهذا المعنى موارد ومصادر، ولكل مورد حكم معين نستمده اما من العرف الاجتماعي او الدين او القانون، ولكل مورد ايضاً مجال في التطبيق العملي غير مجال الآخر. واذن فاطلاق القول في الحرية والحكم عليها بحكم عام،

صورة من الأصل بخط السيد الشهيد

وحدة الصف في الاسلام

الثلاثاء ٢٩/١٢/١٣٨٣
١٣/٥/١٩٦٤

(١)

٤١٩

وحدة الصف من الامور الجوهرية الاساسية الحاسمة، في حياة كل امة، ونجاح كل حركة، ونيل كل شعب حقه من العدل والحياة. وبدونه لا يمكن ان ينال امر هدفاً او ان يصل الى اي نتيجة ناجحة في اي عمل اجتماعي عام.

وقد اصبح هذا المفهوم، في ايامنا الحاضرة واضح المعالم، وبديهي الصحة، بعد ان اثبتت التجارب في واقعنا العملي الحاضر، صحته وجدارته.

ونحن في هذا البحث نريد ان نرى موقف الاسلام من هذا المفهوم الجوهري العظيم، وان نتميز وجهة نظره فيه بدقة ووضوح.

فان الاسلام بصفته حركة اصلاحية عالمية شاملة، تستهدف قيادة البشرية جمعاء نحو شاطئ العدل والنور — يحتاج الى وحدة في الصف وتكتيل في الرأي ومركزية في العاطفة، اكثر من اي حركة اخرى تقصر عنه في الاهداف والمخططات. فان الهدف كلما اتسع نطاقه وعظمت اهميته، كلما احتاج في سبيل الوصول اليه الى دقة اكثر، وتفكير اعمق وتخطيط اشمل، لكي يحترز من الخطأ في الطريق او الهدف، ومن الزلة ببعض الاحجار المبثوثة هنا وهناك، حتى لا يسقط بها المذهب سقطة مؤلمة قد لا يقوى بعدها على القيام.

اذن فلابد للاسلام، وهو بهذه السعة والشمول، ان يحكم خططه، ويدقق في اتجاه تنفيذه، وان يزيد من هدى اصحابه وذويه من حيث اطلاعهم على عوائق الطريق وتفاديهم في سبيل الدين الحنيف.

وهكذا كان . . . . . .

وكان من جملة [illegible] الجهات الرئيسية التي اهتم الاسلام بنظر الاعتبار

طالوت

قائد جيش الايمان

(أ) ١٩٠

- ١ -

ان الحكمة الالهية، بعد ان رأت قصور العقل البشري عن ادراك واقع المصالح البشرية وحقيقة السعادة الانسانية، ورأت قصور تفكيرهم عن الآفاق الرحبة والاجواء اللانهائية التي تريدها لهم، ورأت ارتباط افكارهم وآرائهم ضمن محسوساتهم ومرئياتهم وفي حدود حياتهم، بحيث يصعب عليها ادراك الكون الروحي الرحيب حيث السعادة والخلود، الا بتأييد الهي عظيم.

ومن ثم فقد رأت الحكمة الالهية ان عليها في سبيل الاخذ بيد هذا البشر القاصر الى المستقبل الافضل وفي سبيل قيادته الى شاطئ السعادة والسلام، عليها ان تتصدى لتوجيهه وارشاده لتدله على الطريق وتعلمه ما هو له صلاح او انحطاط وفساد، وعليه بادرت الى انزال الشرائع وبعث الرسل واصدار التوصيات والتعاليم.

ولكن الحكمة الالهية اذ توجه الى البشر هذه التعاليم، واذ تطلب منهم اتباع اوامرها ونواهيها، لكي يصلوا الى ذلك الهدف العظيم الذي اعدته لهم، لا يمكن ان تدع البشر مهملاً ان شاء اطاع وان شاء تمرد، فانها بذلك لن تستطيع احراز وصوله ولا ضمان سعادته، تماماً كالطفل حين يجد في نفسه الترغيب الجميل لادخال يده في النار لما يرى فيها من الضوء الوهاج، في حين انه في عين الوقت يجب صرفه عنه بشدة وعنف لكي يتقدم ولكي لا يقع في النتيجة المؤلمة التي يجهلها. والبشر بالرغم من عقله وتفكيره اصغر من الطفل بالنسبة الى ابويه، اذا قيس عقله الى حكمة وقدرة خالقه العظيم.

نبوءة الإيمان

الأحد ١٩/ نيسان/ ١٣٨٣
الموافق ٧/ ذي الحجة/ ١٩٦٤

إنه مثل ... مجرد مثل ... نبع خلال الكلام، وتلاشى بعد برهة من زمن، ولم يبق له إلا أثر في الذهن وصورة في الخط.

وهذا هو شأن الأمثال على نحو العموم.

إلا أن المثل العبقري، الذي ارتفع عن مستوى الأمثال العام، ذلك المثل الذي حلق في أجواء الحكمة ونزل إلى أغوار الدقة والصدق، فكان قوله نوراً وقراءته هدى، وفهمه إيماناً. مثل يضع أمام الإنسان، في أول الحديث، صورة واقعه المؤلم ليراها، وليصدق أنها تحكيه وأن هذا هو بعينه واقعه الذي عاشه في عصور حياته وأثناء نشاطاته وتصرفاته. والمثل إذ يعرض هذا الواقع يعرضه على أنه واقع مؤلم فاسد يجب أن يزول ويجب أن يتحرر منه الإنسان وأن يرتفع عن مستواه. إنه واقع شاذ خطر يجب تبديله.

وهنا، وفي هذه النقطة بالذات يخلق المثل هذه الصورة المؤلمة، يفتح أمامك صورة رائعة شيقة للواقع كما ينبغي أن يكون، وللمجتمع الأفضل، المثالي في عقائده وأفكاره وأخلاقه، ذلك المجتمع الذي ينبغي أن يسود البشرية لكي تستطيع أن تحلم حينئذ بالوصول إلى الكمال.

وليس على الإنسان بعد استيعابه لكلتا الصورتين، إلا أن يحسن المقارنة، والفهم، وإلا أن يفكر وأن يهتدي.

وعندئذ ينقضي المثل، ويتلاشى جرسه خلال السطور، إلا أن صداه يظل يرن في الأذن ويجول في الذهن مدة من الزمن حتى تهضمه النفس ويختمر في العقل. وعندئذ يتم الهدى والإيمان والعقيدة الراسخة والإخلاص.

صورة من الأصل بخط السيد قدس سره

الخميس ٢٣/١٠/١٣٨٤
٢٤/٢/١٩٦٥

قصة رمزية

التضحية الأخيرة من الأدب الاجتماعي الهادف

٣٢٩

أضفى جو الليل البهيم، على هذه الغابة الكثيفة الشجراء، جواً أسود قاتماً، يوحي ما فيها من نبات وحيوان، بالوحشة والروعة، ويغير فيها ما كانت تعج به من أوجه نشاط الحياة، أثناء النهار، يغيره إلى نوع من الصمت العميق والسكون الموحش الدفين.

فلم يعد يسمع خلال هذه الغابة، المترامية الأطراف، إلا ما تحركه يد الأشجار من حفيف خفيف، يلامس آذان الآذان برقة وفتور، عندما تلامسها أنامل النسيم الهادئة. وإلا ما يسمع من أجنحة طيور الليل، وهي تغادر مكامنها إلى حيث مطالب الرزق. وإلا وقع أقدام وحش هائم، لم يتطرق النوم إلى عينيه من شدة الجوع، فمشى خلال الليل البهيم باحثاً عما يسد به رمقه من ضعاف الحيوان.

في هذا الليل، وتحت أفق هذا الجو الساكن، كانت تضطجع فوق العشب الوثير، وتحت مجموعة ملتفة رائعة من الأشجار الباسقة، لبوة مريضة، تجمع حولها أشبالها، وتئن بين الحين والآخر من وطأة الألم، وتستوحي من ذلك الجو الهادئ الرهيب، مزيداً من الوحشة والألم والكسل.

وكانت أوصال الألم تستشري في أعصابها بنشاط صامت، وتمشي في أعصابها بهمة هادئة، مستمدة من ذلك الليل البهيم حيوية متزايدة، ونشاطاً منقطع النظير.

آلام اللبوة تتزايد شيئاً فشيئاً، ولواعجها تشتعل فيها باستمرار، وآهاتها وأنينها يزداد تتابعاً ويتأكد عمقاً. مرة ينطلق منها الزئير انطلاق المتعجرف الثائر، وأحياناً يخرج من بين أشداقها خروج اليائس الصامت.

حول الادب الاسلامي الملتزم

محمد الصدر

(١) ٥٥٠

لابد وهناك شيء معين يهز النفس ويسيطر على مشاعرها كالادب

فان للنفس البشرية ذوقاً جمالياً حساساً، تدرك به المناطق الحساسة التي تعج بالجمال في هذا الكون، فتشرب من منهلها العذب وتتملى اشعاعها المنير.

وليست هذه الحاجة الجمالية، باقل اهمية، على الاطلاق، من اي حاجة بايولوجية او عقلية او نفسية في الانسان، فانها ايضاً، بدورها، تتطلب الاشباع، شأنها في ذلك شأن اي غريزة اخرى، وعلى الانسان ان يطيع هذا النداء في حدود السلوك العادل الصحيح، فيتتبعها مما في هذا الكون من نقاط يتمركز فيها الجمال. وباشباعها يستطيع الانسان ان يتخلص من زحمة الاعمال وتراكم المسؤوليات، وان يصعد بنفسه الى الافق العاطفي الاشقر الرقراق فينطلق في لحظات حالمة من الزمن مع ملذات نفسه الحالمة، يستنشق خلالها عبير الكون الكبير.

ومن هنا نستطيع ان نعرف بوضوح، ان عدم اشباع هذه الغريزة الجمالية في النفس، يعني بشكل مباشر، الجدية في العمل اكثر من المعتاد والدوران في دائرة مغلقة من المسؤوليات والارتباطات، بحيث قد تؤثر اثرها السيء على النفس، وتحدث فيها امراضاً نفسية او عقلية غير محمودة العاقبة.

(٢)

والادب هو اهم وسيلة لاشباع هذه الفطرة الجمالية في النفس، في حدود التعاليم الاسلامية.

فنحن، اذ نريد ان نسقط من اعتبارنا ادوات اللذة المصدرة [illegible]

صورة من الأصل بخط السيد الشهيد

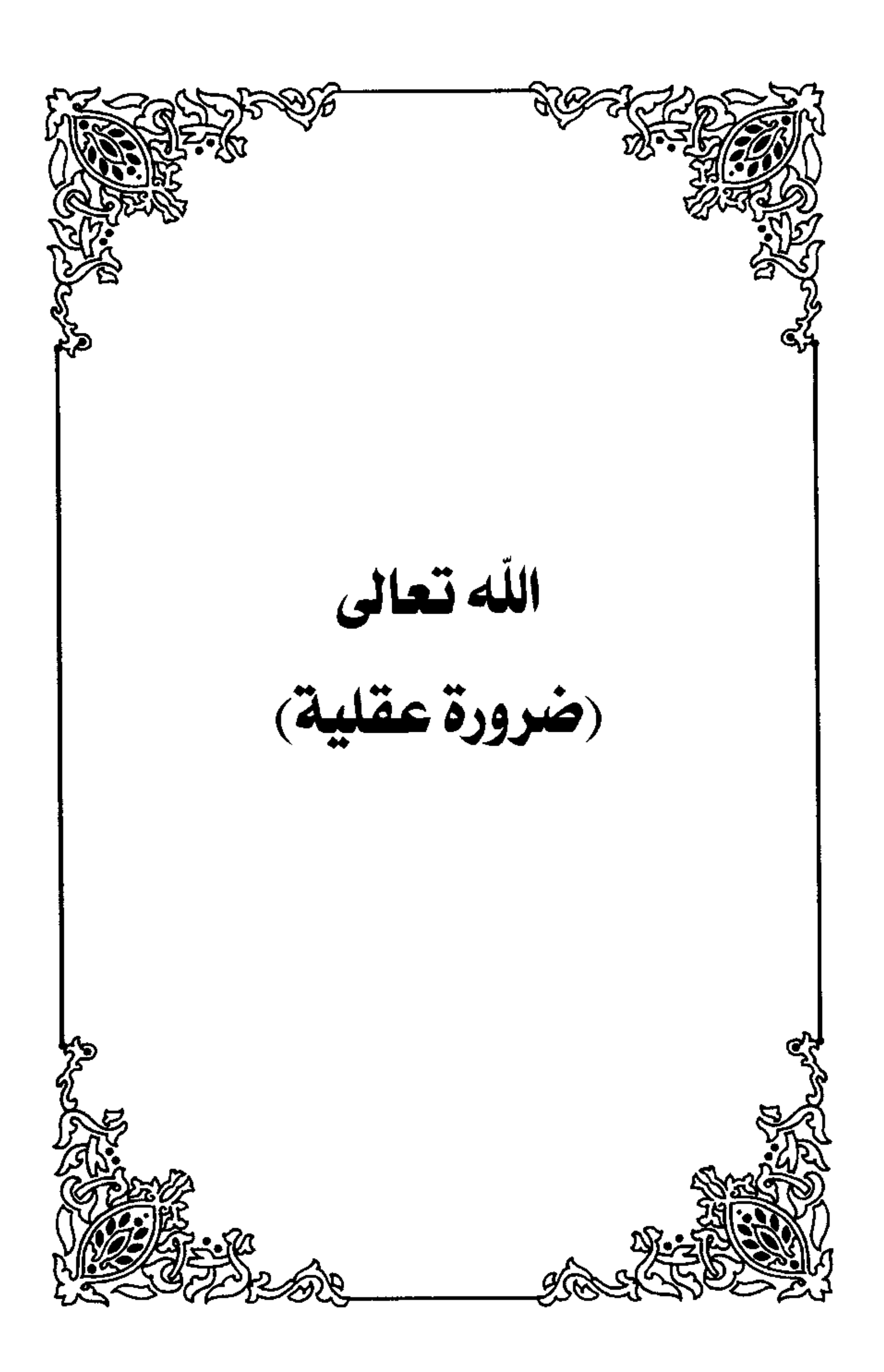
الاربعاء ١٨/رمضان/١٣٨٤
الموافق ٢٠/١/١٩٦٥

شرود

٤٥٧

حارت النفس والبلابل تشجي | وفم الفكر ماله تغريد
حارت النفس بين امواج شتى | ليس تدري منايها تستزيد
بين قبض تشكو وبين تراب | ليس تدري في سرها ما تريد
فرحة ثم ترحة ثم انس | ثم ضيق ثم انفراج جديد
ليس تدري منايها تملأ الذ | هن ومن ايها الخير المنشود
ليس تدري ماذا يكون فتحلو | زهرة الانس في الربا والنشيد
ام ترى ما يكون يوما فيطغى | لحن حزن قوامه التنكيد
حارت النفس بين هذي وهذي | والمنى ثرة وفكر شريد
ليس تدري ماذا يجيء به الد | هر وماذا من امره قد يريد
ليس تدري هل فيه الارض لهو | ام سرور ام موته وجمود
ليس تدري ماذا تضم الخبايا | في الزوايا وما الذي تستفيد
وهل الدهر في الحقيقة والوا | قع ان فكر اللبيب الرشيد
دهر لهو شكل الذي قد نراه | ام عناد وشقوة وركود
ويل نفسي اذن وويل حياتي | حيرة تستبيها وشرود
وهي ضمن الايام تحلو وتموج | ثم تهوي كأخرى واخرى تعود
وهي لولا الاله والامل الرطب | بجو فيه الزمان بعيد
امل في الخلود في خير دار | افق خالد وجو سعيد
فهي لولاه لاضمحلت سريعا | ولافنى اهابها التبديد
ولاضحت صريعة من سقام | ساحق نحوها زمانا عنيد

رسائل ومقالات



الله تعالى

(ضرورة عقلية)

الله تعالى (ضرورة عقلية)

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1].

الاعتراف بوجود الله عزّ وجلّ من أعظم الأُسس والقواعد التي يرتكز عليها الإسلام الحنيف، فلن يكون عملٌ من أعماله أو شعارٌ من شعائره إلّا هشيماً تذروه الرياح ما لم يقترن بهذا المبدأ السامي ويمتزج به امتزاج الروح بالبدن .

إنَّ الاعتراف بوجود الله تعالى يُحدث طمأنينةً في النفس وراحةً للضمير، حيث يعتبر المؤمن أنَّ لرزقه كافلاً، ولأمره مدبّراً، وللشرِّ الذي وقع عليه صارفاً، وللخير الذي ذهب عنه مجدّداً، ولذنبه غافراً، ولعيبه ساتراً، ولعمله شاكراً. فلن يخاف من الأقتار والشرور وطوارق الليل والنهار ما دام هنالك ربٌّ حكيم عليم، يعلم بحاله، ويدبّر شأنه، ويستجيب له [إذا] دعاه، ويمكنه رفع ما ألمّ به.

ولن تذهب أعماله الطيّبة أدراج الرياح بعد أن جعل لها في دين الإسلام المنزلة الكبرى، فليس الثواب مقتَصراً على الواجبات، بل يعدوه إلى كثير من الأُمور الاجتماعيّة الحيويّة، كسعي المؤمن في قضاء حاجة أخيه المؤمن، وفي سبيل الصالح العامّ، وفي سبيل الترفيه عن العيال، وكسعي المرأة لإسعاد زوجها وأولادها وتنشئتهم أولاداً صالحين، وأمثال ذلك كثيرٌ في الإسلام .

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.



وقد استند الإسلام في الاستدلال على وجود الله تعالى وتوحيده على جملةٍ من البديهيّات العقليّة التي يدركها الإنسان لأوّل وهلة، ويدركها في كلِّ ناحيةٍ من نواحي حياته؛ لأنّها من الأُمور الجبلية الفطريّة التي لا تحتاج إلى أيّ فكرٍ ونظر، فقد قال عزّ من قائل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَ يُوقِنُونَ﴾[1].

والاستدلال بهذه الآية يدور حول احتياج الممكن - وهو الذي يستوي فيه طرفا احتمال وجوده وعدمه في نظر العقل - إلى علّةٍ ترجّح وجوده ليوجد هذا الممكن، ومع عدم ترجّح طرف وجوده بعلّةٍ موجبة لذلك فلا يمكن أن يوجد؛ لأنّ احتمال الوجود والعدم ما دام متساوياً في نظر العقل فلابدَّ من مرجّحٍ لأحد الطرفين ليحكم العقل به.

وهذه القاعدة وإن كانت دقيقة التفاصيل صعبة الفهم، ولكنّها مع ذلك بديهيّةٌ أوّليّة، يدركها حتّى مَن لا يعرف القراءة والكتابة، فكيف يشتري الفقير داراً بدون مال لديه؟ أم كيف يداوي الطبيب مريضاً بدون دواء؟ أم كيف يرتوي العطشان بدون الماء؟



إذن، فلابدَّ للفقير من المال لشراء الدار، ولابدَّ للطبيب من الدواء لعلاج المريض، ولابدَّ للعطشان من الماء ليرتوي، ولابدَّ للممكن من علّةٍ ليوجد، ولا يمكن أن يوجد الممكن؛ لأنّه محتمل الوقوع فقط؛ لأنَّ مجرّد الاحتمال ليس له القوّة الكافية لدفع الممكن من العدم إلى الوجود؛ لأنّه خالٍ من ترجيح طرف الوجود، كما أنَّ مجرّد احتمال أن يشتري الفقير داراً بدون أن يكون لديه النقد الكافي، ومجرّد احتمال علاج المريض بدون أن يستعمل

(١) سورة الطور، الآيتان: ٣٥-٣٦.

الدواء، لا يمكن أن يكون موجباً لشراء الدار وشفاء المريض.

والاستدلال المستند إلى البديهيّة في الآية الكريمة، يمكن أن يُجعل بهذه الصورة: الممكن إمّا أن يخلق بدون واسطة شيء، أي: بدون علّةٍ توجب وجوده، وإمّا أن يُخلق بواسطة خالقٍ قدير؛ وحيث انتفى القسم الأوّل منهما بقوله تعالى على سبيل الاستفهام الإنكاري: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، وهو ما سبق أن ذكرناه من عدم إمكان وجود الممكن المتساوي طرفي الوجود والعدم بدون علّةٍ مرجّحة لطرف وجوده، تعيّن القسم الثاني، وهو وجوب وجود الممكن بواسطة خالقٍ قدير.

وتوخّياً لاستيعاب جميع الاحتمالات لاختبار الصواب منها نقول: إنَّ هذا الخالق إمّا أن يكون من بعض الممكنات، أو يكون كلّ الممكنات، أو يكون شيئاً خارجاً عنها مسيطراً عليها. وندفع الاحتمالين الأوّلين ببديهة أنَّ الممكن يستحيل أن يكون خالقاً لنفسه كلّه أو بعضه، أو يكون بعضه خالقاً له؛ لأنّه إمّا أن يخلق نفسه حال عدمه وقبل أن يكون شيئاً له وجودٌ خارجيّ، فهو باطل؛ لضرورة عدم إيجاد المعدوم للموجود؛ ولأنَّ المعدوم هو - في الحقيقة - لا شيء، فكيف يوجد شيئاً من الأشياء.

وأمّا أن يخلق الممكن نفسه حال وجوده، وهو باطلٌ أيضاً؛ لأنّنا بعد فرضنا لوجوده فلا حاجة تبقى له لخلق وجود آخر، وهو ما يسمّى باصطلاح الفلاسفة بتحصيل الحاصل، وهو محال.

وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة محيلةً دليله إلى الفطرة العقليّة: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[1]، فتعيّن إذن

(١) سورة الطور، الآيتان: ٣٥-٣٦.

القسم الثالث من الاحتمالات، وهو أن يكون الخالق خارجاً عن الممكنات، مسيطراً عليها سيطرة إيجادٍ وخلق.

ومن الطرق المهمّة التي سلكها الإسلام في تنبيه العقل إلى وجوده تعالى، التفكّر في خلق الله وإجالة النظر في هذا الكون العجيب؛ ليظهر أمام الناظر ما احتواه من قوانين دقيقةٍ ونظم رتيبةٍ وظواهر مدهشة. وكيف أنّها لابدَّ وأن تكون صادرة عن قوّةٍ قادرة عالمة مدبّرة، فقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

وألفت الإسلام نظر الإنسان أيضاً إلى دخيلة نفسه وأعضاء جسمه، وما جعل الله فيهما من قوى فعّالة وطاقاتٍ هائلة، فقال عزّ وعلا: ﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾[3]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾[4].

---

(١) سورة، البقرة، الآية: ١٦٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٨.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٤.

(٤) سورة الروم، الآية: ٥٤.

ونبّه الإسلام أيضاً في القرآن على نعم الله وما خصّ الإنسان به من أسبابٍ للمعيشة المريحة والحياة المطمئنّة، ونبّه على ما في ارتفاع هذه النعم الجمّة على البشريّة من سوءٍ وضرر، فقال تعالى عزّ شأنه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾[1].

ولأجل هذه البداهة التي يتجلّى بها البرهان الإلهيّ، صار من الواجب العقليّ على كلِّ فردٍ أن يفكّر ويجيل النظر ويطيل التأمّل في عجائب ما خلق الله؛ ليهتدي إلى الله، وليستضيء بنوره: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2].

وكلّ مَن فكّر وتدبّر فلابدَّ أن يصل إلى النتيجة، ولابدَّ أن يهديه الله إلى سبيله، ويرشده إلى رضاه، ومَن امتنع عن التفكير كان عاصياً لعقله، متمرّداً على ضميره، خارجاً عن وجدانه وجبلّته.

وكان حديث الإسلام عن الله تعالى وعن صفاته، الذي جاء في القرآن الكريم وعلى لسان الرسول صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام، أساساً لقواعدٍ فلسفيّة دقيقة، وبحوث عميقة، ممّا أثار الكثير من العجب والاستغراب في أن يبزغ شخصٌ من بين بدو العرب في الصحراء العربيّة القاحلة؛ ليستدلّ بمثل هذه الأدلّة المنطقيّة الدقيقة على خالق الكون ومدبّره، التي مهما ترقّى الإنسان في تفكيره واتّسع أُفق نظره في هذا الكون، فلن يصل إلّا إليها أو ما يدور في فلكها.

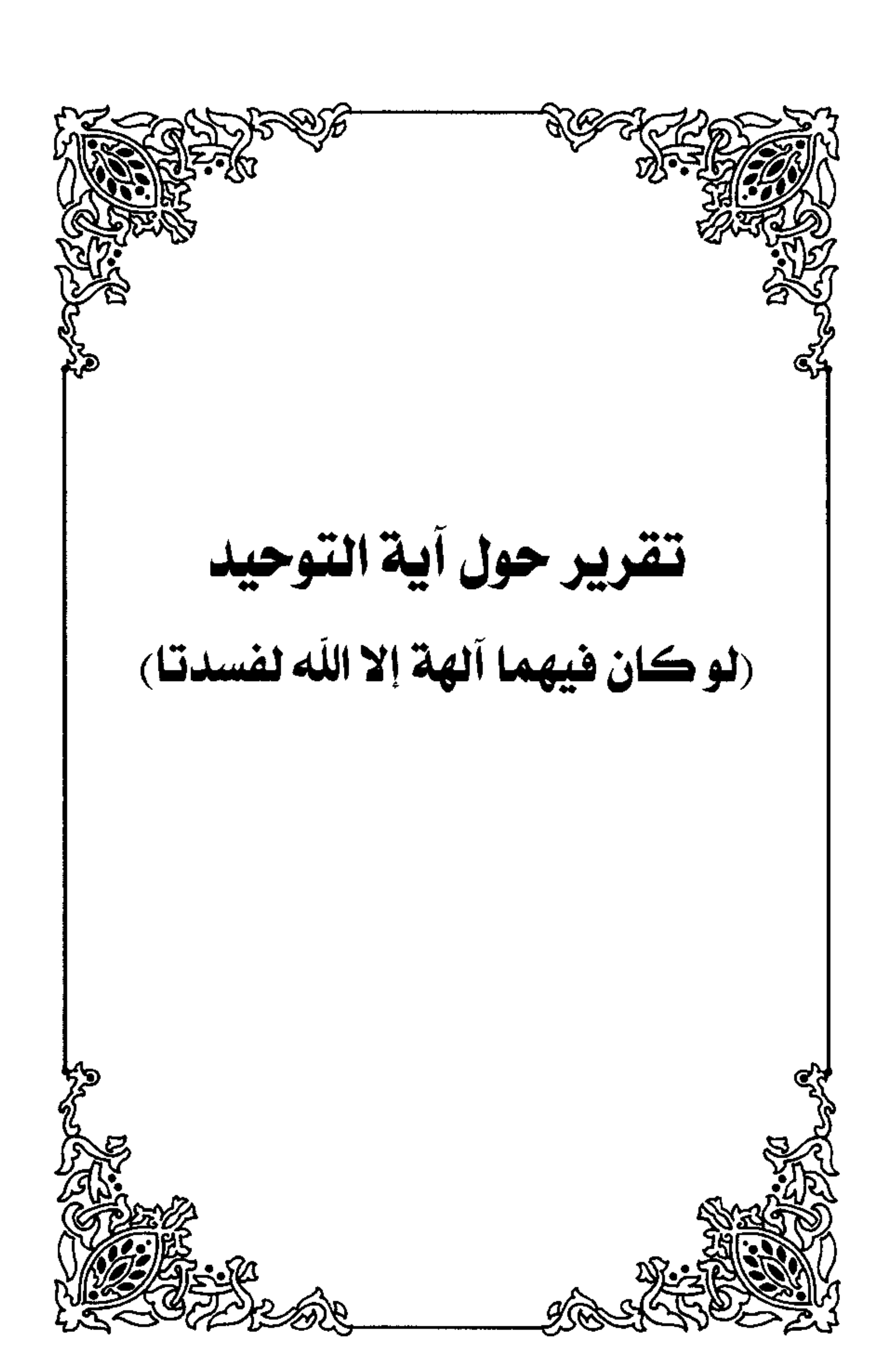
(١) سورة، القصص، الآيتان: ٧١-٧٢.

(٢) سورة، يونس، الآية: ١٠١.

وقد اعترف علماء البشر ومفكّروهم بوجود المبدأ الأعلى وأنّه واحدٌ لا شريك له، وذلك كنتيجةٍ حتميّةٍ لنظرهم في عجائب هذا الكون وفي دقيق قوانينه وعظم خلقته، سواء كان نظرهم في الكيمياء، أو الفيزياء، أو الجغرافيا، أو الطبّ، أو التاريخ، أو علم طبقات الأرض، أو علم النفس، أو علم الاجتماع، أو الفلسفة، أو غيرها من العلوم؛ لأنَّ في كلِّ شيءٍ أثراً لصانعٍ حكيم ويداً مدبّرة، وقد قال سيّدنا ومولانا أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام حين سُئل عن إثبات الصانع: «**البعرة تدلّ على البعير، والروثة تدلّ على الحمير، وآثار القدم تدلّ على المسير، فهيكل علويّ بهذه اللطافة، ومركز سفليّ بهذه الكثافة، كيف لا يدلّان على اللطيف الخبير؟**»[1][2].

(١) بحار الأنوار ٣: ٥٥، الباب ٣، باب إثبات الصانع والاستدلال بعجائب صنعه على وجوده ...، الحديث ٢٧.

(٢) نُشرت في مجلّة الأضواء الإسلاميّة في عددها المزدوج: الثالث والعشرون والرابع والعشرون، من سنتها الأُولى، بتاريخ: ١٣٨٠ هـ.



تقرير حول آية التوحيد

(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)

تقرير حول آية التوحيد

(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)[1]

هناك تقريبٌ تقليديٌّ للآية ذكره الكثيرون[2]، منهم الشيخ الطوسي في تفسيره[3]، وهو أن يقال: إنَّه لو كان فيهما إلهان اثنان للزم المحال، فنعرف بطريق (الإنّ) عدم وجود الإلهين.

تقريب الملازمة: أنّنا إذ نفرض الإلهين فلابدَّ أنّهما كاملان من جميع الجهات؛ إذ لو كانا قاصرين أو كان أحدهما قاصراً لم يكونا إلهين لا محالة، ومعنى كونهما كاملين هو تأثير إرادتهما الكاملة في المخلوقات، وحينئذٍ فقد يحدث أن يريد أحدهما وجود شيء، والآخر عدمه.

وحينئذٍ فإمّا أن لا تُؤثّر كلتا الإرادتين، فقد لزم تخلّف المعلول عن علّته، وأمّا أن تُؤثّر إحداهما دون الأُخرى، إذن فالأقوى هو الإله. وإمّا أن تُؤثّر كلتا الإرادتين، فيلزم وجود الشيء وعدمه وهو محال[4].

---

(١) [تاريخ كتابة البحث] الجمعة: ٤/ ٨/ ١٣٨٦ = ١٨/ ١٠/ ١٩٦٦ (منهقُدِّسَ سِرُّه).

(٢) راجع على سبيل المثال: متشابه القرآن (لابن شهر آشوب) ١: ١٠٥، الكفر، والمنتخب من تفسير القرآن (لابن إدريس الحلّي) ٢: ١١٧، علّة امتناع وجود إلهين فيهما، وتفسير القرآن (للفخر الرازي) ٢٢: ١٥٠، قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ..﴾.

(٣) أُنظر: التبيان في تفسير القرآن (للشيخ الطوسي) ٧: ٢٣٨، في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

(٤) وهو معنى الفساد في الآية (منهقُدِّسَ سِرُّه).

وقل نفس الشيء بالنسبة إلى الضدّين وإلى التفكيك بين المتلازمين ونحو ذلك.

إلّا أنَّ هذا التقريب غير تامٍّ؛ لأنّه مبنيّ على العلم باختلاف الإلهين أو احتماله، ليلزم منه العلم باجتماع النقيضين أو احتماله، وكلاهما محال.

إلّا أنَّ الحقيقة هي أنّه - كما ذكر سيّدنا الخميني دام ظلّه[1]- من أنَّ مقتضى الحكمة الكاملة - المفروضة في كلا الإلهين- هو الاتّفاق من جميع الجهات.

وذلك: بأن يُقال - بتقريبٍ منّي-: إنّنا بعد إثباتنا في محلّه واقعيّة مدركات العقل العملي والنظري معاً. إذن، فالشيء - أيّ شيءٍ في ذاته- إمّا أن يكون بحسب العقل النظري أو العملي، ممّا ينبغي وجوده في الواقع أو ممّا لا ينبغي وجوده.

فإن كان ممّا ينبغي وجوده، فهذان الإلهان بحكمتهما الكاملة اللامتناهيّة - على الفرض- يدركان ذلك فيتّفقان على إيجاده، وإمّا أن يكون ممّا لا ينبغي وجوده، فيتّفقان على إعدامه.

ويستحيل أن لا يتّفقا؛ لأنّه عند عدم اتّفاقهما إمّا أن نفرض مطابقة نظر كلٍّ منهما للواقع، فيلزم اجتماع النقيضين في الواقع لا محالة، وهو أن يكون الشيء الواحد مما ينبغي وجوده وممّا لا ينبغي وجوده في عين الوقت، وهو مستحيل.

وإمّا أن نفرض خطأ أحدهما، فهو خلف كونهما كاملين.

---

(١) أُنظر: كتاب البيع (من أبحاث السيّد الخميني قدس سره بقلم السيّد الشهيد محمّد الصدر قدس سره) ٢: ٢٩٢، حول منافاة التعليق مع الجزم.

إذن، فالاختلاف بين الإلهين الكاملين المفروضين، مستحيلٌ وغير محتملٍ لكي يصحّ لنا هذا التقريب.

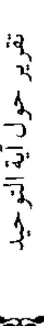
وقد بنى سيّدنا الخميني دام ظلّه على أنقاض هذا الدليل دليلاً آخر: وحاصله[1]: أنّه لو كان فيهما آلهةٌ إلّا الله لم يوجد شيءٌ في العالم أصلاً، وهو معنى الفساد في الآية، وذلك للزوم اجتماع علّتين تامّتين على معلولٍ واحد، وهو محال. وأمّا فرض أنّ الإلهين يتقاسمان العالم، فهو أيضاً غير ممكن؛ لأنّ الشيء إذا وصل إلى درجة الاستحقاق للفيض فلابدّ أن يفاض عليه.

وحينئذٍ فيُقال – وهذه التكملة من سيّدنا الأُستاذ الصدر –: إنّ إفاضة الإلهين معاً مستحيل؛ للزوم الإيجاد مرّتين، وهو من اجتماع المثلين، وهو غير معقول، وإفاضة أحدهما دون الآخر ترجيحٌ بلا مرجّح[2].

إلّا أنّ سيّدنا الأُستاذ الصدر ناقش هذا التقريب، فذكر ما حاصله[3]:

أنّ هذا التقريب مبنيٌّ على أصالة الماهيّة؛ إذ لو تصوّرنا أنّ الماهيّة هي المتأصّلة؛ لصحّ لنا أن نسأل: أنّها إن استحقّت الوجود، فمَن هو الذي يفيض عليها؟ فيقع التزاحم بين الإلهين في هذه المرحلة.

إلّا أنّ الصحيح هو القول بأصالة الوجود، ومقتضاه: أنّ المفاض والمتحقّق في الواقع هو الوجود، وإنّما الماهيّة تُنتزع من جهات نقص وعدمه،



(١) أُنظر: كتاب البيع (من أبحاث السيّد الخميني قدس سره، بقلم: السيّد الشهيد محمّد الصدر قدس سره) ٢: ٢٩٢، حول منافاة التعليق مع الجزم.

(٢) لم نعثر على ذلك فيما بين أيدينا من مصادر أبحاث السيّد الشهيد الصدر الأوّل قدس سره، ولعلّه موجود في مصادر خاصّة عند الشهيد الصدر الثاني قدس سره لم نطّلع عليها.

(٣) لم نعثر عليه أيضاً.

وهذا الوجود المعلول هو عين الارتباط والتعلّق بموجده، وما دام هذا المطلب موجوداً، وهو أنَّ من طبيعة الإله الفيض - هكذا عبّر السيّد الأُستاذ- فكلّ من الإلهين يفيض ما يشاء من الوجودات.

وحينئذٍ ينسدّ باب هذا التساؤل؛ لاستحالة أن يكون الوجود الواحد مفاضاً من إلهين. فإنَّ هذا التساؤل إنَّما يتمّ إذا تصوّرنا قيام الشيء في ذاته وفي مرحلة ماهيّته مع تردّده في تلقّي الفيض من أيٍّ من الإلهين. أمّا إذا لم يكن كنه الشيء إلَّا الوجود، وهو محض التعلّق والارتباط، إذن يرتفع موضوع هذا السؤال؛ إذ يكون كلّ وجودٍ مرتبطاً بعلّته لا محالة - وهو أحد الإلهين- ويستحيل أن يكون الوجود الواحد مفاضاً من إلهين.

ثُمَّ بنى سيّدنا الأُستاذ على أنقاض هذا التقريب تحقيقاً فنيّاً في تقريب الآية، وحاصله[1]:

إنَّه لابدَّ أوّلاً من أن يُعلم أنَّ المدَّعى الذي تتعرّض له الآية، هو بهذا المقدار، وهو نفي الإله عن هذا العالم الذي نعيش فيه، فلابدَّ أن يكون الدليل على مقدار المدّعى، وغير متعرّض إلى أصل استحالة تعدّد واجب الوجود؛ فإنَّ هذا مطلبٌ آخر يتعرّضون إليه في الفلسفة.

وحينئذ فيقال: إنَّه على تقدير وجود الإلهين، فلابدَّ من فرضهما كاملين من جميع الجهات من ناحية، ومتباينين بالذات والإنيّة من ناحيةٍ أُخرى، بحيث لو أردنا أن نتكلّم بلغة الماهيّات، لقلنا إنَّهما متباينان في الماهيّة، إلَّا أنَّنا الآن نقول أنَّهما متباينان في الإنّيّة، وهذا وإن لم يكن معقولاً في الوجود.

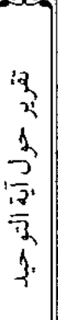
---

(١) لم نعثر عليه أيضاً.

وهذا يصلح في نفسه أن يكون دليلاً على التوحيد، إلّا أنّه غير البرهان الذي تذكره الآية، فالآن نتكلّم على تقدير إمكان ذلك.

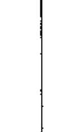
وما دمنا قد فرضناهما متباينين بالذات، إذن فلابدَّ أن ينعكس هذا التباين على المعلولات أيضاً، لأنَّ معنى العلّيّة هو كون العلّة مستبطنةً للمعلول على شكلٍ أرقى وأتمّ، ومعنى وجوده هو تحدّده بحدودٍ عدميّةٍ جديدة، ومن ثَمَّ نتنزع منه أنَّ له ماهيّة وأنّه معلول.

إذن، فمعلومات كلّ إلهٍ تكون مباينةً ذاتاً للإله الآخر. وإذا كان الأمر كذلك، فلا يمكن أن يحدث بين أيّ معلولٍ لهذا الإله ومعلولٍ للإله الآخر أيّ تفاعل وتأثير وتأثّر؛ فإنَّ ذلك إنّما يحدث في (العائلة) الواحدة من المعلولات؛ إذ يعني التفاعل والتأثير والتأثّر بينها كون هذا التفاعل صادراً عن خالق هذه (العائلة).



أمّا إذا كانت المعلولات من عائلتين ومجموعتين متباينتين بالذات، فيستحيل التفاعل بينهما؛ إذ معنى التفاعل بينهما هو تأثير خالق هذه العائلة في معلولات الآخر، وبالعكس، وهو محال؛ لفرض التباين الذاتي بينهما وبين معلولاتهما.

فإذا ثبتت هذه الكبرى، وهي استحالة التفاعل والتأثير والتأثّر بين معلولات الإلهين، لم يبقَ إلّا أن نضمّ إليها الصغرى، وهي أنَّ التفاعل موجودٌ بين سائر أجزاء هذا الكون الذي نعيش فيه على سعته، بما فيه من أرضٍ وسماء، وأنَّ العلم الحديث كلّما يتقدّم يؤكّد هذه الحقيقة.

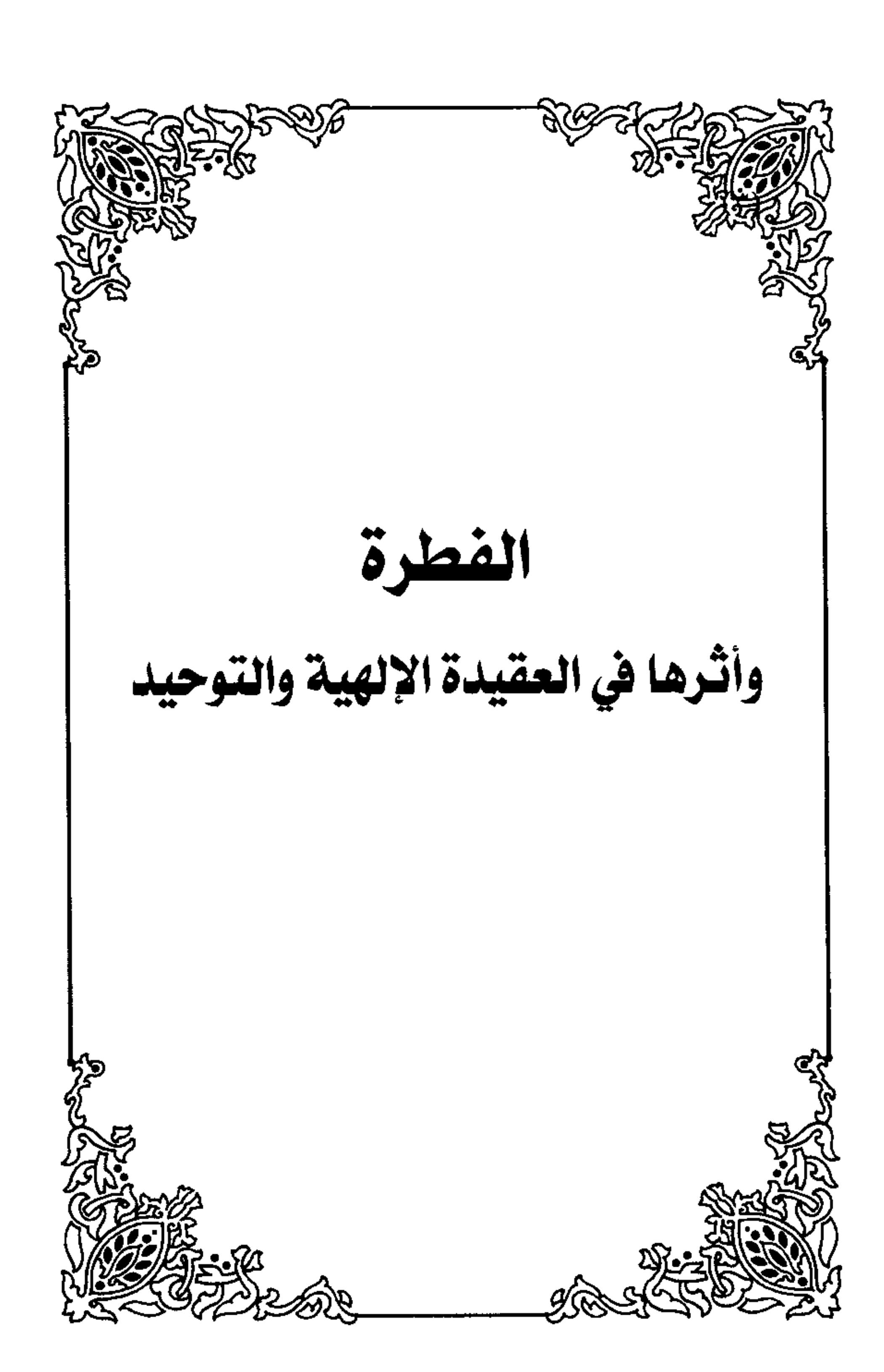


أمّا في الأرض وما فيها من إنسانٍ وحيوانٍ ونباتٍ وماء ويبس، فهو بمنتهى الوضوح والبداهة، وأمّا في الكون الخارجي فللارتباط العامّ بين

حركات الكواكب ومداراتها وجاذبيّاتها، وغير ذلك من الأُمور التي تزيد وضوحاً في نظر العلم يوماً بعد يوم.

فإذا ثبتت هذه الصغرى، وهي وجود التفاعل التامّ والتأثير والتأثّر بين سائر أجزاء الكون، نعلم بوضوح أنَّه لو كان هناك (عائلتان) أو مجموعتان من الأجزاء في الكون، كلٌّ منهما مخلوقٌ لإله، لاستحال التفاعل بينهما على ما أثبتناه في الكبرى، وهو معنى الفساد في الآية.

إذن نستكشف من وجود الانسجام في الكون وحدة خالقه جلّ وعلا.



الفطرة

وأثرها في العقيدة الإلهية والتوحيد

الفطرة وأثرها في العقيدة الإلهية والتوحيد[1]

قال الإسلام بالعقيدة الإلهيّة وقال الإسلام بالتوحيد، وجعلهما العقيدتين الرئيسيّتين في دينه، ولكنّه في نفس الوقت أكّد بأنَّ هاتين العقيدتين ليستا من مخترعاته ومبتكراته، بل إنَّه إنَّما قال بهما على أساسٍ من الفطرة، وإنَّما أوجبهما امتثالاً لندائها الحثيث، فهو لم يكلّف الناس في هاتين العقيدتين أكثر ممّا تضجّ به نفوسهم، وتُؤمن به بواطن عقولهم، ولم يأمرهم في سبيل البرهنة عليهما، أكثر من الرجوع إلى صميم ضمائرهم، وتلمّس حقيقة فطرتهم، ليجدوا هناك جذوة الإيمان متّقدةً في الأعماق، تنشر دفء الإيمان وحرارة اليقين في ربوع النفس. فالنفوس كلّها مطبوعةٌ على الحقّ، ومفطورةٌ على الاعتراف بوجود الله جلّ وعلا، والخضوع له، وعلى الإيمان بتوحيده، وإنَّما تشوّشها وتبعثر عقائدها وأفكارها، تلك الغرائز والمصالح التي تسير بالإنسان إلى هوّة الفساد. وليس على الإنسان في سبيل الرجوع إلى ذلك الحقّ النابع في أعماقه إلَّا التجرّد من هذه الثياب الزائفة، والنظر إلى الحقيقة بعين الإنصاف المخلص.

قال الله عزّ وعلا في كتابه الكريم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2]

---

(١) [تاريخ كتابة البحث] ١٥/ ٨/ ١٣٨٢ = ١٢/ ١/ ١٩٦٣م (منه قدّس سرّه).

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

فالدين إذن فطرة، وهي فطرةٌ أودعها الله عزّ وجلّ في نفس الإنسان لترشده إلى الحقّ ولتهديه إلى الصراط المستقيم، ومن ثَمَّ كان الحقّ وكان الدين أمراً فطرياً في النفس جُبل عليه الفرد في أصل خلقته التكوينيّة، وكانت النفس هي الهادية والمرشدة إلى ذلك الحقّ لَمن يصغي إلى ندائها ويستجيب لأوامرها. ولم يكن لأحدٍ إنكار هذا النداء والمكابرة عليه، فضلاً عن تغيير الفطرة أو تبديلها؛ فإنَّه لا مبدّل لخلق الله، وإنَّ الإنسان لأعجز من أن يغيّر من ذلك شيئاً إلَّا إذا استطاع أن يغيّر أيَّ ملكةٍ من ملكات نفسه.

إذن، فليس على الإنسان الطالب للحقّ إلَّا أن يقيم وجهه للدين حنيفاً ويستجيب لنداء الفطرة، لكي يهتدي ولكي يصل إلى الدين القيّم والحقّ الصريح.

ولا شكّ أنَّ هذا النداء الصادر من أعماق النفس، هو ألصق النداءات بالإنسان وأبلغها أثراً في نفسه، وأنَّ الوصول إلى الحقّ من هذا الطريق لهو أيسر الطرق وأسهلها، لذا فقد كان الاعتراف بالإسلام وبعقائده سهلاً يسيراً وموافقاً للبداهة والفطرة، وللبرهان العقليّ الصحيح.

بعد هذه المرحلة من البحث، لا شكَّ أن يثور السؤال عن الفطرة، ما هي، وما محلّها من الغرائز الإنسانيّة والملكات النفسيّة، ومن العقل البشريّ، وما هو مدى تأثير أحدهما بالآخر، وما هو بالضبط ما يمكن للفطرة أن تدركه، وما هو أثر العقل وأثر التعاليم الإسلاميّة في صقل إدراكات الفطرة وبلورتها؟

هذا ما سوف أحاول الجواب عليه فيما يلي من البحث، للنظر في النهاية مدى صواب نظر الإسلام في اعتماده على الفطرة في الاستدلال على عقائده الرئيسيّة.

يمكن أن نقسّم الفطرة بلحاظ ما تدركه من الأُمور إلى ثلاثة أقسام، يصطلح عليها بهذه العناوين الثلاثة: فهناك فطرةٌ ذاتيّة، وفطرةٌ كونيّة، وفطرةٌ عقليّة.

مع العلم بأنَّ هذا التقسيم لا يعني التعدّد الحقيقيّ، بمعنى التباين والتنافي بين الأقسام؛ فإنَّ الفطرة بحقيقتها واحدة. فإنَّ ثمّة قضايا فُطرت النفس - أي: خلقت - على إدراكها من صميم ذاتها تلقائيّاً، من دون أن تجد نفسها بحاجةٍ إلى البرهنة عليها بأيّ شكلٍ من أشكال الاستدلال. والملكة التي تدرك ذلك هي الفطرة وهي ملكةٌ واحدة. ولكنّنا ذكرنا هذه الأقسام بلحاظ مدركات الفطرة ومعلوماتها، وهي متعدّدة كما سيأتي عمّا قليل.

أمّا الفطرة الذاتيّة، فنشير إلى ما ثبت في محلّه من الفلسفة الإسلاميّة[1]، من أنَّ النفس تُدرك ذاتها وتُدرك علّتها وتُدرك معلولاتها، وأنَّ هذا الإدراك قائمٌ في النفس ملازمٌ لوجودها، لا يمكن أن ينفكّ عنها، ما دامت النفس موجودة، فهي تشعر بذاتها، أي: بالحصّة الوجوديّة التي تتّصف بها وتختصّ من دون كلّ الموجودات. وهي تشعر بعلّتها بلحاظ هذه الحصّة من الوجود التي تتّصف بها، فهي تدرك علّتها من خلال هذه الحصّة على مقدارها، ومن ثَمَّ فهي لا تدرك علّتها على سعتها وشمولها وإنّما تدركها بالقدر الذي يسمح لها وجودها أن تدركه. وهي تدرك معلولاتها، وهي الأفعال التي تقوم بها النفس بصورةٍ مباشرة، كالأفكار والخيالات والصور الذهنيّة، وحركات الجسم ما دامت الحركة موجودة.

(١) راجع رسائل الشجرة الإلهيّة في علوم الحقائق الربانيّة ١: ٤٨٨، مقدّمة في بيان كيفيّة معرفة الإنسان بنفسه.

وليس علم النفس بهذه الأُمور إلَّا علماً بسيطاً ساذجاً وإدراكاً صرفاً غير مشعور به[1]، وهو ما يسمّى بالعلم الحضوريّ، في مقابل العلم الحصوليّ، وهو العلم المركّب المشعور به؛ وذلك بأن يشعر الإنسان بأنَّه يشعر ويعلم أنَّه يعلم. وهذا القسم الثاني من العلم هو الذي نفهمه عادةً من لفظة العلم؛ لمدى وضوحه في النفس؛ لأنَّه علمٌ مشعور به.

وأمّا الفطرة الكونية، فهي ما يجده الإنسان في نفسه من الاندفاع إلى التساؤل عن علّة كلّ ما يقع عليه بصره وسمعه وسائر حواسّه، وما يعتقده من أنَّ لكلِّ حادثٍ سبباً ولكلِّ ممكنٍ علّة، وأنَّ من لغو القول أن نقول بأنَّ شيئاً مّا خرج من العدم إلى الوجود هكذا وبدون أيّ سببٍ ولا فاعل. فالإنسان عندما واجه هذا الكون ورأى غريب صنعته وبديع شكله، ودقيق قوانينه ونظمه، أخذت هذه الأُمور بلبّه وحيّرت عقله، وخضع خضوعاً تلقائيّاً فطريّاً، وآمن إيماناً عميقاً بأنَّ وراء هذه الحوادث الجارية ووراء هذه الأكوان العظيمة خالقاً جبّاراً قادراً، وعقلاً مدبّراً حكيماً، خلق هذا الكون وبسط عليه قدرته، وأعمل فيه حكمته، فبدا للناظرين بهذه الحلّة القشيبة الناضرة.

ووجود هذه الفطرة لدى الإنسان أوضح من أن يحتاج إلى برهان، فإنَّه يكفي للاستدلال عليها رجوع الإنسان إلى نفسه ونظره إلى باطن ضميره، فإنَّه سوف يجد نفسه خاضعاً لهذه الفطرة، منقاداً لندائها انقياداً تلقائيّاً، فإنَّ من فطرة الإنسان أنْ يتساءل عن مصدر الصوت ومطفئ السراج وعن أخذ الخاتم، ولن يحتمل أنَّ هذا الصوت قد ثار من تلقاء نفسه، أو أنَّ السراج قد

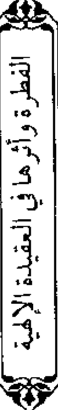
(١) مثال ذلك: شعور الإنسان بنفسه، سواء كان ملتفتاً إلى ذلك أم غافلاً (منه قدس سره).

انطفأ بدون سبب، أو أنَّ الخاتم قد اختفى بدون آخذ.

وإنَّ هذه الفطرة لتبدو في الكون بصورةٍ أوضح وأظهر، حيث التنظيم الرائع والجمال البديع والدقّة المتناهية، تلك المناظر التي تثير في النفس روعةً وإعجاباً، وتوحي إليها بوجود تلك العلّة اللانهائيّة الحكيمة التي أوجدت هذا الكون وقامت بهذا التنظيم.

وإنّا لنرجع بالإنسانيّة إلى عصورها الأُولى، فنستعرضها عصراً عصراً ومجتمعاً مجتمعاً، فلا نجد إلَّا أقواماً قد أدركوا أنَّ للكون خالقاً، وأنَّ لهذا التنظيم مدبّراً ومنظّماً، كلٌّ على حسب أُفق تفكيره وسعة مداركه وثقافته، وليس الإلحاد إلَّا نابعاً من جملةٍ متراكمةٍ من المصالح والغرائز والمسبقات الذهنيّة والثقافات المادّيّة التي تخرج بالإنسان عن طريق فطرته، وتسلك به طريق الضلال والفساد. وحتّى أولئك المفكّرون الذين تبجّحوا بأنّهم ملحدون وبأنَّ قانون العلّيّة لا يقوم على أساس، ومن ثَمَّ حاولوا أن يصوغوا من النظريّات التي تبرّر خلق هذا الكون من العدم، ما يعوّض عن هذا القانون القتيل، ولكنّهم في محاولتهم هذه لإيجاد مثل هذه النظريّات، قد اصطدموا - لو كانوا يعلمون - بالقانون نفسه، واضطرّوا إلى الانصياع إلى ندائه، وإلَّا فلماذا لم يفترضوا وجود الكون هكذا وبدون أيّ سببٍ وخالق يكون مبرّراً لوجوده، بدون أن يتجشّموا صياغة مثل هذه النظريّات المختلفة.

وأمّا الفطرة العقليّة، فهي ما نعنيه عندما نقول: إنَّ للعقل عدّة قضايا معيّنة لا تحتاج في نظره إلى برهان، بل إنّه مجبولٌ على تصديقها والإيمان بمحتواها، ومن ثَمَّ فهو لا يحتاج إلى التصديق بها إلى أكثر من تصوّر طرفيها: المحمول والموضوع، وفهمها فهماً صحيحاً؛ لأنّه سوف يرجع تلقائيّاً إلى فطرته



فيجدها موافقةً لمضمون القضيّة مذعنةً لمدلولها. ولأجل ما تتّصف به هذه القضايا من البداهة والوضوح، يجعلها العقل القضايا الأُولى التي يقيم عليها أدلّته وبراهينه على سائر القضايا النظريّة التي تحتاج إلى برهنة واستدلال.

ونحن نرى أنّه لابدّ من وجود مثل هذه القضايا البديهيّة في العقل، وإلّا لما أمكن الوصول إلى التصديق بأيّ قضيّةٍ على الإطلاق، فإنّه إذا كانت كلّ القضايا مشكوكة الصدق فسوف لن نستطيع الوصول إلى اليقين أبداً؛ لأنّه لابدَّ للبرهان من أن يعتمد على قضايا يقينيةٍ أو مسلّمة، لكي ينتج نتيجته المقصودة. أمّا إذا كانت كلّ القضايا مشكوكة، فمن أين تبدأ البرهنة وإلى أين تنتهي، وما الذي سوف يكون الحدّ الفاصل بصورةٍ قاطعة بين الشكّ واليقين؟

هذا الحدّ الفاصل في نظر العقل هو هذه القضايا البديهيّة الفطريّة، مثل: لابدَّ لكلِّ ممكنٍ من علّة، والنقيضان لا يجتمعان، والكلّ أكبر من الجزء، والعقل بمجرّد أن يُدرك معنى الممكن ومعنى العلّة، فإنّه يحكم بضرورة العلّة بالنسبة إلى الممكن، وبمجرّد أن يتصوّر معنى النقيضين، فإنّه يحكم باستحالة اجتماعهما، وبمجرّد أن يتصوّر معنى الكلّ والجزء، فإنّه يُذعن بأنّ الكلّ أكبر من الجزء، مستمدّاً إذعانه من فطرته الطبيعيّة.

بعد هذه المرحلة من البحث، وبعد أن عرفنا ما يجب أن نفهمه من الفطرة، ينبغي أن ننظر في صحّة تقسيمها إلى هذه الأقسام الثلاثة أوّلاً، ثُمَّ إلى مدى تأثير الفطرة بأقسامها في الإيمان بالعقيدة الإلهيّة وعقيدة التوحيد ثانياً، ثُمَّ إلى مدى تأثير هذه الأقسام بعضها ببعض، ومدى تأثيرها بالبرهان الصحيح وبما جاء به الإسلام، من ناحيةٍ ثالثة.

أمّا بالنسبة إلى صحّة تقسيم الفطرة إلى هذه الأقسام الثلاثة، فإنّه لا إشكال من استقلال القسم الأوّل[1] وقيامه بنفسه في مقابل القسمين الآخرين، ولكنّه قد يُثار الشكّ حول استقلال القسم الثاني[2]، من حيث احتمال اندماجه في القسم الثالث[3]؛ لأنَّ الفطرة الكونيّة إنَّما نشأت من إدراك الإنسان بفطرته العقليّة أن لابدَّ لكلِّ معلولٍ من علّة. فهي - إذن- مندرجة في القسم الأخير وليست قسماً مستقلاً في نفسه.

ولكن يمكن الجواب على ذلك: بأنَّ نشأة الفطرة الكونيّة من قانون العلّيّة العقليّ وإن كان صحيحاً، إلَّا أنَّه لا يعني اندماجه في القسم الثالث؛ فإنَّ مظاهر الكون وغرائبه قد أثارت في الإنسان العجب والإعجاب والإحساس بالضعف والضعة، ومن ثَمَّ الاعتراف بوجود الخالق القدير، ومثل هذه العواطف ليست من خصائص العقل، كما أنَّ الفطرة الكونيّة ليست إدراكاً عقليّاً جامداً بعد اتّصافها بهذه العواطف، ومن ثَمَّ كانت قسماً مستقلاً من الإدراك الفطري.

وأمّا بالنسبة إلى ما يمكن أن تدركه بالضبط هذه الأقسام الثلاثة للفطرة الإنسانيّة، من العقيدة الإلهيّة، أي: الاعتراف بوجود الله تعالى، ومن التوحيد، فإنَّنا يجب أن نعرف أوّلاً أن الإنسان مزيجٌ غريبٌ من العقل والعاطفة والغريزة والفطرة، وملكات أُخرى كثيرة، ولهذه الملكات من التأثير بعضها في بعض الشيء الكثير، بحيث إنَّ ما يقوم به الإنسان من الأفعال، سواء في

(١) أي: الفطرة الذاتيّة.

(٢) أي: الفطرة الكونيّة.

(٣) أي: الفطرة العقليّة.

دخيلة نفسه كالتفكير، أو في الخارج عن سائر أفعاله وأقواله، إنَّما هـي منبعثـةٌ عن هذا المزيج، لا عن عاطفةٍ معيّنة بخصوصها، وإنَّما قد تنسب فعلاً أو قولاً ما إلى أحد هذه الملكات على سبيل التجوّز، من باب أنَّها العاطفة الغالبـة عـلى هذا الفعل.

ومن هنا كان الالتفات إلى ما تدركـه الفطـرة فقـط - مـن دون جميـع الملكات ومجرّداً عن تأثيراتها- أمراً في غاية الصعوبة، إلَّا أنَّه يمكن القول بـأنَّ الفطرة هي أعمق الملكـات النفـسيّة وأخفاهـا وأبـسطها علـماً وإدراكـاً، وأنَّ إدراكها ساذجٌ بسيطٌ غير ملتفتٍ إليه، أي: أنَّه لـيس علـماً مركّبـاً مـن ناحيـة، وغير معقّدٍ يعمد إلى تسطير المقدّمات واسـتنتاج النتـائج مـن ناحيـةٍ أُخـرى، ولكنَّها رغم كلّ ما تتّصف به من الخفاء والسذاجة، ألصق من جميع الملكـات بتكوين النفس وأدخلها بوجودها، ولن يضير الفطرة خفاءها ولا سـذاجتها؛ لأنَّ الله عزّ وجلّ إنَّما خلقها في النفس لكي توحي بمـستلزماتها وأوامرهـا إلى العقل، لكي يقوم العقل بدوره بما ينبغي أن يقوم به من إدراك الحـقّ ورفـض الباطل، وكأنَّه يقوم به من تلقاء نفسه بدون أيّ تأثير أو إيحـاء. ولـيس للعقـل حاجةٌ إلى الالتفات إلى الفطرة بعد أن يكون قد أطاع أوامرهـا ونواهيهـا، بـل لعلّ خفاء الفطرة أبعث على إيـمان العقـل واطمئنانـه، ممّـا إذا كـان ملتفتـاً إلى مصدر الصوت وعارفاً به؛ لأنَّه يظنّ أنَّه يدرك ذلك من تلقاء نفسه.

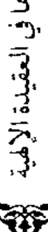
أمّا ما تدركه الفطرة الذاتيّة من العقيدة الإلهيّة، فقد سـبق أن أشرنـا إلى المقدار الذي تدركه النفس من علّتها الأُولى، وأوضحنا كيف أنَّ ذلك مساوقٌ لوجودها ولإدراكها لنفسها، وهي إنَّما تدرك علّتها بالقـدر الـذي تـسمح بـه الحصّة الوجوديّة التي تتّصف بها.

فالنفس - إذن- تدرك وجود الله عـزّ وجـلّ إدراكـاً تلقائيّـاً ذاتيّـاً، كـما تدرك نفسها وأفعالها؛ لأنّها معلولةٌ له عزّ وعلا، ومن فيض وجوده وإحسانه.

أمّا بالنسبة إلى إدراك الفطرة الذاتيّة لعقيدة التوحيد، فـإنَّ هـذا الإدراك مرتبةً أعمق وأكثر غموضاً في باطن النفس، بل تـسميتها إدراكـاً لا يخلـو مـن مسامحة في التعبير، فإنَّ النفس - كما سبق- تدرك علّتها من خلال حصّتها من الوجود، ومعنى ذلك: أنّها لا تدرك لهـا علّتـين، فـالفطرة وإن لم تكـن تـدرك بوضوح أنَّ علّتها واحدة، ولكنّها في واقع أمرهـا لا تـدرك إلّا علّـةً واحـدة، وهذا هو نوعٌ من الإدراك لعقيدة التوحيـد، وهـذا يعنـي أنَّ عقيـدة التوحيـد فطريّةٌ ذاتيّةٌ في نفس الإنسان.

وأمّا مـا تدركـه الفطـرة الكونيّـة مـن هـاتين العقيـدتين الرئيـسيّتين في الإسلام، فقد سبق أن أشرنـا إلى وجـه إدراكهـا للعقيـدة الإلهيـة، وأنَّ مـا في الكون من كمالٍ وجمالٍ، ودقّةٍ وإحكامٍ في الـصنع والتـدبير، قـد أثـار عجـب الإنسان واستغرابه من ناحية، والإحساس بضعفه وقلة خطره؛ لأنّه لـيس إلّا جزءاً بسيطاً من هذا الكون، وليس هو من أهمّ أجزائه؛ لأنَّ كثيراً من حوادثه يمكن أن تطيح بحياته من ناحيـةٍ أُخـرى، وعـزّزت فهمـه للجـمال والكـمال اللانهائيّ المطلق عن طريق انتقالـه بقـانون تـداعي المعـاني، مـن هـذا الكـمال القاصر إلى ذلك الكمال المطلق من ناحيةٍ ثالثة، وقد ساعدت هذه الإدراكـات الثلاثة منظّمة متعاضدة على إدراك الإنسان لعظمة الله عـزّ وجـلّ، ووجـوب عبادته والخضوع إليه.

وقد استخدم القرآن هذه الفطرة الكونيّة للبرهنـة عـلى وجـود الله عـزّ وعلا، فقد عمد إلى جمال الكون وحسن صنعته، فوضّحه وفـصّل القـول فيـه



ليزيد من عجب الإنسان وإعجابه، وليقرّبه عن هذا الطريق إلى إدراك صانع هذا الكون الكبير، وهو بذلك ينقل تلك الفطرة الغامضة العميقة من مرحلة الشعور البسيط الغامض إلى سطح الإدراك الواضح والشعور الجليّ، فمن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

فكلّ هذه المظاهر الكونيّة، وهي ما بين ما يعيشها الإنسان بنفسه وتجري حوادثها بين سمعه وبصره، وبين ما تجري بعيدةً عنه فيعجب بها ولا يعرف كنهها .. كلّ هذه الأمور إنّما هي بالفطرة آياتٌ ودلائل على وجود مبدعها ومدبّرها - عزّ وعلا - لقومٍ يتفكّرون.

ومن هنا نرى الإسلام قد دعا إلى التفكير في خلق الله تعالى، وإمعان النظر فيما احتواه من جمالٍ وكمال؛ لكي يستطيع الفرد أن يعيش فطرته خلال هذا التفكير متى بدا له أن يعيشها، ولكي يتميّز قدرة الله تعالى التي أبدعت هذا الكون العظيم، فقال عزّ من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾[2].

أمّا إدراك الفطرة الكونيّة للتوحيد، فهو - كما سبق أن أشرنا في إدراك

---

(١) سورة الروم، الآيات: ٢١- ٢٤.

(٢) سورة الروم، الآية: ٨ .

الفطرة الذاتيّة لهذه العقيدة- غامضٌ وعميق، ولكنّه في نفس الوقت ثابتٌ راسخ؛ فإنَّ الإنسان عندما واجه هذا الكون وهزّ قلبه وخلب لبّه ما فيه من مناظر وحوادث، حكم بأنَّ لهذا الكون خالقاً ومدبّراً حكيماً، ولم يحكم بأنَّ له أكثر من خالق، ولم يدُر ذلك في خلده في يومٍ من الأيّام، فكأنّه يدرك ضمنيّاً بأنَّ مثل هذا النظام الكامل والقوانين الدقيقة لا يمكن أن تتمّ إلّا في يدي إلهٍ واحد؛ لما سوف يحلّ به من التبعثر والخراب لو كان مخلوقاً لإلهين؛ لأنّهما سوف يتعارضان بالإرادة، ويتنافيان في طرق التنظيم، وأنَّ بين يدي الإنسان أمثلةً كثيرة على ذلك، ومنه ما يضربه الناس من مثل، قائلين: إذا كثر ملّاحو السفينة فإنّها سوف تغرق[1].

وقد حاول القرآن التأكيد على هذا المعنى، عن طريق نقل هذا الإحساس الفطريّ الغامض إلى مرحلة الشعور الواضح، فقال عزّ من قائل: ﴿قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا

(١) يقوم هذا المثل على افتراض تخالف إرادة الملّاحين، بأن يجذف كلّ جماعةٍ منهم إلى جهة (منه قدّس سرّه).

﴿بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

فليس من الممكن لكلِّ هذه المخلوقات، ولكلِّ هذه النعم الإلهيّة، ولكلِّ هذه النظم الدقيقة، أن تصدر بالفطرة إلّا من إلهٍ واحد، يدبّر أمرها بحكمته ويدير شؤونها بقدرته. وإنَّ من لغو القول أن ننسب خلق ذلك وتدبيره إلى إلهين أو أكثر؛ لأنّهما حتماً سوف يتعارضان ويتخالفان، ويحاول أحدهما السيطرة على الآخر، قال الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2]. وأين يكون النظام في ظلّ هذا النزاع الرهيب العجيب؟!

يمكن الاعتراض على دلالة الفطرة الكونيّة على التوحيد، بما شاع بين بعض الجماعات من البشر من الاعتقاد بتعدّد الآلهة[3]، فإنَّ هذا الاعتقاد غير ناشئٍ من الفطرة. كما أنّه ليس دليلاً على بطلان دلالتها على التوحيد؛ فإنَّ هذا الاعتقاد إنّما ترعرع ونما في الأوساط المتخلّفة البدائيّة الضيّقة التفكير، المؤمنة بالخرافات والأساطير، ولا زالت مثل هذه البيئات التي تعتنقه وتعتقد به، وإنّه لبعيدٌ كلّ البعد عن الأفكار الثاقبة والنظر البعيد والرأي السديد.

وإنَّ للإشراك بالله تعالى صوراً متعدّدة، لكلٍّ منها دوافع وأسبابٌ مختلفة، وهي ترجع في الغالب في أُصولها العميقة وأسبابها الأُولى إلى غريزة التوحيد نفسها، فأمّا عبادة الأصنام والشجر والحيوان فإنَّ كلَّ قبيلةٍ كانت

---

(١) سورة النمل، الآيات: ٥٩- ٦٤.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩١.

(٣) كاعتقاد المجوس بوجود إلهٍ للخير وإلهٍ للشر، وقد بحث المصنّف قدّس سرّه هذا الموضوع مفصّلاً في كتابه: ما وراء الفقه ١: ١٣٣، فصل الكافر، الشرك.

تدرك بفطرتها إله الكون الواحد، وتندفع إلى عبادته اندفاعاً تلقائيّاً، ولكنَّها لمّا كانت لا تتصوّر - لقلّة مدركاتها وضآلة تفكيرها وارتباط معقولاتها بمحسوساتها- إمكان عبادة المجرّد، فقد جسّمته صنماً أو تمثّلته متجلّياً في بعض الحيوان أو النبات أو الحوادث الطبيعيّة، وعبدت ذلك الشيء رمزاً عن ذلك الإله العظيم، ومن ذلك قول قريش الذي نقله عنهم الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم. فقال عزّ من قائل: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[1] وبهذا كان لكلِّ قبيلةٍ إلهٌ معبود. ولمّا توالت الأجيال واعتاد الناس على الخضوع إلى هذه الآلهة المزعومة، نُسي المعنى الفطريّ الذي نشأت بسببه هذه العبادات، واعتُقد بتعدّد الآلهة.

ولعلّ هناك أسباباً أُخرى لنشوء عبادة قسمٍ من المجسّمات لا تمتّ في واقعها بسببٍ إلى التأليه، وإنَّما هو أن تصنع القبيلة لرئيسها أو جدّها الأعلى تمثالاً؛ رمزاً لحبّهم وإخلاصهم له، وحين يموت هذا الشخص يبدؤون بتعظيم تمثاله كرمزٍ لتعظيم ذلك الجدّ. ثُمَّ ينتقل على مدى الأجيال هذا الإخلاص الرمزيّ إلى الإخلاص إلى هذا التمثال بالخصوص، ويُنسى أنّه كان في حين من الأحيان تمثالاً لجدّهم الأعلى، ثُمَّ يبدأ هذا الإخلاص بالانتقال إلى نوعٍ من التقديس، ثُمَّ إلى نوعٍ من العبادة والخضوع، ويبدؤون بالاعتقاد بأنَّ هذا التمثال ليس إلَّا تمثالاً لإله الكون الذي يدركونه ويخافونه بفطرتهم.

وأمّا الاعتقاد بوجود آلهةٍ لكلِّ ظاهرة كونيّة، ولكلِّ معنىً من معاني الكمال، كما كان شائعاً في بلاد اليونان القديمة، فهناك بزعمهم إلهٌ للريح وإلهٌ للمطر وإلهٌ للأرض وإلهٌ للبحر، من ناحية، كما أنَّ هناك إلهاً للجمال وإلهاً

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

للحبّ وإلهاً للخير، من ناحيةٍ أُخرى، فلعلّه ناشئ من اعتقاد هؤلاء البشر - من قصر نظرهم وسوء تفكيرهم- بأنّه يناسب أن يكون لكلِّ ظاهرةٍ كونيّةٍ إلهٌ مستقلٌّ منفردٌ بإدارتها وتدبيرها، بزعم عدم إمكان صدور هذه الظواهر المتعدّدة جميعاً من إلهٍ واحد. وقد كان اعتقاد هؤلاء الناس بالأرواح والعفاريت، واعتقادهم أنَّ لها أعمالاً تقوم بها لإزعاج البشر ومضايقتهم، الأثر الكبير في تأكيد هذه العقيدة في نفوسهم، ومن ثَمَّ نرى أنَّ هناك خلطاً كبيراً في أذهان هؤلاء بين تلك الأرواح وهؤلاء الآلهة، فليست الآلهة في نظرهم إلّا نوعاً من تلك العفاريت والأرواح.

أمّا بالنسبة إلى الاعتقاد بوجود آلهةٍ لكلِّ معنىً من معاني الكمال، فقد يكون ذلك ناشئاً من تداعي المعاني الذي سبق أن أشرنا إليه، من أنَّ الذهن ينتقل في تصوّر الكمال من هذا الكمال الناقص الذي يراه إلى تصوّر الكمال المطلق، ولكنّهم إنّما تصوّروا الكمال لكلِّ معنىً على حدة، وهذا مشابه لنظريّة المثل الأفلاطونيّة[1] التي بزغت في ذلك المحيط نفسه، ولعلّها تأثّرت وأثّرت في هذه العقائد. وفحواها: أنَّ لكلِّ نوعٍ من أنواع الكمال فرداً كاملاً يتّصف بجميع ما يمكن أن يتّصف به ذلك النوع من الكمال، ويتجرّد عن كلِّ ما يمكن أن يلحق بنوعه من النواقص والأسواء، ثُمَّ إنَّ هناك فرداً أكمل لمجموع هذه المثل، هو المثال المطلق للخير والكمال، وهذا المثال لا يمكن أن يكون إلّا واحداً؛ لأنَّ الكمال المطلق لا يمكن أن يكون إلّا واحداً، كما أنَّ مثال كلّ نوعٍ لا يمكن أن يكون إلّا واحداً أيضاً؛ لأن الكمال لكلِّ نوعٍ لا يمكن أن يتعدّد، وبهذا نرى أفلاطون يصل بنظريّته إلى الاعتراف بالله عزّ وجلّ وتوحيده،

---

(١) راجع معنى النظريّة ومناقشتها في فلسفتنا: ١٠٤، وما بعدها، المثاليّون.

على طريقته الخاصّة، في حين لم يصل أولئك الرعاع إلى مثل هذا المرتقى الدقيق.

وأمّا الاعتقاد بوجود إلهين، إلهٍ للخير وإلهٍ للشرّ، فهو ناشئ من الاعتقاد بتناقض الخير مع الشرّ، وعدم إمكان صدور المتناقضين عن إلهٍ واحد، فاستنتجوا من ذلك ضرورة وجود إلهين للكون يكون أحدهما خالقاً للخير والآخر خالقاً للشرّ.

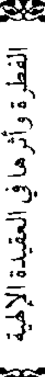
ونحن بهذا الصدد نراهم قد حكموا بتناقض الخير والشرّ، وفي هذا اتّباعٌ للفطرة العقليّة التي تحكم باستحالة اجتماع النقيضين، كما سبق أن أشرنا، وحكموا بأنَّ للخير إلهاً واحداً كما أنَّ للشرّ إلهاً واحداً أيضاً، وفي هذا اتّباع لفطرة التوحيد على شكلٍ مغلوط.

وقد تصدّى الفلاسفة المسلمون لحلّ هذه الأُغلوطة، فأوضحوا بأنَّ الخير عبارةٌ عن الكمال، وهو عبارةٌ عن الوجود. فالخير والكمال إنّما يمثّلان القسم الوجوديّ في هذا الكون. وأنَّ الشرّ عبارةٌ عن النقص، والنقص عبارةٌ عن العدم، عدم الكمال، والعدم ليس أمراً وجوديّاً لكي يُخلق. فالله عزّ وجلّ خالقٌ للوجود، أي: للأُمور الكماليّة، وليست الشرور إلّا من أثر عدم خلقه للكمال المطلق، على تفصيلٍ مذكورٍ في محلّه من الفلسفة الإسلاميّة[1].

وأمّا القول بالثالوث المسيحيّ[2]، فهو ناشئ من أثر تحريف المسيحيّة عن واقعها النازل من الله عزّ وجلّ، ولعلّ اعتقاد المسيحيّين بألوهيّة المسيح وأُمّه، جاء من استغرابهم من طريقة حمل مريم لابنها، مع عدم إمكانهم الاعتقاد بأنَّ ذلك ناشئٌ عن طريقٍ غير شرعيّ؛ لأنّه نبيُّهم ورئيسُ عقيدتهم.

(١) راجع شرح الإلهيّات من كتاب الشفاء (للنراقي) ١: ٢٠٥، فائدة في معرفة خير كلّ شيء.

(٢) راجع مقارنة الأديان، المسيحيّة (للدكتور أحمد الشلبي): ١١٠، وما بعدها، التثليث في المسيحيّة.



إذن، فلابدَّ أن يكون ذلك ناشئٌ عن طريق الإعجاز.

وكأنَّهم فكّروا أنّه لا يمكن لأحدٍ القيام بالمعجزة إلّا إذا كان إلهاً، غافلين عن إمكان ذلك لأيّ بشرٍ مع إقدار الله تعالى له وتوفيقه إيّاه. وليست هذه العقيدة صادرةً من قبل المسيح نفسه؛ فإنَّ عيسى بن مريم (على نبيّنا وعليه السلام) لأجلّ قدراً، وأبعد نظراً من أن يدّعي الألوهيّة في قبال الله عزّ وجلّ، وأن يأمر أتباعه بعبادته مع عبادة الله عزّ وجلّ، وإنَّما كان ذلك بدعةً اختلقها المسيحيّون ومسخوا بها دينهم، بعد أن رفعه الله إليه.

وقد تصدّى القرآن لمناقشة هؤلاء الناس في عقيدتهم تلك، مع إثبات كلّ معاني الشرف والفضيلة إلى المسيح وأُمّه، فقال عزّ من قائل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾[1]، فهو ليس إلهاً بل رسولٌ، من الله عزّ وجلّ، أرسله الله بشريعةٍ معيّنة، وبالاعتراف بوجود الله وتوحيده، ليهدي البشر ويخرجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والإيمان. وقد جعل أُسلوب حمله وكلامه في المهد صبيّاً، آيتين مَنَّ الله عليه بهما، لتأييد صدق بعثته، وإتمام الحجة على قومه، وقال أيضاً تبارك وتعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ﴾[2].

فالمسيح - إذن- رسولٌ كمَن سبقه من الرسل، وأُمّه صدّيقة؛ لأنَّها امرأةٌ صالحةٌ مقرّبةٌ من الله عزّ وعلا، وقد خصّها الله بهذه الكرامة حيث جعلها أُمّاً لنبيٍّ من أنبيائه، وأجرى عليها هذه المعجزة الفريدة، وليس هو

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

وأُمّه إلهين؛ لأنّهما كانا يأكلان الطعام، وليس من شأن الإله أن يحتاج إلى الطعام فيأكله، وأن يكون محلاً للحوادث والعوارض التي هي من صفات الممكنات، ويتنزّه عنها مقام الربوبيّة.

أُنظر كيف يخاطب القرآن الناس على مقدار مداركهم، وكيف خصّ الطعام بالذكر لأنّه أقرب الأفعال إلى الإنسان، وأدلّها على الضعف والحاجة؛ لما يعلمه الإنسان بما سوف يصيبه لو امتنع عن تناوله.

وإنّنا لنرى علماء المسيحيّة ومفكّريهم قد حاروا، بعد أن عرفوا استحالة وجود أكثر من إلهٍ واحد بالفطرة والدليل العقليّ، حاروا في اتّباع أيٍّ من القولين، أو في تأويل ثالوثهم المقدس بشكلٍ مَرضيّ للحكم العقليّ الفطريّ. وقد انشعبوا في ذلك إلى مذاهب متكثّرة عديدة، ليس في المقام مجالٌ لذكرها.

كما أنّنا نرى من ناحيةٍ أُخرى: أنَّ العلماء المحدثين المختصّين بأيّ فرعٍ من فروع العلم، إنّما هم علماء موحّدون، رغم نشأتهم في بيئةٍ مسيحيّة، فهم يُرجعون الظواهر الكونيّة التي يدرسونها إلى إلهٍ حكيم، وهو أيضاً إلهٌ واحد، ولا يمكن أن يكون إلّا كذلك، ولَمَن راجع كتاب (الله يتجلّى في عصر العلم)[1]، وكتاب (العلم يدعو إلى الإيمان)[2] لأكبر دليلٍ على ذلك. ولا يبقى بعد ذلك إلّا حفنةٌ ممّن أعماهم الضلال ورانت على قلوبهم الشبهات، وأخذ بمجامع قلوبهم التعصّب الأعمى، فادّعوا الإلحاد وتبجّحوا به، في حين لم نرَ

(١) لنخبة من العلماء الأمريكيّين، أشرف على تحريره: جون كلوفر مونسما، ترجمة: الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، راجعه وعلّق عليه: الدكتور محمّد جمال الدين الفندي.

(٢) لمؤلّفه: كريسي موريسون، الرئيس السابق لأكاديميّة العلوم بنيويورك.



مفكّراً واحداً ادّعى الثنويّة أو التثليث أو افتخر بهما على الإطلاق.

والآن يجب أن ننظر إلى القسم الثالث من الفطرة، وهي الفطرة العقليّة، وإلى ما يمكنها أن تدركه من العقيدة الإلهيّة والتوحيد، وهي التي سبق أن أشرنا إلى أنّها عبارة عن القضايا التي لا يحتاج العقل في تصديقها والإيمان بمقتضياتها إلّا إلى إدراك وفهم موضوعها ومحمولها، وأشرنا إلى أنَّ العقل يجعل هذه القضايا الركيزةَ الأُولى لبراهينه واستدلالاته على سائر القضايا المحتاجة إلى الاستدلال. وأشرنا أيضاً إلى أنَّ من جملة هذه القضايا الأوليّات، هي إدراك العقل بأن لابدَّ لكلِّ ممكنٍ من علّة، ومن هذه القضيّة يستنتج العقل الإيمان بوجود الخالق عزّ وعلا؛ لأنَّ هذا الكون ممكن؛ لأنّه متجدّد الحوادث، وكلّ حادث منه مسبوق بعدم، وكلّ ما كان كذلك فهو ممكن، أي: متساوي طرفي الوجود والعدم، لا اقتضاء له بذاته إلى أحدهما، وما دام هذا الكون ممكناً فهو محتاجٌ إلى علّة، طبقاً للقاعدة التي يدركها بفطرته من احتياج كلّ ممكنٍ إلى علّة. إذن فهناك علّةٌ خالقةٌ لهذا الكون.

ومن هذا المنطلق يبدأ العقل بالبرهنة على صفات هذه العلّة الخالقة للكون، فيثبت عن طريق البرهان: أنّها يجب أن تكون واجبة الوجود لذاتها، وأنّها يجب أن تكون كاملةً من جميع جهات الكمال، وأنّها يجب أن تكون منزّهةً عن كلِّ النواقص والصفات العدميّة الإمكانيّة التي تزري بذلك المقام الرفيع، على تفصيلٍ مذكور في محلّه من الفلسفة الإسلاميّة[1]، حتّى يصل الإسلام

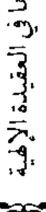
---

(١) راجع كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ٣٩٣، وما بعدها، الفصل الثاني: في صفاته تعالى.

بالخالق العظيم إلى أوج التنزيه والكمال.

أمّا التوحيد، فإنَّه لا يحتاج في إثباته إلى البرهنة والاستدلال، فإنَّـه أيـضاً من الأُمور الفطريّة المرتكزة في كيان العقل؛ فـإنَّ العقـل إنَّـما حكـم بوجـوب وجود العلّة بالنسبة إلى الممكن توصّـلاً لإيجـاده، ولم يحكـم بوجـوب وجـود علّتين، ولم يكن له أن يحكم بذلك؛ للبرهـان الفلـسفيّ القـائم عـلى اسـتحالة صدور الشيء الواحد من علّتين تامّتين.

ومن ناحيةٍ أُخرى: يدرك العقل – عطفاً على ما تدركه الفطـرة الكونيّـة من عظمة الخالق وكمالـه–: أنَّ الكامـل لا يمكـن أن يكـون إلَّا واحـداً؛ لأنَّ الكمال الذي يتصوّره ليس إلَّا واحداً ولا يمكن أن يتعدّد.



ولئن كان إدراك الفطرة للتوحيد هو الـدليل الرئيـسيّ عليـه، وهـو الـذي اعتمده القرآن في الاستدلال عليه، كما سبق أن أشرنا إليه، فإنَّ ذلك لا يعني عدم وجود براهين مطوّلة فلسفيّة وكلاميّة على هذه العقيدة الرئيسيّة في الإسلام؛ فـإنَّ للفلاسفة والمتكلّمين المسلمين طرقاً كثيرة إلى إثبات ذلك؛ فإنَّ الطرق إلى الله عـزّ وعلا كثيرة متعدّدة بعدد أنفاس الخلائق، ولكن أقرب تلك الأدلّـة إلى الوجـدان ما كان منبثقاً ونابعاً من صميم الضمير.

* * * *

بعد هذه الجولة المفصّلة من البحث في ماهيّة الفطرة ومدركاتها، يمكننا أن نتميّز بوضوحٍ تامّ، مدى صحّة وجهة النظر الإسـلاميّة في إيكـال عقائـده الرئيسية إلى الفطرة النفسيّة النابعة من باطن العقل؛ فإنَّ الصوت الداخلي لهـو أقرب الأصوات إلى الإنسان وأدعاها بالإطاعة والامتثال، كـما أنَّ الاسـتجابة إليه هي أقرب الطرق إلى الوصول إلى الحقّ (إلى الإسلام)، فالإسلام لم يَدعُ في

عقائده الرئيسيّة إلَّا إلى ما تدعو إليه الفطرة والجبلّة الإنسانيّة، كما أنَّه لم يذهب في تفاصيلها إلَّا إلى ما يدعو إليه البرهان العقليّ الصحيح المعتمد على تلك المدركات الفطريّة الأوّليّة.

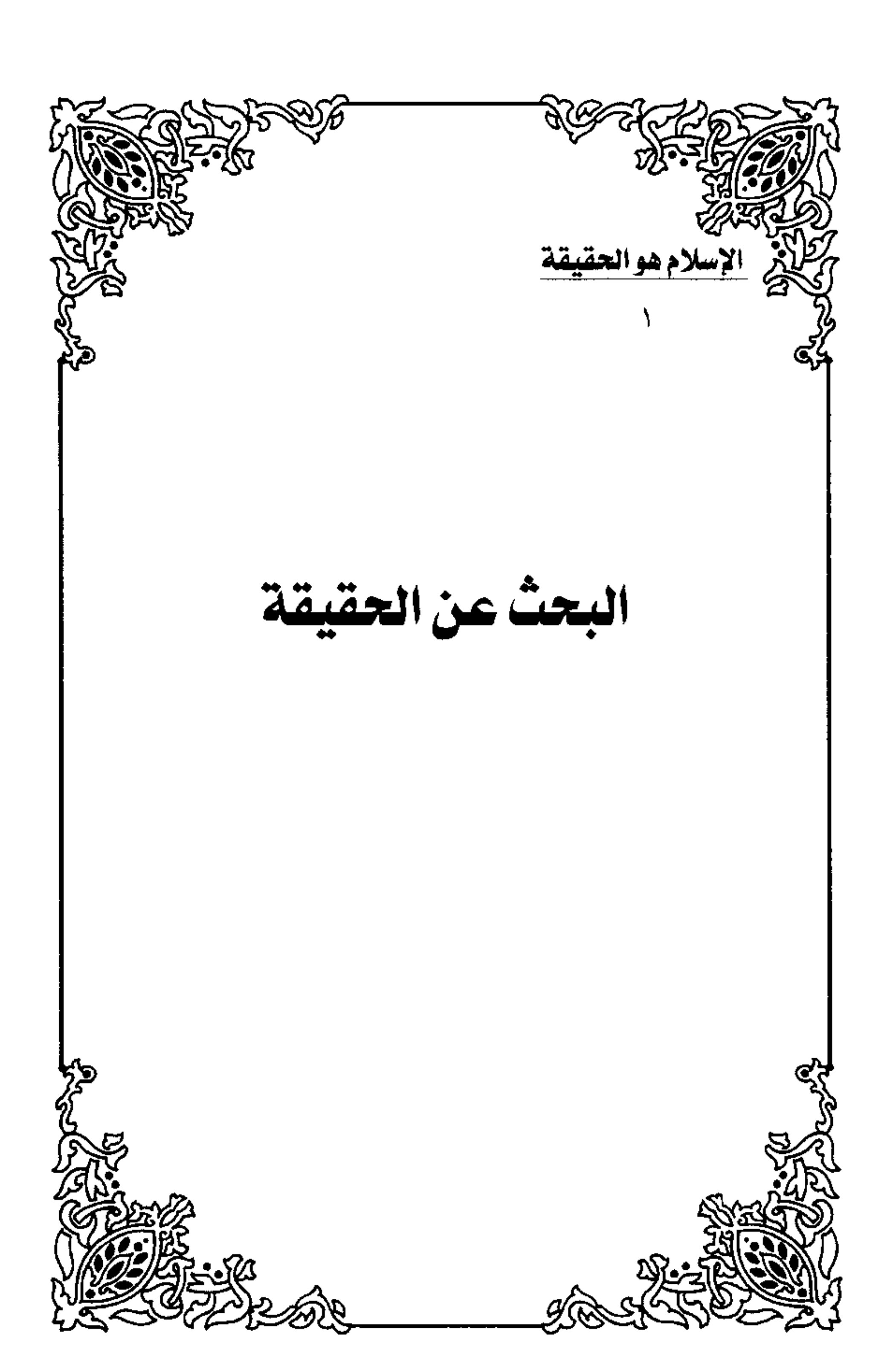
هدانا الله إلى هداه، ووفّقنا إلى رضاه، ويسّر لنا الإصغاء إلى نداء الحقّ، المنبثق في داخل ضمائرنا؛ لكي نقرب من كماله العظيم، فنفوز بالسعادة والخلود[1].

محمّد الصدر

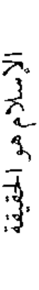
النجف الأشرف - العراق

---

(١) نشر قسم منها في العدد السابع من السنة الخامسة من مجلّة النجف، تحت باب (دراسات من القرآن الكريم)، ونشر القسم الثاني في العدد المزدوج الثامن والتاسع من نفس المجلّة ونفس الباب (منه قدّس سرّه).



البحث عن الحقيقة



البحث عن الحقيقة[1]

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾[2].

هناك في الأُفق البعيد النائي نجمٌ لامعٌ وضّاء، يسرّ ناظره، ويعجب متأمّله، قد يبدو أحياناً لبعض الناظرين الذين أتعبوا أنفسهم في محاولة رؤيته، ولكن غالباً ما تحجبه سحبٌ كثيفةٌ متراكمة، بيضاء أحياناً، وسوداء في أكثر الأحيان، فيُحرَم الناظرون من ضوئه اللامع البرّاق، ويظلّون يتخبّطون في الظلام، متشبّثين بأمل رؤيته حيناً بعد حين، ذلك النجم اللامع البرّاق هو شيء اسمه (الحقيقة).

هذه الحقيقة هي التي سعى نحوها الساعون، وادّعاها لأنفسهم المدّعون، وافتخر بالوصول إليها المفكّرون، هذه الحقيقة التي يبتعد عنها الإنسان إذا ركب في الطريق إليها مطيّة الهوى والعواطف، ويقترب منها رويداً رويداً إذا حكّم العقل والبرهان الصحيح.

وإذا استثنينا مذاهب التشكيك بوجود حقيقةٍ موضوعيّة، تلك المذاهب التي تستند في دعواها على الحيرة والضلال، أكثر ممّا تعتمد على المنطق والبرهان، فإنّنا نستطيع أن نعرف الحقيقة الموضوعيّة عن طريق وجداننا وإحساسنا الذي لا ريب فيه، ونعلم بأنّ هناك في العالم الخارجي أُموراً حقيقيّةً ثابتة، وقوانين واسعةً دقيقة، منها ما اتّضحت لنا تفاصيله على مرّ الزمن، ومنها الذي لا زال في طيّ الكتمان، فإنّنا لو تطرّق الشكّ إلى أذهاننا بهذه

(١) [تاريخ كتابة البحث] الاثنين ٢٥/ ٢/ ١٣٨١ هـ = ٧/ ٨/ ١٩٦١م (منه قدس سره).

(٢) سورة يونس، الآية: ٥٣.



الحقيقة الثابتة لاستطعنا طرده بسرعةٍ وسهولة، بواسطة القول بأنَّ للعلم الوجداني خاصّةً ذاتيّةً في الكشف عن الأشياء التي تعلّق بها، أيّ: أنّنا نعرف بواسطة نفس العلم المنطبع في نفوسنا أنّه إنّما يدلّ على شيءٍ خارجيٍّ وكاشفٍ له للنفس، وأنَّ نفس وجود العلم في النفس يدلّ على أنّه لابدَّ وأن يكون متعلّقاً بشيءٍ في الخارج، وليس وهماً منتحلاً ابتداءً.

ونحن إذا شئنا أن نتجرّد من هذه القاعدة الأساسيّة لمعلوماتنا، فلابدَّ لنا من أن نكذّب جميع علومنا العقليّة وإدراكاتنا الفكريّة التي نحيط بها وتحيط بنا، ولن يبقى لدى الذهن إلّا العلم البسيط بالنفس الخاصّة به، ولا شيء غير ذلك.

أمّا العلوم الدقيقة التي درسناها وبحثنا في مختلف موضوعاتها، وأمّا المكان الذي نجلس عليه والزمان الذي نعمل فيه، وأمّا الأشخاص الآخرون الذين نخاطبهم ونتعامل معهم، فإنّهم سوف يدخلون تحت حيّز هذا الإنكار؛ لأنّنا نعرف ذلك كلّه عن طريق العلم الذي ينير لنا الطريق ويهدينا إلى الواقع، وبهذا يبقى المشكّك وحده في الفضاء اللانهائي بدون أنيسٍ ولا جليس، إن كان يعترف بوجود مثل هذا الفضاء!

ثُمَّ إنّنا ننظر إلى الحقيقة مرّةً أُخرى، نفحصها متأمّلين، فنجدها حقيقةً واحدةً بسيطة، لا تعدّد فيها ولا تركيب؛ لأنَّ الأشياء الخارجيّة الموضوعيّة سائرةٌ على نمطٍ معيّن، وأُسلوبٍ خاصّ، لا تتحمّل معه نمطاً أو أُسلوباً أو وجوداً آخر، سواء في محتويات هذا الكون أو في قوانينه العامّة، أو في التشريعات التي يجب أن تسود البشر، ويملي ذلك علينا العقل والفطرة السليمة بصورةٍ صريحةٍ وواضحة.

فالعالِم التجريبيّ إنّما يسعى بتجاربه إلى أن يكشف عن حقيقة موضوع بحثه، والملابسات التي تحيط به، وتتفنّد الفرضيّة التي تقوم عليها التجربة بمجرّد

أن يثبت أنّها مخالفةٌ للحقيقة. وكذلك إنّها يسعى المشرّع إلى وضع القوانين التي تكفل سعادة رعاياه ورفاههم بصورةٍ حقيقيّة، ويبادر إلى إلغائها وإصدار قوانين أُخرى بمجرّد أن يثبت لديه أنّها غير صالحةٍ للغرض الموضوعة من أجله.

أمّا إذا أمكن أن تتعدّد الحقيقة، فسوف يمكن أن تصدق الفرضيّة الأُولى في التجربة كما تصدق الثانية، كأن يكون ثقل الخشب النوعيّ أخفّ من ثقل الماء النوعيّ وأثقل في عين الوقت، وهذا تناقضٌ صريحٌ يرفضه العقل لأوّل وهلة، وكذلك يمكن أن يصدق مع فرض تعدّد الحقيقة قانونان أو أكثر على المجتمع متّحدان في الموضوع، مختلفان في الوسيلة والغاية، كأن يكون المجتمع الواحد رأسماليّاً واشتراكيّاً في نفس الوقت.



وبعد أن ثبتت لدينا حقيقة العالم الواحدة[1] فما علينا إلّا أن نرجع إلى فطرتنا وخالص عقولنا، لنرى ما إذا كانت هذه الحقيقة قائمةً بنفسها، غير محتاجةٍ إلى مؤثّر يوجدها، أم أنّها مفتقرةٌ إلى مؤثّرٍ خارجيٍّ قائمٍ بنفسه، مستغنٍ عن غيره، يمنّ عليها بالوجود. ولا سبيل إلى الاعتراف بالفرض الأوّل؛ لأنّه مناقضٌ لقانون العلّيّة، هذا القانون البديهيّ الوجدانيّ الذي يجده الإنسان منطبعاً في نفسه انطباعاً فطريّاً، ويجده متحكّماً في العالم الخارجيّ بصورةٍ مستمرّة[2]. فثبت إذن الفرض الثاني بنفس دليل قانون العلّيّة، وهو أن يكون

(١) لا تناقض بين اتّحاد حقيقة العالم وبين تعدّد حقائق موجوداته، ففي العالم موجوداتٌ متباينة الذوات لكلٍّ منها حقيقةٌ واحدة لا تختلف، وفرقٌ كبيرٌ واضحٌ بين أن نقول إنَّ في العالم حقائق - أي: ذوات- متباينة، وبين أن نقول إنَّ له حقائق متعدّدة، فالفرض الأوّل صحيح، والثاني باطل، كما سبق البرهان عليه (منهﷺ).

(٢) يراجع بهذا الموضوع كتاب (فلسفتنا) فصل «لماذا تحتاج الأشياء إلى علّة»: ٢٥٥ (منهﷺ) [و ٢٧٢، ط. ٣].



هذا العالم صادراً عن خالقٍ قديرٍ ومنبثقاً من علّةٍ حكيمةٍ مدبّرة.

وإذ نرى أنَّ الله تعالى بعظيم قدرته وجليل حكمته وواسع كبريائه، موجِدٌ لهذا الكون ومكوّنٌ له، ومنظّمٌ لقوانينه ومسيّرٌ لأفلاكه، ومنبتٌ لنباته، وخالقٌ لإنسانه وحيوانه، نعلم أنَّ هذا العالم الكبير والكون الواسع إنّما هو بعضٌ من فيض وجوده، وظلٌّ من ظلال رحمته، وأنَّ هذا الكون عدمٌ محض، لولا استمرار لطفه ودوام تفضّله عليه، وأنّه لا شيء لولا ذلك الوجود اللامتناهي المحيط به.

وبهذا يتحوّل اعتقادنا من أنَّ للعالم حقيقةً مطلقةً، إلى الاعتقاد بأنَّ الله تعالى هو الحقيقة المطلقة الأزليّة الأبديّة، الكاملة من جميع جهات الكمال، وأنَّ حقيقة هذا العالم فرعٌ من تلك الحقيقة الكاملة، يستمدّ منها وجوده وحقيقته ونظامه.

وحيث وصل بنا القول إلى هذه المرحلة، فما أحرانا بالاعتقاد بأنَّ خالق هذا الكون ومدبّره، عالمٌ بمصالحه ومفاسده، وعالمٌ بما يبعث به الحياة والبناء، وبما يؤول به إلى التبعثر والخراب. وهذا على درجةٍ كبيرةٍ من الوضوح؛ لأنّه لو لم يكن عالماً بشؤونه، عارفاً لمصالحة ومفاسده، لما أمكن أن يكون مدبّراً له، وهذه نتيجةٌ باطلةٌ مخالفةٌ لما توصّلنا إليه بالبرهان السابق.

والنفس البشريّة جزءٌ من مخلوقات هذا الكون، وهب الله تعالى بفضله لها وجودها، وصوَّرها فأحسن صورتها، ووهب لها العقل والإدراك والفكر والإحساس، ووهب لها أيضاً الغرائز والشهوات، وزوّدها بكثيرٍ من المميّزات والطاقات، وفضّلها على كثيرٍ ممّا خلق بما أعطاها من نعمة العقل لتميّز به صالحها عن فاسدها، وتعرف به ربّها وتطيع به أوامره ونواهيه، وتحدّ به من شهواتها ونزواتها وتسعى به نحو الفضيلة والكمال.

فالله تعالى – إذن – أعلم بها وبما زوّدها من الطاقات، وبكيفيّة تكوينها

وأُسلوب خلقتها، وهو الذي يعلم - على وجه التحديد - ما تحتاج إليه في سبيل تكاملها ورقيّها، وما يجب أن تبتعد عنه لئلّا تتسافل إلى الحضيض وتكون ظالمةً لنفسها من حيث تدري ولا تدري. وليس لأحدٍ غير خالقها جلّ وعزّ أن يدّعي لنفسه أنّه عالمٌ بكنه النفس الإنسانيّة وبما يصلحها وما يفسدها؛ لأنّه هو بدوره جاهلٌ بنفسه التي بين جنبيه، وجاهلٌ سبب مجيئها إلى هذا العالم وكيفيّته، وزمن ذهابها منه ومكانه، وإلى أين سوف تتّجه بعد ذلك، ولولا الهداية الإلهيّة لبقي البشر جاهلاً جواب أمثال هذه الأسئلة إلى الأبد.

إذن، فمن الحقّ أن يمنّ الله تعالى على البشر فيأمرهم بما يعلم أنّ فيه صلاحهم وسعادتهم، وينهاهم عمّا فيه فسادهم وشقاؤهم، ويطلب منهم الامتثال، مهدّداً بالعقاب للعاصي، وواعداً بالثواب للممتثل. فما ثبت أنّه أمرٌ أو نهيٌ صادرٌ من الله تعالى، وجب علينا وجوباً عقليّاً إلزاميّاً إطاعته وامتثاله.

ولم يبقَ لنا بعد هذا في أن نثبت وجوب طاعة الأوامر الإسلاميّة لأنّ (الإسلام هو الحقيقة) إلّا بالبرهان على أنّه صادرٌ عن الله تعالى، وهذا ما يحتاج إلى ما يعادل هذا المقال، فنرجئه إلى العدد القادم، سائلاً الله تعالى التوفيق لما يحبّ ويرضى[1].

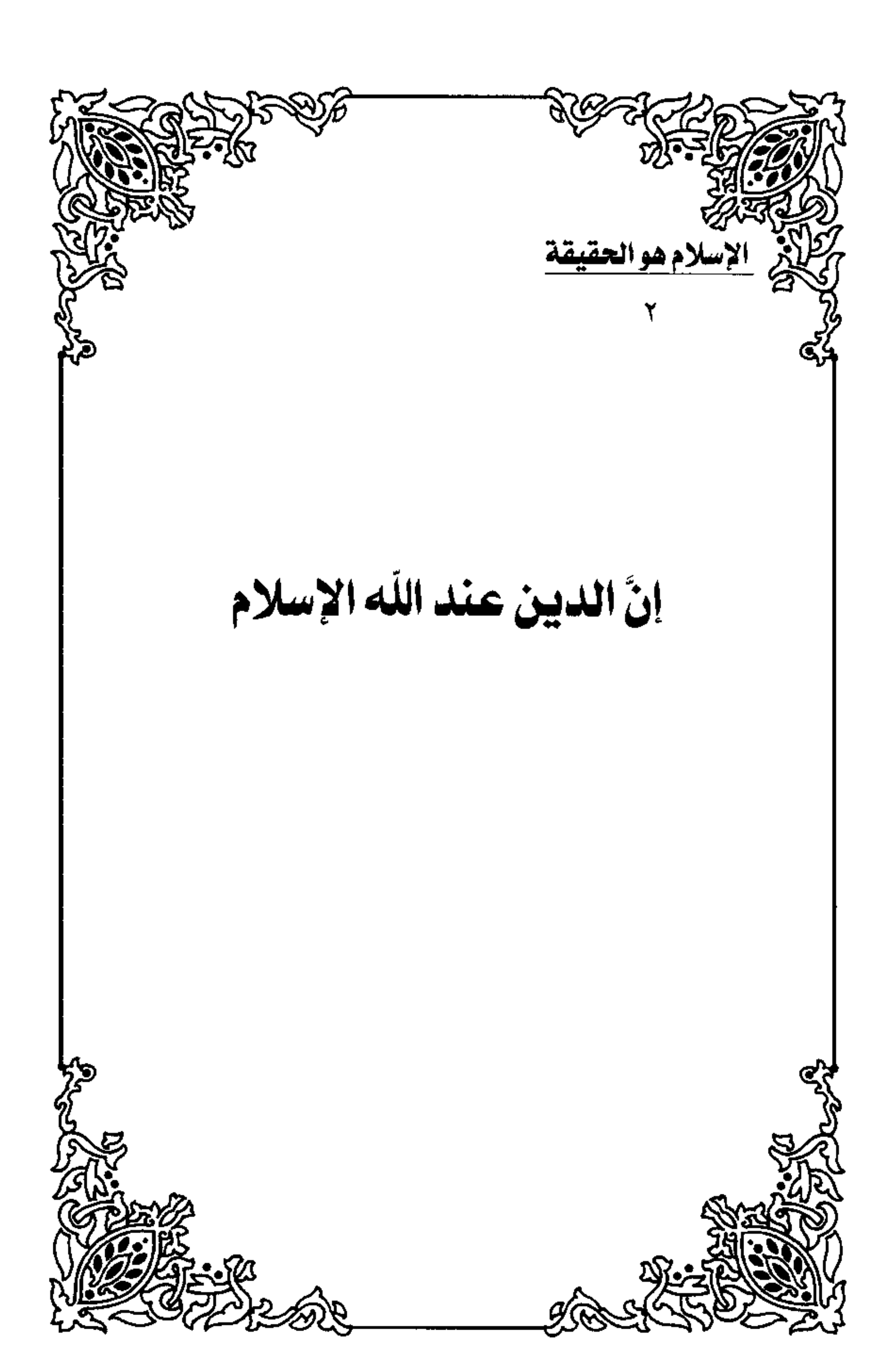
محمّد الصدر

النجف - العراق

---

(١) نشرت في [مجلّة] الأضواء مع شيءٍ من الحذف والتحريف بتاريخ: العدد الثالث من السنة الثانية الصادر في: ١٥/ ج١/ ١٣٨١ (منهﭬ).





إنَّ الدين عند الله الإسلام

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[1].

تكليف عامّة البشر واجبٌ على الله سبحانه، وهذا الحكم قطعيٌّ قد ثبت بالبراهين الصحيحة والأدلّة العقليّة الواضحة؛ فإنّهم محتاجون إلى التكليف في طريق تكاملهم وحصولهم على السعادة الكبرى والتجارة الرابحة. فإذا لم يكلّفهم الله سبحانه، فإمّا أن يكون ذلك لعدم علمه بحاجتهم إلى التكليف، وهذا جهلٌ يتنزّه عنه الحقّ تعالى، وإمّا لأنّ الله أراد حجبهم عن الوصول إلى كمالاتهم، وهذا بخلٌ يستحيل على الجواد المطلق، وإمّا لأنّه أراد تكليفهم، فلم يمكنه ذلك، وهو عجزٌ يمتنع على القادر المطلق.

إذن، فلابدّ من تكليف البشر، ومن الضروريّ أنّ التكليف يحتاج إلى مبلّغٍ من نوع البشر، يوقفهم على خفيّ التكليف وجليّه[2]. وحيث كانت الرسالة الإلهيّة من المناصب الجليلة المهمّة التي يتمنّاها الإنسان ويصبو إليها، كان احتمال أن يكون مدّعي النبوّة كاذباً في دعواه تلك، احتمالاً عقلائيّاً وجيهاً، فيمتنع الأخذ بقول مثل هذا المدّعي بدون قيام الدليل على دعواه

---

(١) سورة الحاقّة، الآيات: ٤٤-٤٦.

(٢) البيان في تفسير القرآن للمحقّق الخوئي (حفظه الله تعالى): ٢١ [و: ٣٥ (ط. ٤)]، الجزء الأوّل (منهقدّسسرّه).

بطريقٍ لا يقبل الشكّ والجدل.

فيجب على الله تعالى إتماماً للحجّة على البشر، أن يوفّق النبيّ الذي أرسله بالحقّ لإقامة الدليل على ادّعائه النبوّة، وذلك بإقداره على إظهار فعلٍ معجزٍ للبشر خارجٍ عن نطاق المألوف من نواميس الطبيعة، فيكون ذلك دليلاً كافياً على إثبات نبوّته؛ للعلم اليقين بأنَّ مثل هذا الفعل لا يمكن أن يصدر إلّا من الله تعالى أو ممّن أقدره على ذلك.

فإذا صدرت من مدّعي النبوّة مثل تلك المعجزة، وأقامها مستدلاً على نبوّته، علمنا أنّه صادق في دعواه وأنّه مرسَلٌ من الله تعالى بالهدى ودين الحقّ، ولا يمكن أن يكون كاذباً مع صدور المعجزة منه؛ لأنّه لا يجوز على الله تعالى أن يوفّق الكاذب إلى معجزة تُثبت دعواه، وإلّا كان تغريراً للبشر وتأييداً للجهل والضلال، وهذا ممّا يتنزّه عنه الحقّ المطلق تعالى شأنه.

ولكن الذي يمكن أن يُقال: أنَّ الله تعالى يمكن أن يُظهر المعجزة على يد الكاذب بضدّ ما قصد إليه، ليكون دليلاً على كذبه وبطلان مدّعاه؛ وذلك كما ورد في التاريخ من أنَّ مسيلمة الكذّاب بصق في بئر ليكثر ماؤها فغار، ومسح على رؤوس بعض الصبيان لتشملهم البركة فأصابها القرع[1].

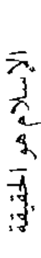
ونبيّ الإسلام الذي أرسله الله تعالى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى الصراط المستقيم، قد استدلّ على نبوّته بمعجزاتٍ كثيرة العدد مرويّةٍ في كتب التاريخ الإسلامي[2]. ومهما انتابنا الشكّ بكلّ واحدة

(١) أُنظر: قرب الإسناد (للحميري): ٣٢٩، في معجزات رسول الله ﷺ، وبحار الأنوار ١٧ : ٢٣٤، أبواب معجزاته ﷺ، الباب ٢، باب جوامع معجزاته ونوادرها، الحديث ١.

(٢) راجع قرب الإسناد (للحميري): ٣٢٩، في معجزاته، ومناقب آل أبي طالب (لابن

منها [على] حدة فلن ينتابنا الشكّ بأنّهﷺ قد أتى بمعجزاتٍ كثيرة ولو بنحو الإجمال؛ لأنَّ ذلك مرويٌّ عن جماعاتٍ يمتنع عقلاً تواطؤهم على الكذب، وبذلك تمّت حجّته على العالمين، وكمل برهانه أمام البشر أجمعين.

ولكنّ معجزاته التي استدلّ بها على نبوّته - سوى القرآن الكريم - قد ذهبت بذهاب وقتها، وانقطعت بعد انتهاء حدوثها، ولم تبقَ سوى الرواية عنها، فكان لابدَّ للشريعة الخالدة الباقية بقاء الدهر، والتي حلالها حلالٌ إلى يوم القيامة، وحرامها حرامٌ إلى يوم القيامة، والتي لا نبيّ بعد نبيّها، ولا شريعة بعد شريعتها، مِن معجزةٍ باقيةٍ كبقائها، خالدةٍ مثل خلودها؛ لتكون حجّةً فعليّةً على الأجيال التي تعقّبت صدور الإسلام، لتراها بين يديها، فتلمس إعجازها وتحسّ بروعتها؛ لتكون حجّة الله تامّةً على البشر مدى الأجيال والقرون ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾(١)، وكانت تلك المعجزة الإسلاميّة الخالدة هي القرآن الكريم.





والقرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة، هو الحجّة التامّة على البشر أجمعين بإعجازه الذي فاق كلّ إعجاز، فهو معجزٌ في أُسلوبه، ومعجزٌ في بلاغته، ومعجزٌ في تأثيره بالنفوس، ومعجزٌ في إبداع تصويره، ومعجزٌ في إخباره عن المغيّبات، وهو معجزٌ أيضاً بما يتميّز به من وجود عباراتٍ مختصرة بصورةٍ بالغة، ولكنها غير مخلّةٍ بالمعنى أدنى خلل. وفيه عباراتٌ مطوّلةٌ

شهر آشوب) ١: ١٠٧، فصل في معجزاتهﷺ، ومجمع الزوائد (للهيثمي) ٩: ٤، باب في معجزاتهﷺ في الحيوانات والشجر وغيرهما، وكنز العمّال ١١: ٣٦٦، الكتاب الرابع، الباب الأوّل، الفصل الأوّل: في معجزاتهﷺ.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

مسهبة، ولكن بدون أن يتطرّق إلى قارئها أيّ ملل، ويوجد فيه أيضاً المعنى الواحد مكرّراً بعباراتٍ متعدّدة، كلّ عبارة منها معجزةٌ للبشر أن يأتوا بما يشابهها بلاغة. وهو معجزٌ من ناحية ما ذكره من أسرار الطبيعة وغوامض الكون ممّا لم يكن معروفاً في زمانه عند أحدٍ، ومعجزةٌ من ناحية النظام الدقيق العادل الذي شرّعه ليعمّ البشريّة كلّها، فيملأ ربوعها رفاهيّةً وعدالة، ويسعى بها نحو الكمال والسعادة الأبديّة.

هذا النظام الذي أثار إعجاب المفكّرين واستغراب علماء البشر وعباقرتهم، واضطرّهم إلى التسليم بأنّه لا يمكنهم المزيد على عدالته أو تعديل قوانينه بقليلٍ ولا كثير، ولهذا نرى الكثير من دول العالم اليوم قد اقتبست خير قوانينها من ضوء الإسلام، وشرّعت على طبق تشريعاته وأوامره.

وقد تحدّى القرآن البشر أجمعين - إتماماً للحجّة - على أن يأتوا بشيءٍ يشابهه يحتوي على جزء ممّا يحتوي عليه من إعجاز، فطالبهم أوّلاً أن يأتوا بمثله بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَ يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[1].

ولـمّا ثبت عجزهم عن مجاراته ومعارضته، طالبهم أن يأتوا بعشر سورٍ تشبهه إن كانت دعواهم صادقة ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[2].

ورغم ثبوت الحجّة عليهم بصورةٍ تامّةٍ بعد ظهور العجز منهم عن ذلك ، فقد تنازل لهم القرآن إلى مطالبتهم بأن يأتوا بما يشابه سورةً واحدةً من

---

(١) سورة الطور، الآيتان: ٣٣-٣٤.

(٢) سورة هود، الآيتان: ١٣-١٤.

سوره، بقوله: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[1].

وعندما عجز فطاحل العرب وبلغاؤهم الذين كانوا هم المخاطبين بهذه الآيات بصورةٍ مباشرة، عن مجاراته ومعارضته، وهم ذوو الاطّلاع الواسع على مخارج اللّغة العربيّة ومداخلها، وذوو اليد الطولى في أدبها وشعرها ونثرها، صار واضحاً بصورةٍ وجدانيّةٍ بديهيّة، أنَّ القرآن معجزٌ لا يمكن معارضته من قبل أيّ فردٍ من أفراد البشر، فجاءت هذه الآية مؤكّدة لذلك، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

ونحن نستطيع أن نرى أثر هذا التحدّي على الذين ظلّوا سادرين في غيّهم من الجاهليّين ولم يستضيئوا بنور الإسلام، إذا لاحظنا أنّهم لو كانوا يستطيعون معارضته ومقابلته بالحجّة وإفحام براهينه ونقض أدلّته لفعلوا ولأفهموا الناس بضعف حجّة الإسلام - وحاشاه- حتّى يتجنّبوا الدخول فيه، ولكفاهم ذلك عن خوض الحروب وبذل النفوس في سبيل الإجهاز عليه، ولا يستطيع المسلمون مقابلتهم بالسيف، إذا عرف الناس ذلك منهم فلم يدخلوا في دينهم، ولكنّهم إذ رأوا قوّة البرهان الإسلامي ومدى عمقه ودقّته ومطابقته للحقيقة، تنازلوا مضطرّين إلى المقارعة بالسيوف وإراقة الدماء دون ما هم عليه من الكفر والضلال.

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣-٢٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨

ونرى أثر عجزهم بادياً عليهم بوضوحٍ، في الحادثة التي تروى لوليد بن المغيرة المخزومي، الذي اعتمدته قريش في إبداء رأيه في الإسلام، فقد مرّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يتلو بضع آياتٍ من سورة المؤمن، فانقلب الوليد إلى مجلس قومه وقد أدهشته روعة القرآن، فقال لهم: والله لقد سمعت من محمّد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، والله إنَّ له لحلاوة وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمغدق، وإنَّه يعلو ولا يعلى.

ولـمّا شاع ثناؤه على القرآن قالت قريش: لقد صبا الوليد إلى دين محمّد، وسوف تصبو قريش معه، فأرسلوا إليه ابن أخيه أبا جهلٍ المخزومي وأمثاله ليخدعوه ويساجلوه، فاستمهل ليفكّر ويعيد النظر في أمر محمّد صلى الله عليه وآله، ثُمَّ أتاهم قائلاً: تزعمون أنَّ محمّداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق قطّ؟ قالوا اللّهمّ لا، قال تزعمون أنَّه شاعر، فهل رأيتموه ينطق بشعرٍ قط؟ قالوا اللّهمّ لا، قال تزعمون أنَّه كذّاب فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟ قالوا اللّهمّ لا، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكّر في نفسه ثُمَّ قال: ما هو إلَّا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فهو ساحرٌ وما يقوله سحرٌ يُؤثر، فارتجّ النادي فرحاً وتفرّقوا[1][2].

وبهذا فقد زعم الوليد لنفسه بأنَّ السحر يمكنه أن يأتي بمثل ما أتى به نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله من الحقّ والهدى، وهو يشير بذلك على الظاهر، إلى ما ورد في الشريعة الإسلاميّة من أنَّ المرأة المسلمة لا يمكن أن تكون زوجةً لمشرك،

---

(١) المعجزة الخالدة (للسيّد هبة الدين الشهرستاني): ٢٣ (منه قدس سره).

(٢) راجع تفسير جوامع الجامع (للطبري) ٣: ٦٧٣، ومجمع البيان ١٠: ١٧٩، وتفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب ١٤: ٢٠، والكشف والبيان (تفسير الثعلبي) ١٠: ٧٣.

فكان النبيّ (صلى الله عليه وآله) يطلب ممّن يُؤمن من النساء أن تتخلّى عن زوجها المشرك؛ ممّا أثار الحقد والكراهيّة في نفس الوليد.

وتحدّي القرآن موجّه إلى البشر جميعاً في جميع الأماكن والدهور، لتتمّ الحجّة على الكلّ بصورةٍ قطعيّةٍ متساوية. ونحن نجد أنَّ البشر قد عجز على مدى القرون الأربعة عشر التي مرّت به من بعد ظهور الإسلام عن مجاراة القرآن ومعارضته، فنحن لا نعدم أشخاصاً دعاهم الضلال وحثّتهم السفاهة على أن يحاولوا معارضة القرآن، فباؤوا بفشلٍ ذريع؛ وذلك كما روي عن هشام بن الحكم من أصحاب الإمام جعفر بن محمّد الصادق (عليه السلام) أنّه قال: اجتمع في بيت الله الحرام أربعةٌ من مشاهير الدهريّة وأعاظم الأُدباء وكبار الزنادقة، وهم عبد الكريم بن أبي العوجاء، وأبو شاكر ميمون بن ديصان وعبد الله بن المقفّع، وعبد الملك البصريّ، فخاضوا في حديث الحجّ ونبيّ الإسلام، وما يجدونه من الضغط على أنفسهم من قوّة أهل الدين، ثُمَّ استقرّت آراؤهم على معارضة القرآن الذي هو أساس الدين ومحوره، ليسقط اعتباره من معارضتهم إيّاه ومباراتهم له، فتعهّد كلّ واحدٍ منهم أن ينقض ربعاً من القرآن إلى السنة الآتية، فإذا انتقض كلّه - وهو الأصل - انتقض كلّ ما يبنى عليه أو يتفرّع منه، فتفرّقوا على أن يجتمعوا في القابل.

ولـمّا اجتمعوا في الحجّ القابل وتساءلوا عمّا فعلوا، اعتذر ابن أبي العوجاء قائلاً: إنّه أدهشته آية ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]، فأشغلته بلاغتها وحجّتها البالغة، واعتذر الثاني قائلاً: إنّه أدهشته آية: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.



الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[1]، فأشغلته عن عمله، وقال ثالثهم: أدهشتني آية نوح: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2] فأشغلتني عن الفكرة في غيرها، وقال رابعهم: أدهشتني آية يوسف: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً﴾[3]، فأشغلتني بلاغتها الموجزة عن التفكّر في غيرها.

قال هشام: وإذا بأبي عبد الله الصادقعليه السلام يمرّ عليهم ويومي إليهم قائلاً: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[4][5].

والتحدّي القرآني موجهٌ بصورةٍ رئيسيّةٍ إلى البلغاء المختصّين بشؤون اللّغة العربيّة العارفين لإسرار بلاغتها، وهم الذين يحتمل في حقّهم بادئ الرأي أن يأتوا بمثله، وهم أيضاً الذين عجزوا عن معارضته ومماثلته.

أمّا عامّة الناس، وأمّا غير العرب؛ فإنّهم إذ يرون عجز هؤلاء المختصّين عن معارضته وإفحام حجّته، تقوم لديهم الحجّة بصورةٍ تامّة، ويعلمون أنّه أُنزل ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[6].

وحيث تمّ لدينا الدليل الإسلاميّ، وجب علينا عقلاً التفكير فيه وإمعان النظر فيما يحتويه؛ لأنّ صرف النظر عن ذلك موجبٌ لاحتمال وقوع

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٣.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٠.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٨، نفس المصدر السابق: ٢٤ (منهقدس سره).

(٥) راجع الاحتجاج (للطبرسي) ٢: ١٤٣، احتجاج مؤمن الطاق على ابن أبي حذوة.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

النفس في ضررٍ مهلك؛ لأنَّ الإسلام قَرَنَ أوامره ونواهيه بالوعد بالثواب على إطاعتها والوعيد بالعقاب الشديد على عصيانها، وهذا يثير لدى النفس احتمالاً – على الأقلّ – بالضرر مع التهاون به وعدم النظر في براهينه واتّباع أوامره ونواهيه.

ووجوب دفع الضرر المحتمل من الأُمور الوجدانيّة الجليّة لدى العقل، يراعيها الإنسان في كلِّ عملٍ من أعماله وكلّ قولٍ من أقواله، ويراعيها في أدنى الأضرار وأخفّها، فكيف إذا كان الأمر صادراً من الله تعالى مهدّداً على عصيانه بالعقاب الصارم؟!

إذن، فقد توصّلنا بعد هذه الجولة إلى أنَّ (الإسلام هو الحقيقة)؛ لأنّه صادرٌ عن الحقيقة المطلقة الكاملة من جميع جهات الكمال، فهو الحقيقة في أوامره ونواهيه، وهو الحقيقة في توجيهاته وإرشاداته، وهو الحقيقة فيما يذكره من حوادث الماضي أو المستقبل. إذن، فـ﴿مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

محمّد الصدر

النجف الأشرف



(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.



الإسلام الخالد

الإسلام الخالد[1]

ما هو هذا العصر الذي نعيش فيه؟ حيث نرانا نجتهد ونتعب ولا نستفيد من وراء ذلك إلَّا قطرات العرق المتساقطة.

ما اسم هذه الحفنة من السنين التي تقضيها البشريّة في عمرها المديد بين آلامٍ مضنية، وآمالٍ جسام.

إنَّه القرن العشرون!

قرن الصواريخ الموجّهة، والأقمار الصناعيّة، والرحلات الكونيّة بين الكواكب.

قرنٌ بلغ به الرقيّ العلميّ ما لم يبلغه في عمر البشريّة المديد، واتّسع به الأُفق العقليّ سعةً مثيرةً للدهشة والإعجاب، وسرت به الثقافة إلى أُناسٍ لم تحلم القرون السالفة بتثقيفهم، وانتشر الوعي انتشاراً رائعاً؛ إذ أصبح كلّ شخصٍ يحسّ بنفسه ويشعر بوجوده ككائنٍ اجتماعيّ محترم، يقيم الناس وزناً له ولعلمه ولرأيه.



وبالاختصار: هو قرنٌ صادفناه أثناء سيرنا في خضمّ الوجود، فعشنا حوادثه بشكلٍ أبدع وأروع ممّا عاش أيّ شخصٍ في القرون السالفة، من حيث الحضارة والعلم والأدب والثقافة.

ثُمَّ ما هو القرن العشرون؟



(١) [تاريخ كتابة البحث] الخميس: ٢٧/ ٤/ ١٣٨٢ = ٢٧/ ٩/ ١٩٦٢ (منه قدّس سرّه).

هو حصاةٌ صغيرة في بناء الزمن الذي يمرّ الآن على البشريّة وهو سائر في طريقه، لا يلوي على شيءٍ نحو الأبد السحيق، لا يهمّه أكانت البشريّة خلاله متقدّمةً أم متخلّفة، مفكّرةً أم جاهلة، كما أنّه سوف يدعها ويذهب دون أن يتريّث معها قليلاً حتّى تستكمل بين ظهرانيه حضارتها وتلمّ شتات أفكارها، بل سوف يسلّمها إلى غيره؛ لعلّها في هذا القرن الجديد تستطيع أن تصل بحضارتها وثقافتها إلى القمّة.

وسيأتي القرن الحادي والعشرون، وستتطوّر فيه الحياة أكثر فأكثر ممّا هي عليه الآن، وتزداد روعةً وحضارة، وسننظر إلى القرن العشرين كما ننظر الآن إلى القرن التاسع عشر. فلن نرى الأقمار الصناعيّة شيئاً يذكر، ولا العقول الإلكترونيّة شيئاً يجلب الانتباه؛ لأنَّ لدينا أشياء أُخرى أجدى بالتفكير من هذه الأُمور البسيطة!

كما أنّنا الآن لا نرى في المصباح الكهربائي ولا آلة التصوير شيئاً مهمّاً، في حين إنّهما أحدثا في أوّل ظهورهما من العجب والإعجاب ما لا مزيد عليه.

وسوف نكرّر في القرن الثاني والعشرين نفس الشريط، حضارةٌ عظيمةٌ وتفكيرٌ عميقٌ ودقيق، يغني عن الالتفات إلى الوراء، إلّا حيث يحلو شيءٌ من الاقتباس، أو تصحّح بعض الأخطاء. وهكذا سوف تبقى عربة البشريّة سائرة، وعجلة الكون دائرة، ما دام هناك بشرٌ وكون.

ولكن الشيء الذي لا يتغيّر رغم هذا الخضمّ المتلاطم من التحوّلات السريعة، سرعة الصواريخ الواسعة وسعة مدارات الأقمار الصناعيّة، هو هذا الإنسان. هذا الإنسان الذي يخلق التغيّر ويطوّره بهذه السرعة الهائلة، ويكيّف نفسه على مقتضيات هذا التغيير بنفس السرعة وبخفّةٍ ولباقة. ولكنّه في ذات

الوقت لا يمكن أن يناله تغيير.

فهو ثابتٌ من حيث طبيعته البشريّة، ثابتٌ من حيث غرائزه، ثابتٌ من حيث نوعيّة عواطفه، ثابتٌ من حيث تكوينه الجسمي وتكوينه العقليّ.

لن يتغيّر السبيل الذي تتطلّب به غرائزه الإشباع، وهو بالنسبة إلى حبّ التملّك: الحيازة أو السيطرة، وبالنسبة إلى الجوع: الأكل، وبالنسبة إلى العطش: الشرب، وبالنسبة إلى الجنس: الاستمتاع بالجنس الآخر، وبالنسبة إلى الملل والسأم: التمتّع بالجميل من المناظر الطبيعيّة أو الصناعيّة واستنشاق الهواء الطلق وشمّ الرياحين.

كما أنّه من حيث عواطفه لن تُستحدَث عاطفةٌ جديدةٌ في طبيعة الإنسان غير العواطف المعهودة، من الغضب والرضا والحزن والفرح، والألم والأمل ...

كما أنّه لن يأتي زمانٌ يتغيّر فيه التكوين الجسمي للإنسان، أو تجد حالة غير الصحّة والمرض، أو غير البلادة والذكاء، أو يمرّ الفرد بعمرٍ هو غير الطفولة والشباب، والكهولة والهرم.

وكذلك من الناحية العقليّة: لن يأتيَ زمانٌ لا يطلب الإنسان فيه السعادة، أو لا يعدّ الفضيلة خيراً يحسُن فعله، والرذيلة شرّاً يجب تجنُّبه، كما أنّه لن يدعَ يوماً سعيه نحو الكمال.

هذه كلّها أُمورٌ ثابتةٌ بالوجدان في حياة الإنسان، لا تحتاج إلى إسهابٍ من القول، وهي راسخةٌ رسوخ الزمن، خُلقت مع البشريّة، وسوف تموت بموتها، وليس للبشريّة سبيلٌ في تطويرها أو الاستغناء عنها. ومن هذه الأُمور نفسها ينبثق التطوّر، وعليها يبتني، وعندها يقف حدّ جماحه، ويعجز عن أن يجرفها في تيّاره.



وهذه الأُمور عبارةٌ عن موادّ خام، نُسجت حولها النظريّات، وقامت لتفسيرها العلوم، وجرت لمعرفة كنهها التجارب في مختلف حقول المعرفة الإنسانية، كما أنّها أرضٌ خصبةٌ للتشريع وللفلسفة، تبني المذاهب التشريعيّة والفلسفيّة عليها أمرها، وتحبكُ حولها خططها، لتعرف - من الناحية الفلسفيّة- كنهها وجوهر وجودها، وأساليب انبثاق التطوّر منها، ولتمنعها - من الناحية التشريعيّة- من الحريّة المطلقة والانطلاق الجنوني، للوصول في التطوّر إلى ما لا يحمد عقباه.

وهذه الأُمور الثابتة في الحياة البشريّة، هي التي جعلها الإسلام محور فلسفته وتشريعه، وأقام عليها سننه وتعاليمه، ومن هنا جاء خالداً خلود الدهر، راسخاً رسوخ الجبال، واسعاً سعة الفضاء، متلألئاً كنور الشمس.

فقانون العلّيّة الذي يقيم الإسلام عليه عقيدته الرئيسيّة الأُولى - وهي وجود الخالق القدير عزّ شأنّه- قانونٌ راسخٌ في العقل البشريّ، مغروسٌ في طبيعته، يراه العقل متحكّماً في كلِّ جزئيٍّ من جزئيّات هذا الكون الواسع بدقّةٍ وإحكام، ولذا قال علماء النفس[1]: إنَّ التساؤل عن وجود الخالق فطريٌّ عند الإنسان، لا يحتاج في إثارته إلى أكثر من رؤية هذا الكون الكبير. ولم يفعل الإسلام أكثر من أنّه أجاب على هذا السؤال بعمقٍ ودقّةٍ بلغا بالخالق إلى أوج التنزيه والكمال.

وكم حاول مفكّرون إنكار هذا القانون، فاصطدموا به مرّةً أُخرى، حيث اضطرّوا إلى فرض الفروض، واختلاق النظريّات التي تبرّر وجود هذا

---

(١) راجع مدخل إلى علم النفس الإسلامي (للدكتور محمد نجاتي): ٩٧، الفصل السادس، مسلّمات علم النفس الإسلامي، الإيمان بالله تعالى، والقرآن وعلم النفس: ٤٧-٤٨.

الكون من العدم من دون موجد، وليس ذلك إلّا من إيحاءات هذا القانون نفسه، وإلّا فلماذا لا يفرضون وجود الكون هكذا وبدون أيّ مقدّمة لوجوده؟

والإسلام الخالد، له معجزةٌ خالدة تتحدّى البشر وتثير دهشة الأجيال، لتسير مرفوعة الرأس على مرّ العصور، وذلك لأنَّ الدين الخالد لا تفيده تلك المعجزات المؤقّتة التي يقيمها النبيّ لأهل زمانه إتماماً لحجّته؛ لأنّها تتصرّم بانقضاء زمان حدوثها ولا تبقى منها إلّا الرواية والنقل. ثُمَّ لا يبقى من النقل على مرّ الزمان إلّا الظنّ والتخمين.



أمّا القرآن فمعجزة الإسلام الخالدة، فقد صُمّم خصّيصاً لكي يلمس إعجازَه كلُّ جيلٍ من البشر، وليُستدلّ به على صدق الإسلام وعظمة الإسلام وعمق نظر الإسلام ومدى حكمته البالغة.



والقرآن خالدٌ بأُسلوبه وبلاغته، خالدٌ بنظامه وتشريعه، خالدٌ بنصائحه وإرشاداته، خالدٌ بتواريخه وعلومه، خالدٌ بتنبّؤاته عمّا وراء الغيب.

فمن الناحية الأدبيّة نرى أنَّ أرباب الفصاحة وأهل البيان من الجاهليّين المتعصّبين لأوضاعهم الفاسدة وعقائدهم المتخلّفة، قد اضطرّوا إلى الاعتراف بإعجازه والخضوع لتفوّقه. ولو كان في إمكانهم أن يعارضوا القرآن وأن يأتوا بما يشابهه بأيّ شكلٍ من الأشكال، لَمَا آلوا في ذلك جهداً، ولأكثروا الكلام ضدّ هذا الدين الجديد، ولكان ذلك كافياً في دحض حجّته والقضاء على دعوته، ولَمَا اضطرّوا تحت ضغط الحجّة البالغة إلى إراقة الدماء في سبيل عصبيّتهم الجاهليّة، والحفاظ على عقائدهم الموروثة.

بل إنّنا نرى أنَّ من عظماء البلاغة في الجاهليّة مَن قد بهرتْهُ عظمةُ القرآن وخلبتْ لبَّه، ممّا أذهله عن تقاليده وعصبيّته، فأثنى على القرآن بالمقدار الذي



سمح له ذوقه الأدبيّ بأن يُثني عليه. فمن ذلك كلمة الوليد بن المغيرة المشهورة: والله لقد سمعتُ من محمّدٍ آنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، والله إنَّ له لحلاوة وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمعذق، وإنَّه يعلو ولا يُعلى[1].

والأُسلوب القرآنيّ غضٌّ جديدٌ على مدى العصور، تتغيّر الأفكار وتتبدّل أساليب التعبير ويتطوّر الأدب بين عصرٍ وعصر، والقرآن راسخٌ بإعجازه لا تزعزعه العواصف. ينظر الأديب إليه في كلِّ جيلٍ كما ينظر إلى القمر المضيء عندما يبزغ في جوف الليل ليبدّد جحافل الظلام.

وكذلك تتبدّل الأذواق في فهم الأساليب الأدبيّة وفي اختيار الجميل منها من الوضيع، والأساليب الأدبية بين صعودٍ ونزول في تيّار هذا التطوّر السريع، أمّا القرآن فهو ثابت الأُصول، راسخ البنيان، يعنو الجميع لفضله، ويخضعون لعلوّ منزلته، بل إنّهم إنّما يستمدّون الجذور الرئيسيّة في عملهم الأدبيّ منه، ويستنيرون بضوئه في السير خلال ملتويات اللغة العربيّة ومتاهاتها.

أمّا التشريع في القرآن، فهو التشريع الإسلاميّ العظيم الذي وضعه خالق البشر ليُطبَّق عليهم أجمعين، بمختلف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ومستوياتهم؛ لأنّه النظام الأمثل الذي اختاره لهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى الصراط المستقيم. وإنَّ أقلّ نظرةٍ في هذا النظام لَتُبدي للفاحص المتأمّل أنَّ التعاليم الإسلاميّة ساريةٌ إلى جميع خصوصيّات الحياة

(١) المعجزة الخالدة، للسيّد هبة الدين الشهرستاني: ٢٣ (منهﭬ)، وراجع أيضاً مناقب آل أبي طالب ١: ٤٩، فصل فيما لاقى النبيﷺ من الكفّار، وبحار الأنوار ٩: ١٦٧، تفسير الآيات.



البشريّة، وأنّها لم تدَع صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصتها وأظهرتْ لها من التشريع والإرشاد ما يسمو بها عن الأدران، ويرفعها إلى مستوى الإنسانيّة الأكمل.

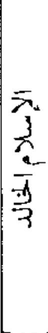
وإنَّ النظرة السريعة ينظرها الباحث بتجرّدٍ وإنصافٍ إلى النظام الإسلاميّ، كافيةٌ في إثبات أنّه النظام الأمثل الخالد؛ لأنّه أحسن النظم البشريّة وأصلحها للتطبيق.

أمّا أوّلاً: فلأنّه نازلٌ من عند ربِّ العالمين، خالق الخلق وباسط الرزق، العالم بحقائق البشر وغرائزهم وحاجاتهم، وبما تحتاجه هذه الغرائز والحاجات لكي ترتفع عن المستوى الحيواني الوضيع إلى حيث النور والسعادة والخلود.

وأمّا ثانياً: فلأنَّ الفكر الحديث إنّما استمدّ من الإسلام لمعاته الذهنيّة التي هزّت العالم ببريقها، في كثيرٍ من حقول العلم والمعرفة، كالقانون والاجتماع والتربية والاقتصاد والفلسفة والتأريخ، فهو لم يسبق الإسلام بنظريّةٍ صحيحةٍ صالحةٍ للبقاء، كما أنّه ليس له فيما خالف صريح الإسلام إلّا هشيم تذروه الرياح، وسوف تفنّده الأيّام وتثبت أصالة الرأي الإسلاميّ الخالد.

فمن ذلك: أنَّ الإسلام ركّز على حقوق الإنسان وفصّلها خير تفصيلٍ تحت ضوءٍ من حكمته البالغة، قبل الدستور الفرنسيّ لحقوق الإنسان والمواطن، وقبل الدستور الأمريكيّ، وقبل لائحة حقوق الإنسان التي أصدرتها هيئة الأُمم المتّحدة بأكثر من ألف سنة. ورغم ذلك أثبت الإسلام حصافة رأيه وجدارته في قيادة الإنسان إلى شواطئ الخير والسلام.

ومن ذلك أيضاً: أنَّ الإسلام سنَّ مبدأ التكافل الاجتماعي، وحثّ على معونة الفقراء وعتق الأرقّاء، وحارب الاحتكار وتضخّم الثروة، في زمانٍ لم يكن يُفكِّر بشيءٍ من ذلك أحد.



أمّا المنهج التربويّ في الإسلام، فهو منهجٌ واسعٌ وعميق، يتكفّل الفردَ بالعناية والرعاية منذ ولادته، ويسير معه في جميع أعماله وأقواله إلى آخر لحظةٍ من حياته، بل إنَّه قد لاحظ - بثاقب نظره - أنَّ التربية خلال الحياة غير كافيةٍ لأن تُنشئ فرداً صالحاً بمعنى الكلمة، وكما يريده الإسلام أن يكون، لذا نراه قد التفت إلى الوالدين فأمرهما بإصلاح نفسيهما وتهذيب سلوكهما، لكي لا يرضعا ولدهما الصفات الخبيثة والأخلاق الدنيئة، بل ليربّيا جيلاً صالحاً يسعى في خير مجتمعه وأُمّته، يسطع في ربوعه ضوء الإسلام وتصعد البشريّة بجهوده في سلالم الكمال.

والمقياس الخالد في الشريعة الإسلاميّة للتفاضل بين البشر، هو التقوى من ناحية، والعلم من ناحيةٍ ثانية، والجهاد من ناحيةٍ ثالثة، لا المكاثرة بالأموال والأولاد والزخارف الدنيوية الزائلة، بل إنَّ الفضائل الروحيّة أَولى بتخليد صاحبها، وأحقّ أن تسمو به في درجات الكمال.

أمّا بالنسبة إلى العلم فقد بالغ الإسلام في الحثّ على طلب العلم، والاستزادة منه، واحترام العلماء، والجلوس في مجالسهم، والاستضاءة بنور معارفهم. فمن شهير ما ورد عن الرسول الأعظمﷺ قوله: «**مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء**»[1]، وقوله: «**العلم فريضةٌ على كلّ مسلمٍ ومسلمة**»[2].

---

(١) أُنظر نحوه في: مَن لا يحضره الفقيه ٤: ٣٩٩، الحديث ٥٨٥٣، والأمالي (للطوسي): ٥٢١، الحديث ٥٦، وعوالي اللئالي ٤: ٦١، الحديث ١٠.

(٢) الكافي ١: ٣١، كتاب فضل العلم، باب فرض العلم ووجوب طلبه والحثّ عليه، الحديث ٥، ووسائل الشيعة ٢٧: ٢٦، باب عدم جواز القضاء والإفتاء بغير علم، الحديث ١٦.

مَن هو المسلم ومَن هي المسلمة التي يفرض عليهما الإسلام طلب العلم؟

هم جميع البشر؛ لأنَّ الإسلام دينٌ عالميّ، قد خاطب البشر جميعاً، ومن ثَمَّ فهو يفترض سلفاً أنَّ تعاليمه تطبّقها الخليقة كلّها. إذن، فالإسلام بهذا الحديث الشريف يطالب بتعليم جميع أفراد البشريّة، وهي نسبةٌ لم تبلغها الإنسانيّة إلى الآن، ولن تبلغها بسهولةٍ ويسر.

وأمّا التقوى، فهي هذه المعنويّة الرفيعة والنفس العالية التي يكون بها الفرد المسلم «**قريباً أملُه، قليلاً زلَـلُه، قانعةً نفسه، منزوراً أكلُه، حريزاً دينُه، ميّتةً شهوتُه عمّا حرم الله تعالى، مكظوماً غيضُه، الخيرُ منه مأمول، والشرُّ منه مأمون ... يعفو عمّن ظلمَه، ويعطي مَن حرَمه، ويصِل مَن قطعه، بعيداً فحشُه، ليّناً قولُه، غائباً منكرُه، حاضراً معروفُه، مقبلاً خيرُه، مدبراً شرُّه، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور ... أتعبَ نفسَه لآخرته، وأراحَ الناس مِن نفسه**»[1].

وأمّا الجهاد فقد: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[2]، وأعطى المجاهد درجةً من الكمال والفضيلة لا يستحقّها القاعد المتخاذل المتواكل، المسوق لأعماله، والمتباطئ عن تعاليم دينه القويم. والجهاد هو التفاني بجدٍّ وإخلاص في إنجاز العمل الذي أوكله الإسلام إلى الفرد ليقوم به، فهو بابٌ واسع من الأعمال تنتظم جميع الفعاليات الإسلاميّة الخيّرة [به]، وليس مختصّاً بحمل السلاح في سبيل الدفاع عن الإسلام، كما قد يبدو لأوّل وهلة.

فمجاهدٌ: كلّ مَن وجَد ضعيفاً ينوء بثقل الزمان، فأسبغ عليه شيئاً من الرحمة والإحسان، ومَن وجد فقيراً ينام الليل ولم يدخل جوفَه الطعام منذ





(١) من خطبة لأبي الأئمّة الهداة أمير المؤمنين عليه السلام في صفة المتّقين (منه قدس سره).

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٥.

أيّام، فأعطاه شيئاً يسدُّ به رمَقـه، ومَـن وجـد يتـيماً قـد قذفتـه دارُه إلى قارعـة الطريق، فآواه وأشبعه وألبسه وأحسن تربيته، ومَن وجد أخاه المؤمن مضطرّاً إلى أمرٍ من أُمور الحياة، وهو متمكّنٌ مـن إعانتـه، فأعانـه عـلى تحمّـل مـشاقّ حياته، ومَن شعر بأنَّ الله الذي خلقه من بعد عدم، وأنعم عليه من بعـد فقـر، وأسعده من بعد بؤس، أهلٌ للعبادة والدعاء، فتقرَّب إليه ودعاه وأخلـص في عبادته. ومَن عرف أنَّ الله عزّ وجلّ قد أرشده إلى خيره وصلاحه وفرض عليه بعض الواجبات، فقام بها بأمانةٍ وإخلاص.

هذا الدستور الإسلاميّ هو معجزةٌ من معجـزات الإسـلام التـي أقـام بواسطتها حجّته، وركز عن طريقها دليل صدقه، فهو لا يدلّ فقط عـلى دقّتـه وعمق نظره وحكمته البالغة في تسيير دقّة الأُمور، بل هو يـدلّ عـلى أنّـه وارد من المورد الإلهيّ المحيط بآمال البشر وآلامهم، والمطّلع عـلى سرائـرهم، ومـن ثَمَّ كان دستوراً عامّاً شاملاً وصحيحاً لم يكـن باسـتطاعة أيّ ذهـنٍ بـشريّ أن يأتي بما يماثله في الصدق والعمق والشمول والخلود[1].

محمّد الصدر

---

(١) نشرت في مجلّة النجف، العدد الثـاني، الـسنة الخامـسة [بتـاريخ: ١٩٦٢م] مـع شيءٍ بسيطٍ من التغيير، بعنوان خواطر عابرة حول الإسلام وخلود تعاليمه (منهقدّس سرّه).



حول
المعجزات في الإسلام

حول المعجزات في الإسلام[1]

ـ أ ـ

(١)

يتّصف الفكر الحديث بمسحةٍ مادّيّةٍ قائمة، تُعتبر من أُصوله الموضوعيّة الرئيسيّة التي يصعب عليه التخلّي عنها. وتعمل هذه المادّيّة عملها بشكلٍ شعوريٍّ أو لا شعوريّ، في أيّ إنتاجٍ علميٍّ أو أدبيٍّ أو فنيٍّ ينتجه الفرد الحديث.

فتظهر النزعة المادّيّة الشعوريّة بوضوحٍ في تلك الفلسفات المادّيّة الإلحاديّة التي تحاول - صراحةً - الاستدلال على أن ليس في هذا الكون سوى المادّة الصمّاء، ولا يحتوي على أيّ قوانين سوى قوانين الطبيعة العمياء.

وتظهر النزعة المادّيّة اللاشعوريّة بدرجاتٍ متفاوتةٍ في النتاج الفكري المعاصر بوجهٍ عامّ، ويكون مدلولها المباشر هو إسقاط ما سوى المادّة في هذا الكون إسقاطاً لا شعوريّاً، واعتبار أنَّ الجزء المعيّن الذي يتحدّث عنه الفرد، يتكوّن من مادّةٍ صرفةٍ لا أثر للروح فيها، وهذه صفةٌ عامّة وروحٌ ساريةٌ في النتاج الفكري الحديث، بشكلٍ يصعب عليه رفع اليد عنها بسهولةٍ ويسر.



والباحثون الإسلاميّون المعاصرون - بصفتهم أبناء هذا العصر، قد نهلوا عنه أفكارهم، وتلقّوا على يده علومهم - لم يفتْهُم وجود مثل هذه الروح

(١) انتهيت منها بتاريخ: الخميس ٢٥/ ٤/ ١٣٨٤ = ٢٤/ ٨/ ١٩٦٤ (منه قدّس سرّه).

المادّية في أحشاء الفكر الحديث.

إلّا أنَّ أغلبهم ممّن قويت عقيدته ورسخ إيمانه وتشرّب روح الإسلام وأفكاره الصافية من منبعه الصحيح، لم تؤثّر فيه هذه المادّية ولم تسيطر على ذهنه مثل هذه الأفكار، وإنّما اعتبر هذه الأفكار إحدى نقاط الضعف التي يتّصف بها الفكر الحديث، وإحدى الهنات التي حدثت فيه من جرّاء عجزه عن الصعود إلى الأُفق الروحي الرحب، إلّا أنَّ آخرين من الباحثين الإسلاميّين قد استسلموا إلى هذه الروح المادّية، واستطابوا العيش في ظلالها، وتأثّروا بها تأثّراً بالغاً، فاتّصفت بحوثهم الإسلاميّة وأفكارهم عن الإسلام بمسحةٍ صارخةٍ من هذه الروح المادّية اللاشعوريّة.

(٢)

فكان من جملة المظاهر المادّية التي تشدّق بها بعض الكتّاب الإسلاميّين هو إنكار المعجزة، وأنَّ الإسلام لم يأتِ بأيّ معجزةٍ سوى القرآن الكريم، وأنَّ جميع ما روي من المعاجز في كتب التاريخ، باعتبار أنّها صادرةٌ عن النبيّ صلى الله عليه وآله يجب أن يُشطب عليها جملةً وتفصيلاً، وتعتبر من الخرافات والتدجيلات غير الصالحة للإعلان عنها إلّا في العصور الوسطى.

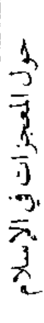
وكيف لا يفكّر هذا الباحث الإسلامي بهذا الأُسلوب بعد أن تشبّع بالروح المادّية للفكر الحديث، وصار يصدر عنها صدوراً تلقائيّاً لا شعوريّاً، تلك الروح التي تؤكّد على تقديس المادّة، وعلى استقلالها في الكون وعلى عدم إمكان خرق قوانينها الضروريّة، في حين إنَّ المعجزة أمرٌ منزَل من وراء الطبيعة وموجبٌ لخرق قوانين الكون المادّية، إذن فيجب إسقاطها من الحساب في ضمن إسقاط الأُمور الروحيّة الأُخرى من الحساب.

وإنَّ من سخرية القدر تجاه مثل هـذا الباحـث الإسـلامي: أنّـه مـضطرّ ضمناً بصفته فرداً من المسلمين إلى الاعـتراف بجملـةٍ مـن المعجـزات، ومـن الظواهر الروحيّة التي تعتبر من بـديهيّات الـدين الإسـلامي، والتـي يـساوق إنكارها إنكار الدين.

فمن ذلك النبوّة نفسها، التي لم تكن لتوجد إلَّا باتّصالٍ مباشر بين النبيّ وبين الله عزّ وجلّ، هذا الاتّـصال المـسمّى بــ (الـوحي) والـذي هـو ظـاهرة روحيّةٌ واضحة، كان على مثل هذا الكاتـب إنكارهـا لـو انـساق مـع قاعدتـه العامّة المادّيّة اللاشعوريّة.

ومنها: القرآن الكـريم معجـزة الإسـلام الخالـدة، الـذي لم ينـزل عـلى النبيّ ﷺ - فيما نعتقده كمسلمين- إلَّا بطريق الوحي من الله العزيز العليم.

ومنها: المعجزات المتعدّدة التي ذكرها القـرآن الكـريم، والتـي يـساوق إنكارها تكذيب القرآن ومن ثَمَّ الخروج عن الإسلام، وذلك: كصيرورة النار برداً وسلاماً على إبراهيم[1]، وانقلاب العـصا ثعبانـاً يلقـف مـا يـأفكون بيـد موسى عليه السلام[2]، وإبراء الأكمة والأبرص بإذن الله بيد عيسى عليه السلام[3]، والإخبار



(١) كما في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (سـورة الأنبيـاء، الآيـة: ٦٩).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (سـورة الـشعراء، الآية: ٤٥).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ﴾ (سـورة آل عمـران، الآية: ٤٩).



بانتصار الروم على الفرس قبل بضع سنين من حدوث ذلك[1]، في وقت كان الروم قد منوا بهزيمة نكراء أمام الفرس بشكلٍ لا يأمل عادةً رجوع القوّة إليهم في يوم من الأيام، وذلك في عهد نبيّ الإسلامﷺ.

ولئن كان بعض ما ورد في القرآن من ذلك، يمكن أن يتحمّل له هذا الكاتب أُسلوباً من التأويل وطريقة في العرض، تخضعه لقوانين المادّة، وتبعده عن أُفقه الروحيّ الرحب، إلَّا أنَّ في القرآن ما هو نصٌّ في الإعجاز ولا يمكن أن يفسَّر إلَّا على هذا الأساس، ويكون هذا الباحث إزاء مثل ذلك بين حدّين مشحوذين، فإمّا أن ينكر المعجزات ويشطب على قصص القرآن، فيخرج بذلك عن دينه، وإمّا أن يعترف بها فيخرج بذلك عن القاعدة المادّيّة العامّة التي تلقّاها عن الفكر الحديث.

ـ ب ـ

(١)

والذي يمكننا أن نلاحظه في هذا الصدد، هو أنّنا كمسلمين مؤمنين بوجود الله تعالى وقدرته، وأنّه خالق هذا الكون ومدبّره، وأنّه إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون، لا ينبغي أن يكون لدينا أيّ تأمّلٍ أو شكّ دون التصديق بإمكان حدوث المعجزة؛ فإنَّ القوّة التي خلقت هذا الكون قادرةٌ - لا محالة- على التصرّف به كيفما تشاء، بحسب ما تراه عدلاً وحكمة.

ونحن لا نقول بإمكان ظهور المعجزة على يد أيّ نبيّ، إلَّا بإقدار الله تعالى إيّاه وتوفيقه له، بأن يهبه في كلِّ معجزةٍ يريد أن يقوم بها القوّة الكافية

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الروم، الآيات: ٢-٤).

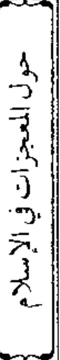
لتنفيذها، وليس لديه البشريّة المجرّدة أيّ أثرٍ في الموضوع، وليس لها أن تتصرّف من دون إذنه عزّ وعلا.

وإذا انتهى أمر المعجزات إلى الله عزّ وجلّ، تذلّلت الصعوبات في الاعتقاد بها، وانزاح حجاب الشكّ الماثل أمامها؛ لأنَّ الله تعالى هو خالق الكون وهو أعلم بطرق تدبيره وتكوينه.

(٢)

وليطمئنّ هؤلاء الباحثون الإسلاميّون المادّيّون!! على مادّتهم المقدّسة؛ فإنّها لن تُمسّ بسوء عند حدوث المعجزة بقليل ولا بكثير، ولن يكون هناك أيّ اعتداء على قوانينها العامّة الأزليّة!

فإنَّ الإسلام دين الله الحقّ إذ يقول بالمعجزة، يأخذ بنظر الاعتبار كلاً من القدرة الإلهيّة والعناصر الروحيّة من جهة، والقوانين المادّيّة وما تتضمّنه من علائق وملابساتٍ من جهةٍ أُخرى، ويحكم بإمكان المعجزة في حدود ذلك.



والذي ينبغي أن نعرفه في هذا السبيل، هو أنّه ليست جميع القوانين الكونيّة المادّيّة صلبة ومحدّدة وجامدة، كما يريد أن يتصوّرها المادّيّون، أو أنّها غير قابلة لأيّ تغييرٍ أو تبديل، مهما كانت القوّة الفاعلة شديدة التأثير.

فإنّنا يمكن بهذا الصدد أن نقسّم القوانين الكونيّة إلى قسمين:

القسم الأوّل: ما يكون قانوناً عقليّاً صلباً يستحيل التصرّف فيه من ناحية حكم العقل بالبداهة بضرورة تطبيقه، وذلك كقانون العلّية، فلا يمكن جعل المعلول متخلّفاً عن علّته أو متقدّماً عليها، وكقانون التناقض، فلا يمكن جعل النقيضين (الوجود والعدم) يجتمعان معاً أو يرتفعان معاً، وكالقوانين

الرياضيّة البديهيّة، كقولك الاثنين نصف الأربعة، أو الأربعة زوج، وهكذا.

وكالأُمور الذاتيّة للأشياء، والتي أُخذت في نفس مفهومها وذاتها والتي لا يمكن أن تتغيّر إلّا بانقلاب الذات إلى ذاتٍ أُخرى، وهو خلف المفروض، وذلك كالإنسانيّة بالنسبة إلى الإنسان، والزوجيّة بالنسبة إلى الأربعة.

والمعجزة في نشاطها تسير ضمن هذا القسم من القوانين ويستحيل أن تخرج عليها أو أن تكون استثناءً لمقتضياتها العامّة الشاملة؛ فإنّها قوانين عقليّة، والقوانين العقليّة غير قابلةٍ للاستثناء والتخصيص، كما ثبت في الفلسفة.

القسم الثاني: قوانين نافذة المفعول في الكون، أو بالأحرى (وقائع) كونيّةٌ معيّنة، تستمدّ أصالتها من كونها قد وقعت في الخارج على هذا الشكل وكانت نافذة المفعول بهذا الترتيب، ولا تستند في فعاليّاتها على أيِّ أساسٍ عقليّ لا يقبل الاستثناء.

وذلك كقانون الجاذبيّة ومقدار سرعة الضوء والصوت، ومقدار بعد الشمس عن الأرض، ومقدار كثافة الماء أو الهواء ... وغير ذلك من القوانين والوقائع الطبيعيّة.

وموقف العالم الطبيعي من هذه القوانين، هو أن يطّلع على وجودها، وأن يعرف بالضبط مدى تأثيرها وحدود فعاليّاتها وشروط نشاطها. أمّا أنّه لماذا وجدت هذه القوانين بهذا الشكل، ولماذا أصبحت تعمل بهذه الشروط وضمن هذه الحدود؟ فذلك سؤال لا يستطيع العالم الطبيعي أن يسأله.

وحتّى لو أمكنه السؤال، فإنّه لن يجد جواباً مسعفاً دقيقاً من أحد، لا من علومه الطبيعيّة ولا من العلوم الاجتماعيّة ولا حتّى من الفلسفة. نعم، غاية ما للفلسفة أن تقوله هو أنَّ الله تعالى قد خلقها هكذا، لما يعلمه في حكمته

الأزليّة اللانهائيّة من أنَّ هذا الشكل من القوانين هو أحسن طريقةٍ لضمان نظام الكون وحسن ترتيبه، أمّا إذا كان العالم الطبيعي ملحداً، فليسكت وليسلّم أمره إلى الشيطان!

ومثل هذه القوانين - كما قلنا- إنّما تستمدّ أصالتها باعتبار كونها وقعت في الكون على هذا الشكل، وإلّا فإنّها لا تقوم على أيِّ أساسٍ عقليّ يجعلها صلبةً جامدةً وغير قابلة للتحوير أو التغيير.

نعم، يمكن أن يُقال: إنَّ المعجزة إذا أوجبت إلغاء القانون بالكلّيّة، كان ذلك محالاً عقلاً؛ لأنّه موجب لخراب الكون وتبعثر أجزائه، وذلك لمدى ترابط القوانين الكونيّة فيما بينها، وممارسة نشاطها باعتبارها وحدةً متكاملة، فإذا حدثت ثغرةٌ في هذا البناء العظيم، فإنّه لا شكّ يؤول إلى الخراب والانهدام.

وهذا خلاف الحكمة الإلهيّة الأزليّة التي اقتضت وجود تلك الوحدة المتكاملة من القوانين، ومخالفة الحكيم لمقتضى حكمته محالٌ في حكم العقل.

ولكنّ الموارد الجزئيّة والاستثناءات المؤقّتة، التي قد تحدث في مثل هذه القوانين، في أماكن مختلفةٍ وأزمنةٍ متباعدةٍ، لا توجب أيّ محذور على الإطلاق، كما إذا أوجبت المعجزة في وقتٍ مّا غليان الماء على درجة ٧٠ مئويّة، أو أوجبت انعدام الجاذبيّة أو تخفيفها في بقعةٍ محدودةٍ من الأرض، أو أوجبت انخفاض سرعة الضوء أو ازديادها في زمانٍ معيّن، أو أوجبت انشقاق القمر أو تسبيح الحصى في ساعة من الدهر.

فإنَّ كلّ ذلك وإن كان خلاف القوانين الكونيّة النافذة المفعول، إلّا أنّها استثناءات مؤقّتة تحدث بفعل قوّةٍ عليا، هي نفس تلك القوّة التي خلقت

الكون، وسنّت ذلك القانون فيه، وليس في ذلك أيّ محذورٍ عقليّ أو كونيّ كما هو واضح.

(٣)

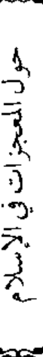
وأمّا إذا أبينا، وقلنا أنّه لا يجوز على القوانين الكونيّة أيّ تحويلٍ أو استثناء؛ لأنَّ هذا هو مقتضى كونها قوانين كونيّةً عامّةً أزليّة.

وهذا الزعم وإن كان خلاف ما توصّل إليه العلم الحديث، من وجود فجواتٍ طبيعيّة واستثناءاتٍ دقيقة في القوانين السائدة في داخل الذرّة أو في علاقات النجوم بعضها مع بعض، تلك الفجوات التي جعلت العلماء الاختصاصيّين يؤمنون بوضوحٍ بأنّها لا يمكن أن تصدر إلّا عن قوّةٍ عليا مسيطرةٍ على المادّة ومدبرةٍ لشؤونها.

إلّا أنّنا نسلّم الآن بهذه الدعوى جدلاً، ونعترف بأنَّ القوانين الكونيّة غير قابلةٍ للاستثناء، ونفسّر هذه الفجوات الطبيعيّة بأنّها قائمةٌ بدورها على قانونٍ معيّن، لا يمكن أن يتخلّف نشاطه أيضاً بدوره، ولذا نجد أنَّ هذه الفجوات خالدةٌ مع القوانين العامّة، ولا نحتمل مجيء يومٍ من الأيّام يتخلّف فيه الكون عن نظامه العامّ الحالي المعهود، بما فيه من قوانين وبما فيه من فجوات.

إذن، فوجود مثل هذه الفجوات القانونيّة لا يبرّر - بحال- وجود الاستثناءات الشاذّة التي تقع بواسطة الإعجاز غير الطبيعي.

وهذا الكلام وإن كان قابلاً للمناقشة في كلّ فقرةٍ من فقراته، إلّا أنّنا نسلّم جدلاً الأصل الموضوعي له، وهو عدم إمكان تغيّر القوانين المادّيّة العامّة.



إلَّا أنَّنا مع ذلك يمكن أن نتصوّر وجود المعجزة، بحيث لا تكون خارجةً عن القوانين الطبيعيّة ومنافيةً لنشاطها، وذلك بأحد طريقين:

الطريق الأوّل: هو وجود (مناطق حرّة) في داخل موضوع القوانين الطبيعيّة، بمعنى: أنَّ القانون وإن كان ضروريّ التنفيذ وغير قابل للاستثناء، إلَّا أنَّه يوجد في حدود نشاطه وفعاليّاته (مناطق حرّة) يمكن أن يتكيّف موضوعه خلالها على ما يسوقه إليه القدر.

والمقصود من المناطق الحرّة: هو وجود احتمالات وأساليب لتطبيق القانون، يمكنه أن يسير خلال أيّها شاء بحريّة، حسب مقتضيات علله وأسبابه، ويكون سيره خلال أيٍّ منها تطبيقاً مباشراً له، وليس فيه أيّ خروجٍ عن مقتضياته الطبيعيّة الضروريّة.

فمثلاً: قانون (غليان الماء على مائة درجة مئويّة فأكثر) لم يحدّد في مضمونه مقدار هذا الأكثر، فيكون الماء حرّاً في غليانه على أيّ درجةٍ شاء إذا كانت فوق المائة، وكذلك قانون (تكوّن الماء من الهيدروجين والأوكسجين) لم يحدّد فيه كونه غير ممزوج بموادَّ أُخرى في بعض الأحيان، أو كون التراب على سطح الأرض أو في أعماقها مثلاً.

فإذا اتّضح ذلك، بقي أن نعرف أنَّ تطبيق القوانين الطبيعيّة **تارةً يكون** على سائر الاحتمالات والأساليب المتضمّنة في (منطقته الحرّة)، بمعنى: أنَّ تطبيق القانون قد اتّخذ بالفعل أكثر من أُسلوبٍ واحد، خلال هذه المنطقة، وذلك كما في مثالنا السابق، حيث نرى الماء يغلي تارةً على مائة درجة، وأُخرى على مائة وعشرين درجة، وثالثة على مائة وخمسين مثلاً.

وتارة أُخرى: نرى القانون الطبيعيّ يلزم في تطبيقه حالةً واحدةً

وأُسلوباً معيّناً خاصّاً من الأساليب المحتملة في (منطقته الحرّة)، بحيث يجعلنا نعتقد أنَّ لزوم هذا الاحتمال والإخلاد إليه شرطٌ في تطبيق هذا القانون، وأنّه لا يمكن أن يوجد له مصداقٌ في الخارج إلّا في حدود هذا الشرط.

في حين إنَّ القانون يملك في الواقع من بعض جوانبه وخصوصيّاته (مناطق حرّة) يمكن أن يتغيّر تطبيق القانون خلالها، إلّا أنّها مناطق مجهولةٌ لم نعهد لها تطبيقاً خارجيّاً؛ لأنّنا فرضنا أنَّ القانون قد لزم في الخارج حالةً واحدة.

والمعجزة وحدها هي التي تستطيع أن تُخرج القانون عن خطّ سيره المعتاد، وتنقله بقدرة فاعلها اللانهائيّة إلى خطّ سيرٍ آخر، فتطلعنا بذلك على إحدى المناطق الحرّة المجهولة في هذا القانون؛ إذ نستكشف بعد صدور المعجزة أنَّ لهذا القانون الذي حدثت المعجزة خلاله أُسلوبين في التطبيق كلاهما طبيعيٌّ بالنسبة إليه، وغير خارقٍ لضرورته القاهرة، غاية الأمر أنّه قد لزم في سيره المعتاد إحدى هاتين الحالتين، بحيث تخيّلنا أنّها هي الحالة الوحيدة لهذا القانون، إلّا أنَّ المعجزة استطاعت أن تنقل خطّ سيره إلى الأُسلوب الآخر، الذي هو طبيعيٌّ بدوره بالنسبة إلى القانون، رغم تصوّرنا خلاف ذلك؛ باعتبار أنّه خلاف المعتاد.

فمثلاً نستطيع أن نفهم من معجزة تكلّم الحصى بيد رسول الله صلى الله عليه وآله[1] أنَّ التكلم لازمٌ عاديّ للوظائف الحيويّة، بمعنى: أنَّ هذا هو الشكل المعهود والمعتاد في خطّ سير الطبيعة، وليس هو من لوازمه الطبيعيّة القانونيّة المأخوذة

(١) راجع الاقتصاد (للطوسي): ١٨١، الكلام في النبوّة، والبداية والنهاية (لابن كثير) ٦: ١٤٦، باب تسبيح الحصى في كفّه صلى الله عليه وآله.

شرطاً في فعاليّة القانون، وعندئذٍ نفهم بوضوحٍ أنَّ انعدام الوظائف الحيويّة في الحصى له نحوان من السير وأُسلوبان في التطبيق، وهو التكلّم وعدم التكلّم، وكلا هذين الحالين طبيعيٌّ له، وغير منافٍ لانعدام وظائفه الحيويّة، غاية الأمر أنّه قد لزم في خلال عمره الطويل حالةً واحدةً هي الصمت، فكان هذا هو المعتاد منه، والذي تخيّلناه لازماً حقيقيّاً له، والمعجزة وحدها هي التي كشفت لنا الأُسلوب الآخر في تطبيق هذا القانون.

ولعلّ هذا هو المقصود من قول المحقّقين الإسلاميّين: من أنَّ المعجزة ليست خرقاً للنظام الكونيّ الطبيعيّ، وإنَّما هي خرقٌ للمعهود من هذا النظام[1].

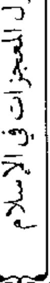
(٤)

الطريق الثاني - لتفسير المعجزة مع المحافظة على ضرورة القوانين الكونية -: هو أن يُقال: أنَّ هناك في هذا الكون الفسيح نظامين طوليّين من القوانين، أو مجموعتين من القوانين إحداهما في طول الأُخرى وأعلى من الأُخرى وحاكمةٌ عليها.

وأحد هذين النظامين هو عبارةٌ عن القوانين الكونيّة المادّيّة المتحكّمة في الكون المنظور، وهي تمثّل المجموعة السفلى والمتأخّرة والمحكومة من النظامين.

والنظام الآخر: هو عبارةٌ عن مجموعةٍ من القوانين الروحيّة العامّة

(١) راجع المدرسة القرآنيّة (موسوعة الإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر): ٢٨٠، ما هي المعجزة، وبحوث في علم الأُصول (للصدر، بقلم الشيخ عبد الساتر) ٨: ٣٥١، الجهة السادسة: حجّيّة الدليل العقلي، المقام الثاني في العقل العملي.



السائدة في الكون بما يحتوي عليه من مادّةٍ ومـن روح، وهـي تمثّل المجموعـة العليا والنظام الحاكم على القوانين المادّيّة؛ باعتبار أنَّ القـوانين المادّيّـة أخـصّ منها، بمعنى: أنَّ القانون الروحي يستطيع الـتحكّم في القـانون المـادّي، وأمّـا القانون المادّي فلا يستطيع التحكّم في عالم الروح.

ومعنـى ذلـك: أنَّ القـانون المـادّي يكـون محكومـاً للقـانون الروحـي ومشروطاً في حدود فعاليّاته وفي ضرورة إنتاجه، بأن لا يتعارض في تطبيقه مع قانونٍ روحيٍّ يقتضي خلاف ما يقتضيه، بمعنى: أنّه لا يمكن أن يمارس نشاطه إلّا في الحدود التي لا يقتضي القانون الروحي فيها التأثير.

ومقتضى اشتراط ضرورة إنتـاج القـانون المـادّي بـذلك، هـو أنّـه إذا لم يتحقّق الشرط، بمعنى: أنّه كان هناك قانونٌ روحيٌّ مخـالف، يريـد أن يـسيطر على هذا الجزء من الكون، فإنَّ ضرورة القانون المادّي تكون منتفيـةً لا محالـة. وبانتفاء ضرورته يستحيل عليـه الإنتـاج حينئـذٍ؛ إذ المفـروض أنّـه معـارضٌ بضرورةٍ أقوى، هي القانون الروحي.

وعند تعارض الضرورة مـع الـلاضرورة، تتقـدّم الـضرورة لا محالـة؛ ويكون القانون الروحي هو الساري المفعول.

ومعنى ذلك بوضوح: أنَّ قانون غليان الماء على درجة المائة المئويّـة إنّـما يكون نافذ المفعول إذا تُرك وشأنه من مجمل النظام الروحي، أمّـا إذا تعـارض مع قانونٍ روحيٍّ أعمّ وأشمل، فإنَّ الماء سوف لـن يغـلي عـلى هـذه الدرجـة، وسوف لن يكون هذا أمراً غير طبيعيّ أو مخالفاً لضرورة القانون المادّي، بعـد أن فرضنا أنَّ ضرورته مشروطةٌ في أصل تكوينها بذلك.

بل إنّنا نستطيع أن نقول أكثر مـن ذلـك، وهـو: أنَّ العوامـل الروحيـة

تنضمّ إلى العوامل المادّيّة، فتغيّر من إنتاجها الطبيعيّ تغييراً قليلاً أو كثيراً، حسب ما يقتضيه العامل الروحي المنضمّ. فمثلاً: إذا أضيف لقانون غليان الماء على درجة المائة عاملٌ روحيٌّ معيّن، فإنَّ الماء سوف يمكنه الغليان على سبعين درجة مثلاً، كما أنّه إذا أُضيف له عاملٌ روحيٌّ معيّن آخر فسوف لن يغلي قبل بلوغ الحرارة إلى المائة والخمسين مثلاً، وكذلك سرعة النور إنّها تبقى ثابتةً إذا لم يضف إليها عاملٌ روحيّ، أمّا إذا أُضيف إليها مثل ذلك فسوف تبطئ سرعته أو تزيد تبعاً لمقتضيات العامل الروحي.

ولا يكون هذا التغيّر في القانون المادّي مخالفاً لضرورة إنتاجه، بعد أن فرضنا أنَّ النظام الروحي العامّ مسيطرٌ على النظام المادّي في هذا الكون الفسيح وحاكمٌ عليه.

وهنا يبدو موقف المعجزة من هذه العوامل الروحيّة واضحاً جدّاً.

أمّا بالنسبة إلى تغيّر نتاج القانون المادّي بإضافة العامل الروحيّ إليه، فكلّ ما تفعله المعجزة في المقام هي أن تضيف عاملاً روحيّاً خاصّاً إلى أيّ قانونٍ من قوانين الكون لتضمن بذلك تغيّر إنتاجه، وبشكلٍ طبيعيٍّ - على ما أثبتنا- بالنحو الذي تشاء، بل إنَّ المعجزة ليست إلّا عبارةً عن نتيجة سيطرة القانون الروحي على القانون المادّي ودحره له من مقام ضرورة الإنتاج، فيكون الواقع في الخارج أمراً ليس معهوداً لنا كَسَير زمانين.

وأمّا بالنسبة إلى مزاحمة القوانين الروحيّة للقوانين المادّيّة وإبطالها لعملها، إبطالاً طبيعيّاً، على اعتبار اشتراط ضرورتها بعدم المزاحمة، فإنَّ نفس القانون القائل بوجوب إقامة المعجزة بالنسبة إلى النبيّ، ذلك القانون الذي يعتبر من الأغراض الروحيّة المهمّة لله تعالى في سبيل هداية البشر وإرشادهم



إلى طريق الصواب، مثل هذا القانون بنفسه يصلح أن يكون معارضاً للقوانين المادّية عند تنجّز وجوب المعجزة وإقامة الحجّة على يد نبيٍّ من الأنبياء.

فإذا صحّت القاعدة التي قلناها - على ما سوف نبرهن عليه إن شاء الله تعالى- من أنَّ القانون المادّي ينذحر (اندحاراً طبيعيّاً) أمام القانون الروحي، إذن فكلّ قانونٍ كونيٍّ مادّيٍّ مخالفٍ لوجود المعجزة سوف يندحر، وسيوجد النتاج المعيّن الذي تقتضيه المعجزة لا محالة.

(٥)

أمّا الآن، فلم يبقَ لدينا بعد هذه الجولة في الطريق الثاني، إلّا أن نبرهن على وجود العوامل والقوانين الروحيّة، أو بالأحرى على وجود النظام الروحي العامّ في الكون، ونكون عندئذٍ في غنىً عن البرهنة على سيطرته على عالم المادّة وحكمه عليه، واشتراط تأثير القوانين المادّية وإنتاجها بعدم المعارضة معه؛ وذلك: لأنَّ هذه السيطرة أمرٌ مأخوذٌ في نفس مدلول العامل الروحي، فإنَّ معنى كونه عاملاً روحيّاً هو كونه مسيطراً على قسمٍ منبسطٍ من الكون بما فيه العالم المادّي، ولا يمكن افتراض عاملٍ روحيٍّ أضعف من المادّة؛ فإنَّ معنى كونه روحيّاً هو كونه بالغاً إلى مرحلة من التجرّد وقوّة الوجود لم تصل إليها المادّة، وهكذا يكفي في سيطرته عليها وحكمه لها، عند تعارضه معها أو انضمامه إليها.

نعم، يمكن وصف العامل الروحيّ بالضعف، بالنسبة إلى عاملٍ روحيّ أقوى منه؛ فإنَّ العوامل الروحيّة، كالعوامل المادّية، متفاوتةٌ في درجة القوّة والتأثير، إلّا أنّها بوجهٍ عامٍّ، أقوى من العوامل المادّية بوجهٍ عامّ.

ونحن كمسلمين في راحةٍ تامّة بالنسبة إلى الاستدلال على وجود

القوانين الروحيّة[1]، بمجرّد مراجعة آي الذكر الحكيم.

فمن ذلك قوله عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[2].

ممّا يدلّ بوضوح بأنّ الله تعالى قد وفّر للجيش الإسلامي المجاهد ببدرٍ – بعد أن شعر بالضعف – عاملاً روحيّاً فعّالاً يقودهم في سبيل النصر، ووعدهم بمضاعفة ذلك العامل، إذا ما صبروا واتّقوا، ذلك العامل الذي أسماه القرآن بالملائكة.

ويكون من أثره أنّ الجيش المؤيّد به، يمكن أن يقابل جيشاً مضاعفاً له في العدّة والعدد، وأن ينتصر عليه انتصاراً مشرّفاً من باب انضمام العامل الروحي إلى العامل المادّي؛ على ما قلناه، وذلك قوله عزّ من قائل: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[3].

ولم يكن ذلك ليكون لولا إفاضة الله تعالى لهذا العامل الروحي المهمّ، برحمته وحسن توفيقه.

---

(١) لا يخفى أنّنا في غنىً عن هذا الاستدلال؛ لأنّنا في المقام نحاول إثبات المعجزة، ونفس وقوع المعجزة إذا ثبت في التاريخ يكفي لإثبات وجود العوامل الروحيّة، وإذا فرض أنّها لم تثبت لم نحتج إلى تبريرها بهذا الوجه (منه قدّس سرّه).

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٢٣-١٢٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

ومن ذلك أيضاً قوله عزّ من قائل: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾[1].

فهذه الآية إذ تشرح مراحل الخلقة في هذا الكون وتوضّح أنّها كانت خلال سبعة أيّام، تعرب أنَّ إحدى تلك المراحل كانت هي إفاضة البركة على هذا الخلق الجديد. وهذه البركة تعبّر عن عاملٍ روحيٍّ فعّال، يحفظ التوازن العامّ في هذا الكون ويجعل فيه القابليّة للسير المطّرد نحو الكمال.

ومن ذلك أيضاً قوله عزّ من قائل: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾[2].

ففي هذا الموقف الرهيب حيث مطاردة النبيّ صلى الله عليه وآله تجري من قبل قريش على قدمٍ وساق، وبكلِّ حرارةٍ واندفاع، كان النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله جالساً في الغار ساكن القلب مطمئنّ الجنان، واثقاً بأنّ الله تعالى معه دائماً، يؤيّده بروحٍ منه، وبتأييده ونصره، وأنَّ الله تعالى لن يهمل في مثل هذه اللحظات الرهيبة عوامل النور والتأييد، التي تسري في كيان الإنسان في أحلك الظلمات.

وكان الله تعالى مراقباً لذلك، عالماً ما في قلب نبيّه من الإيمان به والإخلاص له والتوكّل عليه، ومن ثَمَّ فقد أنزل سكينته عليه، والسكينة عاملٌ روحيٌّ يفيض على النفس مزيداً من النور والإيمان، ومزيداً من

(١) صورة فصّلت، الآيتان: ٩-١٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

الطمأنينة والإخلاص.

وأيّده أيضاً بجنودٍ، وهي قوىً روحيّةٌ توجب نصرته أمام الأعداء، كتلك التي كانت تفاض على المؤمنين أثناء القتال، ولذا كان التعبير عنها بالجنود أقرب المجازات إلى الحقيقة.

وفي نفي الرؤية البشريّة عن هؤلاء الجنود، أشار إلى قوله: ﴿بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ ما لا يخفي من الدلالة على كونهم ليسوا من قبيل القوى المادّية التي يمكن للإنسان أن يحيط بها علماً عن طريق الإحساس، وإنّما هي قوىً روحيّةٌ إلهيّة، أنزلها الله تعالى لنصرة نبيّه في وقتها المناسب.

ونحن كمسلمين لا نحتاج إلى الإسهاب في الاستدلال بآيات الله البيّنات على وجود العوامل الروحيّة في الكون، بعد أن كانت بعض أُصول الإسلام وعقائده الرئيسيّة قائمةً على ذلك، كالإيمان بوجود الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر.

[ثُمَّ] ينبغي أوّلاً: إعطاء فكرة عن التجرّد الإلهيّ؛ فإنّنا وإن كنّا نقول بالمعاد الجسماني إلَّا أنَّ أُسلوب الحشر والوقوف يوم القيامة يحتوي على كثير من العوامل الروحيّة، كما هو واضحٌ لِمَن يراجع الروح والفحوى العامّة للآيات المتعرّضة لذلك[1].

ولعلّ فيما ذكرناه ما يكفينا كمسلمين ويكفي أُولئك الباحثين الإسلاميّين المادّيين، بصفتهم يؤمنون بالله وبالقرآن وباليوم الآخر، ولسنا

---

(١) فنحن إذ نستمع لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * ...* وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾، نتساءل عن سبب هذا الانقلاب الشامل، ولن نجد له مبرّراً مادّياً واضحاً، إذن فهو روحيٌّ لا محالة (منه قدس سره).

بحاجة إلى أن نستدلّ[1] إلى نتائج العلم الحديث حول ذلك.

فإنَّ العلم الحديث وإن كان متطفّلاً في بحثه لمثل هذه المواضيع الروحيّة؛ باعتبار أنَّ حدود نشاطه وأساليب بحثه لا يمكن أن تتعدّى الظواهر المادّيّة، وهو إنَّما يمكنه النظر فيما يخضع لمختبره من الموادّ، في حين إنَّ الظواهر الروحيّة ليست من هذا القبيل.

إلَّا أنَّه مع ذلك قد وُجد في المادّة التي يبحثها ظواهر لا يمكن أن تفسّر إلَّا على أساسٍ روحيّ، كتلك الفجوات الطبيعيّة التي أشرنا إليها في أوّل الفقرة الثالثة من القسم الثاني من هذا البحث. وهي عبارةٌ عن تخلّفِ حادثٍ في سير القانون الطبيعي، كانحراف الكهارب خلال دورانها حول النواة في داخل الذرّة، وكانحراف محور الأرض (٤٠) قدماً عن مركزه الطبيعي خلال دوران الأرض حول نفسها، وغير ذلك، ممّا لا يمكن أن يفسَّر إلَّا بتدخّل قوىً روحيّةٍ في تطبيق هذه القوانين.

ومن جملة الظواهر الروحيّة التي لاحظها العلم الحديث، منطبعةً على المادّة (النوم المغناطيسي) والشعور التلباثي، وهو نقل الأفكار عن بعد، واستحضار الأرواح وسماع بعض كلامها، ولا يخفى أنَّ العلم لا زال يحبو في مهده تجاه هذه الظواهر، وأنَّ الأيّام لازالت تسعفه بالجديد من الظواهر على مرّ الزمن، وأنَّه يحتاج تجاه أمثال هذه الأُمور إلى مزيدٍ من الفحص والتدقيق.

إلَّا أنَّ الشيء المعترف به سلفاً من قبل العلم الحديث، أنَّ مثل هذه الظواهر لا يمكن أن تكون مادّيّة المنشأ صرفاً، وإنَّما هي تحتوي على عنصرٍ روحيٍّ نازل من ذلك العالم المجهول.



(١) هذا الدليل ينبغي إيراده على شكل استئناس، لا على نحو الجزم (منه قدس سره).

(٦)

والآن، وبعد أن انتهينا من شرح الطريق الثاني للمعجزة والبرهنة عليه، لابدَّ لنا أن نعرف أنَّ هذا الطريق والطريق الأوّل لها، ليسا عبارة عن فرضيّتين متضادّتين إذا ثبتت إحداهما انتفت الأُخرى، بل هما ممكنا الوجود معاً، وواقعان في الخارج أيضاً، كما سبق أن برهنّا عليه.

ويكونان متعاونين في إيجاد المعجزة، فمثلاً: ما قلناه في الطريق الأوّل من أنَّ المعجزة تنقل تطبيق القانون من أُسلوبٍ طبيعيٍّ عاديٍّ مألوف، إلى أُسلوبٍ طبيعيٍّ غير مألوف، هذا النقل إنَّما يمكن أن توجده المعجزة بواسطة قوّة العامل الروحيّ، ذلك العامل الذي ذكرناه في الطريق الثاني.



-ج-



(١)

ويستدلّ أُولئك الباحثون الإسلاميّون من ذوي اللاشعور المادّي الحديث، تبعاً للمستشرقين من أعداء الإسلام، يستدلّون بالقرآن على نفي أن يكون رسول الإسلامﷺ قد أتى بأيّة معجزةٍ سوى القرآن الكريم.



وتستقرّ على رأس قائمة الآيات التي يذكرونها؛ باعتبار أنّها أوضح دلالة على دعواهم: قوله تعالى شأنه:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ

بَشَراً رَسُولاً﴾[1].

ووجه استدلالهم بهذه الآية، هو أنَّ مشركي قريش بعد أن طلبوا منه إقامة المعاجز المذكورة في الآية، امتنع عن ذلك واعتذر بأنَّه بشرٌ قد أُرسل إليهم، وليس لديه أيّ قدرة على إقامة المعجزات.

ويدلّ على هذا الاستدلال قوله عزّ من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[2].

ويدلّ عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾[3].



فيجب على قريش أن تكتفي بالكتاب كمعجزةٍ وحيدةٍ لنبيّ الإسلامﷺ وليس هناك من سبيلٍ إلى إقامة معاجز أُخرى، فإنَّما الآيات عند الله تعالى ولا يستطيع هذا الرسول البشريّ إقامة المعجزة.

ومن الآيات التي يُدّعى دلالتها على ذلك، قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴾[4].

ووجه دلالتها: أنَّ الله تعالى امتنع عن إرسال الآيات غير القرآن، وكان السبب في ذلك هو تكذيب الأُمم السابقة على الإسلام بها.

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٩٠-٩٣.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٣) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥٠-٥١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

(٢)

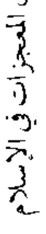
ونحن بعد أن اطّلعنا على ما قلناه في القسم الثاني من هذا البحث، يمكننا أن نناقش الأُصول الموضوعيّة لهذا الاستدلال.

فالإنسان البشريّ لا يعجز عن إقامة المعجزة، إذا كان مؤيّداً بقوّة روحيّة من الله عزّ وجلّ؛ فإنَّ المعجزة ليست خرقاً لنواميس الطبيعة وقوانينها لكي يستحيل إيجادها، وإنّما هي تطبيقٌ غير مألوفٍ لنفس تلك القوانين.

نعم، هو في حاجةٍ ماسّة إلى القوّة الروحيّة المفاضة عليه من الله عزّ وجلّ، وإلّا فإنَّ قدرته البشريّة المجرّدة قاصرةٌ عن ذلك كلّ القصور، و[في] ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1].

بالإضافة إلى أنَّ البشريّة بنفسها لو كانت مانعةً عن إقامة المعجزة أو كان تكذيب الأولين مانعاً عنها، لامتنع على النبيّ صلى الله عليه وآله إقامة أيّ معجزةٍ على الإطلاق، ولما أمكن إقامة حجّةٍ واضحةٍ على صدقه، (ولازم هذا أن يكون بعث الرسول لغواً؛ إذ لا فائدة في إرساله، إذا لم تكن معه بيّنةٌ تقوم على صدقه، وأن يكون تكليف الناس بتصديقه، ولزوم اتّباعه تكليفاً بما لا يطاق)[2].

ولشمل هذا المانع القرآن نفسه؛ إذ لا وجه لتخصيص المنع بالآيات الأُخرى، على حين إنَّ القرآن هو معجزة الإسلام الخالدة، باعتراف أُولئك المسلمين المادّيين.



---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٨، وسورة غافر، الآية: ٧٨.

(٢) البيان في تفسير القرآن (لسيّدنا الأُستاذ آية الله العظمى السيّد أبو القاسم الخوئي): ٧٧ (منه قدس سره).

(٣)

والضابط الرئيسي، والوجه المهمّ الذي يمكنك إقامته ضدّ هذه الدعوى وذاك الاستدلال، وبه يتّضح لك الوجه الصحيح في مدلول هذه الآيات، هو أن يُقال: بأنَّ أيّ نبيٍّ يرسله الله تعالى إلى البشر توخّياً لإصلاحهم وإرشادهم وهدايتهم إلى طريق الحقّ والصواب، يجب أن يُؤيّد دعواه للنبوّة بإقامة المعجزة؛ لتكون حجّةً فاصلةً أمام البشر في ذلك، وبرهاناً قاطعاً لشكّ الشكّاكين وريب المرجفين.

وللناس أيضاً أن لا يؤمنوا به حتّى يأتيهم بالمعجزة؛ باعتبار أنَّه عندما يدّعي النبوّة ويكون صادقاً بنبوّته، فهو إذن متّصلٌ بما وراء الطبيعة، ذلك الاتّصال الوثيق الذي يخوّله الحصول على قوّةٍ روحيّةٍ فعّالةٍ تمكّنه من إقامة المعجزة، فإذا كان صادقاً فهو لا محالة يجب عليه أن يوفهم بذلك، إقامة المعجزة بالمقدار الذي يوجب اليقين، لئلّا يكون تكليف الناس بتصديقه تكليفاً بما لا يطاق؛ باعتبار أنَّ شكّهم الأوّلي بنبوّته يحتاج إلى سببٍ موجب، يوجب دفعه لرقيّه إلى درجة اليقين، وليس ذلك إلَّا بإقامة المعجزة، وحدوث اليقين من دون حصول سببه محال؛ لأنَّه يوجب حدوث المعلول بدون علّة، والتكليف بالمحال محالٌ أيضاً.

وهذه الحجّة ثابتةٌ في القرآن كمعجزة الإسلام الخالدة للدين الخالد.

وبعد إقامة المعجزة بشكلٍ يكون كافياً عادةً لأن يهب القطع واليقين للعقل البشريّ المعتاد، غير المتّصف بالتمرّد والنفاق، عندئذٍ يجب على الناس أن يؤمنوا به ويصدّقوه، ويخضعوا له ويطبّقوا تعاليمه؛ باعتبار أنَّه نبيٌّ من أنبياء الله تعالى.



ولا يبقى عندئذٍ من المكذّبين إلَّا أُولئك المرجفون، الـذين أكـل الـشكّ قلوبهم وعاث في ضمائرهم، واستولى حبّ المصالح الشخـصيّة وعبـادة المـادّة على عقولهم ووجدانهم، فأحالها سواداً قاتماً لا أثر للنور فيه.

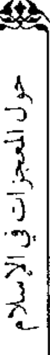
أُولئك يكونون عازمين عـادةً عـلى تمثيـل دور المعارضـة في كـلِّ دعـوةٍ إيمانيّة من هـذا القبيـل، وعـدم التـصديق بهـا والخـضوع لتعاليمهـا إلى آخـر الشوط، بل إنَّهم يواصلون حربهم معها وتحدّيهم لها واستهزاءهم بها.

ويكون من جملة أساليبهم الهدّامة تجاه هذه الدعوة، هـي أنَّهـم يـذهبون إلى نبيّهم الجديد، فيطلبون منه إقامة المزيد من المعجزات، مظهرين لـه أنَّـه إذا أتى بها فإنَّهم سوف يؤمنون، وهم يضمرون في سرّهم أنَّه ليس نبيّاً، ومـن ثَـمَّ فإنَّه لن يستطيع إقامة المعجزات المطلوبة، وبذلك يظهر عجزه وكذبه.

إلَّا أنَّ مثل هذه الطلبات لا يجب على النبيّ إجابتها بعد أن كان قد أقـام المعجزة الكافية لإقامة الحجّة وإحداث اليقين في القلب البشريّ المعتاد.

إلَّا أنَّه لو رأى إجابتهم إلى ذلك وأقـام المعجـزات المطلوبـة فعندئـذٍ لا يبقى أمام هؤلاء المشكّكين إلَّا الإيمان، بعد اندحارهم في هذا التحدّي الـسافر الذي قاموا به تجاه نبيّهم.

أمّا إذا لم يؤمنوا فإنَّهم يستحقّون العقوبة الشديدة العاجلة مـن قبـل الله تعالى؛ إذ إنَّ البقاء على الكفر بعد إقامة الحجّة تلو الحجّة، وبعد ذلك التحـدّي والاقتراح، يكون كاشفاً بوضوح عن لجاجة المقترِح وشدّة عناده؛ إذ لـو كـان طالباً للحقّ لصدّق بالآية الأُولى؛ لأنَّها كافيـةٌ في إثباتـه. ولأنَّ معنـى اقتراحـه هذا: أنَّه قد التزم على نفسه بتصديق النبيّ إذا أجابـه إلى هـذا الاقـتراح، فـإذا كذَّب الآية المقترحة بعد صدورها، كان مـستهزئاً بـالنبيّ وبـالحقّ الـذي دعـا



إليه، وبالآية التي طلبها منه، ولذلك سمّى الله تعالى هذا النوع من الآيات (آيات التخويف)، كما في الآية الكريمة - السالفة الذكر[1]- وإلّا فلا معنى لحصر مطلق الآيات بالتخويف؛ فإنَّ منها ما يكون للرحمة بالعباد وهدايتهم وإنارة سبيلهم[2].

وحينما يكون الكفّار في مثل هذا الموقف، بحسب السنّة الإلهيّة العامّة أن ينزل عليهم العقاب الدنيويّ الصارم العادل، كما نزل بالفعل على عدد من أُمم الأنبياء السابقين على ما نطق به القرآن.

ونبيّ الإسلامﷺ بعد أن أقام حجّته الواضحة ودليله القويم، بإنزال القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة، لم يكن يجب عليه إقامة أيّة معجزةٍ أُخرى أو إجابة أيّ طلبٍ لإقامة المعجزة، و[في] ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾[3]، وهي إحدى الآيات التي استشهدوا بها على نفي المعجزة في الإسلام، سوى القرآن، وقد عرفت الآن وجهها الصحيح.

فإنَّ القرآن كافٍ في إثباته المعجزة الحجّة، فلا حاجة إلى معاجز أُخرى، مع أنَّ الله قادرٌ عليها، وهو معنى قوله: ﴿إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

بل إنَّه لم يكن من المصلحة إجابتهم إلى طلباتهم؛ لأنَّهم سوف لن يؤمنوا بعد قيام هذه المعاجز المطلوبة، ومن ثَمَّ يستحقّون العقوبة العاجلة الشديدة

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

(٢) راجع البيان في تفسير القرآن: ٧٨ (منهقدّس سرّه).

(٣) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥٠-٥١.

على إنكارهم وتمرّدهم طبقاً للقانون السابق، ويكون من الواجب إنزال العذاب عليهم في الدنيا قبل الآخرة، كما قد نزل على المكذّبين في الأُمم السابقة، على ما نطق به القرآن الكريم.

إلّا أنَّ نزول العذاب - وإن حدث في الشرائع السابقة- لا يمكن أن يحدث في أُمّة الإسلام بعد (أن ضمن الله تعالى رفع العذاب الدنيويّ عن هذه الأُمّة إكراماً لنبيّه ﷺ، وتعظيماً لشأنه)[1]؛ حيث قال عزّ من قائل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾[2].

وفي ذلك مصالح كبرى يمكن أن يجنيها الإسلام، من أهمّها إمكان اهتداء هؤلاء أو بعضهم على مرور الزمن، بعد أن يروا الحقّ واضحاً ودولة الإسلام قائمة، أو إنجابهم لذريّةٍ صالحةٍ تستجيب إلى الإسلام وتؤمن به، وتخلص له.

وحيث إنَّ القانون الإلهيّ في إنزال العذاب العاجل على مثل هؤلاء المكذّبين لا يمكن أن يتخلّف[3]، إذن فيجب رفض طلباتهم سلفاً لئلّا يتحقّق موضوع هذا القانون فينزل العذاب على هؤلاء المشركين، فيكون ذلك خلاف ضمان الله تعالى وردّ العذاب عن أُمّة الإسلام.

لذا لم يشأ الله تعالى إجابة طلباتهم إلى إقامة هذه المعجزات، ومن ثَمَّ لم



(١) البيان في تفسير القرآن: ٧٨ (منه قدس سره).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

(٣) لا يخفى أنَّ تخلّف هذا القانون محال؛ لأنّه يرجع إلى حكم العقل العملي بأنَّ هؤلاء المكذّبين المعاندين مستحقّون للعقاب، وأنَّ إنزال العقاب عليهم من العدل، إذن فعدم إنزاله يكون ظلماً، وهو ممّا يتنزّه عنه الباري عزّ وجلّ (منه قدس سره).

يهب لنبيّه القوّة اللّازمة لإقامتها، ولم يكن النبيّ ﷺ بقوّته البشريّة المفقودة بقادرٍ على إقامتها، ومن ثَمَّ جاء الاعتذار عن إجابة الطلبات قائلاً: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾[1]. وهذه أيضاً إحدى الآيات التي استشهدوا بها، وقد عرفت الآن وجهها الصحيح.

(٤)

وبهذا الضابط العامّ، تستطيع أن تفسّر التأكيد على بشريّة الرسول في مجال الاعتذار عن إقامة المعجزات؛ وذلك أنَّ المشركين كانوا يواصلون اقتراح المعجزات على نبيّ الإسلام؛ وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[2].

وحيث كانت إجابتهم إلى اقتراحاتهم ممتنعةً – كما عرفنا– كان القرآن يؤكّد بتكرار على بشريّة الرسول، طبقاً لتكرار اقتراحاتهم.

ويمكن أن يكون للتأكيد على ذلك في بعض المواضع من القرآن الكريم مداليلُ أُخرى، أجنبيّة عن إقامة المعجزات، كالردّ على مَن يتخيّل أنَّ النبيّ يجب أن يكون شخصاً فوق البشر، وأن يحتوي على عنصرٍ إلهيٍّ بشكلٍ من الأشكال، أو أن يكون ملكاً من الملائكة، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ﴾[3]، حيث نراهم يستنكرون بشريّة الرسول باعتبار هذا التخيّل.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.

(٢) سورة الفرقان، الآيتان: ٧–٨.

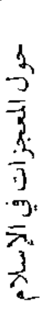
(٣) سورة القمر، الآية: ٢٤.

(٥)

على أنَّ في القرآن ما يدلّ على صدور معجزاتٍ أُخرى غير القرآن من نبيّ الإسلامﷺ؛ وذلك كما في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾[1].

والمقصود من الآية هو المعجزة لا آيات القرآن، وإلّا لكان الصحيح أن يعبَّر بالسماع دون الرؤية، (بل وفي قولهم ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ دلالةٌ على تكرّر صدور المعجزة عنهﷺ.

وإذن، فلو سلّمنا دلالة الآيات السابقة على نفي صدور المعجزة عنه، فلابدَّ وأن يراد من ذلك نفيه في زمان نزول هذه الآيات الكريمة وما بمعناها، ولا يمكن أن يراد منه نفي الآية حتّى بعد ذلك)[2]؛ لأنَّ معناه وقوع التنافي بين مداليل آيات القرآن، وهو محال؛ باعتبار نزوله عن الله عزّ وجلّ.



- د -

(١)

والآن، وبعد أن قطعنا هذين الشوطين المهمّين في البحث عن المعجزات، وعرفنا بوضوحٍ أنّه ليس هناك دليلٌ عقليّ على نفيها؛ لأنّها ليست من المحالات وليست مخالفةً لمقتضيات القوانين الكونيّة العامّة، كما أنّه ليس هناك نصٌّ في القرآن يدلّ على عدم صدورها عن النبيّﷺ، بل إنَّ فيه ما يدلّ على صدور المعجزات منهﷺ.

---

(١) سورة القمر، الآيتان: ١-٢.

(٢) البيان في تفسير القرآن (للخوئي): ٨٩ (منهقدس سره).

عندئذٍ يبرز عندنا – لا محالة– السؤال التالي: إذن ما هي تلك المعجزات التي صدرت عن رسول الإسلامﷺ غير القرآن، وبأيّ طريقٍ يمكن إثباتها؟

وأوّل ما يواجهنا في مقام الجواب، عشرات المجلّدات الضخام التي ألّفت خلال تاريخ الإسلام الطويل من قبل الكثيرين من مختلف المذاهب الإسلاميّة، والتي تتحدّث بوقوع آلاف المعجزات منهﷺ.

إلّا أنّنا ينبغي أوّلاً: أن نقف من هذه الكتب موقف الباحث المتفحّص؛ فإنّه ممّا لا إشكال فيه عدم صحّة جميع ما ورد فيها من المعجزات، فإنّها ولا شكّ تحتوي على كميّةٍ ضخمةٍ مهمّةٍ من الأخبار الموضوعة، والتي قد تستغرق القسم الأكبر منها.

ويدلّنا على ذلك: أنّها تحتوي على كثيرٍ من العجائب والغرائب والمضحكات، ممّا جعل هؤلاء الباحثين الماديّين ينفرون من المعجزات أساساً ويعتبرونها خرافةً وتدجيلاً، غافلين عن أنّ كذب الكثير منها لا يدلّ على كذب الجميع، ولا ينفي إمكان قبول المعاجز المنطقيّة الصحيحة التي قامت القرائن العامّة والخاصّة على وقوعها، وخاصّةً بعد أن عرفنا إمكان المعجزة عقلاً ووقوعها بنصّ القرآن.

كما أنّ كثيراً منها ممّا لا يستقيم سنداً أو دلالة؛ حيث إنّ هذه الأخبار في الغالب من المراسيل أو الضعاف من حيث السند، أو المخالِفة للعقل أو للكتاب أو للسنّة الثابتة من حيث الدلالة، ممّا يضطّرنا إلى طرحها لو أخذنا بموازين علم دراية الحديث.

وما ذلك إلّا لأنّ أسباب الوضع ومبرّراته قد توفّرت في أمثال هذا

القسم من الأخبار، أكثر من أيّ حقلٍ آخر من حقول السنّة الشريفة[1].

فمنها: محاولة الدفاع عن وضعٍ قائم أو عن عقيدةٍ خاصّة أو عن مذهبٍ معيّن.

ومنها: ما دسّه أعداء الإسلام من الأخبار؛ لكي يشوّشوا على المسلمين عقيدتهم، ويبعثروا عليهم دينهم، مستقين أفكارهم من كتب العهدين المحرّفة، أو غيرها من كتب الضلال.

ومنها: ما دسّه القصّاصون المتهاونون بالدين، الذين لا يهمّهم سوى اجتماع الناس حولهم وإصغائهم إلى كلامهم، فكانوا يستجلبون انتباههم بما أوتوا من دهاءٍ ومكر، ولو كان ذلك على حساب الشريعة الإسلاميّة المقدّسة، مستغلّين في ذلك غريزة الاستطلاع لدى الناس وتشوّقهم إلى سماع القَصَص التاريخي، وبخاصّة تلك القصص التي تحمل بين طيّاتها موعظةً دينيّةً حسنة، ومستغلّين أيضاً تشوّق الناس وحبّهم لسماع المجهولات وعجائب الأُمور وغرائب الحوادث، ممّا يحيّر العقول ويبلبل الأذهان.

كما أنّهم استغلّوا أمراً آخر، له اليد الطولى في مساعدتهم على الوضع، وهو أنّ عهد النبوّة قد انقضى ولم يبقَ منه سوى النقل والرواية.

إذن، فروايتهم لا تقصر في أذهان السامعين عن أيّ روايةٍ أُخرى تروى عن ذلك العهد، إن لم تكن أحسن وأجمل في نظرهم لما تحتويه من خيالٍ عريض، ولا يمكن للناس ولا حتّى للمحقّقين أن يرجعوا إلى ذلك

(١) وتشبهها في ذلك تلك الأخبار التي وردت في ذكر مبدأ خلق العالم ومعاده. ولا يخفى أنّ هذه الأخبار تشارك أخبار المعجزات في كلّ ما قلناه عنها حتّى آخر هذا البحث (منه قُدّس سرّه).



العهد السابق مرةً أُخرى ليتأكّدوا من صحّة الرواية أو كذبها، غافلين عن أنَّ للمحقّقين الإسلاميّين أساليب دقيقةً معيّنةً لمعرفة الخبر الصحيح من السقيم.

وبهذا الأُسلوب ازداد عدد هذه الأخبار حتّى بلغ الآلاف، واحتاج في كتابته وضبطه إلى عشرات المجلّدات الضخام.

(٢)

إلّا أنّه من المقطوع به أيضاً، أنّ في هذا العدد الهائل من أخبار المعجزات، ما هو صحيحٌ وصادرٌ حقّاً عن النبيّ صلى الله عليه وآله، وإن كان قليلاً. وكيف لا وقد عرفنا دلالة القرآن الكريم على صدور المعجزات المتعدّدة منه صلى الله عليه وآله، وهي - لا شكّ- منقولةٌ ضمن ما نُقل من الأخبار، غاية الأمر أنّها قد اختلطت - بسبب إجرام الوضّاعين- بين الأخبار الكثيرة المكذوبة.

وممّا يدلّنا على ذلك: أنّه كان من المفهوم في أذهان المسلمين في القرون الإسلاميّة الأُولى، أنّ لدى نبيّهم معجزاتٍ عديدة، سوى القرآن الكريم، ومن ثَمَّ كانوا متشوّقين لاستماعها من كلّ مَن يتصدّى للرواية.

ولو كان المسلمون عندئذٍ يعرفون بأنّ نبيّهم صلى الله عليه وآله لم يصدر منه من المعجزات سوى القرآن الكريم، لعرفوا - لا محالة- سلفاً أنّ جميع ما يقوله القصاصون أو أهل الحديث من أخبار المعجزات من الموضوع المزوّر.

إذن، فتلقّينا لهذا العدد الضخم من أخبار المعجزات، يدلّ على مساعدة الجوّ على مثل هذا الوضع، وإنّ أهمّ العوامل التي تجعل الجوّ مساعداً هو اعتقاد المسلمين الأوائل عن طريقٍ موثوق، بصدور بعض المعجزات من النبيّ صلى الله عليه وآله.

إذن نعرف من ذلك أنَّ هذا العدد الضخم من الأخبار يدلّ بوضوحٍ على صدور بعض المعجزات من النبيّ صلى الله عليه وآله، ولا يبعد وجود التواتر المعنويّ فيها على ذلك.

(٣)

نعم، يبقى التساؤل عن إمكان إثبات كلّ معجزةٍ بالخصوص واعتبارها أمراً تاريخيّاً واقعاً.

وإثبات ذلك، إنّما يمكن بالرجوع إلى القواعد التي ذكرها المحقّقون الإسلاميّون في علم دراية الحديث، في قبول الروايات أو ردّها.

فأيّ رواية ثبتت للنقد عند العرض على تلك القواعد، ولم يكن في سندها أو دلالتها أيّ خدشة أو ضعف، ولم تكن أسباب الوضع السابقة متوفّرةً فيها، أو كان هناك من القرائن ما يُؤيّد صحّتها، أو كانت هناك شهرةٌ في روايتها، وكان مدلولها موافقاً لحكم العقل ولتعاليم القرآن الكريم ومنسجماً مع إرشادات الإسلام وأفكاره العامّة ... قبلناها واعتبرناها معجزةً صادرةً حقّاً عن نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله، وليس في ذلك أيّ حرجٍ، وإلّا أمكننا طرحها بكلٍّ بساطة.





كيف يجب أن نعيش ذكرى الغدير؟

كيف يجب أن نعيش ذكرى الغدير؟[1]

إنَّ الحكمة الإلهيّة حين رأت امتناع بقاء البشر على حالهم من الانحلال والتسيّب وعدم التنظيم والتقنين، ومن الفراغ العقائدي والتفسّخ الخلقي الذي كان سائداً قبل بزوغ فجر الإسلام المجيد، ورأت الحكمة الإلهيّة ضرورة هداية البشر بما لهم من عقولٍ مدركة، ونفوسٍ مفكّرة، إلى طريق الصواب، وإرشادهم إلى تعاليم حكيمة، وقوانين عادلة، لأجل فسح المجال أمامهم لتثقيف أنفسهم، والرقيّ بها نفسيّاً وعقليّاً وأخلاقيّاً واجتماعيّاً من الكامل إلى الأكمل، ولكي يُنزلوا إلى طريق العمل والجدّ المتواصل ما رزقهم الله تعالى من قوىً وملكات، في سبيل الوصول إلى الخير والكمال عن طريق اتّباع التعاليم الإلهيّة.

ومن ثَمَّ أنزل الله تعالى بحكمته البالغة على البشر، دستوراً منيراً وقانوناً تفصيليّاً عميقاً عادلاً، يضمّ بين جنبيه حلّ جميع المشاكل البشريّة، ويقوى على تذليل جميع المصاعب والعقبات والخلافات التي قد تنجم أمام البشر خلال العصور، مهما طال الزمان وتطوّرت الثقافة والأفكار، أنزله إليهم ليكون لديهم ديناً خالداً يُخرج البشر جميعاً من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم.

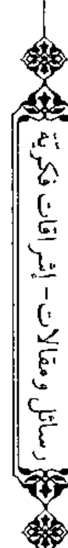
فكان هذا الدستور الخالد هو الإسلام، وكان «**حلال محمّد** صلّى الله عليه وآله حلال

(١) [تاريخ كتابة البحث] الأربعاء: ١٢/ ١٢/ ١٣٨٤ = ١٤/ ٤/ ١٩٦٥ (منه قدّس سرّه).

إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة»[1].

ولمّا صدع نبيّ الإسلامﷺ بتبليغ التعاليم الإلهيّة، ونشر هذا القانون العادل الخالد في ربوع البشريّة، استطاع أن يخلق بعبقريّته وعمق نظره من الأُمّة الجاهلة المتخلّفة، أُمّةً تقف على قمّة الحضارة البشريّة، وتنشر على مدى الأجيال إشعاعاً فكريّاً وهّاجاً متواصلاً، لا تبليه الأيام ولا تذهب بجدّته الدهور، ويخاف من سطوة هذه الأُمّة جبابرة القياصرة والأكاسرة.

وما كان هذا العمل العظيم ليتمّ لولا أنّهﷺ كان هو الموجّه الحكيم عندئذٍ، والقائد المحنّك للدفع الإسلامي الثّوْرَويّ الذي كان يتولّاه بيده في صدر الإسلام. وكان يبذل في سبيل ذلك أقصى إمكانيّاته الفكريّة، وطاقاته الاجتماعيّة والعسكريّة، وما أكبر تلك الإمكانيّات في شخص نبيّ الإسلامﷺ.



إلّا أنّ الحكمة الإلهيّة لاحظت ببعد نظرها، أنّ الدفع الإسلامي الثّوْرَويّ الذي يقوده الرسول الأعظمﷺ سوف لن يبقى خالداً إذا كان منوطاً بشخصهﷺ فقط؛ فإنّ حياة الإنسان على كلّ حال، لابدّ أن تصل إلى نهايةٍ في يومٍ من الأيام، ولابدّ أن يأتي ذلك اليوم الذي يختم به النبيّﷺ تاريخه الحافل بمفاخر الفعاليّات والنشاط، ويصعد نفساً مطمئنّة، راضياً مرضيّاً إلى ساحة ربّه العليّ العظيم الذي ما ودّعه وما قلاه[2].

إذن، وفي تلك الساعة الرهيبة، تلك الساعة الهائلة التي يفقد فيها الدفع

---

(١) الكافي ٢: ١٨، باب الشرائع، الحديث ٢، وبصائر الدرجات (للصفّار): ١٦٨، باب نادر، باب ١٣، باب آخر فيه أمر الكتب، الحديث ٧.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ سورة الضحى، الآية: ٣٠.

الثوريّ الإسلامي قائده، ويفتقد المجتمع الإسلامي نبيّه ومرشده وموجّهه، ويخسر المسلمون ذلك الأب الروحيّ الكريم الذي يعزّ عليه عنتهم، [وهو] بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم[1].

ما العمل في تلك الساعة الرهيبة، وكيف يمكن تلافي الأمر، وهل يمكن أن تُهمل الثورة الإسلاميّة الحديثة بدون قائدٍ ولا ناصر؟ وهل يعقل أن يُغضّ النظر عن هذه الإنجازات الكبرى التي حقّقها الرسول بقيادته الرشيدة، وعن هذا النصر الكبير الذي أحرزه، وعمّا يرجى لهذا الدين الحنيف من تقدّم وازدهار، في مستقبل الأيّام؟

إنَّ هذا الدين قد أُنزل ليكون خالداً بخلود البشريّة، يسايرها في كلِّ عصرٍ ومكان، ويرشدها إلى الخير والصلاح.

إذن، فلا ينبغي للدفع الإسلامي أن يموت، ولا للثورة الكبرى أن تفشل؛ فإنَّ ذلك مخالفٌ للحكمة الإلهيّة العميقة التي من أجلها نزل دين الإسلام، ووُضع هذا التنظيم العادل الحكيم، فإنَّ الدين لا يزال في مفتتح الحياة لم يصل بعدُ إلى أهدافه، ولم يحقّق جميع غاياته.

إذن، فقد أدركت الحكمة الإلهيّة أنّه لابدَّ من تعيين خلفٍ للنبيّ صلى الله عليه وآله، لكي يتولّى القيادة الكبرى التي بدأها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله منذ بعثه بالرسالة الإسلاميّة، ولكي يستمرّ هذا الدفع الثوريّ الإسلامي حيّاً متوهّجاً نشطاً، حتّى يبلغ به غاياته وينال أهدافه.

ومن هنا نزلت الآية الكريمة صوتاً مجلجلاً خالداً يملأ مسامع

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

المسلمين، ويخاطب النبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[1]. يأمره الله تعالى بأن يبلّغ ما أُنزل إليه من ربّه، وهذا التبليغ من العمق والأهمّيّة بمكان، بحيث إنّه هو الكافل لبقاء الرسالة وحياة الشريعة، وللاستمرار بدفعها الثّوْرَويّ العقائدي، فإنّه إذا لم يحصل هذا التبليغ للمسلمين، فسوف تبوء الجهود بالفشل، وسوف تنطفئ الدعوة في مهدها، فكأنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يبلّغ رسالته، وكأنَّ المسلمين لم يعوا ما قاله ولم يفهموه.

وما ذلك إلّا لأنَّ حياة الشريعة واستمرار بقاء المدّ الثّوْرَويّ بعد حياة النبيّ صلى الله عليه وآله يحتاج إلى قائدٍ محنّك، يتولّى أمرها ويأخذ بيده زمامها؛ لكي يستمرّ سائراً بها في الطريق ذاته الذي رسمه القائد الأكبر رسول الله صلى الله عليه وآله، متّجهاً بالمجتمع الإسلامي نحو الغايات الكبرى التي وُجد من أجلها التشريع الإسلامي الخالد.

.. ولكن مَن ينبغي أن يكون هذا القائد العظيم؟

مَن ذلك الإنسان الذي انصهر في بوتقة الرسالة بحيث يستطيع غرسها في المجتمع بيدٍ قويّةٍ صالحة؟ مَن ذلك الذي ارتوى من تعاليم السماء كي يستطيع أن يروي منها النفوس البشريّة الظامئة؟ مَن ذلك الذي تجسّدت به العدالة والإسلام؛ لكي لا تأخذه في تطبيق تعاليم الله لومة لائم؟ مَن ذلك الشخص الإسلامي العظيم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يستطيع أن يأخذ بيد الثورة الإسلاميّة الكبرى إلى شاطئ الفوز والنصر؟ مَن هو ابن الرسالة وربيب الرسول صلى الله عليه وآله؟

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

إنّه عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام.

ذلك الشخص العظيم الذي تكفّله الرسول صلى الله عليه وآله، وربّاه صغيراً واستعان به كبيراً، وعلّمه من حكمته وتعاليمه الشيء الكثير، وعلّمه ألف بابٍ من العلم ينفتح له منها ألف باب[1]، وهو الذي وقى رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه عند صراعه مع الكفر في حربٍ ضروس[2]، وعندما يحوك الكفر المتمثّل في قريش المؤامرات لاغتياله، وهو ابن القرآن وابن الرسالة المحمديّة وأوّل ذائدٍ عن حياض الإسلام بعد النبيّ صلى الله عليه وآله.

ومن هنا جاء الأمر الإلهيّ إلى النبيّ صلى الله عليه وآله قبيل وفاته بأشهر قليلة، يوجب عليه تنصيبه وصيّاً على الأُمّة الإسلاميّة بعده، وقائداً لها إلى الأهداف الإسلاميّة الكبرى التي يستهدفها النبيّ صلى الله عليه وآله في قيادته، وأن يبلّغ هذه الوصاية للأُمّة الإسلاميّة بشكلٍ علنيّ وصريح، لا يحتمل الشكّ والالتباس؛ لكي يكون هو الماسك بزمام المجتمع الإسلامي، والمطبّق للعدل الإسلامي، والفيصل بين الحقّ والباطل بعد النبيّ صلى الله عليه وآله.

وليس للنبيّ صلى الله عليه وآله أن يخاف من أحد، أو أن يستمع إلى قول الهامسين؛ فإنَّ الله هو العاصم من الناس.

فإنَّ تبليغ هذه الوصاية من الأهمّيّة والعمق بمكان بحيث إنّها لو لم تحدث لما وُجد للإسلام ذلك القائد المحنّك القدير الذي يتولّى زمام الأمر بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، ومن ثَمَّ فسوف تنطفي شعلة الثورة الإسلاميّة ويؤول أمر الدين الجديد إلى الانحلال، فكأنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يبلّغ رسالة الله، ولم ينشر تعاليمه، ولم

---

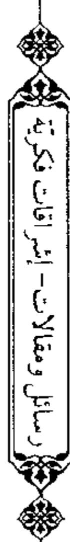
(١) راجع ذلك في الإرشاد (للمفيد) ١ : ٣٤، في أنّه عليه السلام أعلم الصحابة.

(٢) راجع ذلك في كشف الغمّة ١ : ١٨١، غزوة بدر.



يفعل شيئاً في سبيل إعلاء كلمة الحقّ ونشر راية الإسلام.

ومن ثمَّ فقد صدع رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا الأمر الإلهيّ الصارم، وأمر بجمع الحجّاج في منطقة غدير خم، وارتقى منبراً في وسط ذلك الجمع الغفير ممسكاً بيد أمير المؤمنين عليه السلام، قائلاً - فيما قال-: «**مَن كنتُ مولاه فهذا عليٌّ مولاه**»[1].



وبذلك تمّ تنصيب القائد العظيم الذي سوف يقود المجتمع الإسلامي إلى النصر والعدل والرفاه بعد وفاة الرائد الأوّل، وذهاب القائد الأعلى عن ميدان الجهاد، وبهذا التنصيب تمّت دعائم الإسلام، وخُتمت بذلك أحكامه، وضمِنَ له نبيُّه الكريم الاستمرارَ والخلود، وتمّت نعمةُ الله الكبرى على المسلمين بجعل دينهم خالداً مضمون البقاء.

قال الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم مشيراً إلى ذلك: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾[2].

ولا بأس أن نشير بهذه المناسبة إلى معنى هذا القول النبويّ الخالد «**مَن كنت مولاه، فهذا عليٌّ مولاه**».

لا يخفى أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله بصفته رئيساً للدولة الإسلاميّة التي كان حاكماً

---

(١) الكافي ١: ٤٢٠، باب نادر، باب فيه نكت ونتف من التنزيل في الولاية، الحديث ٤٢، ومناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ٢: ٤٠٢، باب مَن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، وحديث الغدير برواية ....، الحديث ٨٨٠، والخصال (للصدوق): ٢١٩، الحديث ٤٤، ومسند أحمد ٤: ٣٧١، حديث زيد بن أرقم، والمستدرك (للحاكم النيسابوري) ٣: ١٠٩، وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله في كتاب الله وعترته.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

لها، قد أعطاه الله تعالى السلطة التنفيذيّة الكافية في التصرّف في المجتمع الإسلامي؛ لكي يستطيع بهذه السلطة بسط العدل فيه، وتطبيق القوانين الإسلاميّة التي جاء بها من قبل الله عزّ وعلا، فإنّه لولا هذه السلطة لما كان يمكن أن تنفتح أمامه الفرصة للعمل الإيجابي البنّاء، والجهاد في سبيل غرس الإسلام في جذور المجتمع الجاهلي.

وكانت تلك السلطة متمثّلةً بإعطاء النبيّ صلى الله عليه وآله من قبل الله تعالى صلاحيّةً عامّةً للتصرّف بأموال المسلمين وأنفسهم في حدود المصلحة العامّة للإسلام وللمجتمع الإسلامي، قال الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[1]، بمعنى: إناطة أنفس المسلمين - وأموالهم بطريقٍ أولى- برأي رسول الله صلى الله عليه وآله، وجعلها رهن إشارته في حدود ما تقتضيه المصلحة العامّة من تنفيذٍ وتطبيق. فله في هذه الحدود، أن يقتل القاتل، وأن يقطع يد السارق وأن يجلد الزاني، وأن يأخذ من الناس ضرائب معيّنة، وأن يأمر الناس وينهاهم في حدود التعاليم الإسلاميّة العامّة.

وليس معنى إعطائه هذه السلطة، أن يكون دكتاتوراً ظالماً أو حاكماً متعسّفاً، معاذ الله!

فإنَّ ذلك منفيٌّ بأصل التشريع، ومنفيٌّ أيضاً في شخص النبيّ صلى الله عليه وآله، وأيّ من هذين الضمانين كافٍ في رفع التعسّف والظلم، فضلاً عمّا إذا اجتمعا في رسول الله صلى الله عليه وآله وشريعته.

أمّا نفي ذلك في أصل التشريع، فلأجل تقييد هذه السلطة بالمصلحة العامّة، بمعنى: أنَّ الحاكم إنّما تكون له هذه السلطة ما دام مطبّقاً لقوانين

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦.



الإسلام وما دام مستهدفاً لنشر عدله في المجتمع.

وأمّا إذا صار الحاكم بصدد تطبيق أغراضه الخاصّة وشهواته الشخصيّة على المجتمع الإسلامي، فإنَّ التشريع الإسلامي سوف يسحب منه هذه السلطة، ولن يبقى في يديه شيء منها، ويعتبره خارجاً على تعاليمه مخالفاً للمصلحة العامّة.

وأمّا نفي الدكتاتوريّة المطلقة بالنسبة لشخص النبيّ صلى الله عليه وآله، فذلك لأجل كونه شخصاً معصوماً لا يمكن أن يصدر منه ظلمٌ أو تعسّف، ولا يمكن أن يكون إلّا مريداً لما يريده الله تعالى، ولا يمكن إلّا أن يكون ساعياً في سبيل الله تعالى ومتّجهاً إلى رضاه، وإلى تطبيق أوامره ونواهيه على المجتمع الإسلامي حسب ما تقتضيه الموضوعيّة والعدل.

من هذا البيان - بمعنى: ولاية النبيّ صلى الله عليه وآله على المجتمع الإسلامي- نعرف أنّه أناط هذه الولاية بأمير المؤمنين عليه السلام يوم غدير خمّ، حين قال: «**مَن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه**»، أي: مَن كنت أولى به من نفسه وأمواله من المسلمين، فهذا عليٌّ أولى به من نفسه وماله بعدي.

وما ذلك إلّا لأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله يريد أن يُعطي القيادة الإسلاميّة الكبرى التي كان متولّياً زمامها في حياته، إلى هذا الرجل العظيم. ومعنى القيادة التي كانت بيده صلى الله عليه وآله هو أنّه أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأموالهم، وأنّه يملك السلطة التنفيذيّة المطلقة في التصرّف في المجتمع الإسلامي، في حدود تطبيق أوامر الإسلام.

إذن، فلابدَّ أن تعطى هذه الصفة ذاتها إلى القائد الكبير بعده؛ لكي يملك أيضاً سلطة التطبيق الكامل للشريعة، من دون عائقٍ أو عثار.

وبخاصّةٍ وأنَّ أمير المؤمنين عليه السلام أهلٌ لهذا التخويل العظيم، وهذا المنصب الإلهي الجليل، كيف لا؟ وهو ابن الرسالة وربيب القرآن، والتجسيد الثاني لتعاليم الإسلام، وهو الشخص المعصوم الذي لا يصدر منه ظلمٌ أو تعسّف، أو خطأٌ أو نسيان.

وبهذا التخويل العظيم، أصبح الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام أميراً للمؤمنين، ووصيّاً على المسلمين من قبل ربِّ العالمين، لكي يتولّى قيادة المجتمع الإسلامي بعد نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

وهذا التخويل العظيم هو الذي أُوكل بعد ذلك إلى الأئمّة المعصومين الهداة المهديّين بعد أمير المؤمنين (عليهم الصلاة والسلام)، فكانوا أُمناء الله في أرضه، وحججه على خلقه، ليضمن بذلك خلود الشريعة وبقاء الجذوة الإسلاميّة متّقدةً على مدى الدهور، ووجود مَن له القابليّة التامّة لقيادة الأُمّة الإسلاميّة في كلِّ عصر من العصور.

أيُّها المسلمون:

ونحن الآن إذ نعيش في هذه الذكرى وهذا اليوم الخالد، تلك الذكرى التي تتجدّد على مدى العصور، عاماً بعد عام، ما الذي يمكن أن نعيشه في هذه الذكرى، وما مقدار الدفع الثَوْرَويّ الذي تملكه الذكرى في أذهاننا ونفوسنا، وفي أعمالنا وعلاقاتنا، وفي تطبيق أوامر الإسلام ونواهيه على خصوصيّات سلوكنا، وما الذي يمكننا ونحن نمرّ في هذا العيد الإسلامي أن نتمثّل في أذهاننا من مُثل الإسلام الكبرى وغاياته النبيلة، ومن إيمانٍ بروح الإسلام، واعتقادٍ بالمغازي العظيمة التي جاء من أجلها تشريعه.

وإلى أيّ حدٍّ يمكننا أن نطبّق الخُلق الإسلامي العادل على حياتنا وعلى سلوكنا الاجتماعي، ذلك الخُلق الإسلامي الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يوصله إلينا غضّاً طريّاً حين زرع فيه عناصر البقاء بتنصيب أمير المؤمنين عليه السلام وصيّاً على المسلمين مِن قبله في مثل هذا اليوم.

كلّ هذه أسئلة يجب أن نوجّهها إلى أنفسنا كمسلمين، وأن نصارح بها أفكارنا، وأن نستخلص الجواب الصحيح من داخل ذواتنا من دون مواربة أو محاولة هروب، فإنَّ مواجهة الواقع على حقيقته أولى بكثير، في سبيل إصلاحه ووضع الحلّ العادل عليه، من تناسيه ومحاولة الإعراض عنه والهروب منه.

ويجب علينا أيضاً أن نجدّد إلقاء هذه الأسئلة على أنفسنا في كلِّ مناسبة يمرّ فيها هذا العيد الإسلامي الكبير؛ لكي نستطيع أن نجعل من هذه المناسبة الكبرى مشعلاً إسلاميّاً وضّاءً ينير لنا الطريق ويذكّرنا بتعاليم الإسلام، كلّما ضاق الطريق، ولكي نجعل من عودة هذه الذكرى في كلِّ عامٍ حافزاً أساسيّاً في بقاء الدفع الإسلامي الثّوَرويّ الأوّل حيّاً في أذهاننا، يقظاً في شعورنا نتوسّم خطاه ونحاول جاهدين تطبيق روحه ومغزاه على حياتنا الفكريّة العقائديّة وعلى حياتنا الاجتماعيّة العمليّة، لكي نستطيع أن نمثّل الحياة الإسلاميّة في خضمّ التيارات المختلفة في هذا المجتمع الكبير.

ولعلّ أجمل رمزٍ للحياة الشعوريّة الإسلاميّة التي ينبغي للفرد المسلم أن يحياها في هذه المناسبة الكبرى، هو ما ندب إليه الإسلام استحباباً، من أنّه إذا تلاقى الأخوان المؤمنان في مثل هذا اليوم من كلِّ عامٍ ينبغي لكلّ واحد منهما أن يقول: «**الحمد لله الذي جعلنا من المتمسّكين بولاية أمير المؤمنين والأئمّة عليهم السلام**»[1].

---

(١) إقبال الأعمال (للسيّد ابن طاووس) ٢: ٢٦١، فصل ٦، فيما نذكره من فضل يوم الغدير.

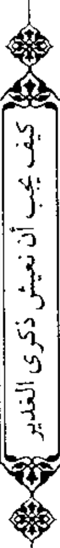


وما مغزى ذلك إلّا التوجّه بالشكر إلى الله العليّ العظيم على أن وفّق قائله المؤمن، على تمسّكه بذلك العهد الإسلامي الكبير الذي عهده رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى المسلمين بإيكال القيادة الإسلاميّة إلى وصيّه الأمين عليه الصلاة والسلام.

وحَمده عزّ وجلّ على إيمانه بتلك القيادة الإسلاميّة الرشيدة التي انبثقت يوم غدير خمّ، وعلى اعتراف المؤمن بكلّ جنانه وشعوره بتلك القيادة، وأنّها بحقٍّ أولى به من نفسه وأمواله في حدود المصلحة العامّة، كما عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله، وأنَّ القائد الذي نُصّب في ذلك العهد قائدٌ له ووليٌّ لأمره؛ بصفته مؤمناً بتعاليم الإسلام، متّبعاً لقول رسوله صلّى الله عليه وآله.

ويحمد الله هذا المؤمن أيضاً على إيمانه بالقيادة الإسلاميّة التي أوكلت إلى الأئمّة الاثني عشر، واحداً بعد الآخر، فكان كلّ منهم بحقٍّ حجّة الله عليه، وأولى به من نفسه، حتّى تصل هذه القيادة الإسلاميّة الكبرى إلى يد الإمام الثاني عشر، الإمام القائم والقائد الفعليّ الغائب، الحجّة المهديّ عليه الصلاة والسلام، الذي ينتظره المؤمن بإيمانٍ وثقة، وبشوقٍ متزايد؛ لكي يظهر **«فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً»**[1].

وحيّاكم الله أيّها المسلمون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[2].



---

(١) الكافي ١: ٣٤١، باب في الغيبة، الحديث ٢١، كمال الدين وتمام النعمة (للصدوق) ٢٨٧، الباب الخامس والعشرون، ما أخبر به النبيّ صلّى الله عليه وآله من وقوع الغيبة، الحديث ٤، وسنن أبي داود ٢: ٣٠٩، كتاب المهديّ، الحديث ٤٢٨٢، ومستدرك الحاكم ٤: ٤٦٥، ذكر خروج المهديّ عليه السلام.

(٢) نشر هذا المقال في مجلّة الأضواء الإسلاميّة، العدد ٨- ٩، السنة الخامسة، بتاريخ محرّم ١٣٨٥ = مايس ١٩٦٥ (منه قدّس سرّه).



بين يدي التربية الإسلامية

بين يدي التربية الإسلامية(١)

التربية بمعناها العامّ هي تعهّد الفرد بالعناية والرعاية في جميع أدوار حياته من مهده إلى لحده، والسير بأخلاقه وثقافته وعقيدته وأُفق تفكيره من حسنٍ إلى أحسن، بالأُسلوب الذي يلائم الدور الذي يمرّ به الفرد.

ومن هنا نجد أنَّ التربية التي تستهدف خير الإنسان، ليست مقتصرةً على فترةٍ معيّنةٍ من الحياة تلقي بعدها حبل الفرد على غاربه ليفعل ما يشاء مهما كان خارجاً بفعله على مقتضيات التشريع أو النظام العامّ، بل هي نظامٌ شاملٌ وقواعد مسلسلةٌ يبدأ تطبيقها بمجرّد أن يلامس الهواء بدن الوليد الصغير، وتنتهي عندما ينتهي من لفظ نفَسه الأخير، وتتعهّده خلال هذه الفترة بالإصلاح والتهذيب، وتمدّه بالنصيحة والإرشاد، لينمو راشداً وليعطي ثمره ناضجاً حلواً شهيّاً، ولا يكون ويلاً على نفسه أو على أبناء جلدته وإخوانه في الإنسانيّة.

هذا هو هدف التربية بمعناها العامّ، وهو هدفٌ سامٍ وجميلٌ ونبيلٌ إلى أبعد الحدود، وكلّما كانت التعاليم والقواعد التي يتلقّاها الفرد في تربيته أكثر صلاحاً وعمقاً، كلّما كان هدفها أدقّ وأبعد، ووسيلتها أجمل وأشرف، والإسلام أثبتَ في هذا المضمار جدارةً فائقة، وحصافةَ رأيٍ بعيدةَ المدى، في سبيل إنشاء الإنسان المهذّب الصالح والمجتمع السعيد العادل.

(١) [تاريخ كتابة البحث] ١٢/ ٣/ ١٣٨٢ = ١٣/ ٨/ ١٩٦٢ (منه قدس سره).



والإسلام بحكمته البالغة وبُعد نظره الثاقب، وجد أنَّ التربية التي تبدأ بالميلاد وتنتهي بالموت، أصغر شأناً وأضعف قوّة من أن تؤدّي إلى الفرد الخدمة المطلوبة، تلك الخدمة التي تجعله صالحاً بكلّ ما في هذه الكلمة من المعنى، ووجد أنَّ العناية بالفرد يجب أن تبدأ قبل ميلاده كما ينبغي أن تستمرّ بعد وفاته. فالعناية به قبل الولادة تتمّ من ناحيةٍ أُولى بأن يختار الرجل لنفسه الزوجة الصالحة في عقيدتها ودينها وفي سلوكها وسمعتها، وبريئةً من الأمراض الخبيثة والعادات الدنيئة، وأن يهذّب نفسه ويتعهّدها بالتثقيف الدينيّ والخلقي، لينمو ولده في مدرسته الأولى صالحاً مهذّباً، ويزداد به المجتمع عضواً نافعاً وفعّالاً في سبيل الحقّ والمثل العليا.

وتتمّ من ناحيةٍ ثانية بإصلاح المجتمع ونشر العدالة بين ربوعه وتثقيف أفراده وتوسيع مداركهم وتعهّدهم بالإرشاد والتوجيه، لينمو جيلهم الجديد صالحاً مهذّباً، ويكون لهم ثمرةٌ طيّبةٌ تشكرهم عليها الأجيال.

وأمّا العناية به بعد موته، فتتمّ من ناحيةٍ أُولى بإهداء الأعمال العباديّة إلى روحه الصاعدة إلى عالم الملكوت الأعلى، ليزداد الله تعالى عنه رضى، وليفيض عليه من رحمته أكثر ممّا أفاض. وتتمّ من ناحيةٍ أُخرى – وهي الأهمّ والأَولى بالعناية والاهتمام- بقراءة ما قد يكون خلّفه من العلم والثقافة، والتدبّر فيه بإمعانٍ ورويّة، للاسترشاد بإرشاداته، والتناول من الثمار الصالحة من بنات أفكاره، ونشرها في ربوع المجتمع، لتكون أداةً مساعدةً في قيادته إلى العدالة والسعادة والسلام.

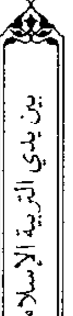
كما يشمل هذا الحقل أيضاً: الصلاة في مسجده، والدراسة في مدرسته، والانتفاع بخيراته العامّة، إن كان قد خلّف مثل هذه الخيرات؛ فإنَّ في ذلك

صلاحاً للمجتمع من ناحية، وثواباً ينال الميّت فيصعد به درجاتٍ عديدةً في جنان الخلد من ناحيةٍ أُخرى.

وفي ذلك يقول إمامنا الصادق أبو عبد الله (عليه أفضل الصلاة والسلام): «**ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلَّا ثلاث خصال: صدقةٍ أجراها في حياته، فهي تجري بعد موته، وسنّةِ هدىً سنّها، فهي يُعمل بها بعد موته، أو ولدٍ صالح يدعو له**»(1).

والإسلام في هذا الحديث الشريف قد نظر [إلى] صالح الفرد وصالح المجتمع معاً. فقد حثّ الفرد بأن يسعى جهده لكي ينال هذه الخصال، فتكون له صدقةٌ جارية، كالمسجد والمدرسة، لينتفع بها المسلمون، أو يكون عالماً ينفع المجتمع الإسلاميّ بإرشاداته وتوجيهاته أثناء حياته وبعد موته، أو يربّي ولداً صالحاً يدعو له ويكون أداةً صالحة في بناء المجتمع وفي السير به نحو الكمال، فيكون الفرد بذلك قد خدم المجتمع الإسلاميّ خدمةً كبرى، وسعى في تقدّمه وازدهاره، وضمن لنفسه من ناحيةٍ أُخرى حياةً جديدةً في هذه الدنيا، تتمثّل بالذكر الطيّب، والتمجيد بحسن الفعال وجميل الخصال، وضَمِنَ لنفسه أيضاً الثواب الأُخرويّ الذي يرده متواتراً كلّما استغفر له ولده الصالح، أو انتفع المسلمون بصدقته الجارية وبسنّة الهدى التي سنّها.

كما أنَّ الحديث من الناحية الأُخرى قد حثّ المجتمع على الانتفاع بهذه



---

(١) الكافي ٧: ٥٦، كتاب الوصايا، باب ما يلحق الميّت بعد موته، الحديث ١، تهذيب الأحكام ٩: ٢٣٢، كتاب الوصايا، الباب ٢٠، باب من الزيادات، الحديث ٢، وسائل الشيعة ١٩: ١٧١، كتاب الوقف والصدقات، الباب ١، باب استحبابها، الحديث ١ و٢.



المخلّفات الصالحة، واستعمالها في سبيل الرقيّ الدينيّ والاجتماعيّ.

هذا كلّه، والإنسان غير موجودٍ بين إخوانه، إمّا لأنّه لم يولد بعد، أو لأنّه ودّعهم وذهب. وبالطبع تنصبّ العناية العظمى من قبل الإسلام على تهذيب الفرد وصقل سلوكه في حياته الدنيا أكثر من ذلك بكثير. وقد تناول الإسلام بدقّةٍ وإحكام، جميع الجهات التي تحيط بالفرد، فأبدى فيها حكمه وأظهر عدله. وإنَّ الإنسان ليأخذه العجب - ولا عجب من دين الله القويم- عندما يراجع التوجيهات التربويّة الإسلاميّة في مظانّها، فيجد أنَّ الإسلام لم يدَعْ صغيرةً ولا كبيرةً في حياة الإنسان إلّا ذكرها، وأورد لها من حكمته وبُعد نظره حلاً مناسباً، سواءٌ كان ذلك من الناحية النفسيّة أو الفكريّة أو العاطفيّة أو الدينيّة أو العلميّة أو السياسيّة أو الاجتماعيّة أو الاقتصاديّة أو الأخلاقيّة، أو غيرها من مقتضيات الحياة.

ولعلّي أستطيع أن أستعرض معك بعض هذه الجوانب لنتبيّن معاً باختصار، مدى الدور الذي قام به الإسلام في هذا المضمار، ومدى حسن النتائج وطيّب الثمرات التي يمكن أن تجتنى من هذه القواعد الإسلاميّة التي وضعها للسير بالإنسانيّة إلى كمالها المنشود.

الناحية النفسية

إنَّ الإنسان بكيانه ونفسه وأفعاله هو شعاعٌ من نور الله تعالى، وظلٌّ من ظلال رحمته، أنعم عليه بالوجود، وبسط أمامه نور الحياة بفضله وإحسانه، لينظر ماذا يعمل، وإلى أيّ حدٍّ يجتهد بتنفيذ أوامره ونواهيه. وحيث كان الفرد مرتبطاً بتكوينه بالذّات الإلهيّة اللانهائيّة الكاملة من جميع جهات الكمال،

ومرتبطاً من حيث التنظيم الصحيح لسلوكه والتهذيب الصحيح لعقيدته بالأوامر والنواهي التي بلّغها الرسول الأعظمﷺ عن الله عزّ وجلّ. إذن، فينبغي - أداءً لواجب الشكر نحو المنعم المتفضّل جلّ وعلا- أن يكون منقاداً له خاشعاً عند ذكره منفّذاً لأوامره، منزجراً عند نواهيه، مقيماً لشريعته ونظمه.

ومن هنا نشأت في نفس المسلم عدّة صفاتٍ وامتيازاتٍ لم يكن من الممكن أن تنمو تحت تأثير أيّ قانونٍ آخر مهما كان صالحاً وفعّالاً، فمنها الضمير الإسلامي الذي بناه الإسلام في نفس كلّ مسلمٍ، ليتعهّده من دخيلة نفسه بالنصح والإرشاد، وليوجّهه إلى العمل الصالح وإلى خدمة نفسه وإخوانه، ويزجر عن ارتكاب الرذائل والموبقات.



وكان الإسلام مصيباً كلّ الصواب في استخدام هذا الجانب المهمّ من النفس الإنسانيّة، وإثارة حساسيّته في الانصياع إلى أوامره والارتداع عن نواهيه؛ لأنَّ الضمير ذو تأثير مهمٍّ وفعّالٍ في النفس الإنسانيّة، حتّى عند أقرب الناس إلى الرذيلة وأكثرهم مراساً في أساليب الإجرام، حتّى أنّه قد يصاب الإنسان بالهزّات النفسيّة العنيفة من جرّاء تأنيب الضمير، كما ينصّ على ذلك علماء النفس.

ومن جملة الأُمور التي نشأت في نفس المسلم: إيثاره للحقّ وإن كان مخالفاً لمشتهياته، وتفضيله لغيره على نفسه فيما أنعم الله عليه، وإن كان يعاني من ذلك الضيق، ومحبّته للعمل الصالح، وإن كان مسبّباً للتعب والضنى.

كلّ ذلك لأجل نيل رضاء الله تعالى وقربه إليه، وزلفى لديه، وتجنّباً لسخطه عليه، أو في سبيل الحصول على الجنّة التي أعدّها للمتّقين من عباده،

والنجاة من النار. والإيثار الإسلاميّ الصحيح هو ما يكون لإرضاء الله تعالى؛ وذلك لأنَّ الجنّة والنار ليستا سوى مظهراتٍ لرضاه وغضبه عزّ وجلّ.

فمن الشطط العظيم أن يهتمّ الفرد بالقشور ويترك اللباب، وأن نرى في هذا المجال بوضوح أنَّ القوانين الأرضيّة لم تبدِ للثواب أو العقاب المعنويّ أيّ اهتمام، كما أنّها اقتصرت من الناحية المادّيّة على العقاب ولم تضع في مقابل إطاعة مقتضياتها شيئاً من الثواب، وفي ذلك ما يقلّل الداعي في نفوس البشر إلى امتثالها وتطبيق أحكامها، في حين إنَّ الإسلام قد أعدّ لكلّ شيءٍ عدّته بدقّةٍ وإحكام.

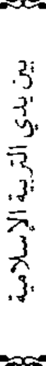
ومن جملة تلك الصفات الإسلاميّة: أنَّ كلّ مسلمٍ يشعر بعدم إمكان الهرب إلى بقعةٍ يمكن فيها ارتكاب الجرائم وستر الذنوب، أو انتظار زمانٍ يستطيع فيه الهرب من أوامر الشارع الإسلاميّ المقدّس أو التخلّص من عقابه؛ وذلك لأنَّ الله تعالى هو الذي أمر بهذه الأوامر، وهو الرقيب في نفس الوقت على تنفيذها، وهو الذي يتولّى بقوّته القاهرة إنزال العقاب على المتمرّد عليها والعاصي لنظمها والتزاماتها، وهذه صفةٌ لا يمكن للقوانين الوضعيّة أن ترقى إليها بحالٍ من الأحوال.

ومن تلك الصفات أيضاً: أنَّ الإسلام بنى عواطف المسلم على أساسٍ إسلاميّ؛ حيث يرى المسلم أنَّ كلّ ما أمر به الإسلام صحيحٌ وجميل، وكلّ ما نهى عنه فاسدٌ ومرذول؛ وذلك لأنَّ الإسلام أهلٌ لمثل هذا الشعور من ناحية، ولأنَّ الإخلاص هو الذي يمدّه وينمّيه من ناحيةٍ أُخرى. والمسلم يرى أنَّ دينه خير الأديان ونظمه وتعاليمه أحسن النظم والتعاليم، وأنَّ تطبيقها يؤدّي إلى سعادته ورفاه مجتمعه، فهو يميل إلى القيام بمقتضياته بصدرٍ رحب وإخلاص متزايد، طالباً بذلك خير الدنيا والآخرة.

وعن هذا السبيل استطاع الإسلام أن يضمن امتثال البشر أوامره ونواهيه بمجرّد معرفتهم بحقيقته ورؤيتهم ساطع نوره، وبذلك أحرز انتشار الفضيلة والعدل والتعاون في ربوع المجتمع والارتداع عن الرذيلة والإجرام. ويمكننا أن نتصوّر الأوج الرفيع الذي يمكن أن يصله المجتمع الإسلاميّ لو اتّبع كلّ فردٍ فيه أوامر الإسلام بحذافيرها، وعرف المسلمون حقيقة دينهم القويم وسعوا إلى تطبيقه بأمانةٍ وإخلاص.

الناحية الاجتماعية

المجتمع مكوّنٌ من مجموع أفراده، يسعد بسعادتهم ويشقى بشقائهم، وعلى هذا الأساس أقام الإسلام نظريّاته الاجتماعيّة، ومزج مزجاً قويّاً ودقيقاً بين تعاليمه الفرديّة وتعاليمه الاجتماعيّة، حيث يرى أنَّ صلاح كلٍّ من الفرد والمجتمع صلاح الآخر، وفساده فسادٌ له، وفي هذا عمقٌ وبُعد نظر؛ لأنَّ الإسلام لم يكن أن يجني نفس الثمرات التي يمكن أن تجنى من تعاليمه فيما إذا فكّك بين جانبيها النفسيّ والاجتماعيّ؛ لأنَّ العوامل النفسيّة التي ذكرنا طرفاً منها قبل قليل، هي المؤثّر الرئيسيّ في حفز المكلّف على إطاعة الله تعالى، كما أنَّ الاجتماعيّة الإسلاميّة باعثةٌ على الصلاح الفرديّ.



ويجني الإسلام من هذا التعاون بين جانبي تعاليمه، ثماراً ناضجة ونتائج جميلة. وبهذا فقد تنزّه الإسلام عن الثنائيّة المقيتة التي يقيمها الفكر الحديث بين الإنسان كفردٍ يعمل منفصلاً عن أعضاء مجتمعه، وبين كونه مواطناً فعّالاً في خضمّ المجتمع، حيث تبيح هذه النظريّة كلّ عملٍ ليس فيه اعتداءٌ على حقوق الآخرين وإفسادٌ للحالة الاجتماعيّة مهما كان العمل في

نفسه دنيئاً وسافلاً، ولكنّ الإسلام بسيطرته على الفرد نفساً وضميراً وفكـراً، نزّهه عن ارتكاب المفاسد، سـواءٌ بينـه وبـين نفـسه أو بينـه وبـين إخوانـه في المجتمع.

ومن هنا فقد أكّد الإسلام على حقوق الجماعـة وحقـوق الفـرد بـشكلٍ متساوٍ، ووازى بينهما بصورةٍ عادلة، بل إنَّه يرى أنَّ حقوق الجماعة هي نفـسها التي تنطبق على الفرد، لا تختلف عنها إلَّا ببعض الأُمور التي تقتـضيها طبيعـة الجماعة التي تتميّز بها عن الطبيعة الفرديّة. ولذا نجد أنَّ الإسـلام لا يـرى أيّ معنىً للعناية بالجماعـة دون الفـرد إلَّا في حـالاتٍ اسـتثنائيّة تتعلّـق بالـصالح العامّ؛ لأنَّه لا معنى لسعادة الجماعة مـع شـقاء أفرادهـا، ولا لانتـشار العـدل بينهم مع كون كلّ فردٍ من أفرادها يعاني ظلماً وإجحافاً.

والإسلام من ناحيةٍ أُخرى لم يبح للفرد الاعتداء على حقوق الآخرين، وجباية الأموال من أيدي الفقراء، والتنعّم فوق جماجم المحتاجين والضعفاء؛ لأنَّ هذه السيطرة هي القاعدة الأساسيّة للمـشاكل الاجتماعيّـة، وفي القـضاء عليها تنحلّ أكثر ما يسود المجتمع من التنافر والاضطراب.

ونحن نستطيع بهذا الصدد أن نتميّز بوضوح كيف أنَّ الإسـلام لم يتبنَّ الحريّة الفرديّة في اقتناء الأموال بصورةٍ مطلقة، وأنَّـه وضـع العوائـق الكثـيرة أمام تضخّم الثروة؛ وذلك تجنّباً من مفاسدها وتخليصاً للمجتمع من ويلاتها، كما أنَّ دين الله القويم لم يمنع حقّ الملكيّة الفرديّـة؛ لأنَّ في ذلـك اعتـداءً عـلى حقوق الفرد ومحاربةً لفطرته النفسيّة التي تدعوه إلى حبّ التملّـك والحيـازة، بالإضـافة إلى أنَّ في منـع التملّـك مـا يجعـل الفـرد محتاجـاً إلى الآخـرين في ضروريّات حياته، ممّا يسبّب نحـو الـرقّ والاسـتعباد مـن ناحيـة، والـسيطرة

والاستغلال من ناحيةٍ أُخرى.

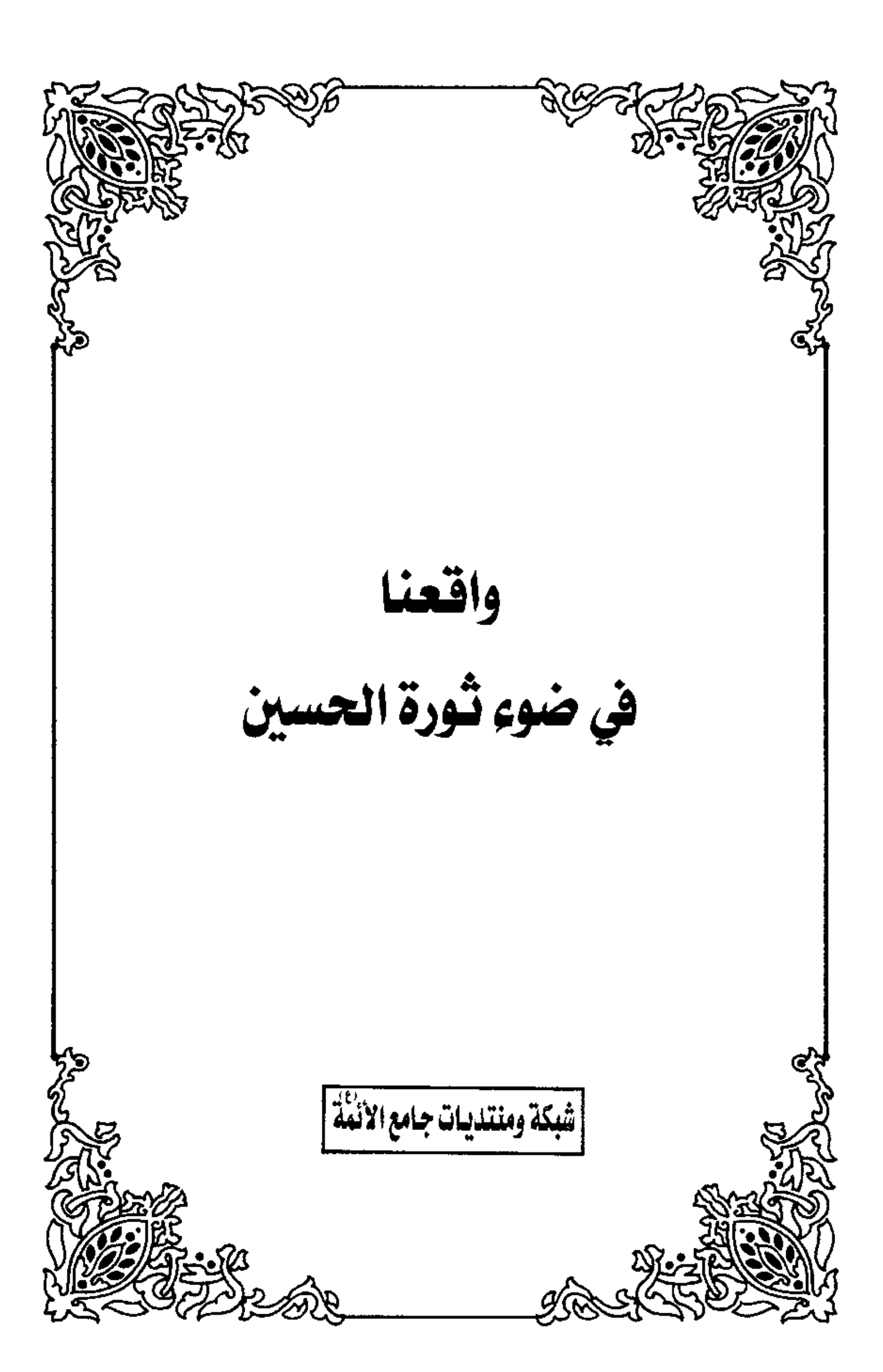
والإسلام في تربيته للمجتمع حثّ على الإخاء والمحبّة والتعاون إلى أبعد الحدود، فأمر بالأُخوّة في الله تعالى، وبقضاء حاجة المؤمن، والسعي في سبيل المحتاجين، والبذل على الفقراء والمعوزين. كما أنَّه من ناحية أُخرى أكّد على اجتناب العوامل التي تؤدّي إلى هدم كيان المجتمع وتشتيت شمله؛ حيث نهى عن الكذب والنميمة والغيبة والفتنة، وتستطيع أن تقدّر معي كم يكون سعيداً هذا المجتمع الذي يتحلّى أفراده بالإخاء والتعاون، وينتهون عن الكذب والنميمة والحسد والفحشاء، وكيف تنتشر الألفة بين قلوبهم والصفاء في نفوسهم، والتعاون في أعمالهم، في سبيل بناء مجتمعهم وتطبيق تعاليم دينهم القويم.

والإسلام أكّد على الفعاليات العامّة المشتركة التي يساهم بها جمعٌ غفير من المسلمين، ساعين نحو هدفٍ إسلاميٍّ معيّن، سواءٌ من الناحية العباديّة كصلاة الجماعة والحجّ، أو من الناحية الاجتماعيّة أو غيرها؛ فإنَّ هذه الفعاليات المشتركة تُظهر تضامن المجتمع ومدى انتشار الألفة بين أفراده من جهة، وتبدي عزّ الإسلام وإخلاص أفراده إليه من ناحيةٍ أُخرى.

وهذه حكمةٌ بالغةٌ قد عرفها الإسلام قبل أكثر من ألف وثلاثمائة سنة، في حين إنَّه لم يلتفت الساسة وأهل الحلّ والعقد في الدول الحديثة إلى ذلك إلَّا في الأيّام المتأخّرة.

محمّد الصدر





واقعنا

في ضوء ثورة الحسين

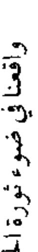
واقعنا

في ضوء ثورة الحسين[1]

رغم ما يمكن أن نقرأه على سطح الماء، من أنّ الإمام الحسينعليه السلام قد انهزم في حربه المقدّسة مع يزيد بن معاوية، وأنّه قد أُبيد هو وأصحابه عن آخرهم تقريباً، وهي نسبة تفوق هزيمة أيّ جيشٍ في العالم، ومن أنّ بني أُميّة هم الذين كسبوا القتال ورجعوا رجوع الظافرين، رغم كلّ ذلك بجميع ما يكتنفه من ملابسات، وما تحيطه من تفاصيل، فإنّنا إذا تعمّقنا في النظر نجد الحسينعليه السلام هو الذي انتصر انتصاراً باهراً عظيماً، وأنّ يزيد هو الذي باء بالفشل والهزيمة والخذلان.

إنّ تلك الأجسام المرمّلة الملقاة على أرض المعركة في معسكر الحسينعليه السلام، كانت هي النتاج الأوّل للثورة الكبرى الشاملة، التي بدأها نبيّ الإسلامصلى الله عليه وآله وكانت هي قمّة الصراع بين الحقّ والباطل، واللولب الرئيسيّ في تقرير مصيره، وكانت هي المعركة الفاصلة بين الحقّ والباطل والظلم والعدل.

فإنّ الحسينعليه السلام - وهو ذلك العنصر الطاهر الذي تربّى في أحضان النبوّة وترعرع بين يدي القرآن- لم يكن يستطيع أن يرى حُرمات الإسلام تنتهك، ودين جدّه القويم لا يُطبّق، ومحرّماته ترتكب جهاراً، ووالده أمير



(١) [تاريخ كتابة البحث] ٣/ ١/ ١٣٨٣ = ٢٧/ ٥/ ١٩٦٣ (منهقدس سره).

المؤمنين وقائد الغرّ المحجّلين يُشتم على المنابر بأفواه شرار خلق الله[1]، كان يرى أنَّ ذلك حتماً - لو أُبقي على ما هو عليه من الاستشراء والسريان- سوف يؤدّي بالإسلام إلى الاضمحلال في وقتٍ قصير، إن لم تتداركه قوى الحقّ بشكلٍ قويّ وصلب وسريع، لإقامة المعوجّ وإرساء العدل. ومن ثَمَّ كانت نفس الحسين عليه السلام رخيصةً لديه حينما بذلها في أرض كربلاء في سبيل الإبقاء على شريعة جدّه الأعظم سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله.

لقد كانت ثورة الحسين ومبادئ ثورة الحسين هي القاصم الأعظم لا لبني أُميّة ونواياهم الكافرة فحسب، وإنّما لأيّ شكلٍ من أشكال الظلم في العالم، وفي أيّ جيلٍ من الأجيال، وأيّ مجتمعٍ من المجتمعات؛ فإنَّ الناس بمجرّد مقتل الحسين قد عرفوا ولا زالوا عارفين، مَن هو يزيد ومن هم بنو أُميّة، وبأيّ حقٍّ شرعيّ استُلبت الخلافة ممّن أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. وعرفوا على وجه التحديد والدقّة، موقف يزيد لا من الحسين وأصحاب الحسين فحسب، بل من الإسلام ومن نبيّ الإسلام، وكيف أنّه بحربه للحسين عليه السلام يريد القضاء على النور الإلهيّ الذي يهدي به الله مَن شاء إلى سبل السلام.

كما أنَّ الناس قد عرفوا إلى جانب ذلك، ولا زالوا عارفين، ما هو الظلم، وكيف ينبغي أن يُوقف أمامه، وأيّ شيءٍ ينبغي أن يُبذل في سبيل إيقافه عند حدّه وفي سبيل إماتة البدعة وإحياء السنّة. كما أنّهم عرفوا ما هو الحقّ وكيف ينبغي أن يُذبّ عنه إذا اجتاحته الرياح وزحف إليه الظلم بجيوشه

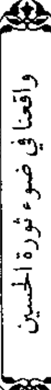
---

(١) راجع الغارات (للثقفي الكوفي) ٢: ٨٤٣، ومناقب آل أبي طالب (لابن سليمان الكوفي) ٢: ٥٤٨، وأُسد الغابة (لابن أبي الأثير) ١: ٩١.

الجرّارة وجحافله الفاتكة، وكيف ينبغي أن يُستجاب لنداء الحقّ إذا نادى، وكيف ينبغي أن يُساعد وأن يُذبّ عنه إذا احتاج إلى المساعدة والذبّ، فإنّه لم يكن هناك أكثر قيمةً وأهمّيّةً من تلك الجماعة التي ذهبت إلى الموت في كربلاء، فقد كانت أثمن من كلِّ ما في الوجود عند الناس وعند الله تعالى، ولكن رغم ذلك فإنّها ذهبت وقاتلت حتّى قُتلت عن آخرها، فقد ولجوا الحرب راغبين في سبيل رضاء الله عزّ وجلّ ونصرة دينه القويم، الذي أنزله إلى البشريّة ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

وقد عرف الناس أيضاً، ولا زالوا عارفين، النتائج الكبرى والآثار العظيمة التي تمخّضت عنها ثورة الحسين عليه السلام، تلك النتائج والآثار التي جاءت في ذهن الحسين ساعةً من زمان وكان لا يزال في مأمنه وبلده وبين أصحابه وأهل بيته، والتي من أجلها عرّض نفسه للخطر، ومن أجلها استشهد هو وأصحابه، ألا وهي نصرة الحقّ والدفاع عن العدل الإلهي؛ لكي يُحفظ الإسلام من الاندثار على يدي شرار خلق الله، ولكي يجعل مقتله قدوةً حسنةً للمقتدين، حتّى يعرف الناس كم ينبغي أن يُبذل في سبيل الحقّ، وكيف يجب أن يجاهد في سبيله، حتى إذا ما اجتاحت جيلاً من الأجيال ظروفٌ كالظروف التي عاشها الحسين، وصادفت ظلماً كالذي صادفه، هبّت مثله هبّةً واحدةً غير متشكّكة ولا هيّابة، جاعلةً ثورة الحسين نصب عينيها كمثلٍ أعلى؛ ليكون لها الأُسوة الحسنة بالحسين وبأصحابه في سبيل الدفاع عن الإسلام وإجابة داعي الله إذا دعا.

هذا هو شأن الحسين، وهذا هو المغزى العميق لثورته الكبرى، والسرّ الكبير لانتفاضته الجبّارة التي زعزعت صروح الظلم والفساد، والتي ظلّ





صوتها الهادر يجلجل على مدى القرون هادياً ومنذراً، ينشر الإيـمان في نفـوس المؤمنين، والرعب في قلوب الكافرين.

ولكن ما شأننا نحن في هذا الزمان، وفي كلّ زمان؟

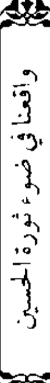
لقد طُلب البكاء على الحسين عليه السلام وعلى أصحابه وتجديد ذكراهم في كلّ عام، وذرف الدموع عند تصوّر ذلك المنظر الهائل المروّع الذي جرت أحداثـه في أرض كربلاء يوم عاشوراء.

إنَّ وراء هـذا الأمـر بالبكـاء وتجديـد الـذكرى أسراراً كبـاراً ومغـازي عظمى؛ فإنَّ الذكرى إذا لم تجدّد وإذا لم يتعهّدها المخلصون بالـسقي والرعايـة وإذكاء الأوامر، فإنّها سوف تبلى وتضمر وتذهب حيويّتهـا مـن النفـوس، في حين لابدَّ لثورةٍ كثورة الحسين الكبرى أن تبقى حيّةً في داخل كلّ نفس مؤمنة، متيقّظةً في كلِّ ضمير، تُؤثّر أثرها وتنشر نورها وتزرع ثمارها ومبادئها في ربوع النفس؛ ليكون كـلّ مُـؤمنٍ ومؤمنـةٍ في كـلِّ عـامٍ وكأنّـه يعـيش مـع الحـسين وأصحاب الحسين في يوم مقـتلهم، يحسّ بإحـساسهم، ويـشعر بـشعورهم، ويقتبس من موقفهم ذلك، الموعظةَ البالغَة والرشاد.

وبذلك يُضمن بقاء ثورة الحسين خالدة المغزى، حيّة المعنى عـلى مـدى الأجيال في قلوب المؤمنين، لا تستطيع أن تذهب بجدّته الأيّام، ولا أن يبليهـا الزمان، ليبقى المسلمون على ذكرٍ من المغزى الأعظـم الـذي ثـار لأجلـه عليه السلام ولأجله ضحّى وجاهد، ليكون القدوة الحـسنة لكـلِّ جيـلٍ مـن الأجيـال، في سبيل دفاع تلك الأجيال عن دينها وجهادها في سبيل ربّها، ومناضلتها لقـوى الكفـر والطغيـان، وليمـدّها بـالإيمان والمعنويّـة العاليـة والانـدفاع الحـماسيّ الفيّاض في سبيل عملهم المقدّس الجبّار، ذلك الاندفاع الحماسي الذي لابدَّ منه

في كلِّ عملٍ كبير، لينتج ثمراته المطلوبة.

هذا هو السرّ الكبير الذي ثار لأجله الحسين عليه السلام، وهذا هو المغزى العميق الذي أُمرنا لأجله بالبكاء على الحسين وتجديد ذكراه في كلِّ عام. ولكن وياللأسف الشديد، وبطريقٍ قهريٍّ لا شعوريّ، قد نسينا هذا المغزى العظيم، وحوّلنا ذلك السرّ الكبير عن طريقه اللاحب الذي رسمه الحسين عليه السلام في ثورته الكبرى، فلم يعد لتجديد هذه الذكرى في أذهاننا صورة العمل الجدّي الكبير في سبيل الحقّ، والجهاد في سبيل القضاء على قوى الجور والفساد، فقد ذهب عنّا السرّ العظيم لثورة الحسين والأهداف الكبرى التي جاهد في سبيلها الحسين، وذلك لضعف صورتها في أذهاننا وتشويهها في نفوسنا، وصرفها عن طريقها الواضح الصحيح.



إنّنا لم نعد نبكي على الحسين عليه السلام؛ لأنّنا لا نتمثّل في بكائنا الأهداف السامية التي رسمها الحسين، والتي جاهد من أجلها وضحّى بنفسه وأصحابه في سبيلها، وإنّما أصبحنا نبكي على أنفسنا من أجل ثقل الظلم الذي نحسّ أنّه واقعٌ علينا. فقد أصبح البكاء على الحسين مغزىً من مغازي التمرّد الأعمى على الظلم المستحكم الذي لا يمكن إزالته ولا السيطرة عليه، والتخبّط الأعشى في بحرٍ لا يهتدى فيه من سبيل؛ فإنَّ الحزن والبكاء في اصطلاح علماء النفس هو عاطفة الغضب مشوبةً بالإحساس بالضعف، أي: أن الحزن هو الغضب من شخصٍ لا يستطاع دفعه أو الانتقام منه إلّا بالدموع، وكذلك أصبح البكاء على الحسين لا يحمل إلّا هذا المغزى الساذج البسيط الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، ونحن أمام الحاجة الملحّة إلى العمل الإسلاميّ الجبّار، كذلك صرنا نفهم البكاء ونفهم المآتم والمنابر الحسينيّة، وفي سبيل

ذلك نصرف الأموال. وآية هذا الفهم أنَّه كلّما زاد إحساسنا بالظلم في وقتٍ من الأوقات، زاد صراخنا وعويلنا وبكاؤنا على الحسين، وتذكّرنا لوقعة الحسين في أرض كربلاء.

ولكن ليتنا كنّا نعلم أو نلتفت، أنَّ الحسين (عليه الصلاة والسلام) عندما أحسّ بالظلم لم يبكِ ولم يتفجّع ولم يكتفِ بمجرّد ذرف الدموع، وإنَّما أسلم نفسه وخيرة أصحابه للموت في سبيل دفع الظلم والدفاع عن الحقّ. وليتنا كنّا نعلم أنَّ الحسين عندما ثار وعندما واجه الظلم بسيفه، لم يكن يريد منّا بأيّ حالٍ من الأحوال أن نستكين وأن نستخذي[1]، مكتفين بالتكرار تلو التكرار لفاجعته الأليمة في كربلاء، وإنَّما عمل ذلك العمل الجبّار ليكون قدوةً حسنةً تقتدي بها الأجيال، وتستنير بها النفوس المؤمنة، وتستمدّ منها قوّة الإيمان والعزيمة والإقدام، وليتنا كنّا نعلم أنّنا لم نُؤمر بالبكاء لمجرّد تجديد الذكرى، ولأنَّ البكاء غايةٌ نبيلةٌ في نفسه، فإنَّه وإن كان في ذلك فائدة من حيث كونه شعاراً إسلاميّاً، ولكنّ الشعار يصبح حبراً على ورق وجسداً ميّتاً بلا روح، إذا تجرّد عن مغزاه العظيم، وأهدافه السامية، وإذا لم يكن لدى أصحابها شيءٌ آخر غير الدموع.

ولقد أثّر فينا هذا الفهم الخاطئ لمغزى ثورة الحسين عليه السلام، هذا الفهم الذي استشرى فينا منذ السنوات الأُولى لثورة شهيد كربلاء عليه السلام، لكثيرٍ من العوامل النفسيّة والاجتماعيّة التي اقتضته، لقد أثّر فينا آثاراً بليغة جرّتنا إلى ظروفٍ من الظلم والطغيان قد تفوق ظروف الظلم الذي ثار عليه الحسين عليه السلام. فقد أصبح الفرد منّا من جرّاء نسيانه لمغزى ثورة الحسين

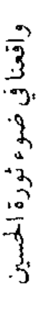
(١) أي: نخضع ونتذلّل. راجع الصحاح (للجوهري) ١: ٤٦، فصل الخاء.

الحقيقيّ العميق، لا يشعر أنَّ عليه واجباً إسلاميّاً مقدّساً، هو أن يقف في الخطّ الأمامي في الدفاع عنه، وأنَّ لديه ديناً إلهيّاً هـو في أمـسّ الحاجـة إلى المـساعدة والعون وإلى نصرته والدفاع عنه.

ومن ثَمَّ فقد أصبح الدين في نظر أمْثَلِنَا طريقة، آخر ما ينبغـي أن يفكّـر فيـه المـرء، وأصـبحت تعـاليم الـدين وواجباتـه ومحرّماتـه في أسـفل قـوائم الواجبات والمحرّمات الدنيويّة والاجتماعيّـة التـي لا تـستند إلى ركـنٍ وثيـق، ونتيجةً لذلك أصبحنا في فراغٍ عقائديٍّ مروّع، ينذر بشرٍّ مـستطير، وفي خـواءٍ ذهنيٍّ متناهٍ، ينذر بالتسافل إلى الحضيض. فقد أصبح الفرد منّا لا يعرف كيف يفكّر، وإلى أين يتّجه، بعد أن نُسيت المثُل العليا، وضاعت المقاييس، واختفت تعاليم الإسلام وشريعة القرآن عن مسرح الوجود.

وكنتيجةٍ طبيعيّة لذلك، كان أن وفدت الأفكار تغزونا في عقـر ديارنـا وفي باطن أفكارنا، ممّا جعل الناس يتعصّبون إلى أُمور أُخرى غير الدين، يتحيّزون لهـا ويكافحون في سبيلها، وليس ثمّة شخصٌ نراه يكافح للدين وينطق باسم شريعـة سيّد المرسلين. وكانت النتيجة الحتميّة الطبيعيّة أن صار الدّين - الذي دافـع عنـه الحسين عليه السلام وبذل في سبيله الغـالي والـرخيص - عـلى شرف الانهيـار ومعرّضـاً للضياع والنسيان، تماماً كما كان قبيل ثورة الحسين، بل لعلّه أشدّ وأدهى.

ولكنّ الفرق بيننا وبـين الحـسين عليه السلام : أنّـه بمجـرّد أن أحـسّ بـالخطر، استجاب لداعي الله، وهبّ لنصرة دينه القويم، ليضع بين يـدي الـدهر تلـك الأمثولة الحيّة الخالدة؛ لتنير للمؤمنين طريـق الهـدى، ولتهـديهم إلى الـصراط المستقيم، في حين إنّنا في خوائنا الذهني وفراغنـا العقائـدي، وضـعفنا المـادّي والمعنويّ، ومركب الخوف المجبول في نفوسنا، تخاذلنا وتوكّلنـا وتنـصّل كـلّ



فردٍ منّا عن القيام بواجبه، وعن مواجهة التيّار الإلحاديّ الجارف، ممّا جعل الطريق مهيعاً أمام ذلك السيل، ليكسح من قدّامه الأخضر واليابس، ليضمّه إلى تيّاره، ولينشر سلطانه على الأرض بدون عوائق أو سدود.

إنَّ الحسين عليه السلام عندما شعر بالظلم، أحسّ بالمسؤوليّة، فأحسن أداءها على أكمل وجه، وأحسّ أصحابه بالواجب، وأحسنوا بالقيام به على خير ما يرام، فإنّه لم يكن من العبث، بل كان من الحكمة البالغة والتدبير الإلهيّ الحكيم، أن يشاء الله تعالى أن يرى الحسين وأصحابه صرعى في ميدان الجهاد، وأن يرى نساءَهم سبايا على أقتاب الإبل، فإنّهم بدون ذلك لن يستطيعوا أن يؤدّوا ذلك الواجب وأن يقوموا بتلك المسؤوليّة الدينيّة التاريخيّة العظيمة الملقاة على عاتقهم؛ وذلك قول النبي صلى الله عليه وآله للحسين عليه السلام: **«إنَّ لك عند الله درجاتٍ لا تنالها إلَّا بالشهادة»**[1]، فبذلك أحرزوا النصر الباهر، وخلّدوا أثراً لا يمكن للدهور أن تمحوه، ولا للأيّام أن تذهب بجدّته وحيويّته.

فهلا نشعر بالمسؤوليّة كما شعر الحسين أمام ظلمٍ أشدّ من الظلم الذي جابهه الحسين، وهلّا نعمل عملاً جبّاراً حاسماً كالعمل العظيم الذي قام به الحسين، يحمل نفس الأهداف والمثل العليا التي جاهد من أجلها الحسين، لنحرز نصراً كنصر الحسين عليه السلام.

محمّد الصدر

---

(١) الأمالي (للشيخ الصدوق): ٢١٧، مقتل الحسين عليه السلام، وبحار الأنوار ٤٤: ٣١٣، في كتاب عتبة إلى يزيد وكتابه في أمر الحسين عليه السلام.



من أشعة

الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف

من أشعة الإمام المهدي المنتظر عليه السلام [1]

(١)

كان من جملة موارد اللطف الإلهي على البشر وتفضّله عليهم ورحمته بهم: أن رأى أنّهم بوضعهم الذي هم عليه، من طبائع خاصّةٍ وميولٍ فطريّةٍ وحاجاتٍ أساسيّة، لا يمكن أن يبقوا بدون قانونٍ يُرشدهم ونظامٍ يدبّر أمرهم؛ فإنّ ميولهم مختلفةٌ، وأهواءهم متفرّقة، ومصالحهم متعارضة، وغرائزهم شديدة الاندفاع قويّة التأثير، ممّا يسبّب الفوضى ووقوع الفساد فيما بينهم، إن لم يكن لهم رادعٌ أو منظّم.

كما أنّه عزّ وجلّ علم أنّ قوانينهم التي يضعونها بآرائهم وعلى حسب مصالحهم وفي حدود آفاق تفكيرهم، قاصرةٌ عن أن تؤدّي التنظيم الكامل الذي يريده لهم، وتسعى بهم إلى كمالهم الذي أعدّه لأجلهم؛ فإنّ المصالح والأهواء لابدّ أن تتدخّل بصورةٍ شعوريّةٍ أو لا شعوريّة في وضع القوانين، كما أنّ هناك جهاتٍ كثيرةً ومهمّةً من المصالح الاجتماعيّة ومن الوقائع الخارجيّة التي تحتاج إلى تنظيمٍ وتقنين، لا يمكن أن يحيط بها واضع القانون، ولا أن يتصوّر لها ضابطاً صحيحاً. كما أنّه - عزّ وعلا- يرى أنّ هناك مصالح حقيقيّةً عظيمةً موجودةً في علمه الأزلي، لا يمكن أن يدركها العقل البشريّ مهما أُوتي من رجاحة عقلٍ وقوّة تفكير، كالكمالات الروحيّة السامية من رضاء الله عزّ

(١) [تاريخ كتابة البحث] الأربعاء: ٢٠/ ٥/ ١٣٨٣ = ١٠/ ١٠/ ١٩٦٣ (منه قدس سره).

وجلّ، والفوز بالجنّة، والنجاة من غضبه تعالى ومن النار، وما إلى ذلك ممّا لا يُعرف إلّا عن طريق الهداية الإلهيّة.

إذن، فكان لابدَّ للبشر من شريعةٍ واردةٍ من المورد الإلهيّ، العالم بحقائق البشر، والمطّلع على واقع مصالحهم وآلامهم وآمالهم، والعالم بالطرق الصالحة الصحيحة التي تؤدّي بهم إلى السعادة والرفاه وإلى الفوز والكمال.

ومن ثَمَّ فقد تفضّل الله عزّ وجلّ على عباده، فبعث إليهم الأنبياء مبشّرين ومنذرين؛ ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى الهدى، ولينظّموا شؤونهم وليدبّروا أمرهم، كما يريد الله تعالى أن ينظّموا وأن يدبّروا.

وقد نزلت بمقتضى ذلك عدّة شرائع متتابعة، روعي في كلٍّ منها مصلحة البشريّة في زمان نزولها، ولوحظ فيها درجة الوعي الذهني والروحي لأولئك البشر.

وإذا كانت البشريّة تترقّى في مراتب الوعي الذهني والروحي، فكان يمرّ على النظام النازل زمانٌ معيّنٌ ينتهي بعده أمده ويفقد صلاحيّته لقيادة البشريّة وهدايتها، في وعيها الذهني الروحي الجديد، فلابدَّ لها من شرع جديد.

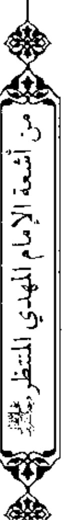
إلّا أنَّ البشريّة قد بلغت أوج وعيها الذهني الروحي، وغاية ما يمكن أن تصل إليه في هذا المضمار في القرن الخامس الميلادي، فكان أن سقط الدين السابق الذي كان نافذ المفعول بين ظهرانيها عن قابليّة القيادة، وعن صلاحيّته لقيادة البشريّة في وعيها الجديد.

فكان أن أنزل الله تعالى دينه الخالد وشريعته الباقية على يد نبيّه العظيمﷺ كنظامٍ نهائيٍّ للبشريّة في أرقى مراحل وعيها، وكمنهاجٍ أكمل

للسعي بالبشريّة نحو الكمال.

وحيث إنَّ البشريّة قد وصلت في ذلك العصر إلى غاية ما يمكن وصولها إليه من الوعي الذهني والروحي، فهي إذن غير قابلةٍ للتكامل والرقيّ من هذه الناحية أكثر من ذلك؛ لأنَّ الكمال ليس فوقه كمال، والتمام ليس وراءه تمام. ومن ثَمَّ تكون شريعة الإسلام أصلاً لقيادة البشريّة إلى نهاية المطاف، فتكون شريعةً باقيةً خالدة، ويكون «حلال محمّد حلال إلى يوم القيامة، وحرام محمّد حرام إلى يوم القيامة».

وكان لابدَّ لهذا الدين الإنسانيّ العظيم الذي شُرِّع للقيام بهذه المهمّة الكبيرة في سبيل تطبيقه على البشريّة، وضمان تنفيذ تعليماته وتطبيق قوانينه، كان لابدَّ له من مرشدٍ ومبلّغٍ، وإلى قائدٍ نحوه، ومنظّمٍ للبشريّة على طبقه؛ لكي يمكن أن تفوز البشريّة بهذا النظام المثالي العظيم.



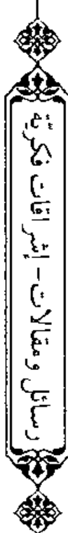
فإنَّ من عادة الغرائز النفسيّة المندفعة والمصالح الشخصيّة المتعصّبة، أن لا تتقبّل تنظيماً ولا تعترف بقانون، بل ترى أنَّ من حقّها الاندفاع في سبيل تحقيق مقتضياتها إلى نهاية الشوط، مهما كانت الغاية والوسيلة، ومن ثَمَّ كان لا يمكن تطبيق الأنظمة والقوانين إلّا بأحد وجهين:

[الوجه الأوّل]: إمّا بإثارة حافزٍ غريزيٍّ ذي اندفاعٍ أشدّ وأقوى من اندفاع تلك الغرائز؛ لكي يستطيع أن يقف في وجهها ويكفكف من جماحها، وذلك بإثارة حبّ الذات ضدّ ما لا يراه واضع القانون أمراً صالحاً ينبغي فعله، وذلك بفرض العقاب عليه؛ فإنَّ من المقتضيات الأوّليّة لحبّ الذات هو الخوف من الضرر والفرار من العقاب مهما أمكن ومهما كان نوعه. وهذا الوازع هو الذي فرضته القوانين لإطاعة أوامرها ونواهيها حين ألحقت بموادّ

تشريعاتها قوانين للعقوبات.

[الوجه الثاني]: وإمّا أن يكون بمخاطبة العقل ومواجهته بالنصح والتوجيه، وإفهامه بأنّ مصالحه الحقيقيّة هي ما تقوم على أساسٍ متين وبرهانٍ صحيح، دون المصالح الضيّقة والأهداف السيّئة، وتنبيهه إلى أنّ السير في ركاب المصالح الحقيقيّة خير له وأجدى عليه من الانخراط في سلك الأهواء والمصالح العشوائيّة الضيّقة.

والإسلام قد وفّر كلا هذين العنصرين في تعاليمه على أحسن وجه وأتمّه؛ فإنّ العقاب الذي توعّد به غليظٌ وعظيم، وقد شفّعه أيضاً بالوعد على الثواب زيادةً في إثارة الدافع النفسي وغريزة حبّ الذات. كما أنّ المصالح التي يقوم على أساسها الدين الإسلامي مصالح حقيقيةٌ كاملة، قد عُيّنت من قبل المصدر الإلهي اللانهائي، خالق البشر ورازقهم والعالم بخفايا مصالحهم وحقائق أُمورهم.



فكان لابدَّ للدين الإسلامي، لكي يتمّ تطبيق منهجه الكامل ولكي تستطيع البشريّة أن تجني منه أطيب الثمار، لابدَّ له من قائدٍ منظّم، ومرشدٍ موجّه، يستطيع أن يخرج البشريّة بالإسلام من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

وقد تولّى ذلك في مبدأ الأمر، الرسولُ الأعظمﷺ بنفسه، فكان مبلّغاً للدين، ومرشداً للناس وقائداً للبشريّة ومنظّماً لشؤونها، ومطبّقاً للدين الذي جاء به. وما إن انتهى دوره في الحياة حتّى كان قد غرس في العالم هذه الشجرة العظيمة التي تؤتي أُكلها كلّ حينٍ بإذن ربها.

إلّا أنّه كان لابدَّ لهذا الدين الخالد من قائدٍ خالد، أو من سلسلة من

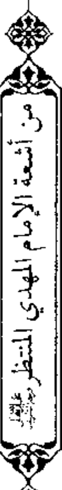
الناس يقومون بهذه المهمّة الكبيرة، حتّى لا تضيع نظمه وتنطمس معالمه وتنتفي المصلحة الكبرى الذي جاء من أجلها هذا الدين، وهي قيادة البشريّة إلى شواطئ العدل والكمال.

إلّا أنَّ الدين الإسلامي مُني منذ أيّامه الأُولى بنفوسٍ سقيمة، ومصالح منحرفة، ووجهات نظرٍ فاسدة، أفسدت عليه أمره من داخله وخارجه، فكان عليه أن يحبو وئيداً متعثّراً يقوم مرّة ويسقط مراراً، وكان على قادته ورجاله الذين جعلهم الله أُمناءه في أرضه وحجَجه على عباده، أناط بهم تطبيق النظام الإسلامي الخالد، كان عليهم أن يعتكفوا في دورهم بمعزلٍ عن الحياة الفكريّة والاجتماعيّة والسياسيّة، لا يجدون مجالاً للحركة والكلام إلّا نادراً؛ وذلك لمدى طغيان الفساد والانحراف ومدى استشراء قوّته وسطوته. فإنَّ الضلال دائماً كان أقوى من الحقّ، وكان صوت الغرائز والمصالح البشريّة دائماً أقوى من صوت العقل، وطوبى لذلك الشخص الذي يقدّم عقله على هواه، وطوبى لذلك الزمان الذي يسود فيه الحقّ على الباطل، ومرحى له وألف مرحى؛ فإنَّه لا تراه البشريّة إلّا نادراً.

ومن ثَمَّ فقد مشى الإسلام يجرّ نفسه بنفسه، ويجري في أذهان البشر بحسب طاقته الذاتيّة للتوسّع والانتشار، من دون أن يجد ناصراً أو معيناً، ما عدا النزر القليل، بل ومن دون أن يخلو جوّه من شنِّ الحرب عليه ومناقضة تعاليمه والخروج على مقتضيات تشريعه.

إلّا أنَّ الإرادة الإلهيّة، لا يمكن أن تهمل هذا الدين إلى الأبد؛ فإنَّها هي التي أرسلته وهي التي وضعته دستوراً للبشر ونظاماً لحياتهم.

فهل من الحكمة أن تدعه هملاً وأن تترك تأييده والدفاع عنه، وأن لا



يُقدّر للبشريّة - بعد صدر الإسلام- أن تُطبّق فيها الشريعة الإسلاميّة كما يريد الله أن تطبَّق وكما أنزلها على رسوله ﷺ ؟

كلّا، وألف كلّا، ما هكذا أرادت المشيئة الإلهيّة، وإنّما دبّرت لذلك أمره وأسّست أساسه؛ فقد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

وهذه الآية نصٌّ في الوعد القاطع من الله عزّ وجلّ للمخلصين من المؤمنين، بتطبيق الدين الإسلامي بوجهه المشرق المضيء في ربوع البشريّة في يومٍ من الأيّام ﴿وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2].

وكان لابدَّ أن يتمّ تطبيق الدين الإسلامي، ذلك النظام الإلهيّ الشامل، على يدٍ مخلصةٍ أمينة، ومحنّكةٍ مفكّرة، تتوفّر فيها المعرفة التامّة بالتشريع وخفاياه وأسراره، وبأساليب تطبيق هذا التشريع على البشر وأحسن الطرق وأفضلها في الوصول إلى ذلك، وتتوفّر فيها العصمة عن الخطأ والزلل والضلال لكي لا تخيس بوعدها أو تخرج على مقتضيات دينها في يومٍ من الأيّام.

فإنَّ الزعامة والقيادة تحتاج إلى نفسٍ رشيدةٍ كاملة، ولا يمكن أن تصلح لها النفوس الناقصة الضعيفة؛ فإنَّ الزعامة تطلق كثيراً من الغرائز والشهوات من عقالها، كحبّ السيطرة والطمع بالمال والتلذّذ بالتحكّم التعسّفي؛ حيث

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

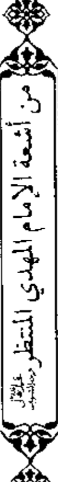
(٢) سورة الروم، الآية: ٦.

يكون الفرد حرّاً في أن يعمل ما يشاء، ولا يقف في وجه ذلك ويحدّ من غلوائه إلَّا أحد أمرين:

إمّا القوانين التي تُفرض على الرئيس من قبل سلطةٍ أعلى منه، فتجبره على الوقوف عند حدّ العدل والإنصاف.

وإمّا صفاء نفس الرئيس وطهارة قلبه وعصمته من الخطأ والزلل.

ولئن كان القانون ممكن العصيان إذا كان الرئيس سيّئ النفس خبيث السريرة، فإنَّ طهارة النفس والعصمة هي الأساس الأوّلي الرئيسي لضمان حسن القيادة في الرئيس.



وبالتلخيص: لابدَّ أن يوكل تطبيق هذا الدين إلى رجلٍ قائدٍ يوازي في عبقريّته وميزانه النفسي والعقلي، قوّاد الإسلام الأوائل الذين بزغ على أيديهم الإسلام وانتشر إلى مشارق الأرض ومغاربها، ويكون في صفاته كأولئك الذين نصبهم الله تعالى خلفاء لنبيّه الكريم ليتمّوا من بعده نشر دينه وإرساء قواعد رسالته.

ولنا أن نتساءل الآن: أنَّه كيف يمكننا أن نحصل على شخصٍ كهذا، لكي يتولّى مركز القيادة الإسلاميّة؟

والجواب طبيعيٌّ وبديهيّ، وهو أنَّه يمكن الحصول على مثل هذا الشخص بالطريقة التي حصلنا فيها على أولئك الأشخاص، وعلى نفس الوتيرة والأُسلوب؛ لكي نستطيع أن نجني منه نفس النتائج الكبرى التي جنيناها من أولئك الرجال.

وعليه؛ لابدَّ أن نتساءل ثانياً: عن الطريقة التي حصل بها أولئك القوّاد الأوائل عليهم الصلاة والسلام.

والجواب عن هذا السؤال أيضاً جاهزٌ وواضح؛ فإنَّ تكوّن مثل هذه الشخصيّة العظيمة يحتاج إلى توفّر عنصرين: عنصر ذاتيّ داخليّ هو الاستعداد الطبيعي لنيل هذه المرتبة الكبيرة، والكمال من حيث جميع الطاقات والإمكانيّات النفسيّة والعقليّة للتأهّل للقيادة العامّة. وهذه مرتبةٌ جليلة يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده، وقد انحصر توفّرها بصورتها الكاملة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله في الأئمّة الاثني عشر من بعده عليهم السلام، ومن ثَمَّ نصّبهم الله تعالى خلفاء في أرضه، وأمناء على وحيه.

والعنصر الثاني المؤثّر في هذا المجال هو التربية، فإنَّنا لا يمكن أن نحصل على هذا القائد العظيم إلَّا إذا كان قد رُبّي بين يدي قائدٍ عظيمٍ مثله؛ يعطيه خبرته، ويعلّمه علمه، ويرشده إلى خفايا الأُمور التي يتفرّد بمعرفتها، فيتقبّلها صاحبنا بما أُعطي من قابليّةٍ نفسيّةٍ على تلقّي مثل هذه الأُمور.

وهذا الأمر واضحٌ وجدانيّ؛ فإنَّ الفرد منّا مهما كان عظيماً، والمجتمع مهما كان متحضّراً ومثقّفاً، لا يستطيع أن ينتج مثل هذا القائد العظيم، فإنَّ التربية بدون القابليّة غير ذات جدوى، كما أنَّ القابليّة من دون التربية المناسبة لها غير مفيدة.

والمجتمع مهما أوتي من طاقةٍ فكريّةٍ ونفسيّةٍ وعقليّة، فإنَّه يطغى فيه بصورةٍ شعوريّةٍ أو لا شعوريّة، الطبع البشريّ الناقص، ولا يستطيع توفير التربية المناسبة لقابليّة هذا القائد العظيم، وإنَّما الذي يمكنه توفير مثل هذه التربية، هو قائدٌ مثله عارفٌ بخفايا الأُمور وطرق التدبير، وبما ينبغي أن يعلّمه وأن يقول له.

وبهذا القانون نفسه، أصبح أمير المؤمنين أبو الأئمّة الهداة عليه السلام، أفضل

البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان أوّل مَن صدّقه وآمن به، حين دعا عشيرته الأقربين، فقال لهم: **ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به. قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربّي أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر وأن يكون أخي ووصيّ وخليفتي فيكم؟** فأعرضوا عنه وهمّوا بتركه، لكن عليّاً نهض - وما يزال صبيّاً دون الحلم - وقال: «**أنا يا رسول الله عونك، أنا حربٌ على مَن حاربت**»[1].

وما ذلك إلّا لأنّ أمير المؤمنين عليه السلام رُبِّيَ بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله ونشأ في محيط رعايته وتحت نور عنايته؛ وذلك لأنّ أبا طالب كان كثير العيال، فقال محمّد صلى الله عليه وآله لعمّه العباس، وكان من أكثر بني هاشم يساراً: إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا فلنخفّف عن عياله، آخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه. وكفل العباس جعفراً، وكفل محمّد صلى الله عليه وآله عليّاً، فلم يزل معه حتّى بعثه الله تعالى[2].

وبهذا نرى وجه الحكمة الإلهيّة التي دبّرت كفالة النبي صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين وتربيته ليكون أميراً للمؤمنين وأباً للأئمّة الهداة المعصومين ونبراساً خالداً يضيء للبشريّة طريق الكمال. ونعرف أيضاً - على نفس الأساس - وجه الحكمة الإلهيّة في جعل الإمامة وراثيّة بعد الإمام الحسين الشهيد عليه الصلاة

---

(١) حياة محمّد، محمّد حسين هيكل (ط١٣٥٤): ١٠٤ (منه قدس سره)، وراجع أيضاً علل الشرائع ١: ١٧٠، الباب ١٣٤، العلّة التي من أجلها ورث علي عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله، والأمالي (للصدوق): ٧٥٥، فضائل علي عليه السلام، الحديث ٦، وبحار الأنوار ١٨: ١٧٨، الحديث ٦.

(٢) نفس المصدر: ١٠٣ (منه قدس سره).

والسلام؛ فإنَّه من المعلوم أنَّ الأب أقرب شخصٍ إلى الإنسان وألصقهم به وأكثرهم معاشرةً له وأقدرهم على تربية ولده على الشكل الذي يريده[1]. فكم تكون النتائج كثيرةً وعظيمةً إذا كان الابن مزوّداً بالقابليّة الذاتيّة على القيادة، وكان الأب قائداً فعليّاً محنّكاً، عارفاً بكيفيّة تربية ولده لكي يتولّى بدوره مركز القيادة في يومٍ من الأيّام خلفاً عنه.

إذن، نعرف أنَّ الشخص الذي نريد الحصول عليه، لكي ينفّذ وعد الله القاطع، ويقوم بتطبيق دين الله القويم، ينبغي أن يكون حاصلاً على هذه الصفات، وليس ذلك إلّا الإمام المهديّ الحجّة المنتظر عليه السلام؛ وذلك لأنَّه الابن الوحيد لآخر قائدٍ إسلاميٍّ معصوم.

ومن ثَمَّ فقد ولد الإمام المهديّ عليه السلام لكي يتولّى زمام القيادة الإسلاميّة، ولكي يتحمّل مسؤوليّة تطبيق الشريعة الإلهيّة بعد آبائه عليهم أفضل الصلاة والسلام.

إلّا أنَّ قوى الطغيان والنفاق قد تولّته بالمطاردة والإرهاب منذ أوّل أيّامه؛ لعلمها أنّه هو الذي سوف يمثّل المعارضة القويّة ضدّ الدولة القائمة، كما قد مثّلها آباؤه الكرام عليهم الصلاة والسلام.

والذي يبدو واضحاً من الحكمة الإلهيّة: أنَّ قيام هذا القائد العظيم بالسيف - في ذلك الحين - لم يكن أمراً ممكناً على الإطلاق، بل لم يكن من المصلحة في شيء، فإنَّه حتماً سيؤدّي إلى القضاء على آخر عنصرٍ من عناصر

---

(١) إذن نعرف أنَّ التوارث بين أئمّتنا عليهم أفضل الصلاة والسلام ليس غايةً في نفسه، وإنّما هو وسيلة اقتضتها الحكمة الإلهيّة لكي يتربّى الابن قائداً عبقريّاً بين يدي والده العظيم (منه قدس سره).

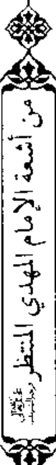
الخير والنور الموجودة على هذه الأرض، لمدى قوّة الكفر والنفاق وطغيانه، وأنَّ التحفّظ على البقيّة القليلة الباقية من الصالحين لكي ينتجوا أولاداً صالحين ولكي ينفعوا المجتمع بأقوالهم وأعمالهم، خيرٌ ألف مرّة من حركةٍ عشوائيّةٍ طائشة، تثير حقد قوى الكفر والطغيان فتقضي عليهم أجمعين.

كما أنَّه يبدو أيضاً من الواضح من الحكمة الإلهية، أنَّها رأت أنَّه ليس من المجدي شيئاً تسلّل القوّاد الخاملين المظلومين إلى أكثر من هذا المقدار؛ فإنَّ من وظيفة القائد أن يمتلك زمام القيادة، وأن يتولّى توجيه المجتمع وإدارته. وحيث إنَّه تعالى يعلم - حسب ما يبدو - أنَّ ذلك لن يتوفّر للأئمّة عليهم الصلاة والسلام إلى أمدٍ معلوم، إذن فلابدَّ من إنهاء هذه السلسلة، والاكتفاء بالأئمّة الاثنى عشر عليهم الصلاة والسلام.

ومن ثَمَّ كان الإمام الثاني عشر الحجّة المهديّ عليه السلام آخر الأئمّة المعصومين عليهم الصلاة والسلام.

وعليه فلابدَّ من التحفّظ على هذا القائد الأخير؛ لكي ينفَّذ على يديه وعد الله عزّ وجلّ الذي قطعه لعباده المؤمنين، ولكي يطبّق القانون الإسلامي الخالد، فإنَّه الوحيد المتبقّي ممّن يحمل الأهليّة التامّة للقيادة والإمامة.

أمّا إذا قُضي عليه من قِبل قوى الكفر المطارِدة له، فسوف لن يمكن الحصول على شخصٍ آخر مثله؛ وذلك لما سبق أن ذكرناه من وجوب توفّر القابليّة النفسيّة والتربية المناسبة للقائد الصحيح. والقابليّة وإن كانت ممّا يمكن أن يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده، إلَّا أنَّ التربية لا يمكن أن تحصل إلَّا من قبل القائد المربّي؛ فإنَّ التوجيه الإلهي المباشر - كالوحي والإلهام - يمكن أن يقوم بهذه المهمّة، إلَّا أنَّ الشخص الذي يرى مثل هذا التوجيه يكون



نبيّاً، ولا نبيّ بعد رسول الإسلامﷺ.

إذن، فالشخص الوحيد الذي رُبِّيَ بين يدي قائدٍ عظيم، هو إمامنا الحجّة المنتظر.

إذن، فلابدَّ من التحفّظ عليه لكي يتمّ على يديه تنفيذ وعد الله عزّ وجلّ.

وإذا لم يمكن أن يتمّ وعد الله عزّ وجلّ في ذلك الزمان، كان لابدَّ من تأجيله إلى الوقت الذي تراه الحكمة الإلهية صالحاً ومناسباً تماماً لذلك. وعليه فقد أعملت الإرادة الإلهيّة قدرتها اللانهائيّة وغيّبته عن الأنظار تحفّظاً عليه من أيدي السوء والشرّ من ذوي المصالح الفاسدة والنفوس المنحرفة، واحتفظت به ليكون القائد الإسلامي المنتصر في يومها الموعود.

(٢)

وإنَّ لفي غيبته هذه عليه الصلاة والسلام لحكمةً إلهيّة كبيرة، وغرضاً إلهيّاً سامياً؛ ولذا وُصفت في الخبر عن النبيّﷺ بأنّها «**من مكنون سرّ الله ومخزون علم الله**»(١).

فإنّه يكفي فيها، بالإضافة إلى ما أسلفناه من حجبه عن أعين السوء والاحتفاظ به لليوم الموعود، يكفي فيها أن يكون الحجّة عليه الصلاة والسلام أهلاً للمؤمنين في خلاص هذا العالم البشريّ من عنصر الشيطان،

---

(١) كشف الغمّة (لعلي بن عيسى الأربلي) ٣: ٣٠٠، ط قم (منهقدس سره)، وراجع أيضاً كمال الدين وتمام النعمة (للصدوق): ٢٥٣، الباب الثالث والعشرون: نصّ الله تعالى على القائمعليه السلام، الحديث ٣.



وسيادة العدل والرفاه فيه، وانتهاء العهود التي كان فيها حقّهم مغدوراً وإمامهم غائباً ودينهم بعيداً عن المسرح السياسي والاجتماعي والثقافي.

ويكفي فيها أن يكون الإمام عليه السلام سنداً لقلوب المؤمنين وركيزةً لإيمانهم، يشعرون بوجوده بينهم، وعلمه بأعمالهم وأقوالهم، وسروره بعباداتهم وخدماتهم الدينيّة والاجتماعيّة، وغضبه من قبائحهم وآثامهم، وبالجملة يشعرون بأنّه قائدهم وموجّههم ومرشدهم، وهو بينهم وإن كان غائباً عن أبصارهم، وهو المفزع في الدعاء والتضرّع عند اشتداد الأزمات وضيق الخناق.

ويكفي في الغيبة فائدةً أيضاً، أن تكون امتحاناً إلهيّاً لإخلاص الناس ومقدار إيمانهم بعقيدتهم واطمئنانهم بالدين وتعاليمه؛ فإنَّ الله تعالى لابدَّ أن يميّز الخبيث من الطيّب، والمخلص من المشكّك، فإنّه عزّ وجلّ عندما أنزل على البشر ديناً يهديهم به وقانوناً ينظّم شؤونهم على ضوئه، وأقام عليهم الحجّة فيه، لم يدعهم هملاً، يعتنقونه إن شاؤوا، ويرفضونه إن أرادوا، ويهملون واجباته وتعاليمه إن رغبوا، تسري العقيدة فيهم سريان النار في الهشيم من دون ضابطٍ معيّن، أو ميزانٍ محدود.

وإنّما أراد مخض السقاء، وإيضاح الفاسد من المؤمن، والصالح من الطالح. فوضع البشر حيال حوادث معيّنةٍ تتّصف بصبغةٍ خاصّة، لا يحتاج التصديق بها إلى إيمانٍ قويٍّ وعقيدةٍ راسخة، تلك العقيدة هي التي يريدها الله تعالى لعباده، وهي التي يستحقّ حاملها الجزاء بأوفر الثواب والفوز برضاء الله عزّ وعلا.

وهذا الامتحان تدبيرٌ إلهيٌّ دائم، فهو غير مختصٍّ بالشريعة الإسلاميّة

وإنّما يعمّ كثيراً من الشرائع السابقة، ولعلّنا نستطيع أن نقتبس من القرآن بعض الأمثلة على ذلك.

فمنها الطوفان الذي توعّد به نوحٌ قومه، ومن ثَمَّ عكف على صنع السفينة لكي ينجو بها هو ومَن اتّبعه. إلَّا أنَّه حين طال الأمد وتأخّر الطوفان، فإنَّه لم يكن صُنع السفينة في تلك الأزمنة السحيقة في القدم سهلاً ولا يسيراً، بل كان يحتاج إلى عدد من السنين لإنجازه، ولم يكن الطوفان ليأتي قبل أن يتمّ الصنع، عندئذٍ ضحك منه الكفّار، وشكّ به كثيرٌ من المؤمنين، ولم يبقَ لديه إلَّا الصفوة المختارة ممّن امتحن الله قلوبهم للإيمان، فركبوا معه، فنجو، وأغرق الله الآخرين.

ومن أمثلة ذلك في القرآن أيضاً: ما حدث في الجيش الذي كان يقوده طالوت لقتال جالوت، حيث مرّوا على نهر، فقال لهم طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾[1]، ولمّا كان كلّ واحدٍ منهم منهوك القوى عاطش الفؤاد، فقد مالوا على النهر و﴿شَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾[2] ممّن قويت عقيدته وأخلص لدينه.

وبهذه الصفوة المخلصة استطاع طالوت أن ينتصر على جالوت وأن يقتل داوود جالوت.

بل إنَّ هذا الامتحان الإلهي غير مختصٍّ بزمانٍ دون زمان، وإنّما هو موجودٌ دائماً ونافذ المفعول على جميع البشر فرداً فرداً، فإنَّه حيث يكون الدين موجوداً والأوامر الإلهيّة قائمة، يكون إلى جانبها مغريات المادّة وبهارج العيش، من السلطة والمال والتهالك على اللذّة. وإذ يكون المرء عاقلاً مختاراً،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

فعليه أن يختار أحد هذين الطريقين، إمّا اللذّة المؤقّتة وإمّا النعيم الخالد، فهو الذي يقرّر مصيره بيديه في هذا الامتحان الرهيب، فإمّا النجاح وإمّا الرسوب، وعند الامتحان يُكرَم المرء أو يهان.

إذن نعرف أنَّ غيبة الإمام المنتظر عليه الصلاة والسلام، من هذا القبيل، فهي امتحانٌ للقلوب المؤمنة، وفضح للنيّات السيّئة، وامتحانٌ إلهيٌّ رهيب.

وفي ذلك يقول أبو عبد الله الصادق عليه السلام للراوي: «**يا منصور، هذا الأمر** (ويعنى به ظهور القائم عجّل الله فرجه) **لا يأتيكم إلّا بعد يأس، ولا والله حتّى تميّزوا، ولا والله حتّى تمحّصوا، ولا والله حتّى يشقى مَن يشقى ويسعد مَن يسعد**»[1].

وقد تنبّأت الأخبار الواردة عن أئمّة الهدى عليهم أفضل الصلاة والسلام، أنّه في زمان الغيبة يكثر الفساد وتشيع الحيرة والضلال، ولا يثبت على دينه إلّا مَن امتحن الله قلبه للإيمان.

فمن ذلك ما ورد عن الإمام الحسين عليه السلام من أنّه عجّل الله فرجه لا يظهر إلّا «**بعد غيبةٍ وحيرة، لا يثبت فيها على دينه إلّا المخلصون المباشرون لروح اليقين، الذين أخذ الله ميثاقهم بولايتنا، وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيّدهم بروحٍ منه**»[2].

(١) الكافي، باب التمحيص والامتحان، نسخة خطيّة (منه قدس سره)، الكافي ١: ٣٧٠، كتاب الحجّة، باب التمحيص والامتحان، الحديث ٣، وكمال الدين وتمام النعمة (للصدوق): ٣٤٦، الباب الثالث والثلاثون: ما أخبر به الصادق عليه السلام من وقوع الغيبة، الحديث ٣٢.

(٢) كشف الغمّة ٣: ٣١١، (منه قدس سره)، كمال الدين وتمام النعمة (للصدوق): ٣٠٤، الباب السادس والعشرون: ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام من وقوع الغيبة، الحديث ١٦، وكذا بقيّة الأبواب في الغيبة، وبحار الأنوار ٥١: ١١٠، الباب الثاني: ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك، الحديث ٢.

وهذه التنبّؤات من قبل أئمّة الهدى عليهم السلام، وإن كانت يمكن أن توصف بأنّها علمٌ للغيب بإحدى درجاته، إلّا أنّه أقرب للفراسة الصادقة والحدس الصائب الصادر من شخصٍ عارفٍ بمزايا الأُمور وطريقة تطوّر حوادث الزمان؛ فإنّهم عليهم السلام كانوا يرون حال الإسلام في أزمنتهم وكيف مُني بحكّام الجور المارقين عن تعاليمه، والمتصرّفين على حسب مصالحهم وأهوائهم، وكانوا يرون مدى التأثير السيّئ لهؤلاء الحكّام في المجتمع الإسلامي وفي التأثير على نفوس المسلمين، وفي إبعاد الإسلام عن المسرح السياسي والاجتماعي وعزله عن الركب البشريّ السائر، إذن ماذا ينبغي أن يكون عليه الإسلام بعد خمسمائة أو ألف أو أكثر من السنين؟ إنّه حتماً سيزداد وهناً وضعفاً، وسيقلّ أصحابه ويكثر أعداؤه، وتعمل المكائد والمؤامرات السود عملها ضدّه.

إلّا أنّ عنصر علم الغيب يبدو جليّاً واضحاً عندما يبدأ الإمام عليه السلام - كما في بعض الأخبار[1] - بذكر حوادث معيّنة، تقع في عصر الغيبة. وكثيرٌ من هذه الحوادث قد حدث بالفعل بين سمعنا وبصرنا وفي مجتمعاتنا، ممّا يبعث على التأكّد من حدوث الأُمور الأُخرى الموعودة في الأخبار الموثوقة المعتبرة. فمن ذلك ما يقوله الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام حين يسأله الراوي: يابن رسول الله، ومتى يخرج قائمكم؟ قال: «إذا تشبّه الرجال بالنساء، والنساء

(١) ومن ذلك على سبيل المثال ما رواه الصدوق، عن الأصبغ بن نباتة، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: سمعته يقول: «يظهر في آخر الزمان واقتراب الساعة - وهو شرّ الأزمنة - نسوةٌ كاشفاتٌ عاريات، متبرّجات من الدين، داخلاتٌ في الفتن، مائلاتٌ إلى الشهوات، مسرعاتٌ إلى اللذّات، مستحلّاتٌ للمحرّمات، في جهنّم داخلات». مَنْ لا يحضره الفقيه ٣: ٣٩٠، المذموم من أخلاق النساء ومفاتنهنّ، الحديث ٤٣٧٤.

بالرجال، واكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وركب ذوات الفروج السروج[1]، وقُبلت شهادات الزور، ورُدّت شهادات العدول، واستخفّ الناس بالرياء وارتكاب الزنا وأكل الربا، واتّقي الأشرار مخافة ألسنتهم»[2].

أمّا المؤمنون المخلصون فسوف يقلّ عددهم، وسوف يُضطَهدون ويحارَبون. وفي ذلك يقول حُذَيفة رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ويح هذه الأُمّة مِن ملوكٍ جبابرة، كيف يقتلون ويخيفون المطيعين، إلّا مَن أظهر طاعتهم. فالمؤمن التقيّ يصانعهم بلسانه، ويفرّ منهم بقلبه»[3].

---

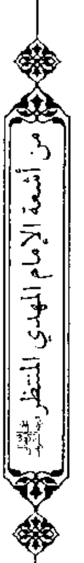
(١) يمكن أن نفهم من السروج، كلّ مركوب يركبه الرجل ولا يليق بالمرأة، وكان ذلك منحصراً بالخيل عندئذٍ، إلّا أنّنا نراه الآن يعمّ الدرّاجة الهوائيّة، والدراجة البخاريّة، وسياقة السيّارة، إلى غير ذلك من الميادين التي غزتها المرأة وزاحمت الرجل فيها، وهذا هو الذي يمكن أن نفهمه أيضاً من تشبّه النساء بالرجال، بالإضافة إلى تقليدهنّ الرجال بالزيّ والعمل والحقوق.

كما يمكن أن نفهم من تشبّه الرجال بالنساء، كثرة عنايتهم بجمالهم وهندامهم وحلقهم لحاهم، إلى غير ذلك ممّا هو أليق بالمرأة منها بالرجل.

كما يمكن أن نفهم على هذا الضوء التنبّؤات الأُخرى (منه قدس سره).

(٢) كشف الغمّة ٣: ٣٢٤ (منه قدس سره)، وكمال الدين وتمام النعمة (للصدوق): ٣٣١، الباب الثاني والثلاثون: ما أخبر به الباقر عليه السلام في وقوع الغيبة، الحديث ١٦، وبحار الأنوار ٥١: ٧٠، فيما أوصى الله تعالى في علامات الظهور، الحديث ١١. وفي بعض المصادر: «واستخفّ الناس بالدماء وارتكاب الزنا»، بدل: «واستخف الناس بالرياء وارتكاب الزنا».

(٣) كشف الغمّة ٣: ٢٦٢ (منه قدس سره)، وبحار الأنوار ٥١: ٨٣، فيما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله في المهديّ عليه السلام من طرق العامّة، وينابيع المودّة (للقندوزي) ٣: ٢٩٨، الباب الثامن والسبعون، الحديث ١٠.



إلّا أنَّ هؤلاء سوف تعزّ في قلوبهم عقيدتهم، ويرسخ إيمانهم، ويمتحن إخلاصهم؛ لذا فقد أُثني عليهم في الأخبار، فمن ذلك ما ورد عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنّه قال: «طوبى لشيعتنا المتمسّكين بحبلنا في غيبة قائمنا، الثابتين على موالاتنا والبراءة من أعدائنا. أولئك منّا ونحن منهم. قد رضوا بنا أئمّةً ورضينا بهم شيعة، فطوبى لهم ثُمَّ طوبى لهم، وهم والله معنا في درجتنا يوم القيامة»[1].

يبقى هؤلاء المؤمنين في زمان الغيبة بانتظار اليوم الموعود، حين ترى الحكمة الإلهيّة أنَّ الوقت المناسب قد حان لتنفيذ الوعد الإلهي، فتأذن للإمام المنتظر عجّل الله فرجه بالظهور لكي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

ويطول بالمؤمنين الانتظار، فما هذا اليوم بمحدّدٍ ولا معلوم إلّا في علم الله عزّ وجلّ. ومن ثَمَّ يتمتمون خاشعين بقلوبٍ يعمرها الإيمان بالله والثقة بوعده: «اللّهمّ إنّا نرغب إليك في دولةٍ كريمة، تعزُّ بها الإسلام وأهله، وتُذلّ بها النفاق وأهله، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك، والقادة إلى سبيلك، وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة»[2].

وممّا ينبغي التنبيه عليه: أنّه ليس معنى انتظار الإمام المهدي عجّل الله فرجه الاكتفاء بمجرّد الانتظار، والاستسلام السلبي إليه. فما بهذا أمَرَ الإسلام، ولا

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة (للصدوق): ٣٦١، الباب الرابع والثلاثون: ما أخبر به الكاظم عليه السلام من وقوع الغيبة، الحديث ٥، وكشف الغمّة ٣: ٣٣١، الأخبار الواردة في صاحب الزمان عليه السلام.

(٢) مفاتيح الجنان، للشيخ عباس القمّي: ١٨٢ (منه قدس سره)، والكافي ٣: ٤٢٤، باب تهيئة الإمام للجمعة وخطبته والإنصات، الحديث ٦، ومصباح المتهجّد (للطوسي): ٥٨١، دعاء كلّ ليلة في شهر رمضان.

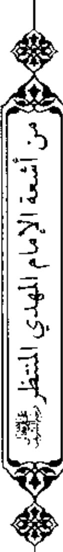
هكذا أراد منّا أئمّتنا عليهم الصلاة والسلام، حين أمرونا بموالاته وانتظاره، ولا كانت هذه هي الحكمة الكبرى التي غاب من أجلها.

إنَّ على المؤمنين المخلصين أن يعملوا في سبيل الله تعالى وأن يدعوا إلى دينه الحنيف، بمقدار جهدهم وطاقتهم، ولا يختلف الحال في ذلك في زمان الغيبة والحضور؛ فإنَّ أوامر الإسلام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبمحاربة الضلال وبتطبيق نظام الإسلام لا زالت نافذة المفعول، لمَن يؤمن بها ويريد أن يطيعها، كما أنَّ وعد الله عزّ وجلّ للعاملين في سبيله والمجاهدين لنصرة دينه بالجزاء الأوفر، موجودٌ دائماً ولا يختصّ بزمانٍ دون زمانٍ.

بل ينبغي أن يفكّر المؤمنون ويمعنوا النظر، ليروا أنَّهم إنَّما ينتظرون إمامهم عجّل الله فرجه، لأجل تطبيق دينهم وتنفيذ أوامر ربّهم والقضاء على أعدائه والحاقدين عليه. فإذا كان ذلك هو الهدف السامي للإمام المنتظر في غيبته وعند حضوره، فلماذا لا يكون هو هدفهم في حياتهم ومثلهم الأعلى الذي يستهدفونه ويسعون إليه بقلوبهم وأعمالهم وأقوالهم، يعملون في سبيله ما وسعهم العمل جهد الطاقة والمستطاع؟

بل إنّنا يمكننا أن نرى أنَّ الإخلاد إلى الكسل والتواكل، وأنَّ عدم الشعور بالمسؤوليّة والسلبيّة إزاء الأحداث، شططٌ عظيم وخطأٌ كبير، له الأثر السيّئ العميق على الإسلام وعلى المسلمين وعلى المجتمع الإسلامي.

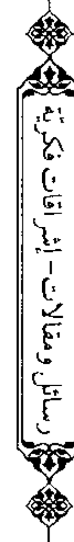
فإنّنا قد لمسنا هذا الخطر بأيدينا ورأيناه بأعيننا، بعد أن غزانا الكفر في عقر دارنا، ووفدت علينا المبادئ من وراء حدودنا، وسدّت علينا منافذ تفكيرنا؛ فإنَّ ذلك لم يكن ليوجد لولا تخاذل المسلمين وتواكلهم وسلبيّتهم إزاء الأحداث التي تدور حولهم وتعصف بكيانهم، وعدم الشعور بالمسؤوليّة



إزاء نصرة الدين الحنيف، والجهاد في سبيل النظام الإلهيّ الخالد.

نعم، إنَّ الذي ينبغي لنا أن ننتظره وأن ندعو الله تعالى بتعجيله، هو تنفيذ الوعد الإلهي العظيم، وظهور الإمام الحجّة القائم عجّل الله فرجه «**ليملأ الأرض قسطاً كما ملئت جوراً**»[1]، ويطبّق الدين الإسلامي الحنيف بوجهه الوضّاء المنير «**ويعمل في الناس بسنّة نبيّهم**صلى الله عليه وآله»[2] ويكون قائداً للبشريّة كلّها، «**ويبلّغه الله تعالى شرق الأرض وغربها حتّى لا يبقى منهل ولا موضع سهل أو جبل وطئه ذو القرنين إلّا وطئه. ويظهر الله له كنوز الأرض ومعادنها، وينصره بالرعب، ويملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً**»[3].

وبالطبع فإنَّ هذا شيءٌ يستحقّ الانتظار؛ فإنّه لن يكون إلّا عند ظهور الإمام الحجّة المهدي المنتظر عجّل الله فرجه.



(٣)

وعند ظهوره عجّل الله فرجه، يبدأ فوراً بتطهير العالم من الكفر والرجس والضلال، ويسعى حثيثاً إلى تطبيق القانون الإسلامي الخالد، وتكون العناية الإلهيّة حليفة [له] في صراعه مع الكفر والطغيان، فينتصر نصراً

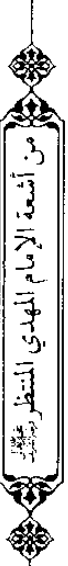
(١) الكافي ١: ٣٣٨، باب الغيبة، الحديث ٧، والاختصاص (للمفيد): ٢٠٩، في إثبات إمامة الأئمّة الاثني عشرعليهم السلام، وكمال الدين وتمام النعمة (للصدوق): ٢٢، إثبات الغيبة والحكمة فيها.

(٢) كشف الغمّة ٣: ٢٦٩ (منهقدس سره)، وبحار الأنوار ٥١: ٨٨، وسنن أبي داود ٢: ٣١١، كتاب المهديعليه السلام، الحديث ٤٢٨٦.

(٣) نفس المصدر: ٣١٧ (منهقدس سره)، وكمال الدين وتمام النعمة (للصدوق): ٣٩٤، ما روي من حديث ذي القرنين، الحديث ٤، وبحار الأنوار ١٢: ١٩٥، قصص ذي القرنين، الحديث ١٩.

عظيماً ويفتح مشارق الأرض ومغاربها، وينصره الله بالرعب، بأن يكون مرهوب الجانب قويّ الركن، تخافه الدول وتخضع له عندما يملأ عليها كيانها الرعب والفزع من احتمال هجومه عليها وفتحه لأراضيها.

والسرّ العميق الكامن في هذا النصر العظيم الذي يحرزه عجّل الله فرجه، إلى جانب ما في ذلك من العناية الإلهيّة وإلى جانب حنكته وخبرته وصواب تدبيره، هو أنّه عليه الصلاة والسلام يصوغ نفوس تابعيه بالصياغة الإسلاميّة، ويصهرهم في بوتقة الدين الحنيف، ويبذر فيهم حبّ التضحية والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحقّ والتفاني في سبيل الله عزّ وجلّ.



فبمثل هذا الجيش المتحمّس المندفع؛ يفتح الإمام المهديّ العالم، ويُذلّ الجبابرة، ويُخضع قوى الكفر والطغيان.

وإنَّ مثل هذا الجيش لضروريٌّ له الحصول على مثل هذا النصر العظيم؛ إذ إنَّ كلّ فردٍ منهم يشعر بالمسؤوليّة ويعلم أنّه ذاهبٌ في سبيل هدفٍ سامٍ عظيم، وأنّه مسؤولٌ عن نصرته، ومجزيٌّ بأوفر الثواب لقاء الموت في سبيله.

ولا يمكن أن ينال مثل هذا النصر، بحالٍ من الأحوال، بواسطة هذه الجيوش المتحلّلة التي لا تعرف لحياتها هدفاً ولا لأعمالها غاية، وإنّما تقاد قود القطيع لتنفيذ فكرة لمعت في رأس القائد أو الحاكم المسيطر، لا يعرف الجيش مغزاها ولا مراميها، فتذهب لتقاتل مَن لا تعرفه لسببٍ لا تعرفه، فلذلك فهي تفقد العنصر الأساسي الضروري للفتح الفعّال والنصر الأكيد، وهو الحماس والشعور بالمسؤوليّة.

ويمكننا أن نمثّل للجيش المتحمّس، بتلك الجيوش التي أحرزت الانتصارات الهائلة في العالم، ولا يجود الدهر بها إلّا بمقدار.

فمنها الجيش الإسلامي الأوّل الذي كان يقوده النبيّ صلى الله عليه وآله، إمّا بنفسه أو بأحد مخلصيه، ذلك الجيش الذي استطاع فتح العالم من المحيط الهادئ إلى المحيط الأطلسي.

ومنه الجيش الذي كوّنه (هتلر) من الشعب الألماني، بعد إثارة الروح العنصريّة فيه، وإفهامه لكلِّ فردٍ منه أنّه ألمانيّ فحسب، وأنّه مسؤول عن مجد ألمانيا وسؤددها.

فبهذا الحماس والاندفاع يفتح الإمام المهديّ عجّل الله فرجه هذا العالم، وينتصر على الكفر والضلال؛ وما ذلك إلّا لأنَّ رجاله «**رجال مؤمنون، عرفوا الله حقّ معرفته**»[1].

وحالما يتمّ الفتح، يبدأ الإمام القائم عجّل الله فرجه بتطبيق نظامه الأمثل في البلاد، ونشر الدين الإلهي القيّم، كما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله، ذلك الدين الذي يستهدف سعادة البشريّة ورفاهها ورقيّها وكمالها؛ وذلك كما جاء في الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**لا تقوم الساعة حتّى يملك رجلٌ من أهل بيتي، يواطئ** - أي: يماثل - **اسمه اسمي، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما مُلئت ظلماً وجوراً**»[2].

وعند تطبيق النظام الإسلامي الخالد، يبدأ الإمام عليه الصلاة والسلام ويبدأ المجتمع الإسلامي معه، بجني الثمار الكبرى التي يغرسها الإسلام حين تطبيقه، فينتشر العدل ويعمّ الرفاه ربوع المجتمع الإنساني.

---

(١) كشف الغمّة ٣: ٢٦٨ (منه قدّس سرّه)، والفتوح (لابن أعثم الكوفي) ٢: ٣٢٠، ذكر كلام علي عليه السلام وما خبر به من أمر خراسان ...، وبحار الأنوار ٥١: ٨٧، وكنز العمّال ١٤: ٥٩١، الحديث ٣٩٦٧٧.

(٢) المصدر السابق ٣: ٢٦١ (منه قدّس سرّه)، وبحار الأنوار ٥١: ٨١، فيما روي عن النبي صلى الله عليه وآله في الإمام المهديّ عليه السلام من طرق العامّة، ومسند أحمد ٣: ١٨.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يخرج المهدي في أُمّتي يبعثه الله غياثاً للناس. تنعم الأُمّة، وتعيش الماشية، وتخرج الأرض نباتها، ويعطي المال صحاحاً**»[1]، أي: بالسويّة بين الناس، كما جاء في خبر آخر[2].

وقال صلى الله عليه وآله: «**تتنعم أُمّتي في زمن المهديّ نعمةً لم يتنعّموا مثلها قطّ، يرسل الله السماء عليهم مدراراً، ولا تدع الأرض شيئاً من نباتها إلّا أخرجته**»[3].

ومن ناحيةٍ أُخرى تنصهر نفوس المسلمين في البوتقة الإسلاميّة، وتقوم مصالحهم وعواطفهم وروابطهم على أساسٍ إسلامي، ويكونون إخواناً متحابّين في الله تعالى، وترتفع من بينهم العداوة والشحناء التي أوجدتها المبادئ المتفرّقة المتناحرة التي كانت سائدةً بينهم قبل ظهور إمامهم عليه الصلاة والسلام.

وذلك كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**قلت يا رسول الله: أمِنّا آل محمّد المهديّ، أم من غيرنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا بل منّا، يختم الله به الدين، كما فتح بنا، وبنا يُنقذون من الفتن، كما أُنقذوا من الشرك، وبنا يؤلّف الله قلوبهم بعد عداوة الفتنة إخواناً، كما ألّف بينهم بعد عداوة الشرك، وبنا يصبحون بعد**



(١) نفس المصدر: ٢٦٠ (منه قدس سره)، وبحار الأنوار ٥١: ٨١، فيما روي عن النبي صلى الله عليه وآله في الإمام المهديّ عليه السلام من طرق العامّة، وعقد الدرر (ليوسف المقدسي): ١٥٥، الباب السابع عشر: في شرف المهديّ وعظيم منزلته.

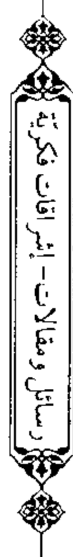
(٢) أُنظر: ٢٦١ من نفس المصدر (منه قدس سره).

(٣) نفس المصدر: ٢٦٣ (منه قدس سره)، والملاحم والفتن (لابن طاووس): ١٤٩، الباب ١٥٣، قول النبيّ صلى الله عليه وآله: أنّ أُمّته تنعم في زمان المهدي، وبحار الأنوار ٥١: ٩٧، أبواب النصوص على القائم عليه السلام، الباب الثالث والعشرون، وعقد الدرر في أخبار المنتظر (ليوسف المقدسي): ١٤٥، الباب السابع: في شرف المهديّ عليه السلام وعظيم منزلته.

عداوة الفتنة إخواناً، كما أصبحوا بعد عداوة الشرك إخواناً في دينهم»[1].

وفي هذا الحديث مزاوجةٌ دقيقةٌ يقيمها النبيّ صلى الله عليه وآله بين ما عمله بنفسه في صدر الإسلام، من الدعوة إلى الله ونشر دينه القويم، وبينما يعمله الحجّة المهديّ عند ظهوره من ذلك.

فإنّه «بنا»، أي: بالقادة الإسلاميّين، سوف تنجو البشريّة من ظلمات المادّيّة والحيرة والضلال، كما نجت من المادّيّة والحيرة والضلال في صدر الإسلام. وبنا سوف يؤلّف الله بين قلوب الشعب الإسلامي المخلص، بعد العداوات التي غرستها عصور المادّيّة والضلالة، كما ألّف الله بين قلوب المسلمين في صدر الإسلام، بعد عداوة الشرك والضلال.



إذن، فهناك مزاوجةٌ جميلةٌ بين بعثة النبيّ صلى الله عليه وآله وظهور الإمام القائم عليه السلام، وبين هدف النبيّ صلى الله عليه وآله في جهاده، وهدف المهديّ في الجهاد، وبين النتائج الكبرى التي حصل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله في بعثته وبين النتائج الكبرى التي سوف يحصل عليها الإمام المهديّ في ظهوره.

كما أنَّ هناك مزاوجةً أُخرى بين العصر الجاهلي الضالّ الذي أُرسل فيه النبيّ صلى الله عليه وآله وبين العصر المادّي الضالّ الذي يظهر فيه الحجّة المنتظر عجّل الله فرجه، ومماثلةٌ تامّةٌ بين جهاد النبيّ صلى الله عليه وآله وصراعه ضدّ الكفر والضلال، وصراع المهديّ عليه الصلاة والسلام معه، وبين الفوز العظيم والنصر الباهر

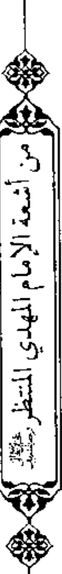
---

(١) كشف الغمّة ٣: ٢٦٣ (منه قدس سره)، وبحار الأنوار ٥١: ٨٤، أبواب النصوص على القائم عليه السلام، فيما روي عن النبي صلى الله عليه وآله في المهديّ من طرق العامّة، وكنز العمّال ١٤: ٥٩٨، المهديّ عليه السلام، الحديث ٣٩٦٨٢، والفصول المهمّة (لابن الصبّاغ المالكي): ١١١٧، الفصل الثاني عشر: في ذكر أبي القاسم محمّد.

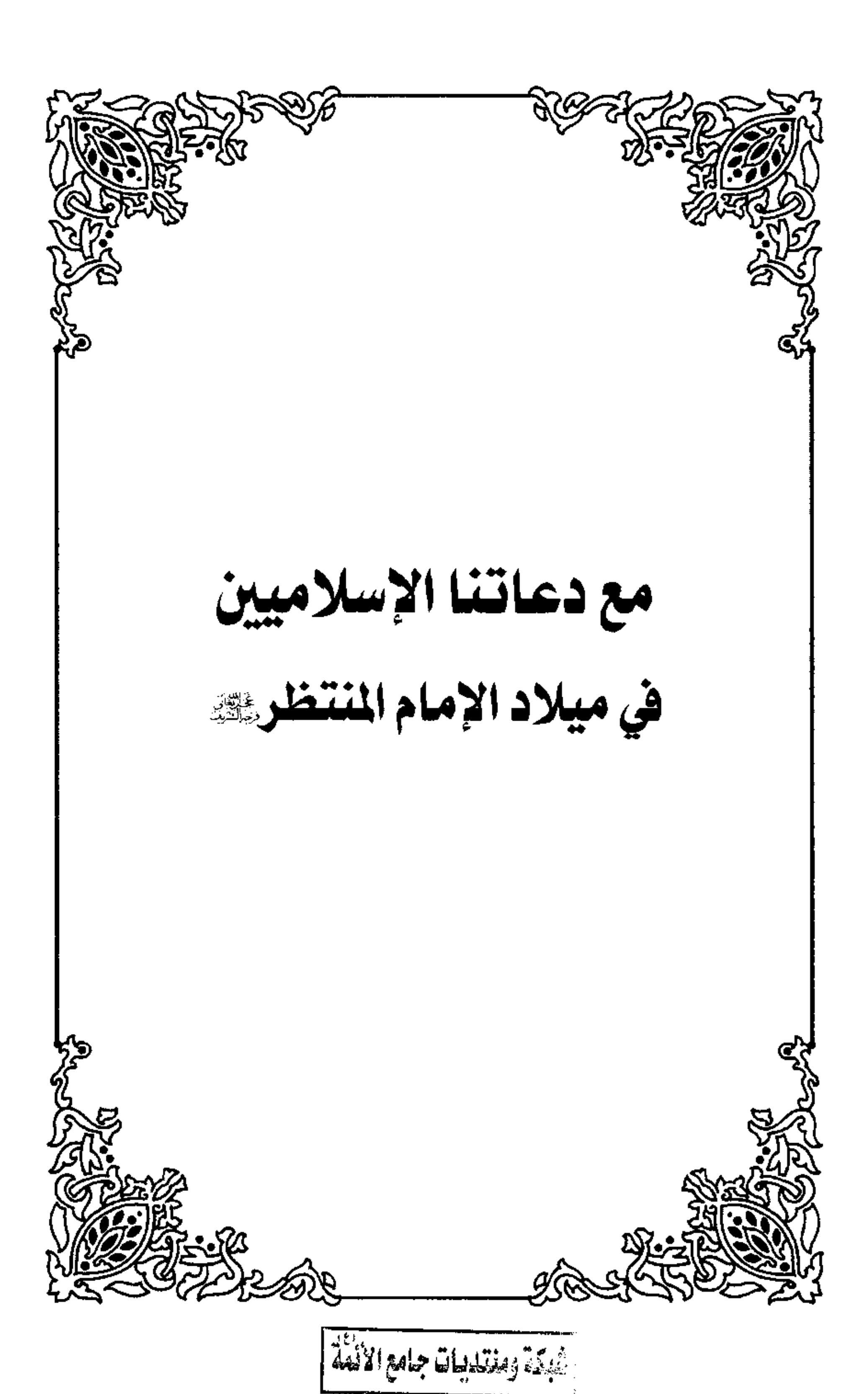
الذي أحرزه النبيّ صلى الله عليه وآله والنصر الذي سوف يحرزه إمامنا المنتظر عجل الله فرجه.

كما أنَّ هناك مماثلةً تامّةً بين الأساس الرئيسيّ للقيادة النبويّة في صدر الإسلام، وطرق تنفيذه والأُسلوب المتّبع في تطبيقه، وبين ما يماثل ذلك عند الإمام الحجّة المهديّ عجل الله فرجه.

وليس ذلك إلَّا الإسلام دين الله القويم الذي أنزله الله تعالى على نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله؛ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى الصراط المستقيم[1].



(١) نشرت ضمن كتاب بعنوان (أشعّة من عقائد الإسلام)، صدر عن مكتب الثقافة الإسلاميّة في كربلاء. التاريخ رجب ١٣٨٣ هـ الكتاب الخامس - السنة الرابعة، الرقم ٣٥ (منه قدس سره).



مع دعاتنا الإسلاميين

في ميلاد الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف

مع دعاتنا الإسلاميين

في ميلاد الإمام المنتظر عجّل الله فرجه

ممّا لا ينبغي الشكّ فيه، ومن ضروريّات مذهبنا المقدّس: أنَّ الإمام المنتظر الثاني عشر عجّل الله فرجه موجودٌ وغائب، أعدّه الله تعالى إعداداً خاصّاً لأجل القيام بالمهمّة الكبرى التي أوكلها الله تعالى إليه، للاضطلاع بها عند ظهوره في اليوم الموعود.

وممّا لا ينبغي الشكّ فيه أيضاً: أنَّ في دخيلة نفس كلّ فردٍ منّا متشبّعٍ بروح الإسلام متنوّرٍ بنور اليقين، شعلةً وهّاجةً في انتظار الإمام الحجّة المهديّ عجّل الله فرجه، وترقّب يوم ظهوره الموعود بلهفةٍ واشتياق، بل ربّما استبدّ ببعض مؤمنينا القلق والفزع تحت طائلٍ كبيرٍ من الإحساس بالظلم والخوف، فلجأ إلى الدموع يرسلها غزاراً، ضارعاً إلى الله تعالى أن يقرّب يومه الموعود وقيامه المشهود.

ولكن هل خطر لنا في ساعات تفكيرنا أو يومٍ من أيّامنا، أن نتساءل: لماذا نحن ننتظر إمامنا الثاني عشر، ولماذا نتلهّف إلى هذا الحدّ إلى ظهوره وبزوغ بدره؟

ولعلّ الجواب عن هذا السؤال يكمن في الجواب عن سؤالٍ آخر، عن المصلحة التي تغيَّب الإمام المنتظر من أجلها، وانتظر هذه المدّة الطويلة لتحقيقها؛ فإنَّ ما يمكن أن يكون مصلحةً لظهوره عليه السلام هو الذي يدعونا إلى

التلهّف إلى غده الموعود.

ولئن كان الجواب عن هذين السؤالين واضحاً في أذهاننا، حاضراً إلى قلوبنا، فإنّه بنفسه يمكن أن يمهّد الجواب عن سؤالٍ ثالث، يمكن أن يطفح على الأفواه فيخفّف من حدّة الجوابين الأوّلين ويحدّ من حماسهما واندفاعهما؛ وذلك أنّنا لا داعي لنا إلى التلهّف والانتظار وقتل الوقت بالكسل والخمول انتظاراً لليوم الموعود، ولا داعي لنا أن نترقّب يوم النور والحياة، إذا استطعنا أن ننجز نوراً مثله وأن ننفّذ الوعد قبل موعده.

إذن، فهل يمكننا مثل ذلك؟ هل يمكننا أن نقوم ببعض ما نترقّب من الإمام المنتظر أن يقوم به بعد ظهوره. إذن ينبغي أن تقلّ لواعجنا[1] وتطمئنّ قلوبنا، وتذوي الجذوة[2] الوهّاجة في نفوسنا.

إنّ الجواب عن هذا السؤال مهمٌّ وجوهريٌّ لمعرفة سير الحياة الإسلاميّة ووضعيّة المجتمع الإسلامي، ومدى إمكان نجاح أيّ دعوةٍ إسلاميّةٍ قد يقوم بها فردٌ أو جماعةٌ في خضمّ هذا المجتمع المتلاطم من الآراء والعقائد المتناحرة والمبادئ الكافرة.

---

(١) في الدعاء: لواعج الأمطار وعوالجها. ولواعج الأمطار: هي التي يكون لها تأثيرٌ شديدٌ في النبات، من لعجه الضرب: إذا آلمه وأحرق جلده. وفي ذلك قال الشاعر:

إنّ الذي رحلوا غداة المنحنى ملؤوا القلوب لواعج الأشجان

راجع مجمع البحرين (للطريحي) ٢: ٣٢٨، مادّة: (لعج)، وخزانة الأدب وغاية الإرب (للحموي): ٢٠٠.

(٢) الجذوة: الذي يبقى من الحطب بعد الالتهاب، والجمع (جذى)، قال عزّ وجلّ: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ [سورة القصص، الآية: ٢٩]. مفردات ألفاظ القرآن (للراغب الأصفهاني): ١٩٠، مادّة: (جذو).

إنّنا إذ نستطيع أن نجيب على هذا السؤال إمّا بالنفي أو الإثبات، فإنّنا نستطيع أن نحدّد موقفنا ونرى مواضع أقدامنا ونميّز حقيقة أنفسنا ومقدار قوّتنا وطاقتنا الفكريّة والمادّيّة، وحقيقة عدوّنا ومقدار عدده وعدّته، فإذا أجبنا بالإثبات، إذن فيجب أن نتقدّم وأن نمخر عباب هذا الميدان متوكّلين على الله ضارعين إليه عزّ وجلّ أن يكلئنا وأن يرعى جهودنا بحكمته وأن يكلّلها بالنجاح والفلاح، إنّه على كلّ شيءٍ قدير.

وأمّا إذا أجبنا بالنفي، وهو الجواب المتعيّن الصحيح، مع أشدّ الأسف، إذن فمن الحكمة وحسن التدبير أن نواجه أنفسنا ونطّلع على مواطن قصورنا وأخطائنا، وأن نتلمّس مواضع الضعف والقوّة في دعوتنا وتفكيرنا، وأن نواجه كلّ ذلك بشجاعةٍ وشرف، وأن نحاول بإخلاصٍ واندفاع، متوكّلين على الله ومستمدّين منه العون والإرشاد، إصلاحَ ذات أنفسنا وتنظيمَ شؤوننا؛ لنستطيع عندئذٍ أن نواجه المجتمع الحاشد بعزيمةٍ وإخلاص. وإلّا فإن كان القائد ضعيفاً والمعلّم جاهلاً، فما رأيك بالجنديّ البسيط والتلميذ الصغير؟

إذن يجب علينا ونحن ندّعي لأنفسنا صفة الدعوة الإسلاميّة والاندفاع الحماسيّ في سبيل الدين القويم، أن نتميّز بوضوحٍ مناطق الضعف فينا والقوّة في عدوّنا، لعلّنا نستطيع أن نجد – في النهاية– في أُفق المجتمع الإسلامي فجراً يشبه – ولو من بعيد– فجر اليوم الموعود والغد المشهود.

ولعلّنا نستطيع تعداد الأسباب الأساسيّة التي تؤثّر في عرقلة سير الحياة الإسلاميّة إلى الأمام، في ضمن الأُمور التالية:

١. قوّة الكفر واستشرائه في بلادنا وبين ظهرانينا. وهذا السبب وإن كنا نعدّه سبباً واحداً إلّا أنّه ينحلّ في جوهره إلى عدّة أسباب:

أ) كـون العقائـد الكـافرة متحـصّنة بـدولٍ كـبرى وصـغيرةٍ مدجّجـة بالسلاح، تعصف أمامها القنابل الذريّة وتئزّ[1] الصواريخ.

ب) كون العقائـد الكـافرة تنتـشر بتـصميمٍ دقيـق، وتنظـيمٍ مـدروسٍ حكيم، مستقىً من تجارب طويلـةٍ وعلـومٍ كثـيرة، بمـشاركة الكثـيرين مـن الاختصاصيّين المفكّرين والمصلحين المنفّذين.

جـ) كون الفرصة سانحةً للعقائد الكافرة أن تغـزو أيّ بـلادٍ مـن هـذا العالم الوسيع، رغم الحدود والسدود عن طريق ملايين الـصحف والنـشرات وعن طريق أجهزة الإذاعة والتلفزة بما يضاعفها عدداً وعدّة.

د) وممّا يساعد على انتشار العقائد الكافرة في بلاد الإسلام، هذا الفـراغ العقائدي المروّع الذي يتّصف به شرقنا الإسلامي على وجه العموم، ممّا يجعل الطريق رحباً والعوائق قليلةً أمام تغلغل العقائد الكافرة فينا واستشرائها بيننا، ذلك الفراغ العقائدي الذي بذل الغرب جهداً مضاعفاً لأجل تنميته وسرعـة نضجه؛ لكي تخلو الأذهان من عقيدة الإسلام، ويخلـو الطريـق أمـام مفـاهيم الغرب الحضاريّة الحديثة.

هـ) كون العقائد الكافرة توفّر لمعتقدها ضماناً مادّياً ملموساً، مـن المـال والمنصب والشهرة وما يشاء مـن إشـباع الرغبـات النفـسيّة والغريزيّـة، كـلٌّ بحسب مزاجه وقابليّته.

و) ما توفّره العقائد الكافرة من إمكانيّة العمل السياسي لمعتنقها؛ فإنَّ في نفس كلِّ فردٍ من أفراد عصرنا الحاضر توقاناً غريباً، للاعتقاد بأمرٍ من الأُمور،

(١) أي: يكون لها صوتٌ مُدَوٍّ. والأزّة: الصوت، والأزيز: صوت غليان القدر، وصوت الرعد من بعيد. راجع لسان العرب ٥: ٣٠٧، فصل الألف.

والدفاع عنه، والسعي في نشره والمحافظة عليه، ولو كلّفه ذلك حياته. والعقائد الكافرة توفّر للفرد الحديث في جوّها الخاصّ أن يعمل ما يشاء وأن يناضل كما يشاء.

ونحن لن نستطيع بطبيعة الحال أن نُلِمَّ في هذه السرعة بما ينبغي أن نعرفه في هذا الصدد، ولعلّنا الآن قد أهملنا أكثر ممّا أحصينا، ولكن يكفي هٰذه الكلمة فخراً أن تكون حافزاً لنا على الاستزادة في التفكير والجدّ في التنقيب في هذا الميدان الجوهريّ الذي يمسّ صميم عقيدتنا الإسلاميّة المقدّسة.

وعلى كلِّ حال، فمن الواضح في المقام: أنَّ الحياة الإسلاميّة والدعوة الإسلاميّة تفتقر إلى جميع المميّزات السابقة في كيانها الإسلاميّ؛ فإنّها إلى جنب كونها ترى كلّ ذلك متوفّراً بيد أعدائها يستخدمونه بجدٍّ وإخلاص، فإنّها ترى في ذاتها فقراً شديداً لأيّ واحدٍ من تلك المميّزات.

فإنَّ الإسلام بواقعه الأفضل لا يملك دولاً تحتضنه، ولا سلاحاً يدافع عنه ويذبّ عن حياضه، كما أنّه لا يجد من ذويه والمدافعين عنه خططاً مدروسة وأفكاراً ناضجة وأعمالاً محنّكة للدعوة إليه وجرّ النار إلى قرصه؛ فإنَّ الحركة الإسلاميّة لا زالت فكرةً بدائيّةً تحبو في مهدها، وتحتاج في وصولها إلى مرحلة النضج، إلى تطاول سنين، ومرّ عصور. ومن المحال عليها كفكرةٍ اجتماعيّة، أن تطفر من مرحلة الميلاد إلى النضج بدون تعبٍ كثير، وبذل جهدٍ متواصل مرير؛ على حين بلغت الحركات السياسيّة الدوليّة أوجها في النضج والارتفاع والاتّساع.

كما أنَّ الإسلام لا يملك بيد دعاته صحفاً عالميّة ولا أجهزة إذاعة ولا تلفزة، ولئن كان مالكاً لها أو لإحداها، فلن يستطيع دعاته ملأها بما ينبغي أن تمتلئ به من البرامج والتوجيهات، بعد أن كانت الدعوة الإسلاميّة لم تبلغ

مرحلة النضج ولم تضع خططاً مدروسةً واضحة.

ولقد رأينا الحركة الإسلاميّة تصدر بعض الصحف الضيّقة القاصرة من ناحية المنهج والفكرة والإنشاء والانتشار، ثُمَّ تتخيّل نفسها قد بلغت القمّة وقد عملت كلّ شيءٍ، وقد ألقت ما على عاتقها من المسؤوليّة الإلهيّة الإسلاميّة إلى آخر حبّةٍ فيها، في حين إنّها لا تزال - لو كانت تعلم- في أوّل الطريق أو أنّها لم تدخل بعد في الطريق.

ومِن الحقّ الذي ينبغي أن يقال ليكون لنا حافزاً ومشجعاً: هو أنَّ الدعوة الإسلاميّة بما تملك من أساليب ضيّقةٍ قليلة، قد أثّرت تأثيراً بالغاً فعّالاً في نفوس الناشئة وفي الأفكار الفارغة، ممّا يدلّ على أنَّ هناك تقبّلاً شديداً للأفكار الدينيّة والحركات الإصلاحيّة، وتوجّهاً حسناً نحو العقيدة الإسلاميّة المقدّسة، ممّا يجعل الطريق مهيعاً أمام الاستزادة من أساليب الدعوة وتعميقها ونشرها؛ لكي نجني من الثمرات أضعاف ما جنينا، ولكي نستطيع الوصول إلى نور الإسلام الوهّاج.



ولعلّنا يمكن أن نتساءل في المقام: أنَّ الدعوة الإسلاميّة بشكلها الضيّق الصغير إذا كانت تؤثّر هذا الأثر البالغ الفعّال، فكيف بالأساليب الموسّعة والطرق المدروسة الحكيمة؟

إنَّ هذا ممّا ينبغي أن نتأمّله مليّاً وأن ننظره بدقّةٍ وإتقان.

كما أنَّ الإسلام في حدود دعوته الحاضرة لا يستطيع أن يوفّر الضمان المادّي لِمَن يدعوهم إلى الإسلام، فإنّ الدعاة الإسلاميّين ليس في أيديهم ما يقولونه من شيءٍ للفرد المسلم في توفير أيّ منصبٍ أو شهرةٍ أو مال؛ فإنَّ غاية ما يمكنهم التأكيد عليه هو نيل رضاء الله والكمال الإنساني الأعلى والخلود في

الجنان، وغير ذلك من العناوين التي لا يجد لها الفرد العادي أيّ معنىً أو مغزى، ولا يجد فيها دافعاً للعمل والجهاد.

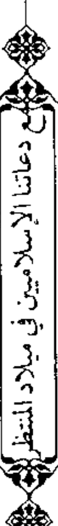
فإنَّ الفرد العادي لابدَّ أن يعطى نقداً بعض الضمانات لكي يُطمأَنَّ من عدم خروجه وتمرّده وزعزعة عقيدته، قائلاً: مالي أبيع نقداً بدَين، ومعجّلاً بمؤجّل.

وهكذا فعلت الدعوات الكافرة، فماذا يفعل الإسلام في هذا السبيل؟

كما أنَّ الدعوة الإسلاميّة لا يمكنها بحالٍ من الأحوال أن توفّر لمعتنقها إمكانيّة العمل السياسي الذي تتوق إليه نفوس الناشئة في عصرنا الحاضر؛ فإنَّ العمل السياسيّ بمعناه الإسلاميّ العميق لا يمكن أن يكون مجازاً في أيّ دولةٍ من دول العالم، بعد أن كان ثوريّاً صارماً يُريد قلب النظام من أساسه وتكوين دولةٍ على أنقاضه. فغاية ما يمكن ضمانه من العمل السياسيّ هو العمل السرّيّ الصامت، وهو ليس ممّا يمكن أن يقوم به كلّ أحدٍ أو أن يكون مستعدّاً لخوض غماره والمخاطرة بالأمن والحياة في سبيله.

٢. ومن الأُمور المهمّة التي ساعدت أيضاً على ضعف الحياة الإسلاميّة: الدراسة السطحيّة القليلة وغير الواعية للإسلام من نواحيه الاجتماعيّة والسياسيّة.

لنتبيّن وجهات نظره في الأُمور المستحدثة التي تحتاج إليها الدعوة الإسلاميّة حاجةً ملحّةً في مثل أيّامنا الحاضرة؛ فإنَّ الإسلام وإن كان في واقعه وحقيقته ذلك الواقع المحفوظ عند الله ورسوله، متكفّلاً لسعادة البشريّة ورقيّ الإنسانيّة في مدارج الكمال؛ إلّا أنَّ الفقه الحاصل في أيدينا يحتوي على جملةٍ كبيرةٍ من الأحكام الظاهريّة، وكثيراً من مناطق الاحتياط والإشكال، إلى



جانب أُمورٍ جوهريّةٍ متكثّرةٍ مهملةٍ عند الفقهاء وغير مدروسة ولا معروفة.

هذا بالإضافة إلى المعارف الجديدة والأساليب الحياتيّة المستحدثة التي هزّت العالم بعظمتها وعمق تأثيرها، كلّ ذلك ممّا لا يُعرف إلى حدّ الآن، وعلى وجه التحديد رأي الإسلام الصحيح المستقيم فيه، ولا الحلول الحكيمة الصائبة التي يضعها على كلّ واقعةٍ واقعةٍ في هذه الأيّام. وليس لدينا من كلّ ذلك إلّا أقلّ القليل ممّا لا يُسمن ولا يغني من جوع.

وعليه فلابدَّ لنا في سبيل صقل أفكارنا وبلورة عقيدتنا وإيضاح مفاهيمنا، من التصدّي إلى دراسة هذه الأُمور، وبحثها بجدٍّ وإخلاص، وبعمقٍ ودقّةٍ بالغين، عسى أن يوفّقنا الله عزّ وجلّ إلى الوصول إلى حكمه الواقعي الصحيح؛ لنستطيع في النهاية أن نقف بوجه التيّار الكافر الجارف، حاملين كتابنا المقدّس في يميننا، منادين بقوله عزّ من قائل: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

٣. وعلى هذا السبب يتفرّع السبب الثالث لضعف الدعوة الإسلاميّة: [و]هو الجمود الفكري عند الداعية الإسلامي بصفته داعيةً إسلاميّاً، أمام ما يتطلّبه مجتمعه الذي يعمل فيه من حنكةٍ وخبرةٍ ومن دراسةٍ وتعمّق؛ فإنَّ الداعية منّا لا يحمل بين جنبيه إلّا بعض الصور البرّاقة والمعاني المطّاطة الرجراجة، وبعض التعميمات والإطلاقات التي لا تُسمن ولا تغني من جوع، في سبيل السعي الفكري الإسلامي الحثيث، والتي تُشبه إلى حدٍّ كبير، تلك الدعايات التي تنطلق من أفواه العقائد الكافرة، من دون أن تحمل بين طيّاتها معنىً محدّداً أو قصداً معلوماً.

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

ولعلّنا ببساطة نستطيع أن نقول: إنَّه لا يحقّ لنا أن نتّهم الألفاظ الحديثة، كالديمقراطيّة والاشتراكيّة والحريّة مثلاً، بالغموض وعدم التحديد، إذا كانت كلماتنا وأُسلوب تفكيرنا أكثر غموضاً لدى الجمهور وأبعد عن أذهان الناس. فلئن رأى الناس بعض المظاهر للألفاظ الحديثة وسمع حولها كثيراً من التطبيل والتزمير، فإنَّ الألفاظ الإسلاميّة لا زالت مغمورةً بعيدةً عن الأنظار وغير محدّدة المفهوم إلى حدٍّ كبير، حتّى في أذهان الدعاة أنفسهم.

ومن هنا نرى لزاماً علينا أن ننظر إلى المسألة بجدٍّ وإخلاص، وبتعمّقٍ وتفكير، ولا يجوز لنا بحالٍ من الأحوال الاكتفاء بالتعميم والإطلاق الذي يكتفي به ذوو المبادئ الكافرة لأجل دفع الجمهور أمامهم، وسوقه تجاه أفكارهم؛ فليس الإسلام دين الله الخالد من هذا القبيل.

٤. ومن تلك الأسباب التي أدّت إلى ضعف الحياة الإسلاميّة: عدم النظام وفقدان المناهج المدروسة المنظّمة للدعوة والإرشاد، وللعمل الإسلامي المثمر؛ فإنَّ الغالب في العمل الإسلامي في مجتمعنا اليوم هو الاكتفاء بالعمل الفرديّ الضيّق، والعمل الفردي - كما هو معلوم- لن ينتج مهما أوتي من قوّةٍ وعزمٍ نتائجه المطلوبة، ولن يثمر تلك الثمار الإسلاميّة الجميلة المتوخّاة.

فإنَّ العمل الفردي لا يعدو أن يكون جهداً فكريّاً منفرداً وذراعاً عاملة ضعيفة، لا يمكن أن ينتج ما ينتجه التضامن من نتائج وآثار؛ فإنَّ للتضامن والتكاتف بين الأفراد وتلاقح العقول وتداول الأفكار، أثراً كبيراً في صقل المواهب وشحذ الهمم وزيادة الخبرة والتجربة، وتحصيل مزيدٍ من النضج الدقيق المستقيم في ميدان الفكر والعمل، وفي ميدان العقيدة والجهاد؛ لكي

يمكن عندئذٍ للحركة الإسلاميّة أن تدّعي لنفسها أنّها تستطيع مواجهة التيّارات الجارفة في مثل هذا الخضمّ المتلاطم من العقائد والأفكار، وأنّها تستطيع أن تشقّ طريقها بعزمٍ وقوّة، وأن تقود المجتمع إلى شاطئ السعادة والكمال.

فإنّه ممّا ينبغي أن نعرفه هو: أنَّ غاية جهد الفرد وفخره، وغاية ما يمكن أن يصبو إليه في الجهد ضمن عملٍ اجتماعيٍّ معيّن، هو أن يكون حجراً، هو أن يكون لبنةً واحدةً فقط في البناء الإسلامي الشامخ الشامل. ولن يستطيع الفرد مهما أُوتي من قوّة تفكيرٍ وتدبيرٍ أن يكون لبنتين أو أن ينقسم إلى شخصين.

وعليه فاللازم علينا أن نطبّق دراساتنا الفكريّة الإسلاميّة المعمّقة التي أكّدنا قبل قليل على ضرورة القيام بها، على المجال الاجتماعي العامّ؛ لكي نستطيع وضع الخطط المرسومة والمناهج المدروسة للأخذ بيد الحياة الإسلاميّة إلى المستقبل الأفضل.

إلّا أنّنا يجب أن نحذر كلّ الحذر، من هذا الداء الوبيل الذي أصبح ساري المفعول ضمن الحركة الإسلاميّة، وأعني به: التكتّل الحزبي والتعصّب الأعمى لوجهةٍ إسلاميّةٍ معيّنة والسعي باندفاعٍ شديدٍ إلى الحطّ من الجهات الإسلاميّة الأُخرى، وسلب الثقة عنها وتفتيت وحدتها وتهديم أعمالها.

ذلك الداء الوبيل، الذي يمثّل خطراً على الإسلام، ويُعتبر سبباً آخر في ضعف الحياة الإسلاميّة وبطء سير الدعوة إلى الإسلام.

ويمكن أن نلاحظ في هذا السبيل ما يلي:

أ) أنَّ التحزّب والتعصّب لغير نفس الدين الإسلامي، ولغير العقائد الإسلاميّة المقدّسة، ملغىً في شريعة الإسلام وغير مُعترف به من وجهة نظره الخاصّة؛ فإنَّ الإسلام نهى عن التعصّب لغير الحقّ، وعن الانسياق وراء

الظنون، وعن التفرقة والتناحر بين المسلمين، وجعل المقاييس الرئيسيّة للتفاضل بين الناس هي العلم والتقوى والجهاد، دون التعصّب الحزبيّ الضيّق.

ب) كما أنَّ التحزّب ضمن الدائرة الإسلاميّة ممّا يعدّد المشارب الإسلاميّة ويكثّرها، [و]ممّا يزيد الفرد العادي حيرةً ودهشةً في أتباع أيٍّ من هذه المشارب، والسير وراء أيٍّ من هذه المواكب؛ فإنَّه كفى للإسلام من الانشقاق والتفرّق ما قد حصل له منذ أيّامه الأُولى وإلى الآن، وإنَّه لفي غنىً - وأيّ غنىً - عن اختراع طرقٍ جديدةٍ ومنحنياتٍ مستحدثة داخل الإسلام، ممّا يزيد في الطين بلّة، ويُضعف الحياة الإسلاميّة ويُقوّي أعداء الإسلام على الجرأة عليه والنيل منه.

جـ) أنَّ الحياة الحزبيّة - كما رأينا بأعيننا في سنواتنا المتأخّرة - حياة تنازعٍ وتناحر، وحياة تنافرٍ في الأفكار، وتعارضٍ بالأعمال، بشكلٍ يبدّد الطمأنينة، ويذهب بالأمن والهدوء. فمن المؤسف جدّاً أن يقع مثل ذلك في حدود الإسلام المقدّسة، الطاهرة المطهّرة، رغم تعاليمه المؤكّدة بالإخاء والتعاون، ونصحه بالتعاطف والتراحم.

د) ومن هذا المنطلق نعلم أنَّ الحياة الحزبيّة تستلزم - فيما تحمل في جوهرها من معاني النضال الحزبي - طرح جملةٍ كبيرةٍ من تعاليم الإسلام وإرشاداته، كدعواتهم المتكرّرة إلى الأُخوّة في الله، والتعاطف والتراحم بين المسلمين، و[عدم] الوقوع في جملةٍ من المحرّمات الإسلاميّة، كالغيبة والكذب والنميمة وإيذاء المؤمن.

هـ) من هذا كلّه نعرف أنَّ الحياة الحزبيّة منافيةٌ للحياة الإسلاميّة ومضادّةٌ لها من عدّة جهات، فهي مفكّكةٌ لأوصالها، مسبّبةٌ للقيام بمحرّمات

عقيدتها، سالبةٌ للأمن والنظام من بين ربوعها.

وإنَّ خير دواءٍ لهذا الداء الوبيل، هو أن نُدرك بوضوحٍ: أنَّ هذا النظام الذي وضعناه، وهذا التفكير الذي صمّمناه، إنّما كان في سبيل الإسلام، وإنّما يصطبغ بالفخر والشرف؛ لأنّه سائر في هذا الطريق المقدّس.

إذن، فلا خصوصيّة له بنفسه، ولا ميزة له في حدّ ذاته، ولن نستطيع أن ندّعي لأنفسنا أنَّ نظامنا خير النظم، وأنَّ أفكارنا أقرب إلى الإسلام من باقي الأنظمة والأفكار.

وعليه فلا ينبغي أن نحبّ نظامنا لذاته، ونقدّره بحيال نفسه، ونتعصّب إليه وحده، بل إنَّ كلّ نظامٍ انبثق عن ضوء الإسلام، وكلّ فكرة دارت في فلكه، وكلّ عمل قُصد به وجهُ الله الكريم، هو مقدّرٌ ومشكورٌ، من أيِّ شخصٍ صدر، وفي أيِّ مستوىً كان.

وبهذا نعرف أنَّ الأساس الذي يجب أن يُؤمن به دعاتنا المسلمون لفهم الحياة وتقييم الأعمال وتقدير الأشخاص، إنّما هو المقياس الإسلامي الخالص، والقرب من الله دون أيّ قيمةٍ أُخرى شخصيّةٍ أو حزبيّة.

فإذا شعر الداعية بذلك، انحلّ المفهوم الحزبي من ذهنه انحلالاً تلقائيّاً، ولم يبقَ لديه من العمل الإسلامي إلّا التكتّل والتنظيم من دون [أن] يقترن بمساوئ الحزبيّة الضيّقة.

إذن، فالذي ينبغي أن نلاحظه بعد كلّ ذلك: أنَّ النظام الذي تفتقر الحياة الإسلاميّة إليه، وتتوقّف الدعوة الإسلاميّة عليه، ليس هو التحزّب والتعصّب، ولا هو السير الأعمى في الحلقة الحزبيّة المفرغة، وإنّما هو نظامٌ اجتماعيٌّ شامل، ينبثق من واقع الإسلام وواقع المسلمين، يتكاتف فيه الجميع

ويعملون إخوةً متضامنين، يربطهم الإسلام، ويشدّهم الجهاد في سبيل الله، والعمل إلى إحياء دينه، والدعوة إلى شريعته، على أُسسٍ مدروسة، وأفكارٍ محدّدة، وأعمالٍ منظّمة معلومةٍ؛ لكي يستطيعوا أن يسيروا رغم العقبات ورغم المشكلات، وأن يكسحوا عن طريقهم سائر العثرات، ولكي يرى الإسلام والمجتمع الإسلامي منهم الشيءَ الكثير، والخير الوفير.

وعندئذٍ، فلنبقى منتظرين لإمامنا الثاني عشر(عج)، ومترقّبين ظهوره السعيد بفارغ الصبر وقويّ الإيمان؛ لكي يملأ الأرض قسطاً كما ملئت جوراً، ولتعلوَ راية الإسلام خفّاقةً عالية، كما جاء بها الرسول العظيم(ص)، في بطاح جميع هذه الأرض الواسعة، ولتكون كلمة التوحيد هي الكلمة المسموعة في جميع أنحاء هذه المعمورة.

﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

محمّد الصدر



(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.



الشيعة والدعوة



الشيعة والدعوة

(١)

يتحصّل ممّا في لسان العرب عن لفظ (الشيعة): أنَّ الشيعة هم القوم الذي يجتمعون على الأمر، وكلّ قوم اجتمعوا على أمرٍ فهم شيعة، أو أنّهم أتباع الرجل وأنصاره. وأنَّ أصل الشيعة بالفرقة من الناس، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكّر والمؤنّث بلفظٍ واحد، ومعنىً واحد[١].

ولعلّنا نستطيع أن نستنتج من هذه التعاريف للفظنا هذا: أنَّ الشيعة هم القوم الذين يؤلّفون فيما بينهم وحدةً قلبيّةً وعقائديّةً تحت قيادة قائدٍ معيّن، يخلصون له ويطيعون أوامره.

وعلى هذه الصورة تنطبق التعاريف كلّها، فإنَّ مثل هؤلاء الناس مجتمعون على أمرٍ لا محالة، طبقاً للتعريف الأوّل. وهذا الأمر ليس إلّا عقيدتهم التي لها يعتنقون، وهدفهم الذي عنه يدافعون. وهم أيضاً أتباعٌ لهذا الرجل الذي يتولّى قيادتهم، طبقاً للتعريف الثاني. كما أنّهم يكونون فرقةً من الناس، طبقاً للتعريف الثالث، ولعلّ معنى الفرقة في المقام، هو ما يشابه معنى الحزب بالاصطلاح الحديث من قريبٍ أو بعيد.

وجمع الشيعة (شيع) والشيع على أُسلوبنا السابق: هي الجماعات التي تنتمي كلٌّ منها إلى قيادةٍ معيّنةٍ وعقيدةٍ خاصّة، بدون أن يربطها رابطٌ شعوريٌّ

(١) لسان العرب (لابن منظور) المجلّد الثامن: ١٨٨ - ١٨٩ (منهقُدِّسَ سِرُّهُ).



خاصّ، أو على الأقلّ بدون الإحساس بوجود الرباط الجامع بينهم؛ وذلك نحو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾[1]، كلّ فرقةٍ تكفّر الفرقة المخالفة لها[2].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾[3]، بمعنى: يجعلكم فرقاً مختلفين[4].

ويسود بين الشيع عادةً النضال الذهني والعملي ضدّ بعضها البعض، كما هو المستفاد من الآيتين أيضاً؛ وذلك لأنّ من العناصر الأساسيّة لتكوّن الجماعة وشعورها بنفسها كفرقةٍ ذات كيانٍ خاصٍّ وقائدٍ معيّن، هو أن يتّصف أفرادها بالشعور بالعصبيّة لما في هذه الجماعة من عقائد وأفكار، ولمَن يتولّى أمرها من قوّادٍ ورجال، وذلك في قبال الشيع والجماعات الأُخرى، وهو المسمّى في علم الاجتماع بـ(الشعور بنحن)[5]، بمعنى: أنّ الجماعة تشعر أنّ لها كياناً مستقلاً وشخصيّةً متميّزةً ينبغي أن تحبّها وأن تخلص إليها، كما ينبغي أن تطرد عنها كلّ غريبٍ ودخيل.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٢.

(٢) [راجع] لسان العرب (لابن منظور): المجلّد الثامن: ١٨٨-١٨٩ (منهﷺ).

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦٥.

(٤) [راجع] لسان العرب، المجلّد الثامن: ١٨٨-١٨٩ (منهﷺ).

(٥) والذي يتّخذ الـ(نحن) كياناً مستقلاً عن كيانات أفراده، وتتلبّسه صفات وخصائص لا يتّصف بها آحاد أفراده، ولأهمّيّة هذه الخصائص نشأ علم نفس الجماعة، أو الجمهور أو القطيع. ومن أبرز مَن كتب في هذا المجال: غوستاف لوبون في كتاب (روح الجماعات) أو (سيكولوجيّة الجماهير) وسيجموند فرويد في (علم نفس الجماهير).

ومن لوازم هذا الشعور هو الشعور بأنَّ هذا الفرد منّا وذاك من غيرنـا. وعلى هذا الأساس تتبلور عاطفة معيّنـة للتقيـيم والحـبّ والـبغض وإصـدار الأحكام المعيّنة على الرجال والأعمال وعلى كلِّ جزئيٍّ من جزئيّات الحياة.

وهذا شيءٌ نابعٌ من الطبيعة البـشريّة، ولعلّـه ناشـئٌ مـن غريـزة حـبّ الذات بالخصوص، على اعتبار أنَّ الجماعة إنَّما تمثّل أفرادها، والأفراد كما يحبّون أنفسهم يحبّون أفكارهم واتّجاهاتهم وأعمالهم، ويـرون وجـوب التعـصّب لهـا والذبّ عنها.

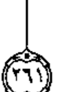
وبهذا نعرف أنَّ هذا أمر أساسيٌّ لا يمكن التخلّي عنـه إلَّا بعـد تـرويضٍ للنفس وبعد جهدٍ عصبيٍّ عظيم.



وهو أمر ممقوتٌ في الذوق الإنساني، وملغىً في الشريعة الإسـلاميّة، إلَّا ما كان تعصباً للحقّ والحقّ وحـده. وأمّـا مـا سـوى ذلـك مـن الاعتبـارات، فينبغي إسقاطها من الحساب وإلغاؤها من صفحة النفس البشريّة؛ فـإنَّ الحـقّ كما قد يقتضي التعصّب لـه، قـد يقتـضي أيـضاً عـدم التعـصّب والملاينـة مـع الآخرين.

ولعلّنا نستطيع أن نزيد على ما سبق: أنَّ التعصّب هو الذي يصنع الشيع والجماعات؛ إذ يشقّ الوحدات المتماسكة الرصينة التي تتّصف بها؛ وذلـك لأنَّ سبب نشأة الجماعة المعيّنة ذات الفكرة السياسيّة أو الدينيّة أو غير ذلك، إنَّما هو لأجل ترابطها حول هدفٍ معيّن، وتكاتفها من أجل فكرةٍ معيّنة.

فإذا اتّفق أن وصلت الفكرة إلى حيّز التحقيق، ووُجد الهدف المشترك في الخارج، فإنَّ هذه الجماعة – حتماً، وبقانون الطبيعة البشريّة – تعود فتنشقّ حول نفسها وتكوّن أكثر مِن جماعةٍ وفرقـة، تتعـصّب كـلٌّ منهـا لرأيهـا وتـدعو إلى



نفسها؛ وذلك لأنَّ سير تلك الجماعة المتّحدة قبل الانشقاق إلى الهدف إنّما كـان باعتبار أخذ ذلك الهدف بنظر الاعتبار، ومن الطبيعي أن تكون كلّ فرقةٍ من أفراد هذه الجماعة تنظر إلى الهدف بمنظارٍ غير المنظار الذي ينظر الأفراد الآخـرون مـن خلاله، وتتمثّله في ذهنها بشكلٍ يختلف بقليلٍ أو كثيرٍ عن الأفراد الأُخرى.

وبذلك تتكوّن في الجماعة الواحدة أفكارٌ متعدّدةٌ عـن هـدفها المـشترك، فإذا اتّفق أن وصلت الجماعة إلى هدفها المأمول، مالت كلّ فرقةٍ من الأفراد إلى تطبيق الهدف، كما تمثّلوه وكما تشوّقوا إليه في خلال عملهم الطويل، ومـن ثَـمَّ يقع الخلاف بينهم، ويشقّ التعصّب عصا وحدتهم.

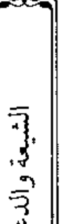
(٢)

ولعلّنا إذ ننظر إلى لفظ (الشيعة) بمعناه الاصطلاحي المستعمل اليـوم، نجد فيه هذه الظلال جميعاً، فإنَّ مـذهب الـشيعة يتميّـز بـالإخلاص الخـاصّ لشخصٍ معيّن، هو الإمام أمير المـؤمنينعليه السلام، بـضميمة الأئمّـة الهـداة أولاده الأحد عشرعليهم السلام. كما أنَّ هذا المذهب يشكّل فرقـةً مـن النـاس ويحمـل فكـرةً معيّنة، ويسعى نحو هدفٍ معيّن، وهذا من ناحيـة تطبيـق التعـاريف اللغويّـة السالفة الذكر.

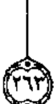
كما أنّنا إذا أمعنّا النظر نجد أنَّ فكرة الشيعة، كحزبٍ سياسيّ وكمذهبٍ دينيّ معيّن، نشأ كما تنشأ سائر الأحزاب والأفكـار في العـالم، بالقـانون الـذي شرحناه قبل قليل، فإنَّ الإسلام هو الذي كان يشدّ جميع المسلمين ويربط بـين قلوبهم، وكان هو القاسم المشترك الأعظم بينهم والهدف الأكبر لهـم، وذلـك في خلال الفترة التي تولّى فيها الرسول الأعظمصلى الله عليه وآله قيادة العـالم الإسـلامي،

إلّا أنّ الجماعة الإسلاميّة كانت تحمل بين جنبيها - طبقاً للقانون البشريّ العامّ- أفراداً وجماعاتٍ يتصوّر كلّ منها الهدف الإسلامي على الشكل الذي يتقبّله ضميره وينسجم مع نفسه وعقله. فكان من الطبيعي أن تنشقّ هذه الجماعة التي كانت متّحدةً في شخص النبي الكريمﷺ بعد وفاته إلى أحزاب، وأن تحمل كلّ جماعةٍ معنى معيّناً وفكرة خاصّة، يحتمل في كلٍّ منها (الشعور بنحن) على أشدّه، بحيث تراق من أجله الدماء وتزهق النفوس.

وكان أحد أفراد الجماعة الإسلاميّة العاملين فيها، وممن لهم في نصرة دين الله القويم أكبر البلاء وأحسن الجهاد، هو أمير المؤمنينعليه السلام. وقد كان صلوات الله عليه يحمل في ذهنه فكرةً معيّنةً عن المستقبل الإسلامي الذي ينبغي أن يكون عليه بعد وفاة الرسولﷺ.



وتتلخّص تلك الفكرة في أن يتولّى هو بنفسه الخلافة بعدهﷺ، وأن تكون الإمامة في أولادهعليهم السلام. ولم يكن هذا الشعور قد نشأ جزافاً واعتباطاً، أو عن طمعٍ في جاهٍ أو مال، فلقد كان هو الزاهد في حطام الدنيا حتّى بعد تولّيه الفعلي للخلافة. وإنّما كان لهذا الشعور مناشئُ عميقةٌ تتّصل بالتاريخ الطويل الذي قضاه مع رسوله اللهﷺ، فهو الذي ربّاه الرسول الأعظمﷺ منذ نعومة أظفاره ولا زال يتعهّده بالرعاية والتعليم[1]، وهو الذي أجابه إلى الحقّ حين دعا عشيرته الأقربين[2]، وهو الذي حماه بنفسه في فراشه ليلة الهجرة وجاهد تحت قيادته في جميع غزواته على نحو التقريب، وهو الذي لولا سيفه



(١) راجع كشف الغمّة (للإربلي) ١: ٦٢، في كيفيّة ولادة أمير المؤمنينعليه السلام، وبحار الأنوار ٣٥: ٩، في يوم ولادة أمير المؤمنينعليه السلام ...، الحديث ١١.

(٢) راجع كشف الغمّة (للإربلي) ١: ٧٧ وما بعدها، وبحار الأنوار ٤٨: ٢٧٠.

وعلمه لما كادت أن تقوم للإسلام قائمة[1].

بالإضافة إلى النصوص الكثيرة التي قالها النبيّ صلى الله عليه وآله في شأنه تعظيماً لأمره، وتعريفاً للمسلمين عظيم قدره[2]، وبالإضافة إلى النصوص على استخلافه بعده وجعله أميراً للمؤمنين ووصيّاً لرسول ربّ العالمين، وبخاصّة في حجّة الوداع يوم الغدير[3].

وعلى كلِّ حال، فلقد كان متشوّقاً هو مع بعض أصحابه إلى أن يكون هو الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان يرى أنَّ هذا هو الحقّ الذي لا ريب فيه، والذي ينبغي أن يذبّ عنه ويدافع في سبيله بالنفس والنفيس.

وعن هذا الطريق كوّن أمير المؤمنين عليه السلام جماعةً إسلاميّة، سمّيت بعد ذلك بالشيعة، وعلى هذا الأساس أخذت هذه الجماعة صبغتها السياسيّة الفكريّة المذهبيّة الخاصّة منذ ذلك الحين، وأصبحت كسائر الجماعات يُتعصّب لها ويُتعصّب ضدّها، طبقاً للقانون البشريّ العامّ.

(٣)

إلَّا أنَّ الذي ينبغي أن يقال – ونحن في القرن العشرين، عصر الذرّة والصواريخ، وعصر ما هو أهمّ وأعمق، وهو الوعي الذهني والتنوّر الفكري

---

(١) راجع في ذلك كشف الغمّة ١: ١٨، ومناقب آل أبي طالب (لابن شهر آشوب) ٢: ١٢٨، فصل في معجزاته عليه السلام.

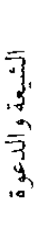
(٢) راجع تفصيل ذلك في خصائص الأئمة (للشريف الرضي): ٣٩، وما بعدها.

(٣) راجع الكافي ١: ١٩٩، كتاب الحجّة، باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته، الحديث ١، ودعائم الإسلام ١: ١٦، ذكر ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وأمالي الصدوق: ٤٣٢، الحديث ٣.

الثقافي-: إنَّ التكتيك السابق للمسلمين في القرون السالفة، من التحزّب والتعصّب والنضال الفكري والعملي فيما بينهم، قد أثبتت التجارب فشله الذريع في خدمة الدين الإسلامي، وفي خدمة أيّ مذهبٍ من المذاهب الإسلاميّة؛ حيث قد ثبت بالبرهان الحسّي القاطع، ما عاد به على الإسلام من شرٍّ وخسران، وعلى المسلمين من ضعفٍ وتحلّلٍ وتفرّقِ صفوفٍ وانشقاقِ آراء، وما عاد به على أعداء الإسلام من سيطرةٍ على المسلمين، ومن تمكينٍ في ابتلاع بلادهم لقمةً شهيّةً سائغة.

فما هذا الاستعمار الذي نراه بشقّيه الشرقي والغربي، وما هذا الغزو الفكريّ الذي نستعرض ظواهره بألمٍ وحسرةٍ أطراف النهار وآناء الليل، بشكليه الأسود والأحمر، وما هذا الانحلال الفكريّ والفراغ العقائديّ الإسلامي لدى الغالبيّة العظمى في بلاد الإسلام، وبخاصّة في ناشئتنا الجديدة التي تتولّاها بالتربية والتثقيف برامجُ معيّنةٌ وأفكارٌ مدروسة، صُمّمت خصّيصاً للإبعاد عن الدين وإيحاء المادّيّة في ذهن الإنسان، وجعل هذه الحياة الدنيا هي الأمل الأوّل والأخير لعقل الإنسان وضميره، وإظهار الدين وكأنّه ليس له في الأُمور العامّة والمشكلات الاجتماعيّة الأساسيّة رأيٌ ولا وجهة نظر...

كلّ ذلك وكثيرٌ غير ذلك، ليس إلّا نتيجةً طبيعيّةً بسيطةً للتفرّق بين المسلمين وعدم وحدتهم وتضامنهم، وعدم وجود الشعور الحسّاس بالرابطة الإسلاميّة المقدّسة فيما بينهم، وعدم شعورهم بالمسؤوليّة كأُمّة لها عقيدتها وفكرتها وفلسفتها عن الكون والحياة، وعليها تبعاتٌ وواجباتٌ من أجل ذلك، وعليها أن تتضامن فيما بينها وتنظّم نفسها في هذا السبيل.





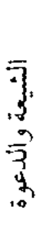
إلَّا أنَّه من هذا المنطلق، وبعد الشعور المؤلم بالنقص وبوجوب السعي إلى إكماله ورتقه، ساد بين الدعاة الإسلاميّين، في أيّامنا المتأخّرة، نوعٌ من الوحدة في التفكير الإسلامي المشترك، حيث شعر الدعاة الإسلاميّون - وفقّهم الله تعالى لما يحبّ ويرضى- بالخطر المحدق حولهم، وبالمشكلة الكبرى التي تستوعب كيان أُمّتهم، وشعروا بأنَّها لا يمكن أن تحلّ إلَّا بالتسامي عن الأحقاد القديمة والعداوات التقليديّة اللاشعوريّة، والصعود إلى قمّةٍ إسلاميّةٍ عليا، وتكوين نسيجٍ إسلاميٍّ فكريٍّ جديد؛ ليستطيعوا أن يحطّموا على صخرته سائر المشاكل، ويدفعوا به جميع الأخطار.

وهذا النسيج الإسلامي المشترك الجديد، هو وحده الكفيل بحلِّ المشكلة وتذليل العقبات ضدّ أعداء الإسلام، وفي داخل المجموعة الإسلاميّة أيضاً؛ فإنَّ هذه الجبهة العريضة من التفكير الإسلامي البنّاء، لن تقف فقط أمام التيّارات الإلحاديّة، ولن تملأ الفراغ العقائدي السائد فحسب، بل إنَّها - إلى جانب ذلك- تُشعر المسلمين من سائر المذاهب بأنَّ بينهم نقاط اجتماعٍ كبرى، يستطيعون أن ينطلقوا منها متضامنين متكاتفين إلى حيث يحبّون من المذاهب والمنطلقات.

وتُشعرهم أيضاً بأنَّ هذه النقاط هي أكبر بكثيرٍ من نقاط الخلاف؛ لأنَّها تمثّل الإسلام بشكله العامّ الشامل الذي يتّفق عليه سائر المسلمين، في حين لا تمثّل مواطن الخلاف إلَّا أفكاراً مذهبيّة معيّنة؛ ويكفي على ذلك دليلاً أنَّ هذه الأفكار هي التي تقف أمام التيّار المادّي الإلحادي دون الأفكار المذهبيّة الضيّقة. كما أنَّ مثل هذه الأفكار الإسلاميّة تُشعر الدعاة الإسلاميّين بنحوٍ من الوئام العقائدي والتعاطف الفكري؛ حيث يشعر الداعية، أنَّ الداعية الآخر

إنّما كتب هذا وإنّما تبنّى وجهة النظر هذه؛ لأنّه يعتقد أنّها تمثّل رأي الإسلام، ولو اعتقد خلاف ذلك لرفضها أو صحّحها. وبهذا يكون الإسلام هو المحور الأساسي الذي تقوم عليه أبحاثهم وتنطلق منه أفكارهم، وكفى به محوراً مقدّساً ووحدةً متماسكةً خالدة.

إلّا أنَّ الذي ينبغي أن يُقال - توخّياً للنقد الموضوعي البنّاء-: أنَّ الأفكار الإسلاميّة التي يتبنّاها الدعاة الإسلاميّون اليوم، لا زالت في مرحلةٍ إسلاميّةٍ بدائية، لم تخطُ على الطريق الصاعدة إلّا بضع خطواتٍ يسيرة، وأنَّ عليها من الجهد والتعب ومن التضحية والبذل أضعاف ما ضحّت وما تعبت، لكي تستطيع أن تبلغ إلى هدفها الإسلامي الأعلى؛ فإنَّ هناك الكثير والكثير جدّاً من الأفكار الإسلاميّة التي لا زالت مطمورةً في بطون الكتب وفي أذهان الفقهاء الاختصاصيّين، لم ترَ النور لحدّ الآن، ولم يطّلع على نفائسها الرأي العامّ، في حين إنَّ لها الأثر الكبير - لو نشرت من طيّ الكتمان- في تطوير الأفكار الإسلاميّة، والأخذ بيد الحياة الإسلاميّة إلى المستقبل الأفضل.



ولعلّ السرّ في بقاء هذه الأفكار في طيّ الكتب والطوامير، هو هذا الاحتكاك الذي حصل بين الأفكار الوافدة وبين المجتمع الإسلامي، ممّا دعا الدعاة الإسلاميّين إلى إبراز قسمٍ من الأفكار الإسلاميّة إلى النور؛ ممّا يساعد على الوقوف في وجه التيّار المادّي الجارف، وبقي القسم الآخر في الظلام.

إلّا أنّه ينبغي أن يكون في علم الدعاة الإسلاميّين: أنَّ هذا المقدار من الأفكار الإسلاميّة وإن استطاع الوقوف ضدّ الإلحاد والدفاع عن بيضة الإسلام، وحفظ للمسلمين عقائدهم الرئيسية، إلّا أنّنا ينبغي ألّا نكتفي بالدفاع، ولا نقتصر على حفظ أُصول الإسلام، فإنَّ الدفاع ليس إلّا مجرّد



مرحلةٍ من مراحل العمل الإسلامي الطويل.

فإنَّ علينا – إلى جنب ذلك- أن نعمل في سبيل الحياة الإسلاميّة، وأن نُفهم الجمهور حقيقة قوانين الإسلام الخالدة بتفاصيلها وصغريات موادّها، على أن نُحسن الانتقاء والترتيب، لعلّنا بذلك نضمن توجّههم نحو الإسلام وتركهم ما يسوّل لهم الشيطان.

إنَّ هذا العمل المنشود لا يمكن أن يتمّ بالدفاع عن أُصول الإسلام فحسب، وإنَّما هو عملٌ جبّارٌ يقتضي تجنيد طاقاتٍ هائلةٍ وخبراتٍ واسعةٍ وتضامنٍ وتعاون، وتوفيقٍ من الله العليّ العظيم.

فإلى العمل أيُّها الدعاة الإسلاميّون، والله الموفّق للمخلصين.



فكرة عن المعاد

فكرة عن المعاد[1]

(١)

يعيش الناس على هذه الأرض يبتلعهم ليل؛ إذ يلفظهم نهار، ويحتضنهم دار؛ إذ ينبو بهم مكان.

يتحرّكون ويتصرّفون في جوّ هذه الحياة بجدٍّ ونشاطٍ لا يعرفان السأم والملل، وبشعلة حماسٍ شديدٍ لا يعرف الانطفاء، يتكيّفون للحياة مع مقتضياتها ويستجيبون لمؤثّراتها.

يزرع أحدنا في هذه الحياة آماله وآلامه، ويتعهّدها بأتعابه وجهوده، ويسقيها بقطرات عرقه المتساقطة؛ لكي يستطيع أن يجني منها بعض الثمرات، حتّى يستطيع أن يسعد في يومٍ مّا، وأن يطمئنّ، وأن ينام ليلته مرتاح البال وادع الضمير. إلّا أنَّ الغاية تهرب كلّما اقتربنا منها، وتطفو بعيداً كلّما حاولنا إمساكها. والسعيد منّا مَن أسرعت ثمرات جهوده إلى النضوج، وجاءت لذيذة الطعم جميلة المنظر.



ونحن خلال ذلك نتصرّف ما استطعنا أن نتصرّف، ونكافح ونعمل ما شاءت لنا آمالنا ومصالحنا العمل والكفاح.

إلّا أنّنا خلال هذه الحياة، وخلال قيامنا بهذه التصرّفات والأعمال، لا نستطيع أن نقيّم العمل، وأن نضع الفعل موضعه الصحيح؛ فإنّنا إنّما نقوم بالأعمال لأجل مقتضيات الحياة الآنيّة، وليس منها – في أغلب الأحيان– ما يمكن أن



---

(١) [تاريخ كتابة البحث] السبت: ٢٤/ ٣/ ١٣٨٣ = ١٤/ ٩/ ١٩٦٣ (منه قدس سره).

يحمله هذا الفعل من قيمةٍ واقعيّةٍ وتأريخيّة. فإنّنا حين نعيش في هذه الحياة ونتصرّف خلالها، إنّما نعيش عيش تنفيذٍ لا عيش تقييم، عيش متصرّفٍ لا عيش مشرف، عيش منهمكٍ بالعمل لا عيش مراقبٍ له مدركٍ لنقاط الضعف والقوّة فيه.

فإنّنا إذ نجد أحد مقتضيات الحياة قد أصبح فعليّاً قائماً بين يدينا يطلب استجابتنا له بقسوة وإلحاح، فإنّنا نسرع بالاستجابة لداعيه، بدون رويّةٍ وتفكير، إلّا ما كان في نفس العمل وطريقة التنفيذ، من دون أن نُدخل في حسابنا ما يمكن أن يترتّب عليه من نتائج خطيرةٍ في المدى البعيد، وكأنّ حسبنا من القيام بهذا العمل أن يكون مقتضيه والداعي إليه أمراً حياتيّاً نابعاً من ذاتها، منبثقاً عن صميم واقعها؟

إلّا أنّ هذا العمل بمجرّد أن يولد على أيدينا إلى عالم الوجود، يولد حاملاً معه قيماً متعدّدة، قيمته بالنسبة إلى تقاليد المجتمع وأعرافه، وقيمته بالنسبة إلى وجهات نظر الآخرين وآرائهم، وقيمته بالنسبة إلى المؤرّخين والمترجمين والناقدين، وقيمته - وهي الأهمّ من جميع القيم السابقة- بالنسبة إلى الواقع العقلي الإلهي.

ومن ثَمَّ كان العمل بمجرّد ميلاده مورداً للنقد والتقييم، يوجّه إليه المدح والقدح، ويكون صاحبه مسؤولاً عن ارتكابه، مجزيّاً عليه إمّا بالشكر والإحسان وإمّا الذمّ والخسران. ومن ثَمَّ قيل: إنَّ العمل قبل وجوده ملك صاحبه، وبعد صدوره ملك الآخرين[1].

---

(١) ورد قريب منه عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «الكلام في وثاقك ما لم تتكلّم به، فإذا تكلّمت به صرت في وثاقه، فأخزن لسانك كما تخزن ذهبك وورقك، فربّ كلمةٍ سلبت نعمة وجلبت نقمة». نهج البلاغة (شرح محمّد عبده) ٤: ٩١، حكمة ٣٨١.

ولكن الفعل قبل ميلاده عند اقتضاء أحداث الحياة له، يصعب على صاحبه تقييمه صعوبةً بالغة، بل قد يدخل في بعض الموارد في عداد المستحيل.

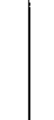
ولعلّ ابن الرومي أشار لبعض هذه الموارد حين قال[1]:

ألا مَن يريني غايتي قبل مذهبي ... وكيف إذ الغايات بعد المذاهب

ومن ثَمَّ كان التنبّه إلى قيمته على وجهها الموضوعي الصحيح لا يحصل إلّا لعقلاء البشر الذين وُفّقوا إلى ذلك توفيقاً خاصّاً.

ولعلّ منشأ هذه الصعوبة، هو كون الفعل مرتبطاً بالمقتضي الحياتي الذي يتطلّبه، وهذا المقتضي عبارة عن مجموعة من الملابسات النفسيّة والاجتماعيّة التي تحيط بالفرد، ولمّا كان الفرد مندمجاً مع هذه الملابسات ومنهكاً في التكيّف على حسب مقتضياتها، ولمّا كان الفعل هو ابن تلك الملابسات، كان من الصعب على غير النظر الموضوعي الخالص أن يسلخه من ملابساته وأن ينظر إليه مجرّداً، كفعلٍ صادرٍ عن تلك الملابسات؛ ليعرف حينئذٍ قيمته الحقيقيّة.

ولعلّ من عوامل الصعوبة أيضاً: أنَّ العمل لم يوجد بعد، ومن ثَمَّ لم تتّضح على وجه التحديد ارتباطاته الخاصّة بما حوله من الأحداث، فإنَّ لهذه الارتباطات وللنتائج التي تترتّب على العمل أثراً في تقييمه، وذلك ما لم تتّضح معالمه بعد.



ولكن العمل بعد صدوره يكون ماثلاً أمام أعين الناظرين قابلاً للنقد والتقييم، يستطيع أن يقوم به الآخرون، كما يستطيع أن يقوم به صاحبه بالذات.

---

(١) أُنظر: زهر الآداب وثمر الألباب ٢: ٦١٣، من شعر ابن الرومي.

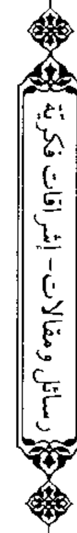
(٢)

وهذا بنفسه تماماً هو الذي يحدث في المعاد؛ فإنَّ الإنسان هناك - حين تعرض عليه أعماله أمام القضاء الإلهي العادل- يضطرّ أن يتقمّص ثوب الفاحص لها، الباحث عن قيمتها الحقيقيّة الواقعيّة.

عندئذٍ، وفي تلك اللحظة الرهيبة، يضطرّ أن يواجه أعماله بموضوعيّةٍ تامّة، فها هي أفعاله تُعرض عليه كما قد قام بها في الدنيا، وإنَّه ليعترف أنَّها هي بعينها لم تحرّف أو تغيّر. إلَّا أنّه سوف يجد أنَّ تلك الأهمّيّة البالغة التي أضفاها عليها حين عملها قد تلاشت، وأنَّ تلك المقتضيات الحياتيّة الآنيّة قد تصرّمت، وأنَّ النتائج الدنيويّة التي حصل عليها من وراء هذه الأفعال قد تبخّرت، ولم يبق لديه إلَّا الفعل نفسه، مسؤولاً عن جميع خصائصه وشؤونه.

والأساس الذي يستطيع تقييم الفعل بموجبه يوم المعاد ليس هو الأعراف والتقاليد الاجتماعيّة، وليس هو وجهات نظر الآخرين وطرق تفكيرهم، وإنَّما يقيّم الفعل على أساس القيمة الواقعيّة الإلهيّة.

فإن كان الفرد معترفاً به في دار الدنيا، وعند إصدار الفعل على وجه الخصوص، أُلزم به وحُوسب على أساسه، إلَّا أنَّ تقييمه للفعل هناك وإن كان على نفس الأساس الذي كان يعترف به في الدنيا، إلَّا أنَّه مع ذلك سوف يكون أكثر موضوعيّةً ودقّةً في التقييم؛ فإنَّ هذه الدنيا بصفتها المادّية تقيّد أُفق الإنسان في إطارها المادّي الضيّق، وتفرض عليه قوانينها المادّية الصارمة. ومن آثار ذلك على الفرد - فيما يخصّ المقام- الميل إلى تبرير عمل السوء بحجّة أنّه صدر تحت ظروف معيّنة يرى أنَّها كافيةٌ في أن تكون له عذراً مقبولاً في ارتكاب الفعل، ومنها ما يسمّى في الإسلام بـ (طول الأمل)، أي: أنَّ الفرد لا



يتوقّع الموت بين عشيّةٍ وضحاها، وإنّما يتوقّع أن يبقى في الحياة عشراتٍ أُخرى من السنين على أقلّ تقدير، ومن ثَمَّ فهو لا يسارع إلى التوبة والاستغفار عن عمله، مسوّفاً ذلك إلى غدٍ فبعد غد، حتّى ينساه ويُحشر في المعاد أمام الله عزّ وجلّ ولم يتب بعدُ عنه.

ومنها تضخيم الحسنات والمآثر وإضفاء ثوبٍ من الغرور والعجب عليها.

ومن شأن هذه الملابسات المادّية وأمثالها: أن تخفّف من تقييم الجريمة والحكم الصارم عليها، وتقنع ضمير الفرد، بعض الشيء، بأنّه لم يعمل عملاً فضيعاً، إلّا أنَّ هذه الاعتبارات المادّية سوف تتلاشى عند الالتقاء بالحقيقة وجهاً لوجه، وسوف يرى أنّه كان مخطئاً عند خلقه لتلك المبرّرات، وأنَّ تلك المبرّرات لم تكن سوى آثار الأُفق المادّي على ذهنه وطريقة تفكيره. وسوف يرى أنَّ الأساس الذي يعترف به، وهو الأساس الواقعي الإلهي لتقييم الأفعال، هو الأساس الأوّلي الأصيل للتقييم، وهو أعمق وأعظم من أن تؤثّر على كفّتي ميزانه الاعتبارات المادّية الضيّقة، بالإضافة إلى أنّه قد نُبّه من قبل دينه الحنيف على ذلك ونُصح بعدم وضع الأهمّية على تلك الأُسس المادّيّة البحتة.

عندئذٍ يأتي دور الضمير، فيتقدّم للحكم على الأعمال بتلك الموضوعيّة الصارمة، ويقع الفرد تحت طائلٍ كبيرٍ من تأنيب الضمير، وتحت طائل حالةٍ نفسيّةٍ أُخرى قد لا تكون أقلّ أثراً في تعذيب الفرد من تأنيب الضمير، هي الحياء من خالقه العليّ العظيم؛ إذ عصى أوامره ونواهيه وزاغ عن إرشاداته وتعاليمه.

ومن ثَمَّ فهو يقع تحت طائلٍ عنيفٍ من العذاب النفسي الحادّ، وهل هناك عذابٌ كعذاب النفس حين تتمرّد، وحين يبدو لها أن تقضّ مضجع صاحبها وتزلزل كيانه، بالإضافة إلى ما أعدّه الله من العقاب على هذا الارتكاب، وخوفه منه وألمه من شدّته. ولا يبقى لدى الفرد إلّا الرجاء بفيض الرحمة من الله الرحمن الرحيم.

(٣)

وأمّا إذا لم يكن يؤمن بالأساس الواقعي الإلهي لتقييم الأفعال في دار الدنيا، ولم يكن يقيم عليه موازين أعماله وأعمال الآخرين؛ فإنّه هناك لن يستطيع أن يتّحد في وجهة نظره مع ما يقتضيه العدل الإلهي في التقييم وفي نتيجة التقييم؛ لأنّه كان يُؤمن بأُسس أُخرى غير القيمة الواقعيّة الإلهيّة التي يقيم عليها العدل الإلهي موازينه.

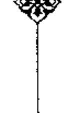
ولكنّه مع ذلك يُلزم بالقيمة الإلهيّة إلزاماً؛ وذلك أنّه كان يجب عليه أن يُؤمن بها في دار الدنيا، فإنَّ الحجّة الإلهيّة كانت قائمةً، والإلزام الديني كان نافذ المفعول، وكان في الحياة بسطةٌ من الوقت؛ لكي يُؤمن ويتوجّه إلى الله بعملٍ صالحٍ وقلبٍ سليم.

ولّما كانت القيمة الواقعيّة الإلهيّة تقوم على أساس إدراك العقل للحسن والقبح والظلم والعدل من ناحية، وعلى أساس الأوامر الدينيّة الإسلاميّة التي كان دليل صدقها وحكمتها وصواب نظرها قائماً وملزماً له في الدار الدنيا، فهو حينئذٍ يقاد على أساس هذه القيمة الإلهيّة إلى ميزان العدل الإلهي.

وكيف بهذا الفرد وهو واقفٌ أمام العدل الإلهي لكي يقتصّ منه؟ وهو على يقين أنَّ أعماله لن تكون إلّا أصفاراً متتالية؛ إذا عرضت على القيمة

الواقعيّة الإلهيّة؛ فإنَّ أفعاله في الأعمّ الأغلب لم تكن سوى أُمورٍ سطحيّةٍ وأعمالٍ عشوائيّة، غير ذات هدفٍ ولا غاية، وإنّما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمقتضيات الحياة الآنيّة التي كانت تتطلّبها الملابسات الواقعيّة عندئذٍ، وكانت في كثيرٍ من الأحيان أو بعضها جرائم وذنوباً يعترف هو بها أو يعلم أنّها كذلك إذا قيست بالقيمة الواقعيّة الإلهيّة.

وعلى كلِّ حال، فهو لم يخطر بباله في دار الدنيا أن يجعل هذه القيمة العليا أمام عينيه في أيِّ تصرّفٍ من تصرّفاته أو أيّ عملٍ من أعماله. إذن فليس له في مقامه هذا أمام ميزان العدل الإلهي إلّا الوبال والخسران.



حينئذٍ يفكر الفرد فيغرق في التفكير، كم كانت تلك الحياة جميلةً ولذيذة، وكم كان على خطأٍ عندما كان يراها قاسيةً عليه أو يتضجّر من بعض تقلّباتها. ليته كان قد قضى جميع حياته في أعمالٍ صالحات، وليته تجنّب الذنوب والموبقات، وليته أطاع أوامر الله ونواهيه، إذن لكان في هذا الموقف من السعداء، ولكان مرتاحاً في الدار الدنيا وفي الآخرة. ولكن هذه ساعة لا ينفع فيها التفكير بعد أن انغلق باب الأمل والعمل.



وفجأة تخطر في ذهنه فكرة، تكون لحالته تلك بارقةٌ جميلةٌ من أمل، وباباً جديدةً لعالمٍ سعيد، إنّه ليفكّر لماذا لا يعرض تمنّياته هذه أمام الله عزّ وجلّ ويدعوه بها، لعلّه أن يستجيب له وينفّذ مطالبه، وتخرج الفكرة إلى حيّز التنفيذ، ويخرج الصوت ممزوجاً بالخوف والحسرة وبالألم والأمل: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾[1].

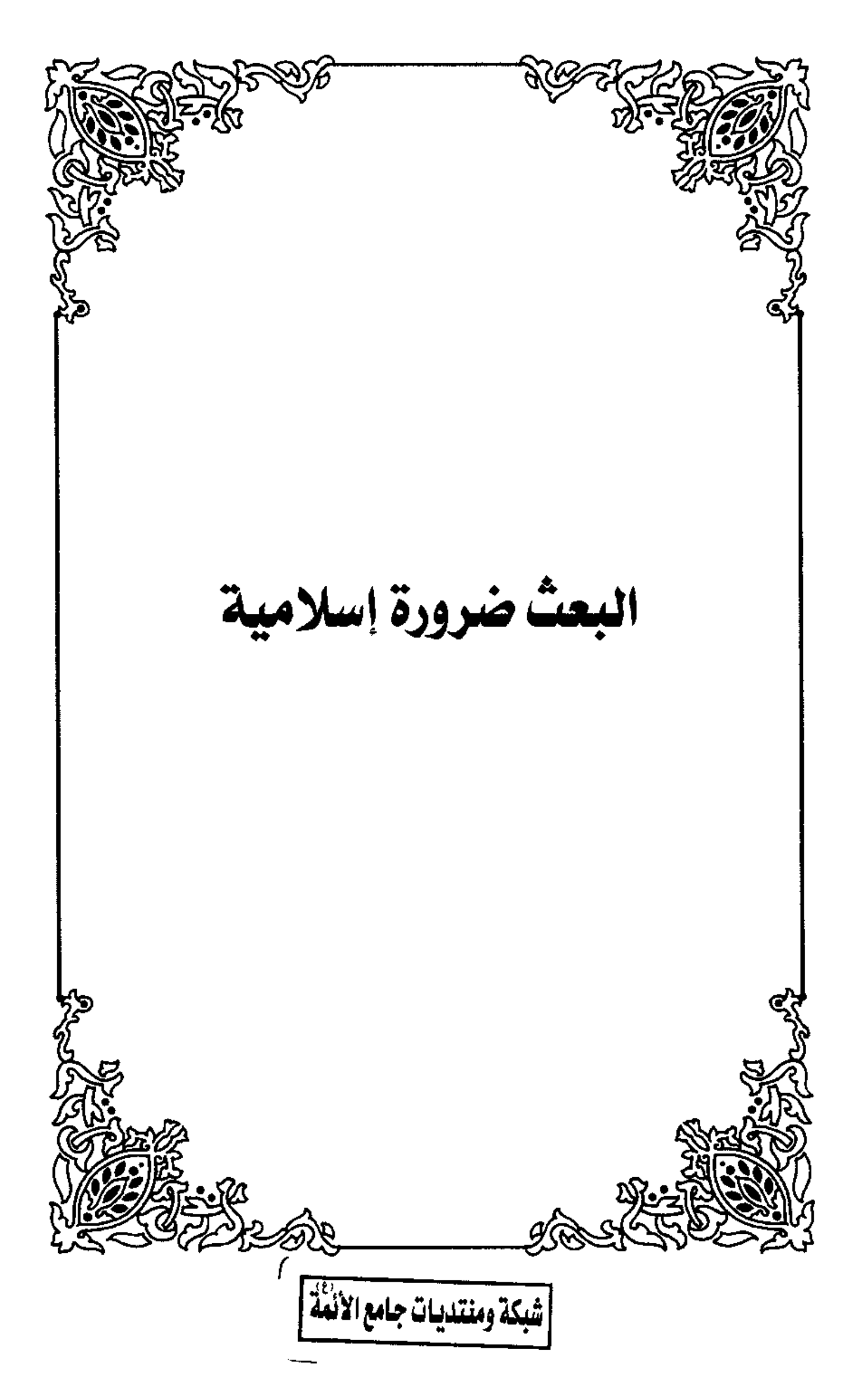
---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩-١٠٠.

ولكنّه العدل الإلهي، حين يجب أن ينفَّذ قضاؤه، وأن تطبَّق أحكامه، لقد كان هذا الفرد وأمثاله في فسحةٍ وراحةٍ في الحياة الدنيا، وكانت الحجّة الإلهيّة أمامهم قائمةً، والدليل الإسلامي قويّاً ساطعاً، ونور الإيمان فيّاضاً مشعشعاً، ولكنّهم رفضوه وجعلوه وراء ظهورهم، ولعلّهم حاربوه وشاركوا في محاولة إطفائه وإبادته.

ومن ثَمَّ فلا ينبغي أن يُصغى لقولهم أو يستجاب دعاؤهم، فما هم أهل لذلك، وعندئذٍ يأتيهم الصوت الناطق عن الله عزّ وجلّ رهيباً مجلجلاً: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

(١) سورة السجدة، الآية: ١٤.



البعث ضرورة إسلامية

البعث ضرورة إسلامية[1]

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[2].

إنَّ الله تعالى شأنه، بعد أن مَنَّ على البشر بفضله ورحمته، بما أولاهم من الحياة، وسهّل لهم سبل المعيشة، ووهبهم العقل والحواسّ، ويسّر لهم أُمورهم، وكفل لهم أرزاقهم، إلى ما لا يحصى من النعم، أمرهم بما ارتضاه لهم، ونهاهم عمّا كرهه لهم؛ منّةً وفضلاً منه عليهم؛ لعلمه أنّهم بإطاعة هذه الأوامر والنواهي سيصلون إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه طبيعة البشر من الكمال والسعادة الأبديّة.

ثُمَّ إنَّ الإسلام أكّد بعد ذلك بصورةٍ كبيرة ومكرّرة في القرآن الكريم والسنّة، على أنَّ هناك يوماً يُسأل فيه الفرد عمّا قام به من عملٍ، ويحاسب عمّا اقترفه من الحسنات والسيّئات، ويدان بنتيجة ذلك الحساب، فإن كانت حسنة، دخل الجنّة، وإن كانت سيّئة، دخل النّار. وكان تأكيد الإسلام على (البعث)، كما ورد اسمه كذلك في القرآن الكريم، كبيراً جدّاً، بحيث اعتبره أصلاً من أُصوله الخمسة التي هي: التوحيد، والعدل، والنبوّة، والإمامة، والمعاد، واعتبر منكره كافراً بالشريعة الإسلامية، كما قال الله تعالى في كتابه

---

(١) صحّح هذا المقال من قبل كاتبه بتاريخ: ١٠/ ٤/ ١٣٨١هـ = ٢٠/ ٩/ ١٩٦١ (منهقدّس سرّه).

(٢) سورة الرعد، الآية: ٥.



الكريم: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

والاستدلال على (البعث) يحتاج إلى البرهنة على مقدّماتٍ ثلاث يتمّ البرهان عليه إذا تمّ عليها؛ وذلك لأنَّ السؤال قد يُثار حول الحاجة إلى البعث، أو قد يُثار حول إمكان بعث الميّت بعد أن صار جسمه تراباً تجري عليه الأنهار ويُزرع فوقه النبات، أو قد يُثار حول وقوع (البعث) بصورةٍ واقعيّة.

وإنّنا لن نجد الجواب عن التساؤل الذي أُثير حول الحاجة إلى (البعث) عسيراً إذا نظرنا فيما تكنّه أنفسنا، وعلمنا بأنَّ الطبيعة البشريّة لا يمكن أن تطيع أمراً أو نهياً ما لم يكن هناك داعٍ للإطاعة أو رادعٌ عن المخالفة. وتندرج تحت هذه القاعدة جميع القوانين الوضعيّة والتعاريف الاجتماعيّة وأوامر الوالدين والتماسات الأصدقاء، وتندرج تحت هذه القاعدة أيضاً: الأوامر الإلهيّة التي تشكّل أيّ شريعة من الشرائع السماويّة، غاية الأمر أنَّ داعي الإطاعة قد يكون معنويّاً، كالحياء من الآمر، أو ردّ الجميل إليه أو التفضّل عليه، وقد يكون ماديّاً كالعقاب الذي تضعه القوانين الوضعيّة والتشريعات السماويّة على العاصي لمقتضيات أوامرها ونواهيها.

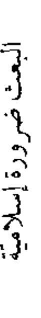


إذن، وبعد أن علم المشرّع الإسلامي بوجود هذه الطبيعة في النوع الإنسانيّ، فقد تولّدت مصلحةٌ ملزمةٌ لأن يضع الثواب لمطيعي أوامره ونواهيه، والعقاب لعصاة تلك الأوامر والنواهي. ولابدَّ أن يكون كلٌّ من الثواب والعقاب ماديّاً؛ لأنَّ الثواب الماديّ هو الذي يهشّ له الطبع الإنساني

(١) سورة الرعد، الآية: ٥.

ويحبّه، والعقاب المادّيّ هو الذي يرهبه وينفر منه.

نعم، يبقى هناك عددٌ قليلٌ من الناس ترفّعوا عن حضيض المادّة إلى أوج أوج الروح، ورغبوا عن أيّ لذّة مادّيّة حتّى الأُخرويّة منها، وربؤوا بأنفسهم عن خوف العقاب المادّيّ حتّى جهنّم، حين وضعوا رضا الله تعالى وسخطه مقياساً لإطاعته وعصيانه ولكلّ الأفعال الخيّرة والشرّيرة، فما كان مرضيّاً لله عزّ وجلّ عملوه، وما كان مسخطاً له تركوه، وذلك كما قال سيّد العارفين وأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه أفضل التحيّة والسلام) مخاطباً الله تعالى: «**إلهي ما عبدتك طمعاً في ثوابك ولا خوفاً من نارك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك**»[1].



وحيث كان في إطاعة الأوامر والنواهي الإلهيّة كمالٌ للنفس وسعادةٌ للمجتمع، فقد كان من اللطف الإلهيّ أن يفرضها الله تعالى على المكلّفين فرضاً؛ لعلمه بعدم قيامهم بها ابتداءً، وهذا لا يكون إلّا بجعل الثواب والعقاب المادّيّين، إذن فجعل مثل هذا الثواب والعقاب من اللطف الإلهيّ، واللطف واجبٌ على الله تعالى عقلاً، كما أثبته المتكلّمون المسلمون[2]، فيكون جعل الثواب والعقاب واجباً أيضاً.

وقد يُقال: إنَّ هذا الدليل الذي أقمناه على وجوب الثواب والعقاب

---

(١) عوالي اللئالي ١: ٤٠٤، الفصل العاشر، المسلك الثالث، الحديث ٦٣، وبحار الأنوار ٦٧: ١٩٧، الباب والخمسون.

(٢) يراجع بهذا شرح تجريد الاعتقاد، للعلّامة الحلّي (عليه الرحمة): ٢٠١ (منه قدّس سرّه)، وشرح التجريد (ط. ج): ٤٤٤، الفصل الثالث: في أفعال الله تعالى، المسألة الثانية عشرة: في اللطف وماهيّته وأحكامه.



عقلاً، لا يدلّ على وقوعها في عالمٍ آخر، ممّا يجعل الدليل أجنبيّاً عن إثبات البعث أو نفيه. وهذا القول صحيحٌ لو اكتفينا بهذا القدر من البحث، ولكنّه سوف لن يبقى صحيحاً بعد الجواب عن السؤال الذي أُثير حول وقوع البعث؛ لأنّنا سوف نُثبت هناك صدق النصوص الإسلاميّة التي تُؤكّد على ذلك، وهذه النصوص نفسها هي التي تقول بأنَّ الحساب والجزاء إنّما يقعان في الدار الآخرة.

أمّا الجواب عن السؤال الذي أُثير في صدر هذا المقال حول إمكان أن يعود الميّت حيّاً بعد أن أصبح جسمه تراباً يزرع عليه النبات وتبنى به البيوت، فقد تولّاه القرآن نفسه، مؤكّداً بأنَّ القدرة الإلهيّة الواسعة التي خلقت الإنسان من العدم ووهبته الحياة والعقل لقادرة على أن تعيده حيّاً بعد الفناء، وليس ذلك بأغرب من هذا الكون العظيم بأنجمه الزاهرة وأشجاره الباسقة وأنهاره الجارية، الذي وضع الله تعالى فيه أدقّ القوانين وأعمق النظم لتحفظ بناءه من الخراب، ونظامه من التبعثر؛ وذلك حيث يقول عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[1].

(١) سورة الحجّ، الآيات: ٥ – ٧.

وأمّا الجواب عن السؤال الذي أُثير حول وقوع (البعث) وتحقّقه واقعاً في المستقبل، فلن يحتوي على أيّة صعوبةٍ إذا عرفنا مقدار تأكيد القرآن والسنّة النبويّة على أنَّ (البعث) حقيقةٌ لا ريب فيها، فليس علينا بعد ذلك إلّا أن نُبرهن على صدق القرآن من حيث كونه كلاماً لله عزّ وعلا[1] وتنزّهه عن الكذب، وصدق كلام نبيّ الإسلام ﷺ ليثبت المطلوب[2].

فالصدق بالنسبة إلى كلام الله تعالى واجبٌ عقلاً؛ إذ إنّه عزّ وعلا كاملٌ كمالاً مطلقاً، وواجب الوجود وجوباً ذاتيّاً، ومنزّهٌ عن كلِّ عوارض الممكنات؛ على ما ثبت بالبرهان القطعيّ الإسلاميّ. فصدور أيّ نقصٍ منه - ومن جملة ذلك الكذب- مخلٌّ بعظيم جلاله ومطلق كماله، ومن ثَمَّ بوجوب وجوده؛ لأنَّ الناقص لا يكون واجب الوجود، وهذا ممّا يتنزّه عنه الله عزّ وجلّ، وهو خلاف ما فرضناه من أنّه تعالى واجب الوجود.

وأمّا الصدق بالنسبة لنبيّ الإسلام، فواجبٌ عقليٌّ أيضاً، ولا يسعنا نحن إنكاره كمسلمين، وخاصّة في مثل هذه المسألة التي تخصّ أُصول العقائد الإسلاميّة؛ إذ تنتفي مع إمكان الكذب عليه فائدة الرسالة، فمع احتمال الخلاف في أقواله لا تكون حجّته تامّةً على البشر، في حين إنَّ الحجّة تامّة[3] وأنّه ﴿وَمَا



(١) يراجع بذلك الأدلّة الإسلاميّة في مظانّها من الكتب (منه قدس سره).

(٢) راجع تفصيل ذلك في كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد (تحقيق: العلّامة حسن زاده آملي): ٤٧٤، وما بعدها، المقصد الرابع، المقالة الرابعة: في الطريق إلى معرفة صدق النبيّ ﷺ.

(٣) يراجع بذلك الأدلّة الإسلاميّة في مظانّها من الكتب (منه قدس سره).

يَنطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[1]، وأنَّ الله تعالى أرسله إلى الخلق أجمعين ﴿شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾[2].

محمّد الصدر

النجف الأشرف

١٠/ ٤/ ١٣٨١=٢٠/ ٩/ ١٩٦١

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣-٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥-٤٦.



الوعد والوعيد في الإسلام

الوعد والوعيد في الإسلام[1]

يكون من الواضح عند تصفّح سمات النفس البشريّة، أنَّ الفرد إذا كان يرجو خيراً من عملٍ من الأعمال أو شخصٍ من الناس، فإنَّه يحبّه ويسعى إليه، كما أنَّه إذا كان يخاف ضرراً من أيّ أمرٍ أو أيّ شخصٍ فإنَّه يحاول أن يتجنّب ذلك الضرر جهده.

ومن هذه الزاوية، يمكننا أن نرى أنَّ الدافع إلى إطاعة الأوامر القانونيّة يكون في نفس الفرد قويّاً إذا كان يرجو من وراء إطاعتها لنفسه خيراً، أو كان يخاف من وراء عصيانها على نفسه شرّاً، وكلّما كان الخير المرجوّ أو العقاب المخوف أكبر وأعمق، كان الدافع الشعوريّ للعمل عند الإنسان أشدّ قوّةً وأقوى اندفاعاً. كما أنَّه إذا اجتمع هذان العنصران في قانونٍ واحد، كان الدافع إلى إطاعة أوامر ذلك القانون أقوى وآكد، بل إنَّه من المعلوم أنَّ الفرد ليس على استعدادٍ لإطاعة أيّ أمرٍ أو نهيٍ صادر عن أيّ قانونٍ ما لم يشعر بأنَّ إطاعته له تعود عليه بالخير، أو أنَّ عصيانه يسبّب له الشر؛ وذلك بأن تقترن القوانين بالوعد أو بالوعيد، ومن ثَمَّ فإنَّ القانون لو فُرض أنَّه أهمل إيجاد الدافع في نفس الفرد للعمل عن هذا الطريق، فإنَّه لن يجد من الناس أُذناً سامعة، وسوف يفشل حتماً في أداء رسالته.

ولهذا السبب نرى مشرّعي القوانين الحديثة يلحقون بتشريعاتهم



(١) [تاريخ كتابة البحث] الجمعة: ٦/ ٢/ ١٣٨٣ = ٢٨/ ٦/ ١٩٦٣ (منه قُدِّسَ سِرُّهُ).

وأنظمتهم، قوانين للعقوبات تحدّد لكلِّ مخالفةٍ عقوبةً خاصّة، ممّا يظنّ المشرّع أنّها كافيةٌ في إثارة الدافع في نفس الفرد لإطاعتها، وبذلك يضمن المشرّعون الحياة لقوانينهم، والإطاعة لأوامرهم ونواهيهم مِن قِبل أفراد شعوبهم.

والإسلام كقانونٍ من القوانين يحتوي على نظم ودساتير ويحتوي على أوامر ونواهٍ، لابدَّ له من خلق نفس الدافع في نفس الفرد لإطاعته والانصياع لمقتضيات تشريعه، وينبغي أن يكون هذا الدافع الذي يجعله دينٌ عالميٌّ كالإسلام، أن يكون قابلاً لأن يفهمه جميع البشر ويتذوّقوه، وصالحاً بأن يشعر كلّ فردٍ منهم بأنّه هو المقصود بالذات بهذا الدافع؛ لأجل أن يستطيع الإسلام ضمان إطاعة جميع البشر له وانقيادهم لأوامره ونواهيه، لكي يستطيع أن يكون ديناً عالميّاً تطبّق قوانينه على البشريّة كلّها، فتملأ ربوعها خيراً وسلاماً، فما هو الضمان الذي قدّمه الإسلام في هذا السبيل، وما هي مدى قوّته الدافعة، وما هي النتائج الكبرى التي نتجت عمّا قدّمه في هذا السبيل؟

لم يفتْ الإسلام في هذا الصدد أن يجعل هذا الضمان ذا شقّين: ثواب على إطاعة وعقاب لمعصية، كما أنّه لم يفته أن يقسّم هذا الضمان إلى عميقٍ وسطحيّ، لكي يتيح لكلِّ البشر فهمه وتذوّقه، ومن ثَمَّ السعي إليه جهد الإمكان.

وعليه، يمكن تقسيم الضمان الإسلاميّ على الوجه الآتي:

الضمان الأوّل: رضاء الله عزّ وعلا لَمن أطاع الأوامر الإسلامية، وارتدع عن نواهيه، وقام بمتطلّباته خير قيام؛ فإنَّ الأوامر الإسلاميّة هي أوامر الله تعالى، وأخلِق بالذي يطيعها أن يحظى برضى الله عزّ وجلّ، ورضاء الله هو الغاية القصوى لكلِّ مَن يدرك هذا المقام الروحيّ العظيم، وهو قمّة الكمال

البشريّ، وغاية سعي الإنسان في اتّجاهه نحو كماله المنشود؛ لأنّه هو الخلود المطلق والسعادة الخالدة والنور السرمديّ الذي لا يطفأ، ومن ثَمَّ كان لهذا الضمان الإسلاميّ قوّةٌ دافعةٌ شديدة الاندفاع تفوق أيّ حافزٍ أو مثيرٍ في هذا الوسط المادّي الضيّق.



وفي قبال هذا المقام الروحيّ السامي، جعل الإسلام غضب الله تعالى لكلّ عاصٍ لأوامره، خارجٍ عن تعاليمه، متمرّدٍ على مقتضيات تشريعه، وهذه الدرجة الروحيّة هي الشرّ كلّ الشرّ والخسران المبين، ويكفي عقاباً للفرد أن يكون غضب الله تعالى مسبّباً له الابتعاد عن حضيرة القدس الإلهيّ وعدم الفوز بالسعادة والخلود اللذين ينالهما برضاه عزّ وجلّ، بالإضافة إلى أنَّ الابتعاد عن هذه القمّة لا يعني إلّا العدم المطلق والفساد التامّ.



ولكن هذا الضمان الإسلاميّ، بدرجتيه الروحيّتين، إنّما ينفع في توجيه طبقةٍ معيّنةٍ من الناس، ممّن اتّسع أُفق تفكيرهم وعمّقت ثقافتهم الدينيّة وإدراكهم الروحيّ والعقليّ؛ وذلك لأنَّ عامّة المسلمين لا يمكن أن يدركوا مثل تلك الدرجات الروحيّة، بحيث تكون حيّةً في نفوسهم مؤثّرةً في شعورهم، تدفعهم إلى فعل الخير وتردعهم عن الشرّ، وتكون مطمحاً لآمالهم وغايةً لأحلامهم، فإنَّ هذا الضمان الروحيّ وإن كان ذا أثرٍ كبيرٍ في دفع الإنسان نحو العمل أكثر من أيّ دافعٍ آخر، ولكنّه لعمقه ودقّته يكون بعيداً عن هذه الأذهان التي تعيش في وسطٍ مادّي، وتنبع آمالها وآلامها من المحيط المادّي الضيّق، لذا فقد جعل الإسلام لها ضمانه الثاني.

الضمان الثاني: هو الوعد بالثواب على عمل الخير، والوعيد بالعقاب على عمل الشرّ، ثواباً وعقاباً مادّيّين.

وقد جعل الإسلام هذا الضمان هو الضمان الرئيسيّ لحفز العامّة من الناس على العمل، بعد أن لم يكونوا يدركون مضمون الضمان الروحيّ الأوّل بوضوح، ومن ثَمَّ نرى أنّه قد تعدّد في القرآن الكريم ذكر الثواب والعقاب الأُخرويّين المادّيّين، وتفصيل وصفهما بشكلٍ عاطفيّ يُؤثّر في النفس أثراً بالغاً؛ وذلك لكي يتّضح للبشر مقدار الثواب العظيم الذي سوف ينالونه بجميل أفعالهم وحسن نيّاتهم، وبجهادهم في سبيل إطاعة بارئهم، ولكي يتبيّن مدى العقاب الذي سوف يلقونه على جرائمهم وآثامهم وتمرّدهم على الحقّ بعد إذ جاءهم. وما دام المسلم يكثر من قراءة القرآن، فإنّه يجد في كلّ مرّةٍ يقرأه، دافعاً جديداً على العمل، وحافزاً حيّاً على الجهاد المخلص في سبيل الله عزّ وجلّ.

وكان لابدَّ للإسلام من ضمانٍ مادّي كهذا، ليستطيع العامّة من الناس أن يفهموه وأن يتذوّقوه وأن يجعلوه هدفهم الأعلى في أعمالهم التي يتقرّبون بها إلى الله عزّ وجلّ؛ فإنَّ النفس - كما هو معلوم- لها نوازع شهويّة وآمالٌ وآلامٌ وحاجات، وكلّها تدور في فلكٍ مادّيٍّ ضيّق؛ فإنَّ عموم الناس لا يجدون أنَّ هناك لذّةً سوى اللذائذ المادّيّة، ولا يجدون ألماً وحزناً من غير ما تسبّبه الملابسات المادّيّة، ولا يخافون شرّاً إلّا إذا كان مادّيّاً ملموساً؛ وذلك لانغماسهم في هذا المحيط المادّي وتقيّد شعورهم وخيالهم بحدوده الضيّقة، لذا فقد كانوا بحاجةٍ لأجل أن يهزّ الوعد نفوسهم، ويرعب الوعيد قلوبهم، أن يكون هذان العنصران قائمين على أساسٍ مادّيّ.

ولكن كما أنَّ العامّة لا تستطيع أن تدرك الضمان الروحيّ الأوّل، وأن تفهم مدى العظمة والخلود في مضمونه، ومن ثَمَّ لا يمكنها أن تجعله هدفاً

أثناء سعيها وجهادها في سبيل الإسلام، فكذلك أولئك الذين يفهمون مضمون ذلك الضمان العظيم، فإنّهم بإدراكهم لعظمته وشرفه لا يجدون للضمان المادّي الذي جعله الإسلام للعامّة، دافعاً كافياً على العمل؛ لأنّهم بعد أن كان لديهم هدفٌ أعمق وأوسع وأضمن للسعادة والخلود، فإنّهم لا يطمعون بالثواب المادّي ولا يخافون عقابه، بل إنَّ أحدهم ليفضّل أن يدخل النار وهو حائزٌ على رضاء الله تعالى، من أن يدخل الجنّة والله عليه غضبان، لو أمكن ذلك فرضاً، وفي هذا يقول أمير المؤمنين وإمام المتّقين عليه أفضل الصلاة والسلام: «**إلهي ما عبدتك طمعاً في ثوابك ولا خوفاً من نارك، ولكنّي وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك**»[1].

والآن ينبغي أن نرى الثمرات التي يمكن للإسلام أن يجنيها من جعل هذين الضمانين، وخلقهما في نفس الفرد المسلم، ويمكن أن تتلخّص تلك الثمرات فيما يلي:

أوّلاً: جعل (مثل أعلى) للفرد المسلم يعضده ويشدّ أزره أثناء كفاحه الشرّ والفساد، وجهاده في الوصول إلى الكمال، فالفرد المسلم يدرك بوضوح أنَّ غاية الكمال الذي يمكن أن يصل إليه البشر هو الضمان الإسلامي بالثواب، سواءٌ الروحيُّ منه أو المادّيّ، كما أنَّ أسفل حضيض يمكن أن يتردّى به الفرد من جرّاء الفساد والاستهتار هو العقاب الإلهيّ، الروحيّ أو المادّيّ. وجعل مثل هذا (المثل الأعلى) في نفس المسلم هو الضمان الأوّليّ لإحراز إخلاص الفرد وحسن إطاعته؛ لأنَّ النفوس مجبولةٌ تلقائيّاً على إدراك الكمال

---

(١) عوالي اللئالي ١: ٤٠٤، الفصل العاشر، المسلك الثالث، الحديث ٦٣، وبحار الأنوار ٦٧: ١٩٧، الباب الثالث والخمسون.

والسعي إليه، فإذا وجد الفرد المسلم أنَّ هذا الكمال موجودٌ هناك وأنَّه يمكن أن يناله بقليلٍ من التعب، فكم يمكن أن يبذل في سبيله من مجهود.

ثانياً: جعل (مثل أدنى) يكون غايةً للعمل الفاسد والظلم والاعتداء على الآخرين ولعصيان أوامر الإسلام ونواهيه، وأعني بالمثل الأدنى: العقاب الذي فرضه الإسلام على المتمرّدين على تعاليمه، سواء القسم المادّيّ منه أو الروحيّ. ووجود هذا المثل الأدنى في نفس الفرد يجعله يرتدع عن المحرّمات والمفاسد، ومن ثَمَّ يحميه من السقوط في هوّة الفساد.

ثالثاً: التزهيد في التكالب على الأموال وعلى زخارف العيش؛ فإنَّ مَن يدرك بأنَّ هذه الحياة زائلة، وأنَّ الحياة الحقيقيّة إنَّما هي في العالم الآخر، وأنَّ المفاضلة الحقيقيّة إنَّما تكون بين من يفوز بالثواب الإلهيّ وبين مَن يسقط في عقاب الله تعالى، وأنَّ عوارض الدنيا لأحقر من أن تكون مورداً للمكاثرة والتنافس؛ فإنَّه لا تنافس إلَّا بمقدار القرب من الله عزّ وجلّ ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[1]. ولا ينبغي أن يجعل الإنسان أمام أمله إلَّا ذلك الهدف الإلهيّ الكبير، وكلّ ما سواه فهو عدمٌ مطلق، وفسادٌ محض.

إنَّ كلَّ مَن يدرك ذلك فإنَّه يستهين - بصورةٍ تلقائيّة شعوريّة أو لا شعوريّة- بكلِّ ما يصادف طريقه في الحياة من مغرياتٍ برّاقةٍ وآمالٍ عراض، أو أنَّه على الأقلّ يرتدع عن هذا الحماس الشديد في التكالب على متاع الدنيا، ذلك الحماس الذي يتّصف به أهل الدنيا ومحبّوها، وبذلك يسود الأمن والنظام، وترتفع كثير من دواعي المشاحنات والضغائن والجرائم والحروب.

رابعاً: جعل حافزٍ شديد القوّة في نفس المسلم للعمل وللتضحية ولبذل

(١) سورة المطفّفين، الآية: ٢٦.

الجهد والمال في سبيل الله عزّ وجلّ؛ فإنَّه إذ يدرك أنَّ إطاعة الأوامر والنـواهي الإسلاميّة هو الطريق اللاحب إلى الكمال الذي ينشده بغريزتـه، فإنّـه سـوف يسلك هذا الطريق مهما كلّفه ذلك غالياً؛ لأنّـه لا شيء في الوجـود يمكـن أن يقع عائقاً حقيقيّاً في طريق سعي الإنسان نحو الكمال.

كما أنَّ مَن يدرك المثل الأدنى للعمل السيّئ في الإسلام، فـأحرى بـه أن يرتدع عن محرّمات الإسلام.

خامساً: جعل (عامل تعويض) في نفس الفـرد المسلم، بحيـث يـشعر الفرد المسلم أنَّ كلَّ ما يبذله من جهدٍ ومالٍ وطاقـات، فإنّـه سـوف يـرى مـا يعوّضه عنها تعويضاً كافيـاً، ومـن ثَـمَّ فـإنَّ الفـرد المسلم يـستهين بـالجهود والأتعاب التي يبذلها في سبيل الله تعالى، ويستغني عن كثير من الأُمور المادّيّة، ويحتقر الآمال والآلام الدنيويّة الضيّقة، ويكون في نفسه دافعٌ قويٌّ نحو عمل الخير وإطاعة أوامر الإسلام عن سرورٍ وطيب قلب؛ لأنّه يعلم أنّه سوف ينال في مقابلها الخير كلّ الخير والثواب كلّ الثواب، وفي ذلك يقول الله عـزّ وعـلا في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

يمكننا الآن أن نتميّز بوضوح بُعدَ نظر الإسلام ودقّته البالغة وحكمتـه العظيمة في تشريعه ونظمه وفي وسائله وأهدافه، كـما يمكـن أن نـرى بجـلاءٍ المدى الشاسع في العمق والدقّة بين الضمان الإسلاميّ لإطاعـة أوامـره وبـين

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.



ضمان القوانين الوضعيّة لهذا الهدف نفسه؛ فإنَّ غاية ما أمكن للقوانين أن تدركه هو ضمان إطاعة أوامرها ومقتضيات تشريعها بإنزال العقاب على كلّ مخالفٍ متمرّدٍ، لأنّها لم تكن تستطيع إدراك القمّة الروحانيّة والمعاني العظيمة التي أدركها الإسلام، بعد أن كانت نابعةً من عقولٍ بشريّة، ماديّة الآمال والآلام، بالإضافة إلى أنّها خاليةٌ من الجزاء على الإحسان، والإطاعة بالثواب، مع أنَّه يجعل الحافز أشدّ، والشوق في النفس أقوى وآكد.

أمّا الإسلام، فإنَّه بالإضافة إلى أنَّه جعل في نفس المسلم دافعاً قويّاً من كلا الضمانين – الثواب والعقاب– لعمل الخير والارتداع عن الشرّ، فإنَّه قد صاغ بذلك نفس المسلم صياغةً خاصّة؛ إذ يرى أنَّ الله هو الهدف الأسمى لأمل كلّ آمل، وأنَّ كلّ ما سواه عرضٌ زائل، وظلٌّ حائلٌ يمكن الاستغناء عنه في سبيل ذلك الهدف الكبير، وبذلك حصل الإسلام على الكثير من الثمرات الناضجة الشهيّة التي عجزت عن أن تنالها القوانين الوضعيّة.

وقبل أن نختم هذا البحث، لابدَّ لنا أن نُشير إلى حافزٍ ثالث قويّ على العمل في نفس المسلم، هو حافزٌ آخر يثمر في ظلّ الحافزين السابقين: الثواب والعقاب. هذا الحافز هو المغفرة أو عفو الله تعالى عمّا ارتكب المرء من ذنوب ومعاصٍ؛ فإنَّ هناك كثيراً من الأعمال الحسنة التي يمكن أن تمحو السيّئات وأن تبدّلها حسنات، ممّا يفتح أمام الفرد المسلم آفاقاً جديدة للنجاة من العقاب الموعود على الذنب الذي اقترفه، وبذلك يكون حافزاً لديه على العمل والجهد المستمرّ؛ لكي يحظى بعفو الله ومغفرته ورضاه، لكي ينتقل اسمه عند الله من زمرة المذنبين إلى المحسنين الأخيار.

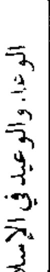
وأمّا القوانين الوضعيّة، فهي خاليةٌ من هذه الناحية الحيويّة أيضاً، فإنَّه

وإن كان من الممكن نظريّاً أن يُغتفر لمذنب ذنبه في بعض الظروف التي تحيط به أو بجريمته، ولكنّ تطبيق القانون بصورةٍ محايدةٍ وموضوعيّة، يقتضي سريانه إلى جميع أفراد الشعب على حدٍّ سواء، في حين إنَّ عنصر المغفرة يمكن أن تتدخّل فيه بعض الأُمور غير الموضوعيّة من قريبٍ أو بعيد، وليس هناك في القوانين، كما في الإسلام، مواضع قانونيّة للعفو بعد ثبوت الجريمة بشكلٍ يستحقّ عليها العقاب.

محمّد الصدر

النجف الأشرف - الجمهوريّة العراقيّة

والحمد لله ربِّ العالمين



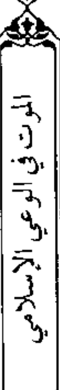




الموت في الوعي الإسلامي

أو

أطروحة الموت الواعية



الموت في الوعي الإسلامي

أو

أطروحة الموت الواعية

أعتقد أنَّ الوعي لا يمكن أن يكون مقتصراً على بعض الحقول دون بعض، وخاصّاً ببعض المسائل وغير شاملٍ للأُخرى، بل هو مستوعبٌ بشموله لكلِّ المسائل الإسلاميّة، مهما بدت للناظر الاعتياديِّ شديدةَ التحنّث والفرديّة، والبُعد عن الصعيد الاجتماعي.

فمن ذلك مفهوم العبادة، الذي يظنّه الأكثر من المسلمين وأعداء الإسلام رابطةً متحنّثةً بين الفرد وربّه، سواءٌ كان في الدين جوانب أُخرى اجتماعيّة، كما يقول المنفتحون من المسلمين، أو لم يكن كما يقول أعداء الدين. واتّفقوا على أنَّ العبادة هي الأساس المركزي للتحنّث الشخصي والقدر المتيقّن من المسلك غير الواعي.

في حين استطاع الفكر الإسلامي الواعي - كما عرفنا في بعض مباحثنا السابقة - أن يحوّل من العبادة مفهوماً واعياً اجتماعيّاً وكونيّاً طافحاً بالنور والحياة، بل جعلها المركز الأساسي للوعي، ولا وعي من دون عبادة.

فكذلك الحال في الموت، فإنَّه في حدود المعطى القديم لأُطروحته، مفهومٌ متحنّثٌ جامد، وقدرٌ صارمٌ لا مجال للاستفادة منه اجتماعيّاً وإسلاميّاً وشخصيّاً، بأيّ نحوٍ من أنحاء الاستفادة، على حين استطاع الفكر الإسلامي الواعي، أن يخلق من الموت فكرةً واعيةً وقّادةً طافحة بالنور والحياة، وباعثةً

على العمل المثمر البنّاء، كما نحاول إثباته من خلال هذا الكلام.

فنحن لا نتكلّم عن القبر والحشر والنشر، فإنَّه موكولٌ إلى محلّه من البراهين الإسلاميّة، وإنَّما نتكلّم بعد تماميّة ذلك عن المفهوم الصالح للموت الذي يزعج الحياة العادلة.

تعريف الموت في الوعي الإسلامي

ولابدَّ لنا - من ناحيةٍ منهجيّة- أن نذكر معنى الموت وتعريفه قبل أن ندخل في تفاصيل أحكامه، حتّى نكون على بيّنةٍ من أمرنا، ووضوحٍ من موضوع كلامنا خلال ذلك.

والموت يمكن أن يُبحث في حقولٍ متعدّدةٍ، دينيّةٍ تارةً، وعمليّةٍ أُخرى: كالطبّ، وعلم وظائف الأعضاء، والتشريح، والفلسفة، وعلم الكلام، والفقه الإسلامي في الإرث، وتجهيز الميّت، وعقوبة الموت، وغير ذلك، وفي القانون الوضعي، وفي الحقل الاجتماعي، ويكتسب الموت بلحاظ كلّ حقلٍ من هذه الحقول تعريفاً ومفهوماً يختلف - بقليلٍ أو كثير- عن المفهوم الذي يكتسبه في الحقل الآخر[1]، وذلك من الناحية التي تهمّ الباحث في ذلك الحقل.

ونحن إذ يهمّنا التعرّض للناحيّة الاجتماعيّة للموت بالخصوص؛ باعتبارها أوضحها وعياً، وألصقها بميدان العمل الحيّ الإسلامي البنّاء، لابدَّ أن نأخذ مفهوم الموت من الزاوية التي نلتفت إليها.

---

(١) فهو في الطبّ: توقّف الوظائف البيولوجيّة، وفي الفلسفة: انفصال الروح عن الجسد، وفي الفقه والقانون: حالة معيّنة يترتّب عليها آثار خاصّة وأحكام (منهﭭ).

ولابدَّ لنا قبل أن نُعطي الصيغة النهائيّة للتعريف، أن نستذكر حقيقة أنَّ الإسلام بتأكيده على الحياة الأُخرى، وعلى الثواب على الحسنات، والعقاب على السيّئات، قد وسّع مفهوم الحياة، وأفهمنا أنَّ الفرد كما أنّه حيٌّ في هذه الدار، كذلك هو حيٌّ في تلك الدار، بل الإسلام يجعل الحياة الأُخرى هي الأصل والشيء الرئيسيّ، والحياة الدنيا هي كالفرع والمقدّمة لها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ..﴾[1]. يعني: الحياة الحقيقيّة المؤكّدة التي يجب أن يأخذها الإنسان بنظر الاعتبار لو التفت إلى حاله ومصلحة نفسه.

وتنشأ هذه الفكرة من منشأين مترابطين:

أحدهما: كون هذه الحياة محدودةً قصيرة، مهما طالت، على حين إنَّ الحياة الأُخرى أبديّةٌ باقيّة ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ..﴾[2]، بحيث تكون نسبة الحياة الدنيا إليها كقطرةٍ في بحرٍ، وومضةٍ في شمس.

ثانيهما: أنَّ هذه الحياة دار الأعمال، وتلك الحياة دار الثواب والعقاب، والحصول على النتائج للمقدّمات التي غرسها الفرد لنفسه في الحياة الأُولى. وأخلق بالفرد، وهو الحرّ المختار في تصرّفه - بعد أن هداه الله النجدين، وأفهمه موجبات الثواب والعقاب، وطريق الخير والشرّ - أن يختار لنفسه مقدّمات الخير والثواب، وينبذ مقدّمات الشرّ والخسران، وبالآخرة يحصل على النتائج التي سوف نسردها في مستقبل هذا البحث.

وهذان المنشآن المترابطان يحدّدان مفهوم الحياة الدنيا من ناحية،

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٧.

ويحدّدان مفهوم الموت من ناحيةٍ أُخرى. فالحياة هذه نشأةٌ قصيرةٌ تمهيديّةٌ للنشأة الكبرى، والموت هو الحدّ الفاصل بين هاتين النشأتين، ونهاية عهد العمل، ليبدأ عهد الربح أو الخسران، أو الحدّ الفاصل بين القطرة والبحر، والومضة والشمس؛ شأنه في ذلك شأن دودة القزّ حين تلفّ حول نفسها خيوط الحرير، لتتحوّل من حالتها الأُولى كدودةٍ تدبّ على رجلين، إلى فراشةٍ تطير بجناحين.

والخصوصيّة الأساسيّة للموت في نظر الأحياء هي: أنّه أعمّ ظاهرةٍ في الحياة وأعمقها في الأذهان، وأكثرها اضطراراً وقسراً وتأثيراً في الفرد الحيّ، وأكبر شيءٍ يُخاف منه ويُخشى في هذه الحياة، بل هو أبو المخاوف والشرور، ومن هنا كان تصعيد مفهومه إلى المستوى الواعي، وعرض أُطروحته الواعية على أذهان البشر، يأتي بالثمار الكبرى المدهشة في التبليغ الواعي والعمل الواعي.

والأمر الرئيسيّ في المعطى الواعي للموت في نفس المسلم، هو تأثيره في حقلين أساسيّين: الإحساس الإيماني والسلوك العملي.

الحقل الأوّل: تأثيره من حيث الإحساس الإيمانيّ، ويتمثّل في جوانب ثلاثة:

الجانب الأوّل: الإحساس المباشر بالعالم الميتافيزيقي الكامن وراء الطبيعة؛ فإنّ الفرد الاعتياديَّ في هذه الحياة لمدى ارتباطه بمحسوساته ومكانه وزمانه وحدوده ومصالحه، بعيدٌ بقليلٍ أو كثيرٍ عن تصوّر العالم الميتافيزيقيّ، وعن تمثّل وجوده في ذهنه، إلى حدٍّ سهل إنكاره على جملة المادّيين والملحدين.

على حين يُعتبر الموت بصفته أعمّ الظواهر وأعمقها، والمعترف بها من قبل الجميع، وبصفته مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الحياة والروح، المفهوم

الأساسي الذي صمد ضدّ اكتشافات العلم الحديث حتّى الآن، بالرغم من وضوحه ورسوخه.

فإنَّ التساؤل يُثار واضحاً في الفرق بين بدن الإنسان قبل الموت وبدنه بعده، مع أنَّه لم يحدث له إلَّا السكتة القلبيّة مثلاً، ولم يتغيّر منه شيء، فما الذي حدث له، ولماذا توقّفت فيه وظائف الحياة، وتوقّف هذه الوظائف وإن كان هو الموت باصطلاح الطبّ، إلَّا أنَّه يحتاج إلى سببٍ لا محالة، وليس ذلك إلَّا ما يُؤمن به الإسلام من انفصال الروح عن البدن، بحيث أصبح غير قابل للقيام بالوظائف الحيويّة.

ومن هنا نضع يدنا على الروح التي عجز العلم عن تفسيرها إلى حدّ الآن.

الجانب الثاني: الإحساس بالذلّ أمام الله العزيز الجبّار المتكبّر، الذي «**توحّد بالعزّ والبقاء، وقهر عباده بالموت والفناء**»[1] فإنَّ الانصياع الاضطراريَّ أمام القهر الإلهي القاسر، يوجب حتماً الشعور بالذّل أمام القاهر العظيم الذي شرّع السنّة الكونيّة بموت عباده.

وهذا الشعور، على المستوى الواعي يورث الشعور بالتوكّل على الله والتوجّه إليه - بصفته القوّة الكبرى المقرّرة لمصائر العباد، والحكمة الأزليّة التي لا تضمن لهم إلَّا العدل والخير- التوكّل الذي ينتج آثاراً إيجابيّةً في السلوك الواعي، على ما يأتي تفصيله.

الجانب الثالث: الشعور بالمساواة بين جميع الناس من ناحية الموت؛ فإنّهم سواسية كأسنان المشط أمام القهر الإلهيّ، لا يختلف فيه حال غنيٍّ

(١) بحار الأنوار ٩١: ٢٤٢-٢٤٦، الباب الأربعون، أحراز مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، دعاء الصباح.

وفقير، أو عالمٍ وجاهل، أو تقيٍّ وفاسق. وإنّك حين تدخل إلى أيّ مقبرةٍ عامّة، لا تكاد تميّز قبر الغنيِّ عن قبر الفقير، ولا مرقد العالم عن مرقد الجاهل.

ولعلّ أطرف ما يُستشهد به لإيضاح هذه الفكرة: ما يرويه التاريخ من أنَّ الإسكندر المقدوني بعد أن انتهى من فتوحاته وانتهت حياته، وُضع في تابوتٍ من ذهب، ووُضع أمام الناس لكي يودّعوه، فكان فيمَن مرّ عليه جماعةٌ من فلاسفة عصره، وقال كلّ واحدٍ منهم كلمةً بالمناسبة، فكان أن قال أحدهم: كان الإسكندر يضمّ الذهب، والآن الذهب يضمّه[1].

إذن، فالموت لا يفرّق بين الناس وليس له صداقة مع أحد ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[2]، وهذا إحساسٌ وجدانيٌّ واضح، يعضده المشهد الخارجي الذي يعيشه كلّ أحد. وهو الإحساس الذي لو أُعلي إلى مستواه الواعي لأنتج أفضل الثمار الإيجابيّة في مقام السلوك، قد تأتي الإشارة إلى بعضها.

الحقل الثاني: تأثير فكرة الموت الواعية في الجانب السلوكي العملي للفرد المسلم، وذلك بلحاظ جوانب ثلاثة:

الجانب الأوّل: جعله رافعاً وباعثاً على العمل الخيّر، وعلى إطاعة الله تعالى في أوامره ونواهيه.

فإنَّ الموت بصفته مبدأ النشأة الثانية، نشأة الحساب والعقاب، يعطي - لا محالة - إحساساً معيّناً، بعد الالتفات إلى فكرةٍ معيّنة قالها بعض علمائنا، وهي[3]:

---

(١) راجع مروج الذهب ومعادن الجوهر (للمسعودي) ١: ٣٢٠، موت الإسكندر، والكامل (لابن الأثير) ١: ٢٨٨، ذكر الإسكندر ذي القرنين.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥، وسورة الأنبياء، الآية: ٣٦.

(٣) راجع جواهر الأصول (للشيخ إبراهيم الأنصاري من أبحاث السيّد الشهيد الصدر

أنَّ الناس بالنسبة إلى عبادة الله وطاعته على قسمين:

أحدهما: وهم الأقلّون عدداً والأعظمون شأناً، وهم الذين يتّخذون مسلك أمير المؤمنين‌عليه السلام الذي قال مخاطباً لله عزّ وجلّ - فيما روي عنه-: «**ما عبدتُك طمعاً في ثوابك، ولا خوفاً من نارك، ولكنّي وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك**»[1]. فهم يعبدون الله تعالى لأجل إدراكهم واقع عظمة الله تعالى ونعمته وأهليّته للعبادة، ولكنّ هذه الفكرة يقلّ وجودها بين الناس، ومن ثَمَّ لا تكون دافعاً نحو العمل إلّا لعددٍ ضئيلٍ منهم، ومن ثَمَّ يكون العدد الأكبر من البشر مندرجاً في:

القسم الثاني: وهم الأفراد الذين يحتاجون في مقام دفعهم إلى الإطاعة في الواجبات والمحرّمات الإسلاميّة، إلى جعل دافعٍ خارجيّ، هو الثواب والعقاب، ليقوموا بالحسنات طمعاً في الثواب وينزجروا عن المعاصي خوفاً من العقاب، وبالتالي لكي تكون الإطاعة موافقةً لحبّهم لذاتهم ولمصالحهم الشخصيّة، وهو المعبّر عنه «**بعبادة التجّار**» في بعض الأخبار[2].



الأوّل): ٧٦، مبحث التجرّي، المقام الثالث، ومحاضرات في علم أصول الفقه (من أبحاث السيّد الشهيد الأوّل، بقلم السيّد الشهيد الصدر الثاني - مخطوط) ٥: ١٦٥، مبحث التجرّي، المقام الثالث.

(١) عوالي اللئالي ١: ٤٠٤، المسلك الثالث، الحديث ٦٣، وبحار الأنوار ٤١: ١٤، في أقسام العبادة، وعبادته‌عليه السلام، الحديث ٤.

(٢) ذلك من كلام مولانا أمير المؤمنين وإمام الموحّدين‌عليه السلام، حيث قال‌عليه السلام: «**إنّ قوماً عبدوا الله رغبة، فتلك عبادة التجّار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبة، فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً، فتلك عبادة الأحرار**». نهج البلاغة (شرح محمّد عبده) ٥: ٥٣، باب المختار من حكم أمير المؤمنين‌عليه السلام، الحكم ٢٣٧.

ومن ثَمَّ سنّ الله تعالى قانونه الكونيّ في الثواب والعقاب، لأجل مثل هذه الحكمة، وكان الموت هو الطريق الوحيد إلى الحصول على الثواب أو الوقوع في العقاب. إذن، فقد أصبح الموت بصفته مبدأ النشأة الثانية، نشأة الثواب والعقاب، من أقوى المحرّكات على العمل والدوافع نحوه، ذلك العمل الإسلاميّ الواعي المثمر.

الجانب الثاني: اغتنام العمر القصير الضئيل للحصول على الخير الكثير؛ فإنَّ الفرد حين يرى أنَّ عمره مهما طال فهو محدودٌ وضئيل، وأنّه بالنسبة إلى مفهوم الحياة الإسلاميّة الواسع، كهباءةٍ في الفضاء، وقطرةٍ في البحار، ويعرف بكلِّ وضوحٍ أنَّ هذه الحياة هي الطريق الوحيد لنيل الخير والسعادة وأعلى مراتب الرفاه في الحياة الثانية الأبديّة، وأنّه باختياره يستطيع أن يقرّر مصيره في ذلك الأبد الطويل، إمّا السعادة الدائمة، أو الشقاء السرمديّ، ويعلم بوضوح أنَّ الله وعده ولن يخلف وعده، و﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾[1]. فما أحراه أن يشترك في هذه التجارة الرابحة للحصول على الثواب الجزيل.

ومن ثَمَّ فهو يندفع إلى اغتنام فرصة العمل من خلال هذا العمر القصير، إلى بناء نفسه وإعلاء شأنه وفكره والجهاد في سبيل العمل الإسلاميّ البنّاء، فيكون غرسةً طيّبة في المجتمع الإسلامي الكبير.

الجانب الثالث: الصبر على البلاء والمحن والمصاعب؛ فإنَّ الفرد حين يرى أنَّ حياته الدنيا بالنسبة إلى الحياة الأبديّة الواسعة كهباءةٍ في الفضاء وقطرةٍ في البحار، يُدرك بكلِّ وضوحٍ أنَّ الألم الحقيقي هو الألم الذي يعانيه في

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

الحياة الأُخرى، واللذّة الحقيقيّة هي التي سوف ينالها هناك؛ لأنّها لذّةٌ وألمٌ أبديّين، وهو ما يكسبها الأهمّيّة والرسوخ، ووجوب أخذها بنظر الاعتبار عقلاً لا محالة.

أمّا هذه الهباءة، هذه القطرة، هذه الحياة الضئيلة، فهي أهون من أن يُنظر إليها، وأحقر وأصغر من أن يُهتمّ بشأنها، ومن هنا يستصغر الآلام والمحن والمصاعب التي تصادفه في حياته هذه مهما كبرت وصعبت وتعقّدت، وهل شيء أكثر من أن تؤدّي به إلى الموت، وهو لا يرى الموت إلّا مفتاح السعادة والخلود الأُخرويّ، كما أنّه يستحقر اللذائذ والمسرّات المادّيّة، باعتبارها شيئاً زائلاً حائلاً ضئيلاً تجاه اللذائذ والمسرّات الأبديّة التي تواجهه في حياته الثانية.



ومن هنا قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المؤمنين - على ما روي عنه -: «صبروا أيّاماً قليلة أعقبتهم راحةٌ طويلة»[1]، وفي بعض الأخبار - على ما أتذكّر (ما مضمونه) - أنَّ الفرد الذي عانى المصاعب المحلّلة في الحياة كالمرض والفقر، حين يرى مقدار ما أُعطي لقاءه من ثواب، يتمنّى في نفسه أن لو كان مريضاً طول حياته وفقيراً كلّ دهره، لكي ينال المزيد من هذا الثواب[2].

وغنيٌّ عن التنويه أثر مثل هذه الفكرة الواعية على السلوك الشخصيّ

---

(١) نهج البلاغة (شرح محمّد عبده) ٢: ١٦١، من خطبةٍ له في وصف المتّقين، وهي التي صعق لها همّام فمات من ساعته، الخطبة ١٩٣. وفيه: «صبروا أيّاماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة ...».

(٢) راجع باب ثواب المرض من كتاب الكافي ٣: ١١٣، وما بعدها، وباب فضل فقراء المسلمين من كتاب الكافي أيضاً ٢: ٢٦٠، وما بعدها.

والاجتماعيّ للإنسان المسلم، ومقدار ما يمكن أن يقوم به من تضحياتٍ جسامٍ في سبيل مصلحة دينه ومجتمعه.

فهذان هما الحقلان الرئيسيّان لتأثير الفكرة الواعية للموت في نفس المسلم من حيث الإحساس والسلوك، ومن الواضح أنَّ هذا التأثير إذا كان فرديّاً، فأيّ نتائج كبرى سوف يمكن الحصول عليها لو أصبح هذا التأثير اجتماعيّاً، ومن هنا لابدَّ أن نحصل على فكرةٍ في هذا الصدد ضمن الحقول الآتية بنفس الترقيم السابق.

الحقل الثالث: تأثير الفكرة الواعية للموت في الدعوة إلى الإسلام وتبليغ أحكامه وتعاليمه، وذلك بإعطاء هذه الفكرة الواعية إلى الآخرين، ونشرها بين أبناء المجتمع المسلم؛ فإنَّه لا ينبغي لنا هنا أن نحتكر ما نعلمه من الحقائق، وليس للعالم أن يكتم علمه، وإلَّا فهو شيطانٌ أخرس[1].

والموت عنصرٌ قويٌّ شديد التأثير في حقل التبليغ ونشر الهداية الواعية، باعتبار رسوخه ووضوحه في أذهان الناس، بمختلف طبقاتهم وقوميّاتهم وحيثيّاتهم وعقائدهم. فليس هناك مَن لا يتوقّع الموت في نهاية المطاف.

والوظيفة الإسلاميّة للداعية الواعي هو استغلال هذا الموقف وتعميقه

---

(١) وفي ذلك قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٥٩. كما ورد عن أهل بيت العصمة والطهارة: «إنَّ الساكت عن الحقّ شيطان أخرس» و: «مَن كتم علماً نافعاً عنده، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نارٍ»، و: «ما أتى الله عزّ وجلّ عالماً إلَّا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحد». راجع عوالي اللئالي ٤: ٥٩، الجملة الثانية: في الأحاديث المتعلّقة بالعلم وأهله وحامليه، وأمالي الصدوق: ٣٧٧، باب كتمان العلم.

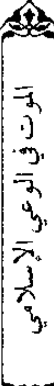
في أذهانهم، وإفهام الناس المدعوّين والمخاطبين بأنَّ هذا الموت الـذي ترهّبـوه وتوقّعوه يقتضي السلوك الإسلامي الـصالح، وذلـك بأحـد جوانـب ثلاثـة، مقتبسةٍ ممّا علمناه في الأُطروحة الواعية للموت.

الجانب الأوّل: تبليغ المفهوم الواعي للموت، بصفته الجسر القصير بين الحياة القصيرة للأعمال والحياة الأبديّة للثواب والعقـاب، ومـا يـستتبعه هـذا المفهوم من سلوكٍ صالح.

الجانب الثاني: تبليغ الجانب الإحساسي للموت، بأحـد الأنحـاء التـي عرفناها، من حيث إنَّ القهر الإلهي يستدعي الـشعور بالـذلّ تجـاه الله القـاهر الجبّار، هذا الشعور المستدعي للتوكّـل عليـه والتوجّـه إليـه، وبالتـالي طاعتـه والسلوك طبق إرادته. كما يقال إنَّ الموت يعطي فكـرة التـساوي بـين النـاس، تلك الفكرة التي تبعث على السلوك المستدعي للتـساوي بـين النـاس أيـضاً، طبقاً للتعاليم الإسلاميّة.

الجانب الثالث: عرض الجانب السلوكي للموت أمام أنظار المـدعوّين المخاطبين، بالنحو الذي عرفنا بأن نفهمهم بوضوح كيف أنَّ الفكـرة الواعيـة للموت لا ينبغي أن تكون مثبّطاً عن العمل وداعياً للتواكـل والكـسل، وإنَّـما هي داعيةٌ إلى الجدّ والعمـل، وإلى الجهـاد والمثـابرة في سـبيل العلـم والعمـل الصالح، وكيف أنَّه يوحي إلى النفس، باعتبار ما يستتبعه من الحياة الأبديّة من استصغار اللذائذ والمصاعب، وما ينتجه هذا الإحساس من أنحاء السلوك.

وإذا أصبح جميع أفراد المجتمع - والمجتمع إنَّما هو الأفراد- واعين لمثل هذه الأفكار الإسلاميّة إلى درجةٍ كافية، ولم ينحصر وعي ذلك على فـردٍ دون فرد، استطعنا أن نتصوّر ما الذي يمكننا أن نقتبسه على الصعيد الاجتماعي من



العمل الإسلامي المثمر البنّاء.

الحقل الرابع: تأثير الفكرة الواعية للموت في المجتمع عمليّاً، وما تنتجه فيه من المصالح والعدل والكمال، ويتجلّى ذلك في أحد جوانب أربعة:

الجانب الأوّل: تأثير الموت في الحدّ من الجريمة؛ فإنَّ موارد الحكم القضائي بالموت على الفرد المجرم في الفقه الإسلامي، متعدّدة تضمن بمجموعها اجتثاث عنصر الفساد والانحراف من المجتمع الصالح.

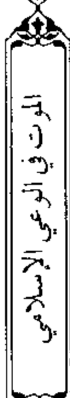
ويتّضح ذلك جليّاً من استعراض موارده، وكيف حدّد ذلك في الموارد التي يكون فيها عصيان للتعاليم الشرعيّة الإسلاميّة الكبرى، أو للعقائد الأساسيّة أو لبعض المقتضيات الرئيسيّة للأخلاق التي ترجع في النتيجة إلى كونها من بعض أوامر الإسلام الذي جاء بالخلق العظيم.

فالمشرك، والمحارب للإسلام من الكتابيّين، والمرتدّ عن الإسلام، والعصاة البغاة من المسلمين، وتارك الصلاة أو الصيام في شرائط معيّنة، ومكرّر السرقة في شرائط أيضاً، والذي يعيث في الأرض الفساد، وهو الذي ينشر في المجتمع الجريمة أو الانحراف، والزاني المحصن، والمنكر لبعض ضروريّات الدين، كلّهم سوف يواجهون مصيراً واحداً، هو الموت في القضاء الإسلامي العادل، فلو تصوّرنا تطبيقاً إسلاميّاً كاملاً، لاستطعنا أن نتصوّر المدى الكبير الذي يبلغه المجتمع من الطهارة والنقاء والسعادة والرفاه.

الجانب الثاني: تأثير الجانب الإحساسيّ من الفكرة الواعية الإسلاميّة للموت، بربط الجماهير بالله عزّ وجلّ؛ فإنَّ أقصى كمال الفرد هو أن يكون متذكّراً لله تعالى في جميع مفردات سلوكه، وكلّ أقواله وأفعاله، وقاصراً لها على إطاعة الله ورضوانه. وإنَّ أقصى كمال المجتمع وسعادته أن يكون ساعياً في

سبيل الله، مطبّقاً لتعاليم الله، متكوّناً من أفرادٍ متذكّرين لله عزّ وجلّ.

وهذا برمّته ينتج بنحوٍ رئيسيّ، ويكون من أسبابه المهمّة الجانب الإحساسيّ للموت في الإسلام؛ لما عرفناه كيف أنّه يعطي معنى الذلّ أمام الله والخشوع إليه والتوكّل عليه، المنتج لا محالة لجعل تعاليم الله عزّ وجلّ وحسابه وثوابه وعقابه نصب العين في كلّ مفردات السلوك في الحياة، وكيف أنّه يعطي معنى التساوي بين الناس، ويحمل السلوك على هذا الغرار في حدود التعاليم الإسلاميّة، فيرتفع الظلم الطبقيّ، ويتآخى أفراد المجتمع في العقيدة والعمل.



الجانب الثالث: تأثير الجانب السلوكي من هذه الأُطروحة الواعية في سيادة الأخلاق والمثل الصالحة في المجتمع.

فقد عرفنا كيف أنّ الموت يكون دافعاً على العمل الإسلامي، وكيف يكون موجباً لاستصغار اللذائذ والآلام، فإذا كان أفراد المجتمع كلّهم على إدراكٍ كافٍ لمثل هذه الأفكار، لاستطعنا جني أعظم الثمار والآثار عن هذا الطريق. فإنّه لن يكون حينئذٍ في المجتمع فردٌ تبطره اللذّة أو يقدّم مصالحه الشخصيّة أو يتوانى عن التضحية عند اللزوم أو عن الجهاد بالنفس والنفيس إجابةً للداعي الحقّ، أو عن إطاعة الدولة الإسلاميّة، في كلّ تشريعٍ وتطبيق.

الجانب الرابع: إعلاء معنى الموت واختيار الموتة الواعية الصالحة بالعزّ والجهاد باعتباره إحدى الحسنيين، عند وجود التكليف الإسلامي بذلك، كالجهاد بين يدي النبيّ صلى الله عليه وآله أو الإمام عليه السلام.

فإنّ الفرد بعد أن يُدرك بوجدانه أنّ الموت ممّا لابدّ منه، وأنّه لن يُكتب له الخلود في هذه الحياة، وأنّ أمره يدور بين أن يموت ميتةً خاملة لا ترفع له

شأناً ولا تعلي له ذكراً ولا تكسب له دنيا ولا آخرة، وبين أن يموت في الجهاد المقدّس أو في إحدى طرقه وسبله، مُرضياً ربّه وضميره، مؤدّياً واجبه تجاه دينه ومجتمعه، ويعلم باليقين بصفته مسلماً أنّه يستطيع باختياره أن يحدّد الميتة التي يتمنّاها من هاتين الميتتين، وذلك باعتبار قدرته على المقدّمات وعلى أنحاء إطاعة المنهج الإسلامي بعد أن هداه الله النجدين وأعطاه نعمة الإرادة والاختيار، فإنّه لا محالة سوف لن يفضّل شيئاً على الموت في طريق الجهاد وتحت ظلال السيوف عند وجود التكليف الإسلامي بذلك، فإنّ «الجنّة تحت ظلال السيوف»[1] كيف لا وهو يعلم ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[2]. فما أحراه أن يبذل نفسه وماله في طريق الجهاد ليحصل على السعادة الأبديّة؛ ليكون فائزاً في هذه التجارة حتّى وإن كان يعامل ربّه ودينه بمنطق المصلحة و«عبادة التجّار»، فضلاً عمّا إذا ارتفع إلى الأفُق الكبير، أُفق عبادة الله؛ لأنّه أهلٌ للعبادة[3].

ولنا من سلفنا الصالح وقادتنا الإسلاميّين أعظم عبرة وعظة في هذا السبيل؛ إذ نرى أمير المؤمنين عليه السلام حين ضُرب بسيف عدوّ الله، لم يتأوّه للقتل ولم يتأسّف على شيءٍ من حطام الدنيا، وإنّما قال: «فزتُ وربِّ الكعبة»[4]، ونرى

(١) بحار الأنوار ٣٣: ١٤، الباب الثالث عشر: باب شهادة عمار (رض)، الحديث ٣٧٥، ومستدرك الوسائل ١١: ١١، أبواب جهاد العدو، الباب ١، باب وجوب الجهاد على الكفاية ...، الحديث ١٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٣) تقدّم تخريجه عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام.

(٤) مناقب آل أبي طالب (لابن شهر آشوب) ١: ٣٨٥، وخصائص الأئمّة (للشريف الرضي): ٦٣، إخباره ابنته زينب عليها السلام بمقتله.

عمرو بن الجموح في غزوة أحد يقول: والله إنّي لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنّة[1]، ونرى زهير بن القين يستأذن الحسينعليه السلام للموت بين يديه ويقول[2]:

فاليوم ألقى جدّك النبيّا وحسناً والمرتضى عليّا

وذا الجناحين الفتى الكميّا وأسد الله الشهيد الحيّا

فهو ليس فقط لا يهاب الموت، ولا أنّه شاعرٌ بمسؤوليّته ودوره في جهاده المقدّس مع الإمام الحسينعليه السلام، بل إنّه يتمجّد بأبطال الإسلام السابقين جعفر الطيّار، وحمزة أسد اللهعليهما السلام، ويعلم أنّه سالكٌ سبيلهما ومقتفٍ أثرهما.

كما أنّه لم يلفت نظره من الجنّة المنتظرة والثواب الموعود، والحياة الأبديّة التي يواجهها، لم يلفت نظره فيها شيءٌ من المأكل والملبس والنساء والرفاه الموصوف في القرآن، وإنّما المهمّ عنده أعلى من هذا وأسمى، وهو حصول اللقاء مع النبيّصلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين والحسن الزكيّ، يلاقيهم بصفته المطبّق الأمين لدعوتهم والجنديّ الصالح في جهادهم.

وهذا العنصر الأخلاقيّ الكبير الذي يعبّر عنه زهير بن القين هو الذي ورد - بنحوٍ أو بآخر - في بعض الأخبار التي تدلّ - بما مضمونه - على أنّه بعد

---

(١) راجع بحار الأنوار ٢٠: ١٣٠، الباب ١٢، باب غزوة أُحد وغزوة حمراء الأسد، وأُسد الغابة ٢: ٣٤٩، والمنتظم في تاريخ الأُمم والملوك ٣: ١٩٢، عمرو بن الجموح بن زيد.

(٢) راجع الأمالي (للصدوق): ٢٢٤، مقتل الحسينعليه السلام، والإرشاد (للمفيد) ٢: ١٠٥، استشهاد أصحاب الإمام الحسينعليه السلام، وروضة الواعظين (للفتّال النيسابوري): ١٨٦، في مقاتلة الأصحاب (رض).

أن ينتهي الحساب يوم القيامة ويدخل أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النـار، يُقال لأهل الجنّة: هذا الثواب كلّه لكم، ولكم ما هو أعظم من ذلـك وأكـبر، وهو رضاء الله عزّ وجلّ، ويُقال لأهـل النّـار: هـذا العـذاب كلّـه عليـكم، وعليكم ما هو أدهى وأمر، وهو غضب الله عزّ وجلّ وسخطه.

ومن هنا نعرف أنَّ الفكرة الواعية الدقيقة للثواب والعقاب، هو النعيم والجحيم الأخلاقي الروحي، فإنَّه أسمى وأعقد ممّا ينالونه في حياتهم الأبديّـة في الدار الأُخرى من ثوابٍ وعقابٍ ماديَّين جسديَّين، وليس معنى ذلـك هـو القول بالمعاد الروحاني الذي اقتضت ضرورة الـدين نفيـه، وإنَّـما المقـصود أنَّ الجانب الماديّ الجسديّ وإن كان موجوداً، إلَّا أنَّ العنصر الرئيسيّ الذي يرقـى بالعبادة والطاعة عن «عبادة التجّار» هو الجانب الأخلاقيّ الروحـيّ والقـرب أو البعد المعنويّ عن الله عزّ وجلّ إلى جانب القـرب أو البعـد الجـسدي عـن النبيّ ﷺ والأئمّة عليهم السلام.

وإنَّما يكون الثواب شرفاً وكمالاً للإنسان بصفته موهوبـاً ليكـشف عـن هذا القرب، كما أنَّ العقاب إنَّما يكون خزياً وخسراناً بصفته كاشفاً عـن ذلـك البعد، وبذلك تتعالى درجات الجنان وتتسافل دركات النيران.

وإنَّ هذه الأُطروحة الواعية للموت بعد تطبيقها سـلوكاً حيّـاً في حيـاة الإنسان، لكفيلة بكفكفة رهبة الإنسان من الموت، وتقليل درجة الخـوف منـه والهرب منه، إلى حدٍّ بعيد. بل إنَّه لمن المستطاع القول: إنَّ الفرد الواثق من أعماله الصالحة وسلوكه الطيّب وعقيدته السليمة، والآمل لثواب الله تعـالى وجزائـه، ليشتاق الموت اشتياقاً وينساق نحـوه انـسياقاً بـسرور خـاطرٍ ورضـاء ضـمير، وكيف لا يشتاق والموت لابدَّ منه، فخير له أن يجعله طريقاً إلى الفوز المقيم.

وإنَّما يخاف الإنسان من الموت ويرهبه، إذا اعتقد أو احتمل سوء العاقبة بعده، والوقوع في عذاب الله تعالى وغضبه، وذلك لا يكون إلّا للوقوع في المعاصي وعدم الوثوق بالعمل الصالح، قال الله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[1]. فسوء الاختيار والسلوك المنحرف هو الذي يوجب الوقوع بالعقاب، ومن ثَمَّ الرهبة من الموت والخوف منه بصفته طريقاً إليه.

الحقل الخامس: السلوك الواعي خلال مواسم تذكّر الموت، فإنَّ هذه المواسم سواء كانت خاصّةً أو عامّة، توجب - لا محالة- الخروج من الغفلة الاعتياديّة، التي يعيشها الفرد العادي، والغفلةُ عن الموت أثناء السلوك في الحياة، يعتبر من أعظم النعم الإلهيّة على الإنسان، حيث أعدّ ذهنه لنسيان أكبر كارثةٍ موعودةٍ لابدَّ أن تقع عليه؛ فإنَّ تذكّر الموت على الدوام لو وجد في ذهن الفرد لكان موجباً حتماً، إلَّا فيمَن عصم الله تعالى أو وفّقه إلى درجةٍ عليا من الوعي، موجباً لكفكفة نشاط الإنسان وقلّة اهتمامه بحياته ومعيشته إلى حدٍّ يفسد معه المجتمع ولا يقوم فيه نظامٌ ولا علاقاتٌ بين الأفراد، وهو ما لا يريده الله تعالى لخلقه، فصرف أذهانهم عن تذكّر الموت لكي تصلح معايشهم وتستقرّ أُمورهم، ويمكن استتباب العدل فيهم.

إلّا أنَّ هذه الغفلة يجب إعلاؤها إلى المستوى الواعي، شأنها في ذلك شأن سائر المفاهيم الإسلاميّة، فيجب استغلال الغفلة، وهي الفرصة الواسعة للعمل، استغلالها في سبيل العمل الصالح الواعي البنّاء وتطبيق تعاليم الإسلام، فيكون الفرد غافلاً عن الموت ذهنيّاً وذاكراً له عمليّاً؛ لأنّه لا زال

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٤- ٩٥.

يسلك السلوك الذي يقتضيه الفهم الواعي للموت نفسه، وهذا معنى الغفلة الواعية وإعلائها إلى المستوى المطلوب، أمّا الفرد غير الواعي فيكون غافلاً ذهنيّاً وعمليّاً معاً، ومستغلاً للغفلة في سبيل مصالحه الشخصيّة وانحرافاته الجسديّة والعقائديّة.

ولئن كان التذكّر الدائم للموت على خلاف المصلحة، لأغلبيّة الأفراد، فالغفلة الدائمة عنه مضرّةٌ أيضاً؛ باعتبار ما توجبه في غالب الأفراد، من البطر وتبلّد الفكر الأخلاقي الموجب لتفضيل المصالح الشخصيّة والانحراف في نهاية المطاف، ولا يكاد يتيسّر للفرد الاعتيادي رفع الغفلة إلى المستوى الواعي ما لم يذكِ أوارها بتذكّر الموت ورفع الغفلة رفعاً فعليّاً ذهنيّاً بين حينٍ وحين.

وإنَّ مواسم تذكّر الموت لتتكفّل ذلك بكلٍّ جدارةٍ ووضوح، سواء كانت شخصيّة، كما لو مات بعض أقرباء الفرد أو أصدقائه، أو كانت عامّة، كما في ذكرى وفاة النبيّ ﷺ أو أحد الأئمّة عليهم السلام، أو أحد العلماء أو الشهداء عليهم الرحمة والرضوان.

ومن ثَمَّ تكون الوظيفة الإسلاميّة للسلوك الواعي في أثناء هذه المواسم عدّة جوانب:

الجانب الأوّل: مكافحة استشراء الغفلة ودوامها بالنحو الذي ينتج النتائج المضرّة بالفرد والمجتمع، واستغلال هذه المواسم لاستشعار المفهوم الواعي للموت، وكيفيّة إعلاء الغفلة عنه إلى المستوى الواعي المنتج للسلوك البنّاء والعمل المثمر.

الجانب الثاني: عدم الجزع عند موت الآخرين، كالقريب والنسيب والصديق، وعدم الاعتراض على القدر الإلهي باخترامه؛ طبقاً لقول رسول

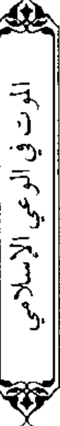
الله صلى الله عليه وآله – على ما روي عنه-: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يغضب الرب»[1].

ويكون ذلك بأن يستحضر الفرد في ذهنه أفكاراً ثلاثة:

الفكرة الأُولى: المفهوم الواعي للموت، وأنّه ليس إلّا طريقاً بين حياتين وجسراً بين نشأتين، وليس ظلماً أو إجحافاً أو يحتوي على مفسدة بأيّ شكلٍ من الأشكال، مضافاً إلى ما يتضمّنه هذا المفهوم الواعي من الشعور بالمساواة بين الناس، وما تقتضيه الضرورة الوجدانيّة من وقوعه على كلّ أحد، والمصيبة إذا عمّت هانت، كما يقول المثل.

الفكرة الثانية: أنَّ موت هذا الشخص مطابقٌ لمصلحته لا محالة، وكلّ ما هو مطابقٌ للمصلحة لا معنى للجزع منه؛ وذلك: أنَّ هذا الميّت لابدَّ أن يكون قد عمل في حياته أعمالاً حسنة، ونوى نيّاتٍ صالحة، فهو لابدَّ أن ينال ثوابه، أو أنَّه قد عمل أعمالاً سيّئة، فلابدَّ من أن ينال عقابه، أو أن يفوز برحمة الله وغفرانه.

الفكرة الثالثة: أنَّ موت هذا الشخص مطابقٌ للمصلحة العامّة، بل الضرورة البشريّة القاضية بذلك، وذلك التفاتاً إلى أنَّ هذا الفرد إذا كتب له الخلود، فإمّا أن يكون ذلك خاصّاً به أو عامّاً لكلِّ البشر، بمعنى إلغاء قانون الموت أصلاً، فأمّا الاختصاص فلا سبيل إليه، وهو ممّا لم يحدث للأنبياء



---

(١) الكافي ٣: ٢٦٢، كتاب الجنائز، باب نوادر، الحديث ٤٥، دعائم الإسلام ١: ٢٢٤، ذكر التعازي والصبر، وسائل الشيعة ٣: ٢٨٠، كتاب الطهارة، أبواب الدفن، وما يناسبه، الباب ٨٧، باب جواز البكاء على الميّت والمصيبة، واستحبابه عند زيادة الحزن.

والأولياء، فكيف بالآخرين، على أنّه مناقض مع القانون التكويني الذي أعرب عنه الله تعالى في القرآن الكريم بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[1].

وأمّا إذا كان عدم الموت عامّاً لسائر البشر، فإنَّ الذي سيحدث عندئذٍ على ما هو موافقٌ للأخبار وللاعتبار، هو أنّه سيقف كلّ سبعين فرداً على شبرٍ واحدٍ من الأرض[2]، ومعنى ذلك: امتلاء كلّ البسيطة اليابسة على وجه الأرض، بالبشر إلى حدّ التخمة، وهذا الرقم وإن كان تقريبيّاً وواردأً مورد بيان الكثرة دون التحديد، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾[3]، إلّا أنَّ المقطوع به جزماً هو تكاثر البشر إلى حدٍّ يمتنع منه النظام وإزجاء الحاجات والقيام بالمصالح، بل إنَّ ذلك ليحدث جزماً فيها إذا ارتفع الموت مئة سنة، فضلاً عن البشريّة بتاريخها الطويل، مضافاً إلى أنّه موجبٌ لكثرة المشوّهين والمساكين وقلّة الأرزاق وغير ذلك من الويلات.

إذن، فالموت باعتبار كلّ ذلك نعمةٌ ومصلحةٌ وضرورة، فلماذا الجزع ولماذا الاعتراض على القدر؟

الجانب الثالث: استغلال مواسم تذكّر الموت في إفهام أُطروحة الموت الواعية للآخرين، ودفعهم على العمل بموجبها؛ وذلك لأنَّ هذه المواسم تجمع عادةً مئاتٍ من الناس في مكانٍ واحدٍ، قادتهم مختلف الدوافع لأجل الترحّم على الميّت أو شهود ذكراه، في حين إنّك لو أردت أن تحضر الفرد بدون دافعه الذاتي لما كان على استعداد أن يغضّ النظر عن مصالحه ومطامحه

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٢) راجع نحوه في الكافي ٣: ٢٦٠، كتاب الجنائز، باب نوادر، الحديث ٣٦.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٨٠.

في سبيل مصالحك ومطامحك، ما لم تبذل لكلّ فردٍ منهم عشرات بل مئات الدنانير، فيكون ما ينفق على المجموع مقدّراً بمئات الألوف؛ قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[1]، إذن فهؤلاء القوم اجتمعوا مجّاناً، ولابدَّ في الوعي الإسلامي، من استغلال اجتماعهم في سبيل هدايتهم وكمالهم وتبليغهم الكلمة الإسلاميّة الصالحة الواعية.

على أنَّ مواسم تذكّر الموت كثيرةٌ متعدّدة، ممّا يوجب تعدّد وتكرّر اجتماع الناس على مختلف المستويات والحيثيّات، ولا ينبغي للداعية الواعي أن يفوّت أيّ اجتماعٍ من هذه الاجتماعات من دون تبليغٍ وهداية؛ فإنّها الفرص الكبرى لذلك، بل تكاد أن تكون بمجموعها الفرصة الوحيدة التي لا يجود الدهر بمثلها إلّا نادراً.

وما دام الاجتماع منعقداً لأجل الترحّم على ميّتٍ أو تذكّر تاريخ ميّت، فالمناسبة منفتحةٌ وخصبةٌ لأجل إفهام فكرة الموت الواعية إلى الآخرين المخاطبين، والانطلاق من منطلق المناسبة إلى الحديث الذي عرفناه بجوانبه المتعدّدة، مع التأكيد على أنَّ فكرة الموت تكون باعثةً على العمل والإخاء، لا على الكسل والبغضاء.

الجانب الرابع: استغلال هذه الاجتماعات المتكرّرة، ليس فقط لعرض الأُطروحة الواعية عن الموت بالتعيين، بل لعرض كلّ مفاهيم الإسلام الواعية وتعاليمه العادلة؛ فإنَّ الناس في حاجةٍ إلى الهداية من كلِّ وجهٍ وسبيل، والتبليغ واجبٌ في الشريعة، وإنَّ من أخصب الفرص لعرض أيّ فكرةٍ من

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٣.

أفكار الإسلام على مسامع الناس هو ما يكون خلال هذه المواسم وهذه الاجتماعات.

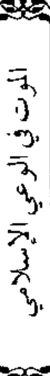
وإنَّ من المؤسف حقّاً أن تتكرّر أمثال هذه الاجتماعات وتتعدّد ولا تُستغلّ في عرض المفاهيم الإسلاميّة الواعية، بالرغم من حاجة الناس وما يعانونه من الفراغ العقائديّ المروّع والانحرافات ذات الزوايا الحادّة من ناحية، ووجود المبلّغين القادرين على العمل من ناحيةٍ أُخرى. فإمّا أن لا تستغلّ هذه الاجتماعات أصلاً، أو تُستغلّ بكلامٍ خاصٍّ بالميّت في تأبينه ومدحه، أو بكلامٍ توجيهيّ غير واعٍ، كأنّه كُتب على الدعاة الإسلاميّين أن يكونوا من أبعد الناس عن القيام بوظيفتهم المقدّسة.

الجانب الخامس: استغلال ذكرى البطولات الإسلاميّة في استجلاء معانيها الواعية، ومحاولة السير على طبقها والاقتداء بها؛ فإنَّ ذكريات وفيات أبطال الإسلام، وعلى رأسهم النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام، وبخاصّة الإمام الحسين عليه السلام، من أخصب هذه المواسم التي عرضناها في هذا الحقل الخامس، وأغزرها مادّةً وأضخمها اجتماعاً وأعظمها أهمّيّةً في الإسلام.

وكما يجب أن تُستغلّ هذه المواسم الكبرى في تبليغ سائر مفاهيم الإسلام الواعية الصحيحة، باعتبار حقيقة أنَّ الاجتماع كلّما كبر وكلّما تعدّد، كانت الدعوة أضخم والتبليغ أوسع، كذلك يجب أن لا يُغفل جانبٌ مهمٌّ في المفهوم الإسلامي الواعي، والانطلاق من المناسبة ذاتها إلى التعريف بالبطل الإسلامي المجاهد، صاحب هذه المناسبة، وما قام به من أعمالٍ وجهاد، وما اتّصف به من خصال، وعرضه بالنحو الواعي الذي يكون موجباً لتكامل معارف السامعين وعمق ثقافتهم من ناحية، وموجباً لدفع هممهم وضمائرهم

للسير على طبق تلك الأعمال والاقتداء بها، باعتبار حقيقة أنَّ المسلم بصفته مسلماً له الأُسوة الحسنة برسول الله ﷺ، وسائر القوّاد الإسلاميّين، والذين أسّسوا الدين بوعيهم وجهادهم، ورسّخوا أركان الإسلام بأعمالهم وأقوالهم، ويكفي الفرد العادي أن يفهم أنّنا لا زلنا بعدما يزيد على الألف سنة نذكرهم ونتمجّد بهم، فهلّا عمل هو عملاً مشابهاً لأعمالهم من قريبٍ أو من بعيد، ليضمن لنفسه الذكر الحسن في أذهان الناس على مرّ السنين.

وللفرد السامع أن يعترض ويقول: بأنَّ ذلك محتاجٌ إلى درجةٍ من الثقافة الإسلاميّة المعيّنة، وظروفٍ خاصّةٍ يحين فيها داعي العمل الجهادي، وهي غير متوفّرةٍ لديه، وعلى الداعية الإسلامي ساعتئذٍ أن يرعاه وأن يمدّه بالثقافة ويهيّئ له الظروف بحسب الإمكان، ويفهمه بأنَّ داعي العمل الجهادي متوفّر على الدوام. كلّ ذلك لأجل أن لا تكون الأُسوة الحسنة حبراً على ورق، أو هواءً في شبك، وإنَّما تكون شجرةً مثمرةً أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كلّ حينٍ بإذن ربها.



الحقل السادس والأخير – وهو يعتبر كالهامش للحقول الخمسة السابقة–: وهو أنّك لو خُيّرت بين أن تبقى على وجه الأرض عمراً واحداً أو عمرين، لاخترت العمرين لا محالة، بل إنَّ الإنسان ليختار أن يضاف إلى عمره يومٌ واحدٌ أو سنةٌ واحدة، أو عددٌ قليل من السنين، فكيف لو ضمن له ضامن بأن يكون العمر الثاني أطول من العمر الأوّل بكثير، وأوسع شهرةً وأغزر ثواباً، وأبعد عن المعاصي والمصالح الشخصيّة، ومواطن الزلل والشبهات.

إنَّ هذا العمر الثاني ليخدم صاحبه ويساهم في رفع شأنه في الدنيا

والآخرة، أمّا في الدنيا فكما قال الشاعر[1]: والذكر للإنسان عمرٌ ثاني.

وأمّا في الآخرة، فلما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إذا مات المرء انقطع عمله إلّا من ثلاث: **كتابِ علم ينتفع به، وولدٍ صالح يستغفر له، وصدقةٍ جارية**»[2].

فإنَّ الإنسان إذا فارق هذه الأرض، انقطع - لا محالة- عن سائر مجالاتها ونشاطات الحياة فيها، والمهمّ من ذلك عدّة جوانب:

الجانب الأوّل: انقطاعه عن سلسلة تفكيره مهما كانت وجهتها ومستواها، فإن كان مفكّراً أو أديباً أو عالماً أو داعياً، انقطع عمّا كان يفكّر به، وانقطعت إفادته المباشرة لمجتمعه لا محالة، ونحن وإن كنّا نؤمن ببقاء الفرد على ثقافته في الجملة في حياته الثانية، إذا كانت مطابقةً للواقع؛ لانحفاظ نفسه الناطقة وعقله الحامل لهذه الأفكار، إلّا أنَّ بقاءه على نفس المستوى ونفس الطريقة في التسلسل الذي كان يتبعه في دار الدنيا وانفساح فرصة التفكير النظري لديه بعد ذلك، كلّ ذلك غير محرزٍ على كلِّ حال، وانقطاعه عنه ضروريّ الوضوح.

ومن هنا، كان لابدَّ للفرد إذا أراد أن يحقّق لنفسه العمر الثاني في هذه الدنيا، أن يضاعف جهده في حياته، لكي يبقى تفكيره حيّاً نابضاً مثمراً بعد موته، نافعاً للناس، هادياً للمجتمع، وذلك بتسجيل سلسلة أفكاره ونتائجها على صفحات المؤلّفات وربطها بقيود العبارات، حتّى تبقى في التراث البشريّ

---

(١) أُنظر: سرائر الأمثال (للأصفهاني): ٢٩.

(٢) الانتصار (للمرتضى): ١٩٨، قضاء الصوم عن الميّت، وعوالي اللئالي ١: ٩٧، الفصل السادس: في أحاديث أُخرى من هذا الباب، الحديث ١٠.

خالدةً مع الدهر، يذكّره بها وينتفع بواسطتها كلّ قارئ.

ويكفينا موعظةً حسّيّةً في هذا الصدد ما نراه موجوداً من ثمار أفكار الأقدمين، كعلمائنا وسلفنا الصالح (قدّس أسرارهم) حيث بقيت بعدهم عدّة مئات من السنين، ولعلّها لا تكون قابلةً للزوال والنسيان إلى يوم يبعثون، تضمن لأصحابها عمرهم الثاني الأطول والأشهر من العمر الأوّل، والأبعد عن المعاصي والمصالح والشبهات، فهلّا يكون الفرد سائراً في هذا السبيل، ومنتهجاً هذا النهج القويم.

الجانب الثاني: انقطاعه عن أمواله وثروته، إن كان واجداً للثروة في هذه الحياة وانتقالها إلى ملّاك جدد، بحيث لا يستطيع بعدها أن يصرفها لا في مصالحه الخاصّة ولا العامّة، وأنَّ أفضل طريق يخدم به مجتمعه ويضمن بأمواله عمره الثاني هو أن يصرفها في تأسيس المؤسّسات النافعة والقناطر الخيريّة، كالمساجد والمدارس والقناطر والجمعيّات والأوقاف الخيريّة وغير ذلك من وجوه البرّ؛ لكي تبقى بعده تثمر الخير للمجتمع على مدى الأجيال، لتكون «صدقة جاريّة» كما قال النبيّ صلى الله عليه وآله[1].

الجانب الثالث: انقطاعه عن مجتمعه وفراقه لبني جنسه، من أقرباء وأصدقاء وأولاد، ومَن كان يعرفهم ويعرفونه ويفهمهم ويفهمونه، ينقطع عنهم انقطاع الأبد الذي لا رجاء معه إلى عودةٍ ورجوع.

ومن ثَمَّ يجب أن يؤسّس في أذهان هؤلاء عمره الثاني؛ وذلك: بأحد أُسلوبين يختلفان باختلاف الأفراد الذين يأخذهم بنظر الاعتبار:

الأُسلوب الأوّل: وهو ما يكون بالنسبة إلى سائر أفراد المجتمع الذي

(١) مرّ تخريجه سابقاً.

يواجهه الإنسان، وخاصّة مَن كان منهم صديقاً، أو عريفاً أو قريباً، حيث يجب على الإنسان أن يزرع في أذهانهم الذكر الحسن والأثر الطيّب، بحيث يحترمونه إذا وجدوه، ويذكرونه إذا افتقدوه، ويتأسّفون لفوته إذا مات، وهو الذكر الذي اعتبره الشارع عمراً ثانياً، وهو لعمري كذلك، إلّا أنّه غير منحصرٍ به كما أوضحنا.

الأُسلوب الثاني: وهو ما يكون بالنسبة إلى أولاده على وجه الخصوص، حيث يجب أن يربّيهم التربية الصالحة، ويزرع فيهم الثقافة الإسلاميّة الواعية، والإحساس الدينيّ والأخلاق الفاضلة، التي تضمن للوالد القيام بواجبه من ناحية، وبأن يترحّم عليه أولاده بعد موته، ويرسلوا إليه من ثواب أعمالهم الصالحة الشيء الكثير، وهذا لا ينتج لا محالة من التربية المتسيّبة غير الهادفة وغير الواعية، بل يحتاج جزماً إلى أن يضاعف الوالد جهده لكي يصنع من ولده أو أولاده، ثماراً إسلاميّة صالحة وأفراداً بنّاءة للمجتمع الإسلامي، وهم الذين يذكرون والدهم بالخير وبالعمل الصالح، وينفعونه في حياته وبعد مماته، وهم مصداق قوله ﷺ: «**ولد صالح يستغفر له**»[1]، لكي يزيد في ثوابه أو يقلّل من عقابه في حياته الأبديّة.

فبكلّ هذه الجوانب يستطيع الفرد أن يحرز عمره الثاني وذكره الطيّب في الأذهان، ويستطيع إلى جانب ذلك أن يحرز بقاء عمله الطيّب في دار الأعمال، ويبقى كأنّه حيٌّ عاملٌ ينتج الخير لإخوانه، والثواب لنفسه، وذلك ببركة الحديث النبويّ الشريف والضرورة الإسلاميّة القاضية بذلك، فيصبح الفرد كأنّه يعيش في كلتا النشأتين في نفس الوقت، وينال ثواب عمله عند صدوره،

(١) مرّ تخريجه سابقاً.

فيكون العمر الثاني من هذه الناحية أكثر خيراً من العمر الأوّل، فإنَّ الإنسان إذا أفاد شخصاً فكرةً إسلاميّةً واعيةً في عمره الأوّل، حصل على ثوابها والقرب الإلهيّ بمقدارها، ولكنّه ثوابٌ مؤجّل إلى الحياة الأُخرى.

وأمّا إذا كان له كتابٌ باقٍ على مدى الأجيال، وقرأه بعد موته شخصٌ واستفاد منه الفكرة الواعية، ففي الحقيقة إنَّ نفس المؤلّف قد أفاده، بدليل أنّه لو لم يؤلّف الكتاب لما وصلت إلى القارئ هذه الفكرة الواعية. إذن، فيستحقّ المؤلِّف على ذلك الثواب لا محالة، وثوابه في مثل ذلك يكون آنيّاً؛ لأنّه يحيا فعلاً بعد موته في دار الجزاء، فيأخذ جزاءه نقداً قسماً بعد قسم.

فهذه هي الأُطروحة الواعية للموت في المفهوم الإسلامي، الأُطروحة التي تصنع من الموت حياةً وخيراً، ونفعاً واعياً بنّاء، بدل أن تبعث على الكسل واليأس، والقنوط بالفهم المتحنّث القديم[1].

الأربعاء ٢٥/ ١٢/ ١٣٨٩

الموافق ٤/ ٣/ ١٩٧٠

محمّد الصدر

(١) أُلقيت في قاعة المحاضرات الكبرى في مكتبة آية الله الحكيم العامّة في [مدينة] الديوانيّة، بحضور جمع غفير قدّر بما يزيد على الألف، بتاريخ مساء السبت: ٢١/ رمضان/ ١٣٩٠ = ٢١/ ١١/ ١٩٧٠ (منهﷺ).





مسؤولية الدعوة في خير الأمم

مسؤوليّة الدعوة في خير الأمم[1]

(١)

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2]، وهذا هو الصحيح، وهذه هي نقطة الحقّ النيّرة التي ليس وراءها إلّا الضلال.

فإنَّ الأُمّة إنّما تكون حسنةً وراقيةً ومحمودةً لدى العقل والعقلاء، إذا كانت في سبيل تطوير نفسها وتكميلها والرقيّ بثقافتها وأفكارها وعقائدها وأعمالها من الحسن إلى الأحسن؛ فإنَّ السعي نحو الكمال هو الغريزة الفطريّة الأُولى في الطبيعة البشريّة طبقاً للقانون الكونيّ العامّ في التكامل الذاتي.

إذن، فإتباع الفرد لهذا القانون الفطريّ واستجابته لندائه، هو السلوك العادل الصحيح الذي يماشي به فطرته ويسير فيه على ضوء وجدانه.

ولا جرم أنَّ السعي نحو الكمال لابدَّ وأن يكون ضمن منهجٍ معيّنٍ مدروس؛ ليكون هو الطريق الأسهل والأضمن للوصول إلى الكمال، فإنَّ الفوضى واللامنهجيّة في السلوك، لا يمكن أن تضمن للإنسان أيّ نوعٍ من الكمال. ولهذا اتّجهت البشريّة إلى وضع المناهج وسنّ القوانين لتنظيم نفسها والصعود بمستواها. وانطلاقاً من هذا السبب بالذات، أرسلت الحكمة الإلهيّة الأديان والتشريعات لكي تقود البشريّة من الظلمات إلى النور وتهديها

(١) [تاريخ كتابة البحث] السبت: ٨/ ٣/ ١٣٨٤ = ١٨/ ٧/ ١٩٦٤ (منه قدس سره).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

إلى الصراط المستقيم.

فكانت هذه الأديان الإلهيّة هي المناهج الفضلى والدساتير الصحيحة، للسير بالبشريّة نحو كمالها المنشود، والتطوّر في درجات ذلك السلّم الطويل، كلّ دينٍ بحسب مستوى العقليّة البشريّة في عصره، وكيف لا تكون هي المناهج الفضلى وقد تفضّلت بإنزالها إلى البشر الحكمة الإلهيّة اللانهائيّة، خالقة البشر، والمسيطرة عليهم، والعالمة بخصوصيّات آمالهم وآلامهم، وأين ذلك من الذهن البشريّ القاصر الذي يمتلكه المشرّع القانوني، ذلك المشرّع الذي يعيش في برجه العاجي، لا يعرف من خصوصيّات المجتمع الذي يعيش به ولا حقائق نفوس أفراده إلّا السطح الظاهري، والموجات الاجتماعيّة العامّة السائدة، لا يستطيع بحالٍ أن ينفذ إلى الأعماق، إلى ما تعجّ به النفس البشريّة من عواطف وأحاسيس، وما تغلق عليه البيوت أبوابها من مشاكل وآلام.

(٢)

ولمّا كانت العقليّة البشريّة في تطوّرٍ دائمٍ من حيث قابليّتها للتوجّه نحو الكمال، كانت المناهج التي يجب أن تسود فيها لتستطيع أن ترتقي بها نحو غايتها الفضلى، مختلفةً وذات تفاصيل متباينة. ومن هنا أرسلت الحكمة الإلهيّة مناهج وتعاليم متعدّدةً تصلح لقيادة البشريّة في كلّ فترةٍ من فترات تطوّرها، فكانت البشريّة عندما تصل إلى مرحلةٍ معيّنةٍ من التطوّر، بمقتضى اتّباعها المنهج الإلهي الذي كان سائداً بين ظهرانيها، يكون هذا المنهج قاصراً عن الأخذ بيدها في طريق التطوّر؛ لأنّه إنّما كان يصلح لذلك في المرحلة السابقة. إذن، فينبغي أن يتنازل هذا المنهج عن حقّه في الوجود بعد أن قطعت البشريّة هذه المرحلة بنجاحٍ تامّ، عندئذٍ يرد إليهم دستورٌ جيّد من قبل خالقهم الرحيم

العظيم؛ لكي يضمن لهم من جديد، السير التكاملي بخطىً ثابتةٍ وواسعةٍ وبأفضل نحو ممكن.

وهكذا تستمرّ البشريّة صاعدةً نحو الكمال، بهمّةٍ ونشاط، واستمرارٍ في ظلّ التعاليم الإلهيّة، وبالنور الذي تكشف به لها ظلمات الضلال.

وعندما بلغت البشريّة قمّة قابليّتها للتطوّر والنموّ، وأعلى ما يمكن أن تصله من الوعي الذهني الروحي، كان أن سقط المنهج الذي كان متّبعاً بين ظهرانيها عن قابليّة التوجيه والتنظيم، وكان أن أرسل الله عزّ وجلّ منهجاً جديداً لكي يقود البشريّة نحو الكمال في سيرها الجديد، وكان لابدَّ لهذا المنهج أن يساير البشريّة إلى خاتمة المطاف، ولا يمكن أن يتبدّل بعد أن بلغت البشريّة أقصى ما يمكن أن تصله من الوعي الروحي وقابليّة التطوّر والكمال، ولا يمكنها أن تتطوّر في هذا المضمار بعد ذلك قيد شعرة.

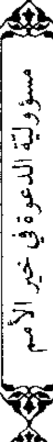
نعم، ينبغي لها الآن أن تأخذ بهذا المنهج الإلهيّ الجديد، وهي في أوج وعيها وقابليّتها للتكامل؛ لكي يسير بها نحو ذلك الكمال المنشود.

ومن هنا كان هذا الدستور الجديد خالداً مع البشريّة ما دامت هي على قيد الحياة، ومن هنا كان «**حلال محمّد حلال إلى يوم القيامة، وحرام محمّد حرام إلى يوم القيامة**»[1].

(٣)

إذن نعرف كيف أنَّ الأُمّة التي تعتنق مثل هذا الدين الخالد وتطبّق هذا المنهج الكامل، تكون خير أُمّةٍ أُخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن

(١) راجع في ذلك كتاب (أشعّة من عقائد الإسلام) للكاتب: ٤٨ (منه قدّس سرّه).



المنكر وتُؤمن بالله.

فإنَّ الأُمّة إنَّما تكون أُمّةً بما في هذه الكلمة من معنى، وبما تتضمّنه الأُمّة من خصائص ومميّزات، بالعقيدة التي تعتقدها، وبالنظام الذي تطبّقه دون اللغة والدم واللون والمصالح الضالّة الضيّقة.

فيمكننا أن نتبيّن بوضوحٍ كيف أنَّ الإسلام استطاع أن يجعل من المسلمين أُمّةً متماسكةً متراحمةً مخلصةً، لها خير ما للأُمم من خصائص ومميّزات، وذلك بقوّته المعنويّة العالية، التي استطاع بها أن يصهر الأمّة بروح الإيمان والتآخي في الله، والتعاون على البرّ والتقوى، ورفض التعاون على الإثم والعدوان ومعصية الرسول.

(٤)

ولّما كان الإسلام ديناً عالميّاً موجّهاً إلى البشر أجمعين وكافلاً لهم بالتعليم والتنظيم، كان على الأُمّة الإسلاميّة بجانب المحافظة على تعاليم دينها وتطبيقها بدقّة وإتقان ليسود العدل والرفاه في ربوعها، كان عليها أن تظهر للبشريّة ما لديها من كنزٍ إلهيّ خالدٍ ثمين، وما لديها من قوانين رشيدةٍ ونظمٍ دقيقة، وأن تطلب إلى البشريّة اتّباع قوانينها والاهتداء بهداها، عسى أن تتمكّن البشريّة من أن تلمّ شعثها، وأن تسير إلى جنب الأُمّة الإسلاميّة بخطىً ثابتةٍ رصينةٍ نحو كمالها المنشود.

إذن يكون على الأُمّة الإسلاميّة مسؤوليّةٌ مزدوجةٌ تجاه دينها الحنيف، من حيث الدعوة إليه ونشر تعاليمه، يمثّل أحد طرفي هذه المسؤوليّة وجوب الالتزام بخصوصيّات التشريع الإسلامي داخل المجتمع المسلم واجتثاث ما قد يتولّد من الفساد وتدارك ما قد تقع من أخطاء، ويمثّل الجانب الآخر من

المسؤوليّة دعوة غير المسلمين، أو المسلمين المنحرفين عن العقيدة الإسلاميّة نفسها طبقاً لأهوائهم المادّيّة ومصالحهم الضيّقة، دعوتهم إلى اعتناق الإسلام والسير بهدى تعاليمه الرشيدة، وبالأخصّ دعوة الشعوب غير المسلمة إلى تطبيق نظام الإسلام وتكوين المجتمع المسلم في ربوع بلدانهم.

وكلا هاتين المسؤوليّتين الجسيمتين اللتين تتحمّلهما الأُمّة الإسلاميّة بوصفها خير أُمّةٍ أُخرجت للناس، ممّا أكد عليهما الإسلام تأكيداً عظيماً وجعلهما من تعاليمه المهمّة الرئيسيّة.

وبعد إدراك هذا الازدواج في المسؤوليّة الإسلاميّة، يمكننا أن نعرف أنَّ الجانب الأوّل منها - وهو المختصّ بالدعوة إلى المحافظة على التوجيهات الإسلاميّة في داخل المجتمع المسلم- يسمّى بـ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وأنَّ الجانب الثاني منها يسمّى بـ (الدعوة الإسلاميّة) وأنَّ أكبر قرينةٍ على هذه التسمية الثانية ما جاء في اصطلاح الفقه الإسلامي من تسمية الجيش الإسلامي المجاهد، الذي يخرج بقيادة الإمام المعصومعليه السلام في سبيل الدعوة إلى الله ونشر التعاليم الإسلاميّة في أرجاء العالم، تسميته بـ (جيش الدعوة)[1].

ومن هنا صحّ - إلى حدٍّ كبير- تعريف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأنّه (العمل على تطبيق الإسلام من قبل المسلمين داخل الحياة الإسلاميّة)، وتعريف الدعوة بأنّها (الحركة التي يقوم بها الدعاة المسلمون خارج نطاق الحياة الإسلاميّة من أجل إدخال الآخرين إلى الإسلام)[2].

---

(١) راجع لذلك، كتاب الجهاد، من الروضة البهيّة في شرح اللمعة الدمشقيّة للشهيد الثاني (منهقدس سره).

(٢) أُسلوب الدعوة في القرآن، محمّد حسين فضل الله، القسم الأوّل: ١٧ (منهقدس سره).

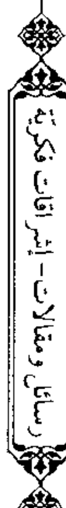
(٥)

من هنا نستطيع أن نعرف أنَّ الآية التي نحن بصددها، تعيّن أحد شـقّي المسؤوليّة للأُمّة الإسلاميّة حين تقول: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾(١).

أما الشقّ الآخر، فيعيّنه قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾(٢).

ولنلاحظ في المقام أنَّ كلتا الآيتين أناطت كلا جانبي المسؤوليّة بمجموع الأُمّة الإسلاميّة، بمعنى تحميلها لكلِّ فردٍ من أفرادها، وهذا هو المقتضى الصحيح لتعاليم الدين الإسلامي الرشيدة وآثارها على كلِّ فردٍ فرد من الشعب الإسلامي، وما تصهره فيه من الإخلاص والإيمان والاندفاع في سبيل نصرة دينه الحنيف.

ومقتضى ذلك: هو أن يتولّى كلّ فردٍ مسلم الدعوة إلى الله في حدود ثقافته ومقدرته، وبالمقدار الذي يملك من طاقة فكريّة ومادّية، ولا يُستثنى من ذلك أحد، حتّى الفرد العادي البسيط، فإنّه على الأقلّ مسؤولٌ عن المحافظة على التعاليم الإسلاميّة، والاجتناب عن المحرّمات الإسلاميّة في حدود نفسه وعائلته، طبقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾(٣)، وذلك بالمحافظة بدقّةٍ وإتقان على تعاليم الدين الإسلامي الحنيف.



---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

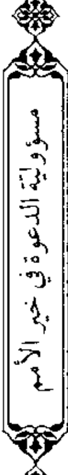
(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.

ومن هنا نعرف أنّ «مِن» في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ إنّما هي بيانيّة وليست تبعيضيّة، بمعنى: أنّها تأمر جميع الأُمّة الإسلاميّة بأن تكون كذلك لا أنّها تأمر قسماً منها، ويُؤيّد ذلك: أنّ حمل «مِن» على التبعيضيّة يستدعي أن نفهم من الأُمّة في الآية معنى الجماعة المحدودة، لا معنى الشعب المترابط بعقيدةٍ واحدة ونظام واحد، وهذا مخالف لما فهمناه من قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ومنافٍ لوحدة السياق في الآيتين، وذلك بخلاف ما إذا حملنا «مِن» على البيانيّة.

والاحتجاج لإرادة التبعيض بأنّه (لا معنى للدعوة والأمر والنهي المذكورات بعد حصول الغرض)[1]، لأنّ الإسلام إنّما يحتاج إلى الدعاة والآمرين بالمعروف بمقدار حاجته، ويكون توجيه هذا التكليف إلى الآخرين غير ذي فائدة، وبهذا يكون واجب الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً كفائيّاً، بمعنى: أنّه يجب على الجميع ويسقط بامتثال البعض منهم، إذا كانوا بمقدار الحاجة.

إلّا أنّ هذا الاحتجاج لا يمكن الموافقة عليه؛ لأنّا لاحظنا قبل قليل أنّ كلّ فردٍ في المجتمع الإسلامي مكلّف تكليفاً عينيّاً بالمحافظة على تعاليم الإسلام في حدود نفسه، وأُسرته على الأقلّ، كما أنّه مسؤول عن إرشاد غير المسلمين ودعوتهم إلى الإسلام في حدود إمكانيّاته ومقدار ثقافته.

ومن هنا نستطيع أن نستنتج باطمئنان: أنّ المسؤوليّة الكبرى بكلا وجهيها تحملها الأُمّة الإسلاميّة بمجموعها على مختلف المستويات[2].



(١) تفسير الميزان (للسيّد محمّد حسين الطباطبائي) ٣: ٤١٢ (منه قدس سره).

(٢) نشرت في مجلّة الإيمان، السنة الأُولى، العددان: التاسع والعاشر، ١٩٦٤م.



الموضوعية العلمية
في البحث الديني الإسلامي

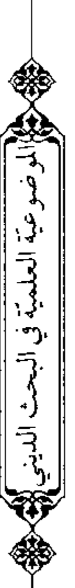
الموضوعية العلمية

في البحث الديني الإسلامي

ربّما حلا لبعض الطاعنين بالدين، الذين أعماهم نوره الوهّاج، وقصر تفكيرهم عن الوصول إلى أوجه الرفيع، أن يلوّح بيده متباكياً على العلم والعلماء، ومتظاهراً بالخوف على الحقيقة المجرّدة من الضياع، فيقول: إنَّ البحث الدينيّ ليس بحثاً موضوعيّاً؛ وذلك لأنَّ من شروط البحث العلميّ الأساسيّة: الموضوعيّة والإخلاص في أثناء البحث، وعدم التحيّز إلى ناحيةٍ معيّنة، وأخذ الشكّ أساساً للبحث، في حين إنَّ الباحث الدينيّ عندما يحاول أن يستدلّ على صحّة الدين الذي يعتنقه، أو حين يتناول بالبحث أيّ موضوعٍ دينيّ، فإنَّه يفترض صحّة الدين سلفاً، ثُمَّ يحاول البرهنة عليه، وبناء الآراء على أساسه. وهذا عملٌ يخالف الموضوعيّة العلميّة والشكّ المنهجيّ.

ونحن إذ نكون بصدد مناقشة هذه الدعوى؛ لكي نرى مقدار صحّتها ومدى قربها من الحقيقة، ولنعرف مدى حرارة الدمع الذي ذرفه هذا المتباكي على العلم والحقيقة، لابدَّ لنا أن نعرف معنى الموضوعيّة العلميّة ومعنى الشكّ المنهجيّ، لنرى المدى الذي يمكن أن يسير معهما الباحث في بحثه، ومقدار ما يمكن أن يتّصف البحث الدينيّ الإسلامي بهذين العنصرين.

يرى هؤلاء المكابرون أنَّ من أُسس الموضوعيّة العلميّة، أن تتجرّد كباحثٍ علميٍّ - أوّلاً- من افتراض صحّة ما تبحثه، وأن تتجرّد - ثانياً- من الرواسب الدينيّة والاجتماعيّة، ومن العوامل الشعوريّة واللاشعوريّة التي



يمكن أن يتدسّس تأثيرها إلى البحث، وأن تتجرّد ثالثاً من تأثير قول أيّ عالم أو مفكّر على أُفق تفكيرك أو أُسلوب بحثك، وأن تنظر في النهاية إلى المشكلة التي تبحث عنها نظراً مجرّداً موضوعيّاً خالصاً، لكي يكون بحثك أقرب إلى الحقيقة جهد المستطاع.

ويعنون بالشكّ المنهجيّ الشرط الأوّل للموضوعيّة العلميّة، وهو أن لا تأخذ الموضوع مفترض الصحّة سلفاً، وإنّما تنظر إليه نظر الشاكّ الفاحص لتستطيع أن تبرهن على أيّ فرضٍ في المسألة قادك إليه الدليل.

ومن الحقّ أن يُقال: إنَّ البحث لا يمكن أن يكون بحثاً صحيحاً ما لم يتّصف بالموضوعيّة المخلصة، وما لم يبدأ بالشكّ المنهجيّ، وإنَّ الباحث المخلص الطالب للحقيقة المجرّدة لا يمكن أن يصل إلى مبتغاه بدون توفّر هذين العنصرين في بحثه العلمي. ولكننا في عين الوقت يجب أن لا نسيء فهمهما وأن لا نجعلهما ذريعةً نلوّح بهما في سبيل الإبقاء على تعصّباتنا ومسبقاتنا الذهنيّة، فإنّنا حينئذٍ نخرج بهما عن جوهرهما الحقيقيّ ونجعلهما روحاً بلا جسد وناراً بدون نور.

فالباحث العلميّ الموضوعيّ إذا بدأ بحثه شاكّاً شكّاً منهجيّاً بالمشكلة التي بين يديه، طالباً ببحثه ذلك وجه الحقيقة، فهل من الممكن أو من الموضوعيّة أو الحقيقة في شيءٍ، أن يبقى شاكّاً حتّى بعد اتّضاح الصواب لديه وإقامته الدليل على أحد وجوه المسألة؟

إنَّ ذلك لن يكون إلّا مغالطةً وسفسطة، ولن يكون إلّا تعصّباً ضدّ الموضوعيّة العلميّة والحقيقة المجرّدة.

* * * *



هناك عدّة قضايا عقليّة بديهيّة، تحكم بها الفطرة ويذعن بها الوجدان بمجرّد معرفة المعنى المحدّد الصحيح لطرفيها، المحمول والموضوع. هذه القضايا هي التي يجعلها العقل الركيزة الأساسيّة للبرهنة على سائر الأُمور والمشكلات العقليّة. وهي قضايا لابدَّ للعقل من أن يجعلها منطلقه الرئيسيّ، فإنّها بالإضافة إلى ما تتّصف به من بداهةٍ ووضوح، فهي المبدأ الأوّل لجميع الاستدلالات العقليّة، لأنّها قضايا فطريّةٌ لا تحتاج إلى برهان؛ لأنَّ كلّ القضايا - على الإطلاق- إذا احتاجت إلى الدليل فإنّنا سنبقى ندور في حلقةٍ مفرغةٍ من الشكّ والحيرة، ولا نستطيع أن نبدأ بالاستدلال من منطلق مّا. والموضوعيّة العلميّة بالنسبة إلى مثل هذه القضايا العقليّة البديهيّة تستلزم التصديق بها لأوّل وهلة؛ لما لها من الوضوح في العقل، والرسوخ في النفس؛ لأنَّ إنكارها إنكارٌ لأوضح وجدانيّات العقل، وتمرّدٌ شنيعٌ على الموضوعيّة العلميّة نفسها.

أمّا الشكّ المنهجيّ، فيمكن إجراؤه بالنسبة إلى هذه القضايا أيضاً، بمعنى: أن يشكّ الباحث لأوّل وهلة حتّى ببديهيّاته إغراقاً في الموضوعيّة العلميّة وفي الإخلاص للحقيقة، ثُمَّ هو بمجرّد ذلك يرجع إلى وجدانه وعقله فيجدهما مذعنين بها، معترفين بمضامينها، فيجعل من حكمه العقليّ النظريّ هذا دليلاً على صدق هذه القضايا أو صحّتها، ومن ثَمَّ يرتفع الشكّ ويبدأ الباحث ببناء الكيان العلميّ على هذه الأُسس العقليّة المتينة.

ومن هنا نعرف أنَّ الشكّ لا ينبغي أن يبقى في الذهن أكثر ممّا تقتضيه موضوعيّة البحث ومنهجيّته، وإلّا فإنَّ الشكّ إذا بقي حتّى بعد سماع صوت العقل ونداء الفطرة في الاعتراف بهذه القضايا البديهيّة، فإنَّ علم الباحث سوف ينقلب جهلاً وسفسطة، وموضوعيّته تعصّباً ضدّ الحقيقة وضدّ

الموضوعيّة نفسها، بالإضافة إلى أنَّه لـن يـستطيع أن يجد عـلى هـذه القـضايا البديهيّة - التي لابدَّ أن تقع كأسسٍ أولى للاستدلال- دلـيلاً مـن الخـارج إذا استثنى من اعتباره صوت الفطرة ونداء الضمير، ومن ثَمَّ لا يمكنه الاستمرار بالاستدلال على أيّ قضيّةٍ أُخرى.

* * * *

مثل هذه القضايا البديهيّة هي التي يجعلها الدين الإسلاميّ دلـيلاً عـلى صحّته، وهي التي يجعلها الركيزة الأساسيّة في الانطلاق إلى آفاقه الرحبة مـن معتقداتٍ وتعاليم. ومن ثَمَّ كانت العقائد الدينيّة لا تتحمّـل مـن الموضـوعيّة ومن الشكّ المنهجيّ إلَّا بالمقدار الذي تتحمّله هذه القضايا نفسها، أو بالمقدار الذي يستدلّ به على أنَّه قائمٌ عليها؛ فـإنَّ الـدين لم يكلّـف الإنـسان أكثـر مـن الرجوع إلى فطرته وباطن عقله ليجد الأُسس الأُولى للدين مغروسةً في نفـسه نابعةً من ضميره. ومن أوضح هذه القضايا الفطريّة حكـم العقـل بـأن لابـدَّ لكلِّ ممكنٍ من علّة، والتي يُستنتج منها بوضوحٍ تامٍّ بـأنَّ لهـذا الكـون الكبـير خالقاً ومدبّراً، ومن ثَمَّ كانت الموضـوعيّة في البحـث الـدينيّ تـستدعي أن لا يبقى الشكّ أكثر من مدّة توجّه النفس إلى أُسسه الفطريّة؛ فـإنَّ الـشكّ إذا دام أكثر من ذلك، انقلب سفسطةً ومكابرة.

ولكن هذا لا يعني أنَّ البحث الدينيّ لـيس كـسائر الأبحـاث مـن حيـث ضرورة استعمال الموضوعيّة العلميّة والشكّ المنهجيّ فيه، بل إنَّ هذين العنصرين ضروريّان في هذا الحقل من حقول المعرفة أكثر مـن أيّ حقـلٍ آخـر؛ وذلـك لأنَّ الدين عنصرٌ أساسيٌّ من الكيان النفسي للإنسان، فلابدَّ أن يكون مؤمناً به عن عقيدةٍ وإخلاص، لا مقلّداً لغيره تقليداً أعمى لا يستند إلى برهان.



وحيث إنَّ الأديان قد دخلها على مرّ العصور من الخلط والخبط الشيء الكثير، بحيث تشعّبت إلى آلاف الشُعب والمعتقدات، في حين إنَّه من المؤكّد أن ليس في مجموع هذه الأديان إلَّا معتقدٌ واحدٌ محقّ، فكان لابدَّ للباحث الموضوعيّ المخلص أن يشكّ شكّاً منهجيّاً بهذا المجموع كلّه، ثُمَّ يبدأ بالاستدلال على الحقيقة قضيّةً قضيّة، لكي ينجو من التقليد الأعمى ويصل إلى الحقّ. وهو بمجرّد أن يبدأ بالاستدلال سوف يرى أمامه - أوّل ما يرى - هذه المجموعة من القضايا العقليّة البديهيّة التي استغنت بوضوحها عن البرهان. ومن ثَمَّ ينطلق من هذا الأساس الفطريّ الراسخ إلى الاستدلال على باقي المشكلات العقليّة والدينيّة، وحينئذٍ يصل شيئاً فشيئاً إلى الإسلام الدين الحقّ.

والإسلام قد اعترف بالشكّ المنهجيّ وأوجب النظر والبحث، ولكنّه قيّد النظر بأن يكون بنّاءً، منتجاً، متّجهاً إلى الحقّ؛ وذلك لئلّا ينقلب الشكّ المنهجيّ شكّاً مطلقاً ومكابرةً باطلة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1]، وقال عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾[2]، كما أنّه أوضح بجلاءٍ أنَّ الموضوعيّة العلميّة والإخلاص للحقيقة يستدعيان بالضرورة الإيمان به والتصديق بتعاليمه، قال عزّ اسمه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ *

(١) سورة يونس، الآية: ١٠١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

كما أنّه ذمّ المتعصّبين ضدّ الحقّ، المكابرين لفطرتهم، المنحرفين عن النظر والفكر المستقيم؛ قال عزّ من قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[2].

****

بهذا نكون قد عرفنا أنّ الشكّ المنهجيّ الذي يعتبر الشرط الرئيسيّ للموضوعيّة العلميّة، متوفّرٌ في البحوث الدينيّة الإسلاميّة التي تتناول بالبحث عقائده الرئيسيّة، فليس ثمّة مسلمٌ صحيح الإيمان قد أخذ الدين تقليداً على أنّه شيءٌ مسلّم الصحّة، وإن كان يبدو كذلك لمدى بداهة أدلّته؛ فإنّ الإيمان الأعمى غير جائزٍ في الشريعة الإسلاميّة، فقد أوجب الإسلام على كلّ فردٍ مسلمٍ على الإطلاق - إلّا إذا كان قاصر العقل - أن ينظر بنفسه في أدلّة العقائد الرئيسيّة، وأن يُؤمن بها إيماناً مبصراً عن عقيدةٍ وبرهان. والإسلام بحكمه ذلك، لم يكلّف البشر أكثر من رجوعهم إلى وجدانهم، والنظر إلى دخيلة ضمائرهم، ليجدوا صدق تلك القضايا البديهيّة الأُولى التي هي الأُسس الرئيسيّة للدين.

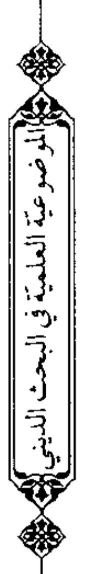
أمّا قصّة اشتراط التجرّد من الرواسب والمسبقات الذهنيّة الشعوريّة واللاشعوريّة، سواء من الناحية الدينيّة أو الاجتماعيّة، أو من ناحية أقوال العلماء السابقين، وذلك لكي يصبح عنصر الموضوعيّة مُتوفّراً في البحث العلمي، فهذه الأُمور مُتوفّرةٌ في البحث الدينيّ بحدودها المعقولة التي ينبغي

(١) سورة الروم، الآيات: ٢١-٢٤.

(٢) سورة الحجّ، الآية: ٤٦.

توفّرها في كل بحثٍ لكي يُضمن تحرّره من التعصّب والضلال.

ولكن الانطلاق مع هذه الشروط إلى نهاية الشوط شيءٌ لا تحمد عقباه، ولا يعود على الموضوعيّة العلميّة إلّا بالوبال، فإنَّه من الحقّ أن يتجرّد الباحث أثناء بحثه من رغباته وشهواته ومن تأثيرات المجتمع أو تأثيرات المطالعات العامّة عليه، ومن الخرافات والتقاليد التي تُلبسها ثوب الدين. أمّا التجرّد من المعتقد الدينيّ الصحيح نفسه، أو من أقوال العلماء والمفكّرين السابقين، فهو أمرٌ يحتاج إلى التفكير قبل البتّ فيه بشيء.



أمّا بالنسبة إلى المعتقد الدينيّ، فالبحوث تنقسم بالنسبة إليه إلى قسمين، بحث أجنبيّ من حيث مادّته عن الدين بالمرّة، كالفيزياء والكيمياء مثلاً، فالباحث في هذه الحال إنَّما يضع عقيدته الدينيّة جانباً؛ لأنَّها أمرٌ لا ربط له بموضوع بحثه. أمّا بالنسبة إلى الأبحاث التي ترتبط بالدين بعض الارتباط، فإنَّه من الطبيعيّ أن يكون من الموضوعيّة العلميّة أن يعمل الباحث ذوقه الدينيّ بعد أن فرض أنَّ هذا الدين الذي يعتقده صحيحٌ وذو أساسٍ راسخ من العقل أو الفطرة.

أمّا بالنسبة إلى أقوال العلماء السابقين عليه، فإنَّه من الممكن أن يُقال: إنَّ من الموضوعيّة العلميّة أن لا يأخذ الباحث أقوالهم تقليداً لئلّا تُؤثّر في بحثه تأثيراً سيّئاً، ولكن ممّا لا ينافي الموضوعيّة العلميّة بالتأكيد، أن يجعل الباحث أقوالهم مثاراً لبعض المشكلات العقليّة أو الدينيّة أو غيرها، ثُمَّ يبدأ الباحث بنفسه الاستدلال عليها، أو أن ينظر إلى بحوثهم وأقوالهم نظر الناقد المخلص، لعلّه أن يقتنع بأحدها ويقوم لديه الدليل الصحيح على صحّته فيأخذ به؛ فإنَّ غاية الباحث في بحثه هو الوصول إلى الحقيقة، وليس عيباً أن يأخذ بعض آراء

غيره إذا وجدها مطابقةً للحقيقة، بل العيب والمخالف للموضوعيّة العلميّـة أن يهمله مع أنّه وجد فيه السبيل الصحيح إلى الحقيقة المجرّدة.

* * * *

هـذا كلّـه بالنـسبة إلى تـوفّر عنـصر الموضـوعيّة في العقائـد الرئيـسيّة والاستدلالات الأوّليّة في البحوث الدينيّة. أمّا البحوث المتفرّعة على الأساس الدينيّ، والتي تفترض سلفاً صحّة الدين، وتتكفّل بالبحث عن أُمـورٍ أُخـرى فرعيّة .. هنا، يمكن الزعم بأنَّ البحث في هـذه الأُمـور مخـالفٌ للموضـوعيّة العلميّة لأنَّها أخذت صحّة الدين قضيّةً مسلّمةً في بحثها، ولكنّ الـصحيح أنَّ غاية الموضوعيّة في مثل هذه البحوث الدينيّة أن يستدلّ في أثنائها الباحث على موضوع بحثه استدلالاً صحيحاً مخلصاً، وأن لا يأخـذ أحـد فـروض المـسألة كأصلٍ مسلّم، أو يتحيّز نحوه أو ضدّه، وإلّا فإنَّه ليس من المنطقيّ الاستدلال على صحّة الدين في كلّ بحثٍ دينيّ.

بالإضافة إلى أنّنا بعد أن عرفنا صحّة الدين واستناده إلى دليلٍ فطريٍّ وجدانيّ صحيح، فإنَّ أخذه كقضيّةٍ مسلّمةٍ ليس مخالفاً للموضوعيّة، وهل البحوث العلميّة إلّا أُمورٌ مترتّبةٌ بعضها على بعض، يبرهَن على صحّة بعضها أوّلاً، ثُمَّ تأخذ كأصـلٍ مسلّمٍ في إثبات أمرٍ جديد. إذن، فليكن الدين من هذا القبيل[1].

السبت ٢٩/ ١/ ١٣٨٣= ٢٢/ ٦/ ١٩٦٣

محمد الصدر

(١) نشرت في [مجلّة] الأضواء، العدد المزدوج التاسع والعـاشر، الـسنة الثالثـة [بتـاريخ: ١٣٨٢هـ] (منهقدّس سرّه).





العبادة في الوعي الإسلامي

العبادة في الوعي الإسلامي

في الردّ على الأُسطورة القائلة: بأنَّ العبادة مجرّد علاقة للفرد بربّه، وفي محاولة إثبات الأثر الاجتماعي للعبادة.

أعطى الفكر الإسلامي مفهوماً معيّناً هو مفهوم الوعي الإسلامي، وقد ورد ذكره في الكتاب والسنّة، قال الله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[1]، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «القلوب أوعية فخيرها أوعاها»[2].

والوعي بمعناه اللغويّ: هو الفهم والانتباه واليقظة[3].

ويطلق اصطلاحاً على الفهم المستوعب للكون والحياة والعدل من خلال منظار مبدأٍ معيّنٍ أو فلسفةٍ معيّنة.

أو بتعبيرٍ أدقّ: هو الفهم المستوعب للعدل من خلال منظارٍ معيّنٍ لفهم الكون والحياة.

ومن هنا كان الوعي متّجهاً نحو تقييم النظام الأصلح وتحديده، والحكم على الأفعال والحوادث بالحسن والقبح، غاية الأمر أنَّ هذا الحكم يختلف لا

(١) سورة الحاقّة، الآية: ١٢.

(٢) نهج البلاغة (شرح محمّد عبده) ٤: ٣٥، من كلامه عليه السلام لكميل بن زياد النخعي، الموعظة ١٤٧.

(٣) أُنظر: لسان العرب ١٥: ٣٩٦، مادّة (وعي).

محالة باختلاف المبدأ والفهم الذي يحمله الإنسان عن الكون والحياة. فربّما كان فعلٌ معيّنٌ حسناً من وجهة نظرٍ معيّنة، قبيحاً من وجهة نظرٍ أُخرى.

ومن هنا كان الوعي كالظرف الخالي تستطيع أن تملأه بما تشاء. فالمادّي إذا استطاع أن يستوعب بعمقٍ وجهة النظر التي تقتضيها مادّيته في الحكم على الأفعال والحوادث والقوانين ونحوها بالحسن تارةً والقبح أُخرى، كان واعياً مادّيّاً، والإسلامي إذا استطاع أن يستوعب بعمقٍ وجهة النظر التي يقتضيها الإسلام في الحكم على مثل هذه الأُمور، كان واعياً إسلاميّاً، وهكذا بالنسبة إلى سائر المبادئ والفلسفات.

ولكن حيث كانت سائر المبادئ - غير الإسلام- باطلةً بالبراهين المدرجة في مواطنها من البحوث الإسلاميّة، تعيّن الأخذ بالمبدأ الإسلامي، ووجهة نظره إلى الكون والحياة والمبدأ والمعاد من ناحية، وما يترتّب عليه من تحديد العدل، وتقييم الأُمور وإقامة الوعي على أساسه من ناحيةٍ أُخرى.

ومن هنا، ومن حيث علمنا أنَّ لنا برسول اللهﷺ أُسوةً حسنة، وهو المؤسّس الرئيسيّ لمبدأ الإسلام ووعيه، كان الوعي الإسلامي - دون غيره- هو فخرنا وعزّنا وأُطروحتنا التي ندعو إليها، واللواء الذي نحمله، ولابدَّ أن نسير عليه لنلتحق بالركب المقدّس، ركب الأنبياء والأولياء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ونحن إذ نبحث في العبادة على أساسٍ من الوعي الإسلامي، فإنّنا نثبت عمليّاً أنَّ هذا المفهوم الذي حسبه الناس متحنّثاً ضيّقاً غير واعٍ، مليءٌ في واقعه بالحيويّة والوعي والنشاط، ونثبت في نهاية المطاف أنَّ العبادة أساس الوعي، وأنّه لا وعي بلا عبادة.

والعبادة هي أخصّ أنحاء ارتباط العبد بربّه، فلئن ناقش المسلم الواعي في الشبهة الإلحاديّة القائلة: بأنّ الدين مجرّد علاقة بين الفرد وربّه، وأورد فوائد اجتماعيّة وعمليّة اقتصاديّة وقضائيّة وجزائيّة في الدين، إلّا أنّه ليعترف أنّ العبادة هي مجرّد علاقة بين الفرد وربّه، فإنّها القدر المتيقّن من التحنّث الديني، والجانب الفردي في الدين، وأنّ الدين إنّما كان اجتماعيّاً واعياً باعتبار احتوائه على حقولٍ أُخرى غير العبادة.

إلّا أنّ المسلم الواعي لم يكن واعياً ولا موفّقاً في تسليمه لذلك، وإخلاده إلى هذا المفهوم، على ما سوف نفيض في شرحه والتعرّض له.

وقد أصبحت العبادة محوراً لنزاعٍ عمليٍّ مستقطبٍ بين طائفتين من المتديّنين الذين يفرض فيهم الإخلاص والعمق، فذهب قومٌ إلى التركيز على العبادة تركيزاً عمليّاً متزايداً، فكأنّ القربات إلى الله تعالى منحصرةٌ بهذه العبادة، وغير شاملةٍ للموارد الأُخرى، وأنّ أيّ شيءٍ غيرها هواءٌ في شبك لا شأن له عند الله عزّ وجلّ، وذهب قومٌ آخرون إلى التركيز على العمل الاجتماعي الإسلامي واستنكار أن يشغل الفرد نفسه عن القيام بذلك بالعبادات وإطالة الصلاة والصوم.

وكلتا هاتين الطائفتين اللتين أستطيع أن أسمّي أولاهما باليمينيّين الإسلاميّين، وثانيتهما: باليساريّين الإسلاميّين، وسيأتي التعرّض لخصائصهما في نهاية هذا البحث إن شاء الله، كلتاهما في واقع الأمر، كانت حائدةً عن الصواب ومخطئةً في فهم العبادة من ناحية، والعمل الإسلامي من ناحيةٍ ثانية، وإنّما الصحيح هو الأمر الوسط بين هذين القطبين ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

بأن نتصوّر للعبادة مفهوماً عامّاً يـشمل العبـادات المتعارفـة في الإسـلام كـما يشمل العمل الاجتماعي الإسلامي على حدٍّ سـواء، ويكتـسب كـلا الأمـرين أهمّيّته من ذلك المفهوم العبادي العامّ. فلا يكون العمـل الإسـلامي هـواءً في شبك، كما ذهب إليه اليمينيّون، ولا الإكثار من العبادة أمراً غير مستحسن كما ذهب إليه اليساريّون.

وفهم هذا المفهوم العباديّ العامّ، يقودنا من الناحية المنهجيّة إلى تعريف العبادة والاطّلاع على معناها، للانطلاق مـن ذلـك إلى مـا نتوخّـاه مـن بيـان المغزى الاجتماعيّ الواعي للعبادة.

وانطلاقاً إلى ذلك، لابدَّ أن نعرف أنَّ مفهوم العبـادة بـما لـه مـن معنـى الانصياع والخضوع لله عزّ وجلّ، ينقسم إلى أقسامٍ أربعة:

القسم الأوّل: العبوديّة التكوينيّة، بمعنى: خـضوع الكـون بمجموعـه لإرادة الله تعالى وقدرته، وتصرّفه بما فيه من أحياءٍ وجماد، ودنيا وآخـرة، قـال الله تعالى: ﴿أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ يَـسْجُدُ لَهُ مَـنْ فِي الـسَّمَاوَاتِ وَمَـنْ فِي الأَرْضِ وَالـشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّـاسِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَللهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[2]. وقال عزّ وجلّ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[3].

إلى عددٍ آخر مـن الآيـات في القـرآن، تؤكّـد هـذا المعنـى الكـونّي مـن العبوديّة لله عزّ وجلّ، وأنَّ الكون ليس إلّا معرضاً يمـرّ فيـه المتمثلـون لأمـره

---

(١) سور الحجّ، الآية: ١٨.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

والمطبّقون لإرادته عن طوعٍ أو عن كراهية؛ فإنَّ القوانين الإلهيّة الكونيّة غير قابلةٍ للتخلّف والعصيان.

وهذا القسم خارجٌ عن محلِّ الكلام، باعتباره معنىً تكوينيّاً خارجاً عن مدار الأفعال الاختياريّة التي تكون موضوعاً للتقييم والنقد.

القسم الثاني من العبادة: هو جعل الشيء مثالاً ومبدأً وعقيدة، فالمعترف بالله تعالى وسيطرته وحقّه على العباد، متعبّدٌ له بهذا المعنى، مع غضّ النظر عن إطاعته له وتطبيقه لأوامره ونواهيه.

وبهذا المعنى تصدق العبادة لغير الله تعالى، لَمن جعل غيره مثالاً ومبدأً وعقيدة، منعزلاً عن الطريق الإلهي، قال الله عزّ وجلّ ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[1]، وإنّما عبّر عن الهوى بالإله باعتبار هذا المعنى من العبادة في جعل الهوى هو المثال والمبدأ والمدار في التصرّف والسلوك.

القسم الثالث: كلّ فعلٍ يمكن فيه قصد القربة، وهو الذي اصطلحوا عليه فقهيّاً بالعبادات بالمعنى الأعمّ[2]، ومغزاه الاجتماعي الواعي إسلاميّاً هو صدور كلّ فعلٍ من أفعال الخير، ممّا فيه كمالٌ للنفس أو خدمةٌ للمجتمع، ممّا أمر به الإسلام وكان راجحاً من وجهة نظره، صدوره من الإنسان بروح الإيمان بالله تعالى والإخلاص لإطاعة أوامره ونواهيه، والإدراك لحقّه العظيم على العباد.

ويتمثّل ذلك في كلِّ عملٍ إسلاميّ خلّاق، سواءٌ كان من سنخ العبادات المعتادة أو من الأعمال الاجتماعيّة الواعية، فإنّها جميعاً تلتقي في كونها

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.

(٢) لمزيد من الاطّلاع، راجع كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغرّاء ١: ٣٤، ومنية الطالب (من أبحاث الشيخ النائيني للخوانساري) ١: ٨٨.

صادرةً في طريق الله وامتثالاً لأمره.

وهذا المعنى في حقيقته مساوقٌ مع المعنى الثاني عمليّاً، فإنَّ من جعل الله تعالى مثالاً، ووجوده عقيدةً، وإطاعته مبدأ، فإنّه - لا محالة- يقوم بسائر أعماله الخيّرة إطاعةً له وتقرّباً إليه. وهذا هو المعنى الوسط الذي أشرنا إليه، والذي ننفي به الوجهتين المتطرّفتين السابقتين في الإسلام.

القسم الرابع: كلّ فعلٍ لا يصحّ إيقاعه وإيجاده إلَّا بقصد القربة، وهو الذي اصطلحوا عليه فقهيّاً بالعبادات بالمعنى الأخصّ[1]، ويرجع مغزاه الواعي إلى أنَّ هذا القسم من الأفعال كالصلاة والصيام والزكاة والحجّ، يفقد من وجهة نظر الإسلام معناه وروحه إذا أتى به الفرد بشكلٍ منعزلٍ عن الله عزّ وجلّ، حيث إنَّ الله عزّ وجلّ حين أراد ربط البشريّة به عقائديّاً وعاطفيّاً- في سبيل تطبيق عدله العظيم في ربوعهم- أوجب عليهم عدّة أفعالٍ متكرّرةٍ تمثّل هذا الربط وتؤكّد عليه، وتكون حلقاتٍ متسلسلةً في سبيل القرب الإلهي والتكامل النفسيّ والتضحية في سبيل المبدأ الأعلى، وهذا إنّما يتحقّق فيما إذا أتى الفرد بهذه الأفعال بقصد الارتباط بالله تعالى وإطاعة أوامره، وهو معنى القربة الاصطلاحيّة ومغزاها الواعي، فلو أتى بها منعزلاً عن الله عزّ وجلّ، لانقطعت تلك السلسلة المقدّسة التي يريدها الله عزّ وجلّ من كلِّ مكلّفٍ مسلم.

ومن هنا كان تارك هذه العبادات تحت شروطٍ معيّنة، أو المنكر لوجوبها في الإسلام، مستحقّاً للقتل في القضاء الإسلامي؛ وذلك لأنّه يصبح عنصراً هدّاماً في المجتمع، وبعيداً عن الله إلى حدٍّ يحرز فيه التنكّر للطريق الإلهي وعدم

(١) لمزيد من الاطّلاع راجع كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغرّاء ١: ٢٦٧، ومطارح الأنظار (للأنصاري): ١٥٨.



الإخلاص من ناحية، وعدم إمكان الاستفادة منه على هذا الطريق من ناحيةٍ أُخرى، ومثل هذا الفرد لا حقّ له في الحياة في المجتمع الإسلامي.

وهذا المعنى من العبادة، هو الذي نظر إليه الناظرون وتسالم جملة من المسلمين ومن أعداء الإسلام - كما أسلفنا- على أنّه مجرّد علاقة للفرد بربّه، وليس فيه أيّ ناحيةٍ اجتماعيّةٍ واعيةٍ بنّاءة. وهو الذي سنكرّس له ما يلي من البحث، للبرهنة على وجود الجانب الاجتماعي الواعي فيه، واضعين النقاط على الحروف بالنسبة إلى كلّ عبادةٍ عبادة، ومنطلقين من وجهة نظر الإسلام وحكم طبائع الأشياء، لعلّ هؤلاء المفكّرين من المسلمين وأعداء الدين يعرفون ما في الإسلام من عدلٍ شامل، وقانونٍ كامل.



ونحن إذ نستعرض العبادات، نجد لها جميعاً آثاراً اجتماعيّةً واعية، بل أنَّ جملةً منها ليمثّل عملاً اجتماعيّاً فعليّاً بحيث لو انفصل عن هذا الطريق فَقَدَ مغزاه، بل فَقَدَ وجوده، على ما سنوضّح. ويندرج في ذلك كلّ العبادات على الإطلاق، ما عدا الصلاة الانفراديّة، على أنَّ لها آثاراً اجتماعيّةً غير مباشرة، على ما سيأتي إيضاحه.

ولأجل وضع النقاط على الحروف، يكون لزاماً علينا أن نستعرض سائر العبادات، لنفهم بالتفصيل معانيها الاجتماعيّة الواعية:

الصلاة

وقد اعتبرها الإسلام أهمّ أركانه وأقوى أعمدته، فهي رمز الإسلام وشعار المسلم وباب ثقافته الإسلاميّة وقربه الإلهي، تتكرّر كلّ يومٍ عدّة مرّات، لتوحي للفرد بمزيدٍ من الربط وشدّة العلاقة بينه وبين ربّه الكريم،

تلك العلاقة التي يجب أن تقوى على مرّ الزمن ويجب أن تتمثّل في كلِّ الأفعال والأقوال.

وإذا نظرنا إلى هذه العبادة، بصفتها منتجةً للأثـر الاجتماعـي المبـاشر، نجدها تنقسم إلى عدّة أقسام:

أوّلاً: صلاة الجماعة

وهي تعطي فكرةً واضحةً عن القيادة، وما يجب أن تكتنفها من ظروفٍ وشروط، لتكون بدورها مطبّقةً في قيادة الدولة الإسـلاميّة، أو قيـادة الجيش الإسلامي المجاهد؛ وذلك: باعتبار أنّها ترمز إلى ثلاثةِ أفكار رئيسيّة:

الفكرة الأُولى: الثقة بالإمام الـذي يـصلّي خلفـه، تلـك الثقـة المتمثّلـة بإحراز المكلّف أنّه أهلٌ للاقتداء به في نظر الإسلام.

الفكرة الثانية: الاشتراك مع الإمام، ومع سائر المصلّين في الهدف، وهو التوجّه إلى الله والقيام بإطاعته والتقرّب إليه.

الفكرة الثالثة: المتابعة في العمـل تجـاه الإمـام، فلـيس للمـصلّي الـذي يقتدي به أن يسبقه بأيّ فعلٍ من الأفعال، بل يركع الإمام فيركعون، ويـسجد فيسجدون، ويتمثّل هذا الجانب بالنسبة إلى المأمومين أنفـسهم أنّهـم يقومـون بعملٍ موحّد مشترك، يتابعون به الإمام المقتدى.

وكلّ هذه الأُمور يجب أن تتوفّر بنصّها في القيادات الإسلاميّة الكبرى، وإلّا لم تكن كاملـة الـشرائط، وتعتـبر صـلاة الجماعـة تربيـةً مبـاشرةً لنفـوس الشعب المسلم على ذلك، والحـثّ والترغيـب الإسـلامي لأجـل حـضورها، وترك الانفراد بالصلاة إنّما هو لأجل ذلك.



ثانياً: صلاة الجمعة والعيدين

وهي تشترك مع صلاة الجماعة في خصائصها السابقة؛ باعتبار أنّها لا تصحّ إلّا جماعة، وتتميّز عنها بالخطبتين اللتين تكونان قبل صلاة الجمعة وبعد صلاة العيدين. وقد عقدنا في بعض أبحاثنا بحثاً مستقلاً[1]، والمهمّ ممّا قلناه: أنّه على ما هو المشهور[2] فقهيّاً من اشتراط أن يكون الإمام المعصوم أو رئيس الدولة الإسلاميّة موجوداً حتّى تجب وجوباً عينيّاً، فإنّ الخطيب يكون هو الرئيس أو شخصاً يجده الرئيس أهلاً للقيام بهذه المسؤوليّة، فيوكل إليه إلقاء الخطبة، والرئيس في خطبته يُؤسّس لا محالة سياسته العامّة في الدولة، ويعرض المشاكل الطارئة على مسامع الأُمّة، ويذكر لها الحلول الإسلاميّة، ويعيّن ما يجب أن يقوم به الشعب المسلم تجاه كلّ طارئ من الطوارئ.

مضافاً إلى أنّه يبثّ الوعي والثقافة الإسلاميّين، ويذكر لهم آخر الأنباء للحوادث الصادرة في داخل البلاد الإسلاميّة أو خارجها، ويعرّفهم على واقعهم، ويبعث فيهم روح النشاط والعمل.

وبالجملة: يتكلّم الرئيس بصفته أخبر الناس بالأُمور السياسيّة من الناحية الإسلاميّة والعالميّة معاً، وبصفته المؤسّس والمتصرّف المطلق في سياسة البلد، يتكلّم عن كلّ أمرٍ يجد المصلحة في عرضه على الجماهير سياسيّاً



(١) راجع اللّمعة في حكم صلاة الجمعة: ٣٩-٤٠، المقدّمة.

(٢) راجع ذلك في المقاصد العليّة في شرح الرسالة الألفيّة (للشهيد الثاني): ٣٦٥، صلاة العيد، وذخيرة المعاد في شرح الإرشاد (للمحقّق السبزواري) ٢: ٣٠٧، كتاب الصلاة، المقصد الثاني في صلاة الجمعة، وجامع المقاصد (للمحقّق الكركي) ٢: ٣٧٨-٣٧٩، كتاب الصلاة، المقصد الثالث، الفصل الأوّل.

واجتماعياً وثقافياً، وهو أخبر الناس لا محالة بوجوه المصلحة.

ولذلك كان لابدَّ لمثل هذا العمل الاجتماعي أن يتكّرر كلّ أُسبوع، لأجل أن يحمل الرئيس في خطابته في كلِّ أُسبوع إلى الجماهير المسلمة، ما جدّ من الحوادث والمشاكل والحلول؛ لأجل أن يستطيع الشعب أن يضطلع بمسؤوليّته الكاملة وأن يواكب مجاري الأُمور ولا يكون منعزلاً عن الحوادث.

ولأجل ذلك وجب على عددٍ ضخم جدّاً من الجماهير حضور هذه الصلاة، وقصدها من مسافةٍ حول البلد الذي تقام فيه، على شروط وحدود تُذكر في [كتب] الفقه.

ثالثاً: صلاة الخوف

والمغزى الرئيسيّ لها خلال إقامتها في أثناء الجهاد الإسلامي، هي أنَّها تحدّد الأيديولوجيّة الرئيسيّة التي قام من أجلها هذا الجهاد، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث طلب منه في حرب صفّين ترك الصلاة، فقال – ما مؤدّاه –: «**كيف نترك الصلاة ونحن إنَّما نحارب من أجل الصلاة**»[١]، فيكون تاركها ساعتئذٍ كالمهمل للغاية في أثناء قيامه بالواسطة، وهي ميكيافيليّةٌ بعيدةٌ عن روح الوعي الإسلامي.

ومن هنا لم يكن للجنديّ الإسلاميّ المحارب أن يترك الصلاة تحت أشدّ الظروف صعوبة، حتّى وإن كان مشرفاً على الهلاك أو مشتركاً في معمعة

(١) راجع نحوه في إرشاد القلوب (للديلمي) ٢: ٢١٨، ووسائل الشيعة ٤: ٢٤٦، كتاب الصلاة، باب ٤١، باب استحباب الاهتمام بمعرفة الأوقات وكثرة ملاحظة أوقات الفضيلة، الحديث ٢.

القتال. وبذلك تصبح صلاة الخوف أكثر دلالةً على التمسّك بالآيديولوجيّة الواعية في أثناء الحرب، من دلالة الصلاة حال الأمن على ذلك؛ باعتبار أنَّ التضحية من أجلها في ظرف الحرب أكثر وأهمّ لا محالة، كما أنَّ ذلك إذا أصبح معروفاً للجيش المعادي، فإنَّه يرفع من شأن الجيش الإسلامي في نظره، ويطلعه على مقدار تضحيته من أجل هدفه، بل لعلّ الجيش المعادي أو جملة من أفراده سيتأثّر من هذه الدرجة العليا من الإخلاص للصلاة والإطاعة الإسلاميّة، فيعطف على الفكرة الإسلاميّة أو يدخل في الإسلام فعلاً.

وسيأتي مزيد كلامٍ عن ذلك عند التكلّم عن الجهاد الإسلاميّ بصفته إحدى العبادات.

رابعاً: الصلاة على الميّت

وأهمّ مغازيها الواعية، هي كونها توديعاً للميّت مشفوعاً بذكر الله عزّ وجلّ، مع الاستغفار له في آخر ساعات بقائه على وجه الأرض، فهي بذلك جزءٌ من التخطيط الإسلاميّ العامّ الذي يتكفّل الفرد بذكر الله عزّ وجلّ والتوجّه إليه من أوّل ساعات ولادته إلى ما بعد موته، ومن هنا نرى أنَّ الطفل بمجرّد أن يولد ينبغي أن يؤذِّن شخصٌ في أُذنه اليمنى، ويقيم في أُذنه اليسرى.

ثُمَّ يجب تربيته التربية المؤمنة التي تكفل بقاء الفرد على ذكر الله عزّ وجلّ في كلّ آناء حياته، حتّى إذا جاءه الموت وُدّع بذكر الله تعالى أيضاً حتّى يودَّع مثواه الأخير.

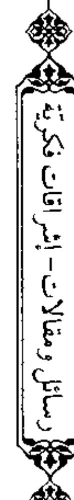
ولا يخفى ما في ذلك من أثرٍ على الأحياء أنفسهم، من حيث تعميق وعيهم، وشدّ حزمهم على تطبيق حياتهم وأفعالهم على ذكر الله عزّ وجلّ، ذلك التطبيق المنتج لأفضل السلوك الذي يتوخّاه الإسلام في الفرد والمجتمع.

خامساً: الصلاة الفرديّة الانفراديّة

[وهي الصلاة] التي يأتي بها الفرد بعيداً عن الناس وضوضاء المجتمع، متوجّهاً بها إلى ربّه، وينبغي التعرّض لها بصفتها ذات أثرٍ اجتماعيّ غير مباشر.

وإنّما لم يكن أثرها مباشراً باعتبار أنَّ أثرها المباشر داخليٌّ فكريٌّ وعقائديٌّ ونفسيٌّ، وما يحصّله الفرد في هذه الحقول، يكون ذا أثرٍ اجتماعيّ، وتتلخّص آثارها الداخليّة فيما يلي:

النقطة الأُولى: أنّها تعطي إحساساً عمليّاً بالدين وتوجب امتثال أحكامه، مع غضّ النظر عن أيّ عملٍ آخر، فلو لم يتوفّر الفرد على أيّ عملٍ إسلاميّ يوماً أو أُسبوعاً أو شهراً، لانقطع من حيث السلوك عن ربّه وواجبات دينه، لو لم يشتغل بالصلاة خلال هذا الزمان، فالصلاة تهبه المدّ الدائم الذي يوصله بربّه وواجبات دينه.



النقطة الثانية: أنّها تعطي - كما أسلفنا - رمزيّة واضحة عن لزوم استمرار قصد القربة والإحساس بالدافع الإلهيّ في جميع الأعمال، فكما أنَّ الفرد يتوجّه إلى ربّه خمس مرّاتٍ في اليوم، فكذلك يجب أن يكون الفرد فيما بين ذلك سائراً على نفس الاتّجاه ومتّخذاً نفس المسلك، وإذا اتّخذ الفرد هذا الاتّجاه وقصر سلوكه على الدافع الإلهيّ، كان ذلك موجباً لتنقية سلوكه من الشوائب والشبهات، واقتصاره على العدل الصحيح. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[1].

النقطة الثالثة: أنّها تعطي بما تتضمّن من أجزاء وشرائط، وما تنطوي عليه في خلالها من معانٍ سامية، وثقافةٍ إسلاميّةٍ عالية - يجب بيانها في بحثٍ

(1) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

مستقلّ- تعطي روح الإيمان، وتشحذ الإخلاص وتشرح الصدر للإسلام؛ ممّا يعطي ثماره في العمل الإسلامي الواعي، على الصعيد الاجتماعي على أحسن وجه وأعدله.

فيتلخّص من هذه النقاط الثلاث: أنَّ الصلاة الفرديّة، وهي أخصّ أنواع العبادة بعداً عن المجتمع في رأي المتحنّثين، كيف أصبحت ذات أثرٍ اجتماعيّ تخدم الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي، على أفضل الوجوه.

الصوم

وهو يعطي آثاراً مباشرة وغير مباشرة، تتلخّص في النقاط التالية:

النقطة الأُولى: أنّه يعطي القوّة على الصبر والمثابرة كأثرٍ مباشر له، صبراً منبثقاً عن الدافع الإلهيّ والإخلاص للعقيدة والهدف الإسلامي.

النقطة الثانية: أنّه يعطي - إلى جنب ذلك- رمزيّةً واضحةً للتضحية بالمادّة في سبيل الهدف الأسمى؛ فإنَّ الفرد خلال صومه، لا محالة، يضحّي بعددٍ من اللذائذ الماديّة، ويتحمّل الجوع والعطش في سبيل إطاعة الله وامتثال أوامره. وهكذا يجب أن يكون الفرد في كلِّ حياته وأعماله مضحّياً في سبيل الله باللذائذ الماديّة الزائلة، للحصول على العدل في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة.



النقطة الثالثة: أنَّ الصوم عبادةٌ بعيدةٌ عن الرياء كلّ البُعد، باعتباره لا يمكن عادةً اطّلاع الغير عليه إلّا بإخبار الفرد الصائم نفسه، وهو يتميّز بذلك عن باقي الأعمال - بما فيها الصلاة نفسها- بأنّها مكشوفةٌ بنفس إيقاعها للآخرين. ويعطي الصوم بذلك رمزيّةً واضحةً لقاعدةٍ عامّةٍ ثابتةٍ شرعاً، وهي: أنَّ الأعمال الخيّرة المشروعة في الإسلام - وخاصّة الفرديّة منها- ليس فقط يجب أن تكون بعيدةً عن الرياء ومرتبطةً مباشرةً بالله عزّ وجلّ دون

سواه، بل ينبغي أيضاً أن يكون هذا الربط قويّاً إلى حدٍّ لا يهتمّ الفرد أن يطّلع على عمله شخصٌ آخر سوى الله عزّ وجلّ، فإنَّه أتى بهذا الفعل وقام بالتضحية من أجله عزّ وجلّ، وغاية فخره وكماله أن يصل عمله إلى مراتب القبول والرضاء منه عزّ وجلّ، وليس مهمّاً بعد ذلك اطّلاع فردٍ آخر عليه.

وأحسن مثالٍ لذلك هو الصوم من ناحية، وصدقة السرّ من ناحيةٍ ثانية، بحيث لا تفهم شماله ما تعطي يمينه، على ما عُبّر في الأخبار[1].

وليس معنى ذلك تأسيس أساس التحنّث والسلبيّة، فإنَّه إنَّما يوحي بذلك، لو لوحظ في الشريعة في نفسه منعزلاً عمّا سواه، وأمّا إذا ربط بسائر الأعمال الاجتماعيّة الواعية في العدل الإسلامي، فيثمر بدوره نتيجةً واعيةً عادلة. على أنَّنا لو لاحظناه إلى الفوائد الأُخرى العادلة الداعية للصوم والصدقة، لانقطع ذلك الإيحاء لا محالة، على أنَّه - من ناحيةٍ ثالثة- إنَّما يكون مشروعاً وراجحاً في الشريعة في نفسه، وأمّا إذا كان هناك مصالح واعيةٌ معارضةٌ ومزاحمةٌ له، تقدّمت عليه لا محالة، كما لو كان الإعلان عن الصوم أو الصدقة موجباً لحثّ الناس عليهما، أو موجباً لإثبات زيادة عدد الصائمين في البلد، لو احتجنا إلى ذلك، وغيرها من المصالح العامّة؛ فإنَّ الإخفاء يكون مرجوحاً لا محالة، ويكون التوجيه الإسلامي منصبّاً على الإعلان عنه والجهر به.

النقطة الرابعة: أنَّ الصوم يذكّر الأغنياء بجوع الفقراء، فإنَّ الطبيعة البشريّة وارتباط الفرد بحاضره، يقتضي منه الاندماج في واقعه، والغفلة عن الآلام التي يعيشها غيره من أفراد المجتمع وإخوانه في الدين، فالصحيح لا

---

(١) عوالي اللئالي ١: ٣٦٨، المسلك الثاني في أحاديث تتعلّق بمصالح الدين «رجل تصدّق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تُنفق شماله ...».



يعلم حال المريض، والآمن لا يعلم حال الخائف، والغنيّ لا يعلم حال الفقير، ولعلّ أطرف مثال لذلك (ماري أنطوانيت) ملكة فرنسا في زمانها: حين خرج شعب باريس إلى الشوارع مطالباً بالخبز، فما كان منها إلَّا أن قالت: فليأكلوا الكيك[1].

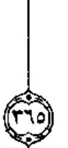
وهذه الطبيعة الأنانيّة تسلب الشعور بالمسؤوليّة من الفرد والإحساس بالأُخوّة بين الأفراد، وهذا ما لا يريده الإسلام أن يحدث في مجتمعه العادل الواعي، ووضع تجاه ذلك وَصفاتٍ أخلاقيّةً وإيمانيّةً واعيةً متعدّدة، كان من أهمّها تشريعُ الصوم، فإنَّ الغنيّ إنَّما تستشري فيه هذه الأنانيّة وتستفحل فيما إذا بقي مبطاناً طول دهره، وأمّا لو ذاق الجوع ردحاً من الدهر، فإنَّه يشعر لا محالة، بأنَّه يعاني نفس الألم الذي يعانيه الفقراء حين لا يجدون طعاماً أو شراباً، بل إنَّه ينبغي أن يدرك أنَّ ألمه وتضحيته أهون من ألم الفقراء من عدّة جهات: فهو يجوع عدّة ساعات، وكثير من الفقراء قد لا يجدون الطعام عدّة أيّام، وهو حين ينتهي النهار يجد ما يصبح به مبطاناً بخلاف الفقير، وهو قد أمسك عن الطعام اختياراً، والفقير قد اضطرّ إلى الجوع اضطراراً.

فإذا أراد الغنّي إطاعة الداعي الإلهيّ وصام، فإنَّه ينفتح لا محالة على هذه الأفكار قهراً، تلك الأفكار البنّاءة التي تزرع في قلبه الرحمة والإحسان، وتبعثه على التضحية في سبيل اجتثاث هذه الآلام من المجتمع، ورفع أسباب الجوع والعطش والعري من المجتمع، وبالنتيجة يصبح شاعراً بالمسؤوليّة، وتتضاءل في نفسه شيئاً فشيئاً تلك الأنانيّة الفجّة غير المحمودة.

---

(١) أُنظر تفصيل ذلك في: الثورة الفرنسية (للويس عوض): ١٩٥، وما بعدها، ماري أنطونيت.





النقطة الخامسة: أنَّ الصوم يذكّر الفرد بجوع يوم القيامة، فإنَّ الفرد الاعتيادي، لمدى ارتباطه بمحسوساته وزمانه ومكانه ومصالحه، تكثر منه الغفلة عن الثواب والعقاب والحساب في يوم القيامة، وهذه الغفلة مع تماديها وطول زمانها، تكون مضرّةً بالاتّجاه الإسلامي للفرد لا محالة، وتبعده عن الشعور بالمسؤوليّة إلى حدٍّ كبير.

وإنَّ الصوم لأقوى حافزٍ على بتّ هذه الغفلة وقطعها في نفس المكلَّف؛ باعتبار ما لحرارته التي بثّها في النفس من تذكيرٍ بحرارة النار والحساب والعقاب يوم القيامة، في الحياة الثانية الخالدة التي تنتظر الفرد، ولابدَّ أن يمرّ فيها.

الحجّ

وهو الوظيفة الاجتماعيّة الواعية الكبرى التي شرّعها الإسلام من أجل الحصول على أضخم الفوائد والمصالح، سواء إذا لوحظ الحجّ بمجموعه أو لوحظت تفاصيل أعماله ومناسكه، وقد ضبطنا كلّ ذلك في رسالةٍ مستقلّة[1]، فنقتصر في المقام على الإشارة إلى أربع نقاط من مصالح الحجّ بمجموعه، تلك النقاط التي ارتفعت في ذلك البحث إلى عشر[2].

النقطة الأُولى: الشعور بالتضحية بالمصالح المادّيّة في سبيل الهدف الإسلامي الكبير.

---

(١) المقصود هو كتاب (فلسفة الحجّ ومصالحه في الإسلام) للمصنّف، انتهى من تأليفه في ٨/ ٣/ ١٣٨٩ = ٢٥/ ٤/ ١٩٦٩، وطبع في ١٣/ ١/ ١٩٧١، طبعته مطبعة الآداب في النجف الأشرف.

(٢) راجع فلسفة الحجّ ومصالحه في الإسلام (ط. حديثة): ٢١-٣١، المصالح العامّة في الحجّ، الناحية الثانية.

فإنّ الحجّ بما يستلزمه من جهودٍ فكريّةٍ وماليّةٍ وبدنيّة، يعطي إلى الفرد وهو يقوم طائعاً مختاراً مطبّقاً لما أراده الله عزّ وجلّ ووظّفه نحوه، يعطي بكلّ وضوحٍ فكرة التضحية بكلّ تلك الجهود في سبيل هذا الهدف السامي النبيل، ويكون ذلك لا محالة منطلقاً إلى التضحية في سائر ميادين الحياة، مهما اقتضى السبيل الإلهيّ التضحية بالقليل أو بالكثير، ويكون ضامناً لتربيه الفرد التربية الصالحة الواعية في ضمن البرنامج العامّ الذي وضعه الإسلام لتربية الأفراد.

النقطة الثانية: أنّ الفرد المسلم حين يصبح موجوداً في تلك الديار المقدّسة، الديار التي شهدت مولد الإسلام وحياة الرسول صلى الله عليه وآله، والفتوح التي قام بها والعدل الذي نشره، ممّا هو مثالٌ للفرد المسلم في عقيدته، وفي عمله، وله برسول الله صلى الله عليه وآله أُسوة حسنة، فما أكبر غبطته وشرفه حين يجاور البلاد التي شهدت ذلك الرسول العظيم ذا العمل العظيم، فهذا غار حراء الذي شهد أوّل اتّصال بالسماء، وهذا غار ثور الذي شهد الهجرة النبويّة، وهنا بدر، وهنا أُحد، وهنا مقام إبراهيم الخليل، وهنا منبر النبيّ صلى الله عليه وآله وقبره، وما بينهما روضةٌ من رياض الجنّة[1].

كلّ ذلك يربط الفرد المسلم روحيّاً وإيمانيّاً بذلك التاريخ المضيء والتجربة الإسلاميّة الأُولى، التي ملأت ولا زالت وستبقى تملأ البشريّة - بمقدار وجودها- عدلاً ورفاهاً وسعادة.

النقطة الثالثة: أنّ الفرد يواجه في تلك الديار المقدّسة عدداً ضخماً من

---

(١) أُنظر ذلك في: كامل الزيارات (لابن قولويه): ٥١، الباب الثالث: زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله، والوافي (للفيض الكاشاني) عن الفقيه ١٤: ١٣٥٨، أبواب الزيارات، الباب ١٧٧، باب إتيان مواضع مسجد النبي صلى الله عليه وآله وفضله وفضل الصلاة فيه.

الحجّاج، قد وردوا لنفس هدفه وليقوموا بنفس عمله، يمثّلون مختلف البلدان واللغات، كلّهم إخوة له في الدين، وكلّهم ينبغي أن يشفق عليهم ويتراحم ويتعاطف معهم، ويهتمّ بأُمورهم فإنَّ «مَن لم يهتمّ بأُمور المسلمين فليس منهم»[1].

والحجّ ليفسح للفرد الفرصة الكبرى للقيام بهذه المهمّة الإسلاميّة التاريخيّة الواعية، التي تغنيه، بل تربو على قراءة مئات من الكتب في تاريخ الشعوب والبلدان؛ باعتبار ما يحتويه من احتكاكٍ مباشر بهذه الجماهير واستشمام مستويات ثقافتهم، وأساليب تفكيرهم، والاطّلاع على ما يسود بلادهم من مشاكل، وما يصحّ لها من الحلول.

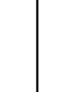
النقطة الرابعة: - وهو الذي تخيّله عددٌ من الناس المصلحة الوحيدة لتشريع الحجّ - وهو: استغلال هذا الاجتماع الإسلاميّ الكبير، الذي توفّر مجّاناً وبدافع الإخلاص ﴿**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾[2]، واغتنام هذه الفرصة لعقد مؤتمرٍ إسلاميّ سياسيّ كبير.

فإنَّ الحجّ يضمّ في كلِّ عامٍ - فيمَن يضمّ - من عشرات الآلاف من الحجّاج، عدداً من المفكّرين أو المتنفّذين في بقاعٍ من بلاد الإسلام، والمفروض في كلِّ فردٍ منهم أن يكون شاعراً بالمسؤوليّة تجاه دينه، وتجاه إخوانه في الدين،

---

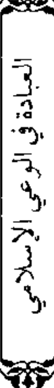
(1) الكافي ٢: ١٦٣، كتاب الإيمان والكفر، باب الاهتمام بأُمور المسلمين والنصيحة لهم ونفعهم، الحديث ٤، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب فعل المعروف، الباب ١٨، باب وجوب الاهتمام بأُمور المسلمين، الحديث ١.

(2) سورة الأنفال، الآية: ٦٣.



ومهتمّاً بأُمورهم؛ طبقاً لوصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله فيهم، فينبغي لهؤلاء أن يجتمعوا فيتداولوا مشاكل بلادهم وحاجاتها، والأخطاء التي تحيق بها، ويفكّروا بموضوعيّةٍ وإخلاص في الأساليب الكفيلة بحلِّ تلك المشاكل، وإشباع تلك الحاجات، ودفع تلك الأخطار، وتذليل سائر المصاعب. ويتكرّر هذا كلّ عامٍ؛ ممّا يقتضي أن تغطّي سائر المشاكل والحاجات ممّا يستجدّ منها وما يستقدم، وتحصل البلاد الإسلاميّة من ذلك على الخير العظيم.

فهذه جملةٌ من المصالح الرئيسيّة في الحجّ، يكفي كلّ واحدٍ منها لتشريعه، فضلاً عن مجموعها، وكلّها - كما هو واضح - ذات مدلولٍ اجتماعيٍّ مباشر، على أنَّ الأخير منها لا يمكن أن يتصوّر فرديّاً بأيّ حالٍ، فإذا انضمّ إلى ذلك المصالح الأُخرى للحجّ ولتفاصيل أفعاله ممّا ذكرناه في رسالةٍ خاصّة، استطعنا أن نعرف بعمقٍ معنى كون الحجّ فريضةً اجتماعيّةً واعية.



الواجبات الاقتصادية في الإسلام

وتنقسم بشكلٍ رئيسيٍّ إلى قسمين:

القسم الأوّل: ما كان عباديّاً بحسب طبيعته التشريعيّة، لا يصحّ القيام به إلّا بقصد القربة، وتنحصر بالزكاة والخمس، وهي بالرغم من فوائدها الفرديّة حيث توجب كمال النفس والتقرّب إلى الربّ والشعور بالعطف على الفقراء، فإنَّ فوائدها الاجتماعيّة ومغازيها العامّة هي الغالبة والعنصر الرئيسيّ فيها، إلى حدٍّ لا تكاد تتصوّر غير مربوطةٍ بالمجتمع وغير مؤثّرة فيه.

وتتلخّص فوائدها الأساسيّة في النقاط التالية:

النقطة الأُولى: الضمان الاجتماعيّ على المستوى الحكومي في الدولة الإسلاميّة، حيث يكفل من هذه الأموال معيشة كلّ مَن لا معيشة له، أو

يقصر دخله عن كفايته، من العاجزين وذوي العاهات والمشوّهين، وكلّ غير قادرٍ على العمل بشكلٍ عامّ وبأيّ سببٍ كان.

النقطة الثانية: التكافل الاجتماعيّ على المستوى الشعبي، فللفرد المتموّل الذي يجب عليه دفع هذه الضريبة الإسلاميّة أن يصرفها بنفسه - تحت شرائط فقهيّة معيّنة- على كلّ مَن لا يجب عليه نفقته من الضعفاء والفقراء والعاجزين.

النقطة الثالثة: كونه جزءاً من الميزانيّة العامّة للدولة تُصرف بهذا الاعتبار، في كلّ مصلحةٍ إسلاميّة تخدم الإسلام أو المسلمين أو الدولة الإسلاميّة، كالصرف على الموظّفين والعاملين في الدولة، وعلى المؤسّسات العامّة والمعامل، والصرف في الجهاد الإسلامي والدعوة الإسلاميّة، وغير ذلك من المصارف.

النقطة الرابعة: التقريب بين الطبقات الاجتماعيّة، ومن ثَمَّ إلغاء الصراع الطبقيّ إلغاءً كليّاً، حيث يوجب دفع هذه الضرائب في الإسلام ثلاثة آثارٍ مترابطةٍ من هذه الناحية.

الأثر الأوّل: تقليل ثروة الأثرياء؛ فإنَّ هذه الضرائب التي تدفع من رأس المال تارةً، ومن الربح أُخرى، تحدّ - لا محالة- من تضخّم الثروة، وتمنع من تزايدها، فإنّه ما اجتمع درهمان إلّا من شحّ أو حرام، وبذلك يقترب حال الأغنياء شيئاً فشيئاً إلى حال الفقراء.

الأثر الثاني: رفع مستوى الدخل الفرديّ لدى الفقراء، بنحوٍ يكفل قضاء سائر حاجاتهم الأساسيّة، بل ما يزيد على ذلك من مستوى المعيشة الوسطى، بدون أن يكون شخصٌ قد مَنّ عليه أو أسدى إليه إحساناً شخصيّاً

سوى التشريع الإسلامي؛ فإنَّ الغنيّ إنَّما دفع المال تنفيذاً للقانون الإسلامي، والدولة إنَّما خصّته بالعطاء باعتبارها المنفّذة لهذا القانون المقدّس، فلا يمنّ على الفقير أحد، بالرغم من أنَّه يعيش معيشةً طبيعيّة، يقرب حاله فيها من حال الأغنياء.

الأثر الثالث: تقليل وإلغاء الفوارق الطبقيّة في المجتمع اقتصاديّاً وعاطفيّاً. أمّا بحسب الدخل الاقتصادي؛ فلما فهمناه لحدّ الآن، من منع تضخّم الثروة لدى الأغنياء وإحراز المعيشة الطبيعيّة للفقراء، بحيث يقلّ الفرق بين نسبة الدخل عند الطبقتين حتّى تؤذن بالزوال.

وأمّا عاطفيّاً، فإنَّ التناحر الطبقيّ إنَّما ينشأ من المفهوم الرأسمالي الذي يعيش في سوقٍ حرّة، يميل فيها الغنيّ صاحب المال إلى تشغيل العامل أكبر مقدارٍ من الساعات، ودفع أقلّ مقدارٍ من الأُجرة إليه، ويميل إلى الاحتكار ورفع قيمة الموادّ الاستهلاكيّة، بحيث يثقل على كاهل الفقير شراؤها، إلى غير ذلك من الويلات.



وأمّا إذا شعر الفقير بالأُخوّة الإسلاميّة مع الغنيّ من ناحية، وأنَّ الغنيّ يرحمه ويدفع قسماً من أمواله في سبيل أن يعيش هو معيشةً مرضيّة، وأنَّه يمتنع من الاحتكار ويعطي للفقير الحرّية في تحديد ما يُريد من مدّة العمل وتعيين الأُجرة، كلّ ذلك امتثالاً للقانون الإسلامي العادل؛ فإنَّ الحقد التقليدي الطبقي سوف يزول من نفسه، وسيُحَوَّل إلى رحمةٍ وأُخوّة إسلاميّة أخلاقيّة رفيعة.

فهذه هي الآثار الاجتماعيّة العريضة لهذا القسم العبادي من الضرائب، وهي: ما كان منها واجباً عباديّاً، إلى حدٍّ يظهر بوضوحٍ كيف أنَّها تغيّر تاريخ

المجتمع، بل تاريخ البشريّة على تقدير تطبيقها بالشكل الدقيق المطلوب في المجتمع المسلم.

ويزيدها دقّة وعمقاً، كونها عباديّة؛ إذ يحمل ذلك بين طيّاته تلك الروح العامّة التي يريد الإسلام سيادتها في مجتمعه، وهو صدور أفراد المجتمع في سائر أقوالهم وأعمالهم، عن الدافع الإلهيّ والباعث الإيماني، بلا فرقٍ بين صلاةٍ أو صيامٍ أو واجبٍ اقتصاديّ أو اجتماعيّ، أو أيّ عملٍ آخر، مضافاً إلى ما فيه من تربيةٍ للغنيّ وتثقيفٍ له بالإحساس بمعونة الفقراء لأجل الدافع الإلهيّ ذاته، ومن أجل الأُخوّة الإسلاميّة، وليست مجرّد غرامةٍ صعبةٍ يقوم بها الغنيّ مكرهاً، بل يكون فيها إرضاءٌ لربّه وضميره وأخيه المسلم ودولته الإسلاميّة المقدّسة، وذلك من أعلى مراتب الكمال.

القسم الثاني من الواجبات الاقتصاديّة أو الضرائب في الإسلام: هو ما لم يكن عباديّاً بالمعنى الأخصّ، ولم يكن مشروطاً صحّته بقصد القربة، بل كان ممّا تفرضه الدولة الإسلاميّة في موارد معيّنة، وهو بعرضه العريض لا يكاد يكون منحصراً؛ إذ يشمل الديات والكفّارات والغرامات، والضرائب الاستثنائيّة التي تفرض لمصالح وقتيّة، وغير ذلك من العناوين، وجملةٌ من ذلك يشكّل قسماً من ميزانيّة الدولة، وقسمٌ منه يذهب إلى مستحقّيه في المجتمع الإسلامي. والمهمّ من هذا القسم أمران يعَنْوَنان عادةً في الفقه بوضوحٍ، هما: الخراج والجزية.

والمهمّ في هذا البحث، التعرّض للبرهنة على كونهما واجبين ماليّين اجتماعيّين، لا فرديّين، دون التعرّض إلى أحكامهما في الفقه، بحسب القانون الإسلامي.

وواضحٌ للباحث الناظر إلى هذه الناحية، أنَّ هاتين الضريبتين، اجتماعيّتان محضاً، إلى حدٍّ تفقدان أصل وجودهما عندما يحاطان بالطابع الفردي، وذلك بعد ملاحظة عدّة أُمور:

الأوّل: أنَّ كلتا هاتين الضريبتين ناشئتان عن الجهاد الإسلامي الذي هو عملٌ اجتماعيٌّ جماعيّ، تقوم به الأُمّة الإسلاميّة، على ما سنذكره في مستقبل هذا البحث.

أمّا الجزية، فواضحٌ أمرها كلّ الوضوح، فإنَّ الجيش المجاهد الإسلامي يخيّر البلاد الكافرة التي يحاول فتحها ونشر عدله فيها، بين أُمورٍ ثلاثةٍ هي: الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب. فإنَّ اختاروا الإسلام طواعيةً فهو المقصود، وإن اختاروا الحرب سقطوا في يد المسلمين بالقوّة العسكريّة، وإن اختاروا دفع الجزية، كان لهم ذلك، ويدخلون في ذمّة الإسلام وحماية الدولة الإسلاميّة، ويجب عليهم أداء هذه الضريبة إلى الدولة كلّ عامٍ، على شروطٍ معيّنةٍ تُذكر في محلّها من الفقه.



وأمّا الخراج، فمعناه ما تفرضه الدولة الإسلاميّة على الفرد العامل في الأرض الخراجيّة، وهذه الأرض عبارة عمّا يكون معموراً بالجهد البشريّ حال الفتح الإسلامي، فيدخل في ملك الأُمّة الإسلاميّة بمجموعها، ويكون الإمام أو الرئيس وليّاً عليها، يؤجّرها إلى الأفراد، ويأخذ عليها منهم مقدار الأجر المتّفق عليه، وهو المسمّى بالخراج.

الثاني: أنَّ الدولة الإسلاميّة هي التي تقوم بجباية هاتين الضريبتين وصرفهما، ولا يمكن بل لا يشرع في الإسلام قيام الفرد بصفته الشخصيّة بمثل هذا العمل الكبير.

الثالث: أنَّ الأموال التي تجتمع لدى الدولة من هاتين الضريبتين تشكّل قسماً مهمّاً من الميزانيّة العامّة لها، كما ذكرنا في النقطة الثالثة من فوائد الواجبات الماليّة العباديّة، وتصرف في كلِّ مصلحةٍ تخدم الإسلام أو المسلمين، أو الدولة الإسلاميّة على شروطٍ معيّنة في الفقه، تُذكر في محلّها.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهما وظيفتان أساسيّتان لاجتثاث الفساد والانحراف من المجتمع الإسلامي، نتيجةً للتربية والتوجيه والموعظة الحسنة.

والقائم بهاتين الوظيفتين قد يكون هو الفرد، وقد يكون هو الرئيس، وقد يكون هو جهةً من الجهات، كجمعيّة، أو مجلس، أو حزب، ونحو ذلك. كما أنَّ التكليف المأمور به كما يكون مربوطاً بفردٍ منحرف، كذلك يكون مربوطاً بجهةٍ أو حاكم، أو قاضٍ، أو رئيس. ومن هنا تكون أكثر صور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اجتماعيّةً محضة، حتّى أنّه ليحقّ للفرد المسلم أن يناقش الرئيس العامّ للدولة الإسلاميّة، إذا كان الفرد موضوعيّاً واعياً، ولم يكن الرئيس معصوماً. وليس للرئيس أن يغضب للتسالم بينهما على لزوم حفظ مصلحة الإسلام والمسلمين.

على أنَّ أكثر صور هذه الوظيفة الإسلاميّة فرديّة - وهي ما إذا قام بها فردٌ تجاه فرد، فأمره بالمعروف أو نهاه عن المنكر - تتضمّن لا محالة جهةً اجتماعيّة، تتجلّى في تشريعها تارةً، وفي تطبيقها أُخرى.

أمّا من حيث التشريع فباعتبار أنَّ المعتبَر فيها هو قيام كلّ فردٍ من أفراد المجتمع بذلك؛ تطبيقاً لقول نبيّهمﷺ - على ما روي عنه -: «كلّكم راعٍ،



وكلّكم مسؤولٌ عن رعيته»[1]، وينتج من ذلك - بشكلٍ مباشرٍ وصريح - كون الأفراد كلّهم رقباء على تطبيق الأحكام الإسلاميّة في مجتمعهم النموذجيّ العادل، ينصح بعضهم بعضاً، ويوجّهه في نقاط ضعفه، من باب «أنّ المؤمن مرآة المؤمن»[2] يقوم تجاهه بالوظيفة الإسلاميّة، بلا أنفةٍ أو احتجاج.

وأمّا من ناحية التطبيق، فنستطيع أن نلمس بكلّ وضوحٍ الأثر البنّاء لهذه الوظيفة الاجتماعيّة، فيما لو فرض ارتفاعها أو عصيان الأفراد لها؛ فإنّ الانحراف يومئذٍ سيتولّد ويتكاثر في المجتمع، وسوف لن يجد رادعاً أو مانعاً، وتنمو الأجيال على أساسٍ من الانحراف، حتّى يصبحوا هم الآباء والموجّهين والقادة والساسة، فيخرج المجتمع عن بيضة الإسلام إلى ربقة الكفر؛ تطبيقاً لما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّكم تتركون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولّى عليكم شراركم ثُمّ تَدعون فلا يُستجاب لكم»[3].

الجهاد

وهو وظيفةٌ اجتماعيّةٌ لنشر الإسلام أو الدفاع عنه، ولا يمكن أن نتصوّر له وجوداً على الصعيد الفرديّ، بصرف النظر عن العلاقة بالآخرين.

وما يمكن أن يندرج تحت هذا التعريف ينقسم إلى أربعة أقسام، فإنّ

---

(1) عوالي اللئالي ١: ١٢٩، الفصل الثامن، في ذكر أحاديث تشتمل على كثير من الآداب ومعالم الدين، الحديث ٣، وبحار الأنوار ٧٢: ٣٨، معنى العدل، الحديث ٣٦.

(2) تحف العقول (للحرّاني): ١٧٣، وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد، وبحار الأنوار ٧٤: ٢٦٩، الباب الحادي عشر، وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد، الحديث ١.

(3) نهج البلاغة (شرح محمّد عبده) ٣: ٧٧، من وصيّة له عليه السلام بعدما ضربه ابن ملجم (لعنه الله)، برقم ٤٧، وفيه: «لا تتركوا الأمر» بدل: «إنكم تتركون».

القائم به قد يكون هو الفرد أو جهةً خاصّة، وقد يكون هو المجتمع أو الأمّة الإسلاميّة متمثّلةً بالدولة أو الجيش، كما أنَّ أُسلوب الجهاد كما يكون هو الحرب المسلّحة بالتعيين يكون أيضاً بأساليب أُخرى كتابيّةٍ وكلاميّةٍ ونحوها، تنتج نشر الإسلام، أو الدفاع عنه ضدّ الهجوم العقائديّ والفكريّ ونحوه، فيحصل من ضرب هاتين الاثنتين بتلك أربعة أقسام.

ولعلّ من مستأنف الكلام التأكيد على الناحية الاجتماعيّة للجهاد، إذا كان القائم به هو الدولة أو الأمّة، سواء كان جهاداً عسكريّاً أو تبليغيّاً، وسواء كان دفاعيّاً، أو ابتدائيّاً؛ فإنَّ العمل يكون من أعمال المجتمع بمجموعه ورمّته، ولا يتصوّر فيه غير ذلك.

وكذلك لو كان القائم به جهةً أكبر من الفرد كالجمعيّة، أو الحزب، أو المجلس، أو الجماعة، أو نحو ذلك من الجهات؛ فإنَّ العمل يكون في واقعه ابناً للمجتمع ومؤثّراً في المجتمع لا محالة، ولا أثر للفرديّة فيه.

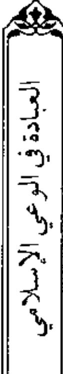
كما يكون الكلام مستأنفاً أيضاً في عرض الفوائد والآثار الاجتماعيّة الإسلاميّة المترتّبة على الجهاد بكلِّ أنحائه، بعد أن نعرف أنّه السبيل الوحيد لانتشال البشريّة المظلومة من وهدة الظلم والطغيان والحرمان إلى أُفق الحقّ والعدل، وإخراجها من الظلمات إلى النور.

وبتعبيرٍ آخر: هو الطريق الوحيد في تخلّص أيّ منطقةٍ في الأرض من أيّ مرتبةٍ من مراتب الكفر والانحراف حكوميّاً، أو فكريّاً، أو اجتماعيّاً، أو فرديّاً، واتخاذ الأُسلوب العادل الصحيح في مكانه.

وإنّما ينفتح بعض الكلام في الجهاد الفرديّ - لو صحّ هذا التعبير - أي: ما يقوم به الفرد الواحد تجاه فردٍ واحد، سواءً كان بواسطة السنان أو اللسان،

وهنا ترد نفس الآثار الكبرى التي ذكرناها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا صدر من فردٍ تجاه فرد، مع كون الجهاد أكثر ثمرةً وأعمق تأثيراً؛ وذلك باعتبار الفرق بين حقل الأمر بالمعروف عن حقل الجهاد، فإنَّ مجال الأمر بالمعروف هو المجتمع الإسلامي نفسه، وغايته المحافظة عليه أفراداً وجماعاتٍ عن الانحراف والفساد، في حين إنَّ مجال الجهاد سواء كان بواسطة السنان أو اللسان هو إدخال غير المسلم في الإسلام وهدايته إلى الدين الحقّ، رأفةً به وعطفاً عليه.

والتبليغ الجهادي على المستوى الفرديّ، قد ينتج تحويل شعب برمّته إلى الإسلام، بل عدّة شعوب، وذلك فيما إذا كان الملتزم به والمتصدّي إليه العديدين في بلادٍ خام، كأفريقيا السوداء التي لم تدخل في الإسلام إلَّا عن هذا الطريق، ولا زالت يتوافد فيها الكثيرون إلى هذا الدين الحنيف، يقدّر في كل عامٍ بألف شخص، بالرغم من ضعف هذه الدعوة الجهاديّة إلى حدٍّ بعيد.



ولا يخفى ما في عدّ الجهاد - وهو العمل الاجتماعيّ الكبير- من العبادات، بل هو في واقعه لا يمكن إلَّا أن يكون عبادة، على مستوى التشريع والتطبيق معاً، أمّا على مستوى التشريع فباعتبار أنَّ الجهاد يمثّل - على أعلى المستويات- تلك الروح العامّة التي يريد الإسلام سيادتها في مجتمعه، وهي الصدور عن الداعي الإلهيّ، والشعور بالتوجّه نحوه، والصدور عن تعاليمه، وهل هناك داعٍ إلهيٌّ أضخم وأخلص من إدخال فردٍ أو جماعةٍ أو مجتمعٍ في الإسلام أو الدفاع عن بيضة الدين، مع فناء المصالح الشخصيّة على هذا المستوى الرفيع مائة بالمائة؛ إذ يكون الفرد مستعدّاً للقاء الموت وخسارة الأهل والمال والولد في هذا السبيل.



وابتناء الجهاد على الشعور بالأُبوة والرحمة تجاه الفرد المدعوّ الـذي يـراد إدخاله في الإسلام، حتّى لو قابلناه بالسيف؛ فإنّنا إنّما نقتله لـمصلحته النوعيّـة من أجل إدخاله في العدل والنور.

وأمّا على مستوى التطبيق، فالجهاد الصادر من أيّ فـردٍ أو جماعـةٍ لغـير الداعي الإلهيّ، لا يكون له أيّ وزنٍ في الإسلام. ويكفينا شاهداً على ذلك مـا ذكره التاريخ [مـن] أنَّ رسـول اللهﷺ في بـدرٍ أو أحـد، لعـن أحـد جنـوده المقاتلين معه وبشّر بدخوله النّار. ثُمَّ إنَّ هـذا الجنـدي قُتـل في تلـك الحـرب، ونقل عنه الناقلون أنّه قال لبعض معارفه قبل أن يموت: أنّه خرج مع الجـيش الإسـلامي ليقاتـل قـريش أخـذاً بالعـصبيّات القبليّـة، ودفاعـاً عـن الآبـاء والأجداد، ففهم الناس ساعتئذٍ مقصود النبـيّﷺ مِـن لعـن ذلـك الرجـل ودخوله النّار[1].



إذن، فالجهاد وهو العمل الإسلاميُّ العظـيم، يجـب أن يكـون خالـصاً مخلصاً، غير مشوبٍ بالانحراف، لا في وسائله ولا نتائجه، لكي ينـتج العـدل الإسلامي الصحيح؛ فإنَّ الغاية الشريفة الخالصة لا تنتج إلّا مـن وسـيلةٍ مثلهـا، ويجب أن لا يكون المجاهد الإسلامي ميكيافيليّاً يُؤمن بأنَّ الغاية تبرّر الواسطة.

فهذه هي جملة العبادات، وقد اتّضح - بكلِّ جلاءٍ- مـا لهـا مـن الآثـار الاجتماعيّة العادلة الواعية، إلى حدٍّ لا يمكن أن تتصوّر الفرديّـة في عـددٍ منهـا على الإطلاق، إلّا مقروناً بانعدامها أساساً، لا يستثنى من ذلك حتّى الـصلاة الفرديّة الانفراديّة؛ لما لها مـن الآثـار المبـاشرة في تكميـل نفـس الفـرد المـسلم وتوجيهه إلى ربّه، ومن الآثار الاجتماعيّة غير المباشرة كما سبق أن أوضحنا.

(١) أُنظر نحوه في سنن أبي داود ٢: ٥٠٣، باب العصبيّة، الحديث ٥١٢١.

بقي أن نفي بما وعدنا به أوّل البحث من المقارنة بين الوسط الإسلاميّ واليمين واليسار الإسلاميّين، بما لهذا الموضوع من ارتباطٍ عضويٍّ بمفهوم العبادات في الإسلام؛ باعتبار أنَّ الخلاف بين هذه الطوائف الثلاث من ناحيةٍ أساسيّة من جهة مقدار تقييمهم للعمل العبادي بصفته عباديّاً.

حيث قلنا: إنَّ مَن نصطلح عليه باليمينيّ في الإسلام فهو ذلك الشخص الذي يعتقد اقتصار التعاليم الإسلاميّة على العبادة الفرديّة، وينحي باللائمة على مَن يعتقد أنَّ فيها حقولاً اجتماعيّة واسعة، وعلى مَن يعمل على الصعيد الاجتماعي الإسلامي.

واليساري: هو مَن يقتصر على العمل الاجتماعيّ مع أقلّ الواجب من العبادات المشروعة في الإسلام، وينحي باللائمة على اليمينيّين إكثارهم من العبادات؛ باعتبار حاجة الإسلام إلى العمل دون العبادات.

والوسط الإسلامي: هو مَن يجمع بين العبادة والعمل؛ لكونه يربطهما معاً بالمصدر الواحد، ويفهمهما فهماً مشتركاً واعياً.

والذي أودّ أن أُشير إليه في المقام من باب المقدّمة، هو: أنَّ هذا التقسيم مجرّد اصطلاحٍ لأجل الإشارة إلى واقع جماعاتٍ نراهم يعيشون في الخارج ويتبنّون ما أشرنا إليه من أفكار، وكلّهم يدّعي أنّه أصاب الهدف ووصل إلى الحقّ. فنريد أن نفهم المصيب في دعواه من المخطئ.

كما أنَّ هذا التقسيم أجنبيٌّ بالكلّيّة عن تقسيم المبادئ في العالم إلى وسطٍ ويمينٍ ويسار، فإنَّ ما نقصده هو اتّصاف الفرد بهذه العناوين في داخل إطار الإسلام، مع براءته وخلوصه التامّ من حيث المبادئ المنحرفة أو الهدّامة.

نعم، قد يُثار السؤال عن: أنَّ الإسلام بنفسه كمبدأٍ من المبادئ كيف ينبغي أن نلحظ نسبته إلى سائر المبادئ، وهل هو في اليمين أو الوسط أو اليسار، وهذا يحتاج إلى بحثٍ مستقلّ، ولسنا الآن بقادرين على الإفاضة فيه، إلَّا بنحو الإشارة؛ حيث إنَّنا نمنع هذا السؤال صغرى وكبرى - بحسب اصطلاح المنطق- أي: من حيث القاعدة العامّة ومن حيث الانطباق.

أمّا من حيث الكبرى؛ فلأنَّنا لا نرى في هذه العناوين الثلاثة أُموراً أساسيّة محدّدة تصلح أن تكون منشأً لانتزاع مثل هذه العناوين، وإنَّما هي: ﴿أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾[1]. فإنّنا لو تجاوزنا هذه الألفاظ لواجهتنا واقع المبادئ، بما لها من القيمة الواقعيّة، من دون أن يكون لهذه الألفاظ أيّ أثرٍ في تقييمها أو ربطها بالواقع.

وأمّا من حيث الصغرى والانطباق؛ فإنَّنا لو سلّمنا صحّة هذه الأوصاف على جملةٍ من المبادئ وكونها دخيلةً في تقييمها، إلَّا أنَّنا لا نسلّم صحّة انطباقها على الإسلام أساساً.

وذلك: باعتبار أنَّ هذه الألفاظ إنَّما وُضعت لهذه المعاني ضمن خطٍّ معيّنٍ في التفكير، مباينٍ للإسلام بكلِّ أطرافه وجهاته، فإنَّ أُوروبا بما تحمل من اتّجاهٍ مادّي، وأُسلوبٍ حضاريٍّ معيّن، حين لاحظت اتّصاف جماعةٍ من مفكّريها بالمحافظة على قديمها، واتّصاف آخرين بالاندفاع المتزايد، واقتصار جماعةٍ ثالثةٍ على الإصلاح الهادئ، أطلقت أُوروبا على الجماعة الأُولى لفظ اليمين، وعلى الجماعة الثانية لفظ اليسار، وعلى الجماعة الثالثة لفظ الوسط. فتمثّلت اليمينيّة بالرأسماليّة، واليساريّة بالشيوعيّة، والوسط بالاشتراكيّة

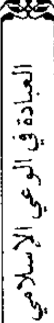
(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

ببعض أساليبها.

وكلّ ذلك أجنبيٌّ عن الإسلام بالكلّيّة، بمعنى: أنّه يشجب أُصوله الموضوعيّة وأُسسه جملةً وتفصيلاً، ويؤسّس على أنقاض مجموعه قانونه العادل الشامل، فكيف يمكن أن يطلق على الإسلام شيءٌ من هذه الألفاظ؟

وإنّما أمكن أن نطلق هذه الأوصاف على الاتّجاهات الداخليّة في الإسلام؛ باعتبار أنَّ المسلمين عاشوا في عدّة مئات من السنين المتأخّرة، فترة ركودٍ وبُعدٍ عن الوعي والعمل الإسلاميّ، وأسلموا القيادة للآخرين يتصرّفون في المجتمع على ما يشتهون، فالفرد الذي يودّ بقاء الحال على ما هي عليه ويخلد إلى الركود والاقتصار على العبادة، يكون يمينيّاً. والشخص الذي يكون مندفعاً في عمله الإسلامي، اندفاعاً يعطيه صفتين رئيسيّتين هما قلّة الإتيان بالعبادات الفرديّة من ناحية، ومحاولة قلب واقعه الذي يعيش فيه قلباً سريعاً قبل نضج العمل الإسلامي وتكامله، فمثل هذا الشخص لابدَّ أن يسمّى يساريّاً، والشخص الذي يجمع بين العمل والعبادة بحكمةٍ وأناة، هو الوسط لا محالة.

ويتّفق اليمينيّ والوسط ضدّ اليساريّ الإسلامي، على إعطاء العبادة أهمّيّتها ومركزيّتها في الإسلام، وأنّها العصب الرئيسيّ في ربط العبد بربّه والجوهر الكامل في سائر سلوك الفرد، وإن اختلفا في فهم العبادة ومقدار سعة انطباقها، حيث كان الوسط أكثر انفتاحاً وتوسعة، كما يتّفق الوسط مع اليسار على وجوب العمل الإسلامي، وضرورته لإنقاذ المجتمع المسلم من براثن الكفر والانحراف، بل لإدخال المجتمعات غير المسلمة في الإسلام، وإن اختلفا في مقدار إنتاجه وتوقيت نتيجته؛ حيث كان الوسط أكثر احتراساً



وحذراً وتأنّياً.

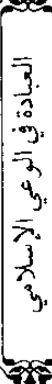
إذا اتّضح كلّ ذلك، استطعنا أن نفهم المقارنة بين هذه الطوائف الثلاث، وأنَّ العدل الإسلامي والوعي الصحيح مطابقٌ مع الوسط دون اليمين واليسار. ونحن إذ نتكلّم تارةً في المقارنة بين اليمين والوسط، وأُخرى بين اليسار والوسط، ينفتح الكلام من هذه الناحية في جانبين:

الجانب الأوّل: في المقارنة بين اليمينيّ العابد والوسطيّ العامل، ويتمّ بيان الفرق بينهما في عدّة نقاط:

النقطة الأُولى: ما أشرنا إليه من اختلافهما في فهم العبادة ومقدار سعة انطباقها؛ فإنَّ اليمينيّ العابد ينظر إلى العبادة متمحّضةً في الجانب الفردي الخالص، وليس لها أيّ ارتباطٍ بالمجتمع، بل هو إذ يرى الأحكام الإسلاميّة مقتصرةً على العبادات، فهو لا يرى في الإسلام إلّا جانباً فرديّاً أخلاقيّاً صرفاً.

ومن هنا كان لابدَّ من قصر العبادة في مقام الانطباق، على الصلاة والصوم والحجّ ونحوها، وحتّى الزكاة والخمس من الواجبات الاقتصاديّة، إنَّما يُدفع لأجل مصلحة الفرد، سواء وصل إلى الآخرين أو لم يصل. أمّا الجهاد والصدقة والأمر بالمعروف فليست عبادةً بحال.

على حين نرى الوسط يعطي للعبادة مفهوماً جديداً عامّاً مستقىً من واقع الإسلام، وهو ما أشرنا إليه فيما سبق من هذا البحث، وهو الاندفاع عن الدافع الإلهيّ والشعور بأنَّ العمل المأتيّ به هو امتثالٌ لأمر الله وقانون الإسلام، وعلى ذلك فلا فرق في جوهر العبادة بين الصلاة والصوم، وبين الجهاد والصدقة، والأمر بالمعروف، والدعوة إلى الله تعالى، مادامت كلّها أعمالاً مأموراً بها في الإسلام وواجبة التنفيذ من قبل المسلم.



النقطة الثانية: أنَّ اليمينيّ بانصرافه إلى العبادة، وتقوقعه في بوتقة نفسه وانصرافه عن الناس، يكون لا محالة مصداقاً لقوله ﷺ - على ما روي عنه -: «**مَن لم يهتمّ بأُمور المسلمين فليس بمسلم**»[1]، على حين أنَّ الوسط باهتمامه بأُمور المسلمين وتصدّيه وتضحيته في سبيل تطبيق العدل الإسلاميّ على المجتمع، يكون مرتفعاً إلى الأُفق الواعي الصحيح.

النقطة الثالثة: أنَّ اليمينيّ بانصرافه عن العمل الإسلامي (يُؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض)، أو بعبارةٍ أُخرى: يطيع قسماً من أحكام الإسلام ويعصي القسم الآخر؛ فإنَّ الإسلام كما أوجب جملةً من العبادات، أوجب الجهاد والأمر بالمعروف وعدداً من الأحكام الاجتماعيّة، التي يكون اليمينيّ منصرفاً عنها عاصياً لها، بخلاف الوسط الذي يبذل التضحيات في سبيل إطاعة هذه الأحكام.

النقطة الرابعة: أنَّ اليمينيّ أنانيٌّ يمتثل أحكام الإسلام في سبيل منفعة شخصه ونجاته من العقاب وفوزه بالثواب شخصيّاً، سواء آمن شخصٌ آخر في المجتمع أو انحرف أو كفر، وسواء أفتقر أو اغتنى، أو جهل أو تعلّم، أو سيطر عليه الظالم أو أنجلى عنه، على حين أنَّ الوسط العامل، يحمل همّ كلّ ذلك، ويعمل لاجتثاث بؤرة الفساد والنقصان من المجتمع.

النقطة الخامسة: أنَّ الوسط العامل، له ملكةٌ كبيرة ضدّ الإغراء

---

(١) الكافي ٢: ١٦٣، كتاب الإيمان والكفر، باب الاهتمام بأُمور المسلمين والنصيحة لهم ونفعهم، الحديث ٤، وسائل الشيعة ١٦: ٣٣٦، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب فعل المعروف، الباب ١٨، باب وجوب الاهتمام بأُمور المسلمين، الحديث ١.

والصدمات، أكبر بكثير ممّا لدى اليمينيّ العابد.

وذلك لأنَّ العمل الإسلامي والاحتكاك بالصعوبات والصدمات وموارد الإغراء والمزالق، مع الترفّع عنها والإخلاص الإسلامي تجاهها، يعطي الفرد مناعةً متزايدةً كبيرة، ضدّ ما يجدّ من هذه المزالق والصدمات أمام الفرد العامل، وكلّما قدّم الفرد من التضحيات في هذا الطريق ازدادت قابليّته على الصمود والثبات في مصاعب أكبر ومزالق أعقد، ويصبح - من باب التقريب- كقول القائل[1]:

أصابتني سهام الدهر حتّى ... كأنّي في غشاءٍ من نبالِ

فكان إذا أصابتْني سهامٌ ... تكسّرت النصالُ على النصالِ

وبذلك يتمكّن من العمل الإسلامي على مستوىً أعمق وأوسع، بخلاف اليمينيّ العابد الخالي من التجربة، والبعيد عن المزالق والصدمات، ولا يمكن أن تكفيه الثقافة الفرديّة الإسلاميّة التي يعرفها؛ فإنّه بمجرّد مجابهته لبعض ذلك ممّا لم يكن بحسبانه، فإنّه يتعرّض حتماً للانهيار والانجراف بالتيّار، وليس له أيّ ملكةٍ أو قوّةٍ مانعة عن ذلك، كما حصل بالفعل لعددٍ غير قليلٍ منهم حين جابهتهم الحضارة الماديّة الحديثة والضغوط السياسيّة المنحرفة، والحديث ذو شجون.

الجانب الثاني: في المقارنة بين اليساريّ الإسلامي والوسط، ويتّضح ذلك في عدّة نقاط:

---

(١) القائل هو: أبو الطيّب المتنبّي. راجع شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب ٣: ١٥، وخزانة الأدب وغاية الأرب: ٨٧.

النقطة الأُولى: ما أشرنا إليه فيما سبق، من أنَّ اليساري يقتصر على أقلّ مقدارٍ من العبادات، بخلاف الوسط؛ وذلك ناشئٌ من أنَّ الفهم العامّ الواعي للعبادة ممّا لم يتوصّل إليه اليساري، بل تخيّل ما تخيّله اليمينيّ، واتّفقا صدفةً على أنَّ العبادة ليس لها إلَّا أثر فرديٌّ غير واعٍ، وهذا الاعتقاد أوجب عند اليمينيّ الاستزادة منها، وأوجب عند اليساري التقليل من شأنها وقلّة إيجادها في عمله في الخارج.

أمّا الأوسط، فحيث التفت إلى المفهوم الواعي للعبادة، المنطبق على سائر العبادات الواجبة والمستحبّة والأعمال الاجتماعيّة والأُمور الأخلاقيّة على حدٍّ سواء. ومن هنا كان يودّ الاستزادة من العبادة ما لم يزاحمه عملٌ أهمّ، في سبيل الإسلام والمسلمين.

النقطة الثانية: ما أشرنا إليه أيضاً، من أنَّ اليساريَّ سريعٌ في عمله الإسلامي، ثوريٌّ في نشاطه، مستعجلٌ للنتائج المتوخّاة والهدف الإسلامي المنشود، وهذه هي الميزة الرئيسيّة فيه، المسبّبة لجملةٍ من الاختلافات والنقاط، كقلّة العبادة الفرديّة، وبعض النقاط التالية التي سنعرفها.

[وهذا] بخلاف الإسلاميِّ الوسط؛ فإنَّه يعطي للعمل الإسلامي قيمته الواقعيّة، بصفته مولوداً ونامياً في مجتمعٍ معيّن، ولا يتوقّع النتائج قبل أوانها، ويسعى بحكمةٍ وتدبّر، مطبِّقاً للقواعد الإسلاميّة الواعية الصحيحة.

النقطة الثالثة: أنَّ اليساري باعتبار كونه مستعجلاً للنتائج متلهّفاً على الهدف الإسلامي، فهو يريد أن يتوصّل إليها بأيّ الوسائط كان، باعتبارها مقربّةً له وميسّرةً إيّاه. وإن كانت غير راجحةٍ إسلاميّاً واجتماعيّاً، فهو بذلك مكيافيليٌّ يعتقد بأنَّ الغاية تبرّر الواسطة.



على حين أنَّ الوسط ينكر ذلك بشدّة، ويرى أنَّ الهدف الخالص العدل، لا يمكن أن يُتوصَّل نحوه إلَّا بواسطةٍ خالصةٍ عادلة، ولا يجوز بأيّ حالٍ ارتكاب الوسائط غير الراجحة في سبيل الهدف الإسلامي.

النقطة الرابعة: أنَّ اليساريَّ لا يمثّل الإسلام تمثيلاً كاملاً، في سائر تصرّفاته وأقواله وأعماله، بخلاف الوسط، فإنَّه يكون - كما هو المتوقّع من كلّ فردٍ واعٍ إسلاميّاً- متمثّلاً للإسلام تمثيلاً كاملاً، ومتوجّهاً في طريق الطاعة الإلهيّة مهما كلّفه الأمر، ومطبّقاً لذلك على سائر مفردات سلوكه.

وينشأ عادةً من هذا المسلك مِن قِبل اليساري عدّة آثارٍ غير محمودةٍ على الصعيد الإسلامي، تظهر بين حينٍ وآخر في غضون حياته وعمله، نذكر جملةً منها لا على سبيل الحصر:

الأثر الأوّل: أنّه إنّما يهتمّ بامتثال الواجبات الواضحة، والانزجار عن المحرّمات كذلك، ولا مانع لديه على السير في طريق الشبهات وترك الاحتياط في جملةٍ من أعماله؛ زاعماً أنّه لم يثبت وجوبها أو حرمتها.

الأثر الثاني: أنّه يستهدف في جملةٍ من نشاطاته نفعه الشخصيّ، كالشهرة والمال، وينطلق من محصوله الإسلامي إلى المحصول المصلحيِّ الضيّق؛ زاعماً إمكان الجمع بينهما على كلِّ حالٍ.

الأثر الثالث: أنّه عند بيان وجهة نظر الإسلام ابتداءً أو عند سؤاله عنه، يزن الجواب بميزان الظروف والمصالح الوقتيّة، ويتصرّف في الرأي الإسلامي بحيث يجعله منسجماً لما يتصوّر أنّه المصلحة.

الأثر الرابع: أنّه إذا أعلن عن تبنّيه لرأيٍ حين يناقشه فيه شخصٌ آخر، يبقى مدافعاً عن رأيه إلى آخر الشوط، ولا يكون على استعدادٍ للخضوع

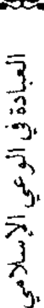
للحقّ وإن قام البرهان على خطأ رأيه.

إذا اتّضح كلّ ذلك، يتبرهن - عمليّاً - على أنّ المسلك الوسط هو خير المسالك الثلاثة، بصفته مطابقاً لرأي الإسلام الواقعي، الذي قامت على صحّته الأدلّة الواضحة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

الجمعة

٢٧/ ١٢/ ١٣٨٩ = ٦/ ٣/ ١٩٧٠





(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.



العدالة والفسق في الإسلام

العدالة والفسق في الإسلام

محاولةٌ للمقارنة بين مفهوم العدالة ومفهوم الوعي من ناحية، وبين مفهوم الفسق ومفهوم الانحراف.

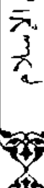
العدالة لغةً: هي الاستقامة والقصد في الأُمور، والفسق: هو الخروج عن الطريق، والجور عن السبيل[1].

وأمّا اصطلاحاً، فالعدالة - على أقرب الوجهين-: تطبيق السلوك على التعاليم الإسلاميّة. ويقابلها الفسق، وهو: التمرّد والخروج على التعاليم والأحكام الإسلاميّة وعصيانها.

والعدل بمفهومه العامّ الذي هو وضع الشيء في موضعه، هو نقطة الارتكاز الذي يقوم عليه النظام الأمثل في التكوين والتشريع، والمجتمع والفرد.

أمّا على مستوى التكوين، فلوضوح أنّ الله تعالى قد أتقن صنع هذا الكون بقوانينه المحكمة وأجزائه المترابطة، بحيث لو تخلّف أيّ قانونٍ أو جزءٍ منها لانحلّ مجموع النظام ولتبعثر الكون، مثاله في ذلك مثال الجسد الواحد

(١) المصباح المنير ٢: ٣٩٦، مادّة (عدل)، وأُنظر: ما وراء الفقه ١: ٣٩، كتاب الاجتهاد والتقليد، فصل في العدالة؛ حيث تعرّض إلى التعريف اللغوي والاصطلاحي بالتفصيل.



إذا اشتكى جزءٌ تداعت باقي الأجزاء بالسهر والحمّى، ولولا العدل ووضع كلّ شيءٍ في موضعه لما حصل هذا الضبط والإحكام من الله ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[1].

وأمّا على مستوى التشريع، فمن الواضح لكلِّ أحدٍ: أنَّ التشريع الذي يتكفّل سعادة البشر ورفاههم هو التشريع العادل، دون الظالم لا محالة، وإنّما يتوفّر في التشريع عنصر العدل فيما إذا كان جامعاً لشرطين أساسيّين في المقنّن ومثلهما في القانون.

أمّا المقنّن فشرطه الأوّل: أن يكون مطّلعاً على حقيقة الموضوع الذي يشرّع له القانون، فلو أراد أن يجعل قانونه ساري المفعول على قومٍ أو بلادٍ على البشريّة أجمعين، فلابدَّ أن يكون مطّلعاً على حقيقة مشاكلهم ومستوياتهم والظروف التي يمرّون بها على الدوام أو بين حينٍ وآخر.

وشرطه الآخر: أن يكون عارفاً - بكلِّ دقّةٍ وحكمة- الأمر الذي يحلّ لهم تلك المشاكل ويحوّل لهم الألم سعادة، والجدب رفاهاً وراحة.

وبتعبيرٍ آخر: يجب أن يكون المقنّن مطّلعاً فكريّاً على صغريات التطبيقات العادلة التي تكفل النتيجة الصحيحة، التي تكفل بدورها تكامل البشريّة ورقيّها.

وأمّا شرطا التشريع: فأوّل الشرطين: أن يكون التشريع كاملاً غير ناقصٍ مِن حيث كونه تشريعاً، بمعنى: أن لا يدع مشكلةً أو صعوبةً إلّا أسّس لها أساس الحلّ والعدل نظريّاً في موادّ قانونه.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢.



وشرطه الثاني: أن يكون مستوعباً لكلِّ الأفراد والأزمنة والأمكنة التي يحاول المقنّن استيعابها، فلا يحتوي على قصورٍ أو استثناءٍ يُخرج بعض الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة التي تحتوي على المشاكل والظلم، وإلَّا كان القانون غامطاً لهذه الموارد حقّها وظالماً لها.

ومثل هذه الشرائط على مستوى البشريّة جمعاء، غير متوفّرة إلَّا في الدين الإسلامي وتعاليمه العادلة الحكيمة، فهو التشريع الذي يوفّر العدل المطلق الذي نقصده في المقام.

وأمّا على مستوى المجتمع والفرد، فالمجتمع العادل والفرد العادل هو الذي يختار التشريع العادل، ويطبّقه على نفسه بدقّة؛ فإنَّ التشريع بصفته حبراً على ورق، أساسٌ نظريّ وليس له أيّ تأثيرٍ عمليّ، مهما كان حكيماً ودقيقاً، وإنَّما يكفل سعادة البشر ورفاههم فيما إذا أخذ طريقه إلى التطبيق والتحقيق. فما لم يعدّ المجتمع أفراده، والفرد نفسه، لإطاعة تعاليمه بدقّةٍ ورويّة، لم يمكن وصولهم إلى العدل والكمال، وسيحصل على هذه النتائج الخيّرة فيما لو أعدّ نفسه لذلك.

ومن هنا نرى المجتمع العادل متآخياً متجانساً لا تنافر ولا تشاحن بين أفراده، مستقرّاً في أحواله، متكاملاً في سيره، كما نرى الفرد العادل متجانساً في عواطفه، مستقرّاً في نفسه، متكاملاً في تربيته وفكره وعمله.

ولكنّنا في كلِّ ذلك، يجب أن نأخذ الوعي بنظر الاعتبار، والوعي الإسلامي عبارة عن الفهم المستوعب الصحيح للإسلام. فإنَّ العدالة بهذا الاعتبار ستنقسم إلى قسمين أساسيّين: إلى عدالة ما قبل الوعي، وعدالة ما بعد الوعي.



والوجه في ذلك: أنَّ الشخص غير الواعي قد يكون عادلاً؛ فإنَّـه وإن لم يفهم الإسلام فهماً مستوعباً، إلّا أنّه إن عصى ما عرفه من الأحكام كان فاسـقاً على كلِّ حال، وإن أطاع ما عرفه من الأحكام وكرّس عمله عليه، كان عـادلاً لا محالة. وأمّا ما لم يعرفه من الأحكام فلابدَّ أن نفرضه معذوراً تجاهها بـشكلٍ من أشكال العذر المشروعة، ليكون بالرغم من عصيانه لـه عـادلاً، وإلّا كـان فاسقاً لا محالة، وهو خلف المفروض.

كما أنَّ الشخص الواعي ثقافيّاً وذهنيّاً، قد يكون فاسقاً إذا لم يكن مطيعاً لكلِّ [ما] وصَلَه وعَرِفه من الأحكام، وقد يكون عادلاً فيما لو كان قـد كـرّس حياته على الامتثال والتطبيق.

وهذه العدالة لما بعد الوعي أعمق أثراً وأوسع مورداً وأعظم مـسؤوليّة على الفرد، منها عن عدالة ما قبل الوعي؛ نظـراً إلى جملـة الأحكـام والتعـاليم التي يعرفها الواعي ممّا يجب أن يطبّق عليها سلوكه وحياته، ممّا يفـرض كونـه مجهولاً بالنسبة إلى غير الواعي لسببٍ من الأسباب، وهـي: أحكـامٌ اجتماعيّـةٌ وسياسيّةٌ وقضائيّةٌ ونحوها، ممّـا هـي أكـبر أهمّيّـةً وأعظـم مـسؤوليّةً في مقـام التطبيق، من العبادات الفرديّة والأحكام الجزئيّة التـي يأخـذها غـير الـواعي بنظر الاعتبار.

ومن هنا اكتسبت عدالة ما بعد الوعي أهمّيّتهـا في الإسـلام، وأثرهـا في تكوين المجتمع الواعي العادل، بل هي في الواقع: هي العدالة المطلوبة واقعـاً من الفرد المسلم، المستوعبة لكلِّ الأحكام الإسلاميّة الصحيحة.

وهذه العدالة بنت الوعي والمسبّبة عنه والمساوقة له عـلى طـول الخـطّ، ويستحيل أن نتصوّر انفكاكها عنه، بل هي عين الوعي وذاته لو عمّمنا الوعي

إلى السلوك، فإنَّها هي السلوك الواعي بالتعيين، ونحن إذ نريد أن نقارن بين العدالة والوعي فيما يلي، فإنَّنا إنَّما نقارن بين العدالتين السابقة على الوعي واللاحقة له، أو بين تلك العدالة أو بين الوعي نفسه.

وتتلخّص الفروق بين العدالة الأُولى والوعي في عدّة نقاط:

النقطة الأُولى: أنَّ العدالة بمفهومها لا تشمل إلَّا السلوك، فإنَّه يوصف بأنَّه عادل، ولا توصف الثقافة والفكر بأنَّه عادل، بخلاف الوعي، فإنَّه كما يشمل الفكر المستوعب الصحيح بشكلٍ رئيسيّ، كذلك يشمل السلوك المطبّق عليه، الذي يمثّل عدالة ما بعد الوعي.

النقطة الثانية: أنَّ عدالة ما قبل الوعي - بمدلولها المباشر - شخصيّة، مقتصرٌ أثرها على الفرد، ومن النادر أن نتصوّر إمكان شمولها إلى الآخرين، فضلاً عن الآثار الاجتماعيّة الواسعة. وأمّا الوعي فذو مدلولٍ مباشرٍ فرديٍّ واجتماعيّ، فكريّاً وعمليّاً؛ إذ يكون مستوعباً باستيعاب الأحكام الإسلاميّة نفسها لكلا الحقلين، ومقتضياً للتطبيق في كلا الجانبين.

النقطة الثالثة: أنَّ عدالة ما قبل الوعي جامدةٌ لا تبعث صاحبها على العمل الاجتماعي ولا تشعره بالمسؤوليّة العامّة، وأمّا الوعي فهو حركيٌّ يبعث صاحبه إلى العمل والتضحية في سبيل الآخرين على الطريق الإسلامي، شاعراً بالمسؤوليّة تجاه ذلك على طول الخطّ.

****

والفسق والانحراف وإن كادا أن يتّفقا بحسب مدلولهما اللغوي، وهو الخروج والعدول عن الطريق، إلَّا أنَّهما اختلفا اصطلاحاً، حيث كان الفسق مقابلاً للعدالة، فيكون المراد منه عدم تطبيق السلوك على الأحكام الإسلاميّة



كلاً أو بعضاً. وحيث كان الانحراف مقابلاً للوعي، فيكون المراد به عدم الفهم المستوعب لأحكام الإسلام الراجع في كثيرٍ من الأحيان إلى الفهم الخاطئ لا محالة، وتقبّل الأفكار الغربيّة، إلى حدٍّ قد يتمحّض فكر الفرد في ذلك، وينعزل عن فهم الإسلام بالكلّيّة.

ويكون هذا الفهم الخاطئ في جانبه العمليّ سلوكاً منحرفاً، وتجرّداً بقليلٍ أو كثيرٍ عن الدافع الإلهيّ الصحيح المطلوب من الفرد المسلم.

ويتحصّل الفرق بين الفسق والانحراف في عدّة نقاط:

النقطة الأُولى: أنَّ الفسق - بالدقّة- يقابل عدالة ما قبل الوعي، والانحراف يقابل عدالة ما بعد الوعي. ومن هنا كان الفسق عمليّاً محضاً، حيث يوصف الشخص بكونه فاسقاً في سلوكه، ولا يُقال: إنّه فاسق في تفكيره، على حين إنَّ الانحراف شامل لكلا الحقلين كما هو واضح.

النقطة الثانية: أنَّ الانحراف العملي أوسع مورداً من الفسق؛ فإنَّ الفسق حيث يقابل عدالة ما قبل الوعي، كان لابدَّ أن نفترض الفاسق غير واعٍ وليس لديه فكرةٌ عامّةٌ عن الكون والحياة. ومن هنا تكون مسؤوليّته أقلّ أهمّيّة، وفسقه أهون، بخلاف الشخص الذي كوّن فكرةً مسبقةً عن الكون والحياة، فإنّها إمّا أن تكون هي الإسلام بتمام تفاصيله مع عصيانه كلاً أو بعضاً، وإمّا أن تكون هي غير الإسلام أساساً، وعلى كلا التقديرين يكون الانحراف زاويةً حادّة ضدّ التعاليم الإسلاميّة والسلوك العادل، وذا أهمّيّة كبرى في الخروج عن الطريق الصحيح.

النقطة الثالثة: أنَّ الفسق - شأنه شأن ما يقابله من عدالة ما قبل الوعي- يعطي أثراً شخصيّاً، ولا يكون له - في الأغلب بمدلوله المباشر- أثراً

اجتماعيّاً، بخلاف الانحراف؛ بصفته مقابلاً لعدالة ما بعد الوعي، يكتسب صفتها الاجتماعيّة أيضاً، فلا يقتصر ضرر الانحراف على الفرد المنحرف، بل يعمّ الآخرين أيضاً.

النقطة الرابعة: أنَّ الفسق جامد، لا يبعث صاحبه على بثّ فسقه وجرّ الآخرين إلى سلوكه، ولا يدفعه على العمل الاجتماعي؛ باعتباره معنىً عمليّاً ناشئاً من قصور التفكير وعدم النضج، وليس ناشئاً كالانحراف من الإيمان بقضايا أساسيّةٍ خاطئة، أو خارجةٍ عن الإسلام، ومن هنا كان الانحراف عنصراً هدّاماً يدفع صاحبه إلى بثّ انحرافه وجرّ الآخرين إليه سلوكيّاً وعمليّاً، ويجرّ على المجتمع من الويلات ما لا يحمد عقباه.

****

بعد هذه الجولة، بقي أن نعرف مَن الذي تُعتبر فيه العدالة في الإسلام، ومَن هو الذي يُعتبر فيه الوعي.

وبتعبيرٍ آخر: مَن الذي يكتفى فيه بعدالة ما قبل الوعي، ومن الذي يراد فيه خصوص العدالة لما بعد الوعي.

وليس المراد كونه مطلوباً من الفرد المسلم؛ فإنَّ المطلوب إسلاميّاً متعيّن جزماً بعدالة ما بعد الوعي، وإنّما تتحقّق العدالة قبل وجود الوعي؛ باعتبار النقصان الفردي، والجهل بالأحكام الرئيسيّة الاجتماعيّة في الإسلام، أو العذر عنها بنحوٍ من الأنحاء.

وإنّما المراد أنَّ هناك مهامَّ لا يقوم بها إلّا العدول، وإلّا كانت ساقطةً عن الاعتبار وغير صحيحةٍ في الإسلام، فنرى في بعض الموارد أنَّ المُشتَرَط هو العدالة بأيّ مقدارٍ وُجدت، وإن كانت لما قبل الوعي، ولو كانت لما بعد

الوعي كان أفضل، لا على نحو التعيين، على حين إنَّ البعض الآخر من الموارد يشترط فيه خصوص عدالة ما بعد الوعي، بحيث لا يكون له أيّ أثرٍ لو قام به الفرد غير الواعي.

والواقع أنَّ هذا الاشتراط يختلف باختلاف الأثر المطلوب. فقد يكون الغرض المتوخّى إسلاميّاً ممّا يتحقّق، وإن لم يكن الفرد واعياً، فيكتفى بعدالته في تلك المرتبة، كالوثاقة في النقل وعدم احتمال تعمّد الكذب، كالذي يعتبر في الشاهد في الطلاق وفي القضاء، وكالوثاقة على الأموال في الوصيّ على الطفل ونحوه، وكالوثاقة في نقل الحكم الشرعيّ في المجتهد العادل الذي يجوز تقليده، وكالوثاقة من ناحية إحراز عدم تعمّده العصيان، كإمام الجماعة، فإنَّ كلّ ذلك ممّا يتوفّر عادةً قبل حصول الوعي، فيكون الفرد موضوعاً كاملاً لهذه الأحكام الإسلاميّة، وإن لم يكن واعياً، وبالطبع فإنَّ العادل الواعي يكون أفضل، لكن لا على نحو التعيين.

على حين لا يكون الغرض المطلوب إسلاميّاً، ممّا لا يتحقّق إلّا بالعدالة الواعية؛ وذلك انطلاقاً من طبيعة العمل الذي يقوم [به] الفرد بالنحو الذي يكون منتجاً نتيجته الاجتماعيّة المطلوبة.

وعلى رأس مَن تعتبر فيه هذه العدالة: رئيس الدولة الإسلاميّة، فإنَّ من أوّليات قدرة الفرد على تولّي هذه المسؤوليّة الكبرى في الإسلام هو أن يكون واعياً، مستوعباً لكلِّ خصوصيّات التشريع الإسلامي، وفاهماً لكلِّ الواقع الذي يعيش فيه، وقادراً على تطبيق كلّ جزئيّات حوادثه على التشريع الإسلامي، ومن دون ذلك يمتنع عليه أن يقوم ببعض مهامّ الرئاسة فضلاً عن جميعها، وإن كان عادلاً بعدالة ما قبل الوعي.

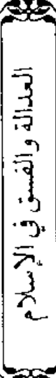


وهذا واضح كلّ الوضوح لمَن استعرض المهامّ والمسؤوليّات التي يضطلع بها الرئيس الإسلامي، كإعلان الحرب، والسلم والصلح، وجباية الخمس، والزكاة، والخراج، وصرفها في المصالح الإسلاميّة، فربّما أوقع دينه وأُمّته بأشدّ الأضرار والمخاطر لو لم يكن واعياً، فإذا كان واعياً لم يكن واعياً لا محالة إلّا بعدالة ما بعد الوعي؛ لوضوح عدم كفاية العدالة الأُخرى من الواعي، بل تعتبر فسقاً بالنسبة إليه؛ لأنّها تتضمّن معاصيَ أصبحت معلومةً لديه ومنجّزةً عليه بعد وعيه، وإن لم تكن كذلك قبل ذلك.

وممّن ينبغي أن يكون واعياً، وإلّا لم يكن لعمله أيّ أثر: كلّ مَن اشتغل بتبليغ الأفكار والمفاهيم الإسلاميّة، كخطيب صلاة الجمعة، والباحث الإسلامي، والداعية الإسلامي؛ وذلك أخذاً بنظر الاعتبار نقاطاً ثلاثاً:

النقطة الأُولى: أنّ الفرد إنّما لا يكون واعياً فيما لو كان جاهلاً ببعض الأحكام - كما سبق - أو له شبهةٌ مستعصية الحلّ، أو مصلحةٌ تمنعه عن الاعتراف ببعض الحقائق الإسلاميّة، وغير ذلك من الأسباب. وإذا لم يكن الفرد مستوعباً لكلّ تعاليم الإسلام، امتنع عليه لا محالة بيانه بشكلٍ مستوعب، أو المقارنة بين أحكامه أو مقارنتها بالمبادئ الأُخرى، وغير ذلك من البحوث؛ فإنّ فاقد الشيء لا يعطيه، ومعه يكون عمله ناقصاً إلى حدٍّ كبير، ومن هنا يتعيّن أن يكون المبلّغ الإسلامي - بأحد أشكاله - واعياً فكريّاً لا محالة.

النقطة الثانية: أنّ النقص أو القصور في فهم الإسلام، يستلزم في أكثر الحقول وبخاصّة المهمّة منها، تحريف المفاهيم الإسلاميّة عن عمدٍ أو غير عمدٍ بقليلٍ أو كثير، لا أقلّ من أن يحاول الفرد غير الواعي تطبيق المفهوم الإسلامي لا شعوريّاً على ما يحمل من أفكار ومفاهيم ومسبقات ذهنيّة غير صحيحة،



فيعرض المفهوم الإسلامي بشكلٍ محرّف، ويمسخه عن واقعه الأصيل.

النقطة الثالثة: أنَّ من جملة أسباب القصور في الوعي: شعور الفرد بالعجز عن تطبيق الأحكام الاجتماعيّة الكبيرة في الإسلام، فيكون واعياً فكريّاً غير واعٍ سلوكيّاً - وإن كان معذوراً في ذلك على الفرض- ومثل هذا الشخص أيضاً يكون تبليغه الإسلامي ساقطاً في الغالب عن التأثير؛ لأنّه يكون عالماً غير عامل، وواعظاً غير متّعظ، وهو ممّن لا تقيم له عامّة الجمهور وزناً؛ فإنَّ الناس ينظرون إلى القائل قبل أن ينظروا إلى قوله، ويُؤثّر فيهم العمل الصالح والأمثولة السلوكيّة الحسنة أكثر ممّا يؤثر فيهم الكلام، وإن كان برهانيّاً صحيحاً، فضلاً عمّا إذا كان سلوك الفرد مناقضاً لقوله؛ فإنَّ الفرد المدعوّ المخاطب سوف يقول - ومعه حقّ-: إنَّ هذا المتكلّم أحقّ أن يطبّق أقواله على نفسه، فأمّا حين بدأ هو بأقواله فخالفها وعصاها، فغيره أولى بالعصيان، ومعه لا تكاد تكون أقواله مسموعةً من أحد.

إذن يتبرهن باعتبار كلّ ذلك: أنَّ المبلّغ الإسلامي يجب أن يكون واعياً، بل عادلاً سالكاً على طبق وعيه، حتّى يكون لكلامه الأثر التامّ والاستيثاق الكامل تجاه الأحكام الإسلاميّة، ولا ينبغي أن يكون المبلّغ غير واعٍ أو غير عامل، فضلاً عن أن يكون منحرفاً سقيم التفكير، يستخدم المفاهيم الإسلاميّة لنيل المصلحة الشخصيّة أو للدعوة إلى المبادئ الكافرة.

على أنّه يجب أن يكون كلّ فردٍ مسلم - بصفته مسلماً- عادلاً بعدالة ما بعد الوعي.

أمّا وجوب تحصيل الوعي ثقافيّاً وفكريّاً فواضح؛ باعتبار أصل وجوب تعلّم الأحكام المربوطة بالمكلّف في الإسلام. ولا شكّ أنَّ جملة من الأحكام

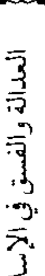
الاجتماعيّة في الإسلام مربوطٌ بكلّ فردٍ من أفراد المكلّفين ومنجّزٌ عليه، إمّا بنحو الوجوب العيني أو الكفائي أو التخييري أو الغيري، ممّا هو مشروحٌ في محلّه.

وأمّا وجوب تحصيل العدالة السلوكيّة الواعية بعد معرفة هذه الأحكام؛ فلأنّها عبارةٌ عن الإطاعة لهذه الأحكام الواصلة المنجّزة، وهي واجبةٌ عقلاً وشرعاً ضرورة.

فيتعيّن على كلّ فردٍ إلزاماً أن يكون عادلاً بعدالة ما بعد الوعي، وإنّما يتصوّر أن يكون الفرد معذوراً وعادلاً بعدالة ما قبل الوعي، لجهةٍ من جهات النقصان فيه، كالقصور عن إدراك الحكم أو اعتقاد العجز عن تطبيقه بنحوٍ غير مطابقٍ للواقع.

والحمد لله ربِّ العالمين.

السبت: ٢٨/ ١٢/ ١٣٨٩ = ٧/ ٣/ ١٩٧٠





من هو المؤمن؟

من هو المؤمن؟[1]

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[2].

الإسلام، ذلك الدّين القيّم الذي استهدف في تشريعاته سمّو البشر إلى كمالهم، وانتشار العدالة في المجتمع الإنساني، ونهى عمّا ينزل بالبشريّة إلى حضيض الإثم والرجس. فهو يسعى – فيما يسعى إليه– إلى أن تنال النفس الإنسانيّة كلّ الصفات الحميدة، وتتحلّى بجميع الخصال الجميلة التي يرضاها لها، والتي يمكن للنفس بواسطتها تنظيم العلاقة بينها وبين ربّها، وبينها وبين نفسها، وبينها وبين الآخرين بشكلٍ عادل يكفل تطبيق القواعد الإسلاميّة بصورةٍ دقيقةٍ ومنتظمة.

وكلّما اجتمع لدى الفرد عددٌ أكبر من هذه الصفات الإسلاميّة، كان الفرد أقرب إلى طاعة الله وإلى رضاه، وإلى أن يوفّقه الله تعالى في الدنيا والآخرة. وعلى هذا الأساس كان المقياس الإسلامي الوحيد للتفاضل بين البشر هو التفاضل في التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[3]، وكان المؤمن التقيّ هو الأداة الصالحة في المجتمع وهو العضو الحيّ بين أعضائه؛ لأنّه هو الذي يُدرك فلسفة الإسلام في إسعاد البشر وينشر العدالة في ربوع

---

(١) [تاريخ كتابة البحث] الاثنين ١/ ٣/ ١٣٨١هـ = ١١/ أيلول/ ١٩٦١ (منهقدس سره).

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

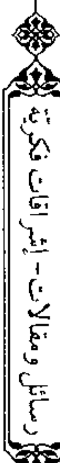
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.



المجتمع الإنساني.

ولم يكن تأكيد الإسلام على إصلاح الفرد دخيلةَ نفسه وتنزيهها عن الرجس والخبائث، بأقلّ من تأكيده على إصلاح المجتمع بصورةٍ عامّة؛ لأنَّ إصلاح الأفراد هو الخطوة الرئيسيّة في إصلاح المجتمع؛ ولأنَّ النفس التي تتشبّع مسامّها بمبدأٍ - كالإسلام - وتمتلئ جوانبها بأقواله وإرشاداته وتتشرّب بروحه وخلاصته، لا تستطيع إلَّا أن تجنّد كلّ قواها وطاقاتها لذلك المبدأ، عاملةً في سبيله أقصى ما يمكنها القيام به، وأحسن ما تتمكّنه من الأعمال.

وقد علم المشرّع الإسلامي كلّ ذلك، فأرشد النفس البشريّة إلى صفاتٍ ارتضاها لها، على أن تعمل جاهدةً لتتحلّى بها، وهي بذلك لا تخدم الإسلام فقط بل تخدم نفسها ومجتمعها، وتعين بذلك على أن تسود في ذلك المجتمع الأخلاق الجميلة والنظم العادلة التي تسعدها وتسعد الآخرين.



وقد مزج الإسلام بعض أوامره ونواهيه، بوجوب قصد التقرّب بها إلى الله تعالى، كما جعل في إطاعة الأوامر الأُخرى إمكان التقرّب بها إليه عزّ وجلّ. وبهذا جعل الإسلام في نفس المؤمن وازعاً معنويّاً عظيماً لإطاعة أوامره ونواهيه، أكثر بكثيرٍ ممّا إذا كانت إطاعة هذه الأوامر والنواهي في صالحه أو في صالح مجتمعه.

وقد سبق الإسلام بهذه القيمة المعنويّة العالية، القوانين والأديان التي نشأت من عقولٍ بشريّة، لا تفكر إلَّا بأُفقٍ ماديٍّ ضيّق؛ وذلك لأنَّ رضا الله تعالى عن عبده هو الهدف الأسمى والغاية القصوى التي يسعى إليها كلّ فردٍ مؤمن، بالمقدار الذي تسمح له به إمكانيّاته النفسيّة والجسميّة والعقليّة،

وبدرجةٍ يقينيّةٍ بالدين الإسلامي الحنيف.

وأوّل ما يسترعي انتباه الباحث في الأوصاف التي ذكرها الإسلام ناصحاً النفس البشريّة اقتفاء أثرها والاهتداء بهداها، وقوف الرجل والمرأة على قدم المساواة في الواجبات والحقوق الإسلاميّة، فكلٌّ من الرجل والمرأة يجب عليه القيام بالواجبات الإسلاميّة والكفّ عمّا نهى عنه الإسلام، وكلٌّ منهما كذلك يجب عليه أن يسعى إلى كمال نفسه وتهذيبها وتنقيتها من الشوائب والأدران، وكلٌّ منهما أيضاً سوف يدان بحسناته وسيّئاته، ويجزى عليها بما هو أهله، ولن يضيع من عملهما عند الله شيء ﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾[1].

وكلٌّ من الذكر والأنثى يمكنه أن يحيا بعمله الصالح حياةً طيّبة، وأن ينال أجره الموعود ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].



والميزان في التفاضل بين البشر هو التقوى، سواء كانت هذه التقوى من رجلٍ أو امرأة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3].

والأعمال الطيّبة التي يرضاها الله تعالى ويجزي على إحسان فاعلها بالإحسان، مشتركةٌ بين الرجل والمرأة بدون أيّ فرقٍ أو تمييز، وبها يكون كلٌّ منهما أصلاً لمغفرة الله تعالى والخلود في الجنان ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ



(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

وَالْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ وَالْقَـانِتِينَ وَالْقَانِتَـاتِ وَالـصَّادِقِينَ وَالـصَّادِقَاتِ وَالـصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُـمْ مَغْفِـرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

ويمكننا أن نقسّم النعوت التـي أضـفتها النـصوص الإسـلاميّة، عـلى النفس المؤمنة: إلى نعوتٍ تخصّ الحياة الاجتماعيّة والتعامل بـين الأفـراد، مـن حيث إنَّ الفرد إذا كان حاوياً لمثل هذه الصفات، كانت سيرته الاجتماعيّة مُثلى من وجهة النظر الإسلاميّة.

وإلى أوصافٍ تخصّ الأعمال التي توجب الفوز بالآخرة، وتنظّم العلاقة بين الفرد وربّه.

ولكن هذا التقسيم لا يعني أنَّ السلوك الاجتماعـيّ الـصالح لا يـورث رضى الله تعالى أو الفوز الأُخرويّ؛ لأنَّ الإسلام عندما أمر البشر باتّباع طريقةٍ معيّنةٍ من السلوك، جعل في إمكان الفرد أن يقـصد بـسلوكه الـصالح امتثـال أوامر الإسلام والتقرّب به إلى الله تعالى، ومن ثَمَّ الفوز برضاه وبالنعيم المقيم.

وهو لا يعني أيضاً: أنَّ العبادات التي يقوم بها الفرد بينه وبين ربّه والتي يبدو أن لا مساس لها بالمجتمع، ليست ذات أثرٍ في علاقات الفرد بـالآخرين؛ فإنَّ العبد كلّما زاد من عبادة ربّه، وفّقه الله تعالى بصورةٍ أكبر في دنياه وآخرتـه، وكلّما رقّ قلبه في خشوعه وتضرّعه إلى الله عزّ شأنه، زاد رقّةً ورحمةً في معاملـة بني مجتمعه، وامتنع عن السلوك الرديء؛ خوفاً من غضب الله تعالى، وطمعـاً برضاه والتقرّب إليه.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٥.



ونحن نستطيع أن نجد نصوصاً إسلاميّةً كثيرة، تعدّد الخصال الحميدة التي ينصح الإسلام الفرد بالتحلّي بها، ولكنّي اخترت منها لهذا المقال النصوص التالية:

الآيات القرآنية الواردة لتوجيه الفرد نحو مثل تلك الأخلاق الفاضلة، وخطبة لأمير المؤمنين (عليه أفضل التحيّة والسلام) في الجواب على سؤال أحد أصحابه حين طلب إليه أن يصف له المتّقين حتّى كأنّه ينظر إليهم، ودعاء (مكارم الأخلاق) الوارد عن الإمام زين العابدين (عليه الصلاة والسلام).

وسأذكر لك بعض ما تحتويه هذه المصادر من نصائح وإرشادات، راجياً منك أن تتابعها معي جملةً جملة، وفقرةً فقرة، لتتبيّن طرفاً من أوصاف النفس الإسلاميّة المؤمنة، ولتعلم كم يكون المجتمع سعيداً يسوده التعاون والعدالة إذا صار كلّ فردٍ من أفراده كما يطلب منه الإسلام أن يكون.



فما جاء في القرآن الكريم من ذلك قوله عزّ من قائل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾[1] بدون تكلّفٍ وتبختر ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾[2] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا - وسطا - * وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ - قتلها - إِلَّا بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[3] ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ - فسّرت بمجالس الغناء واللهو - ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا - أي: لم يكونوا غير واعين لها



(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٣) سورة الفرقان، الآيتان: ٦٧-٦٨.

وغير مستبصرين بهداها- * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[1] أي: ليكونوا صالحين مطيعين لك؛ فإنَّ المؤمن إذا شاركه أهله في طاعة الله سُرّ بهم قلبه وقَرّ بهم عيناً.

وقال عزّ وجلّ أيضاً: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾[2] ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3].

والمؤمن في العرف الإسلاميّ، هو الذي يوثّق أواصر الصداقة بينه وبين إخوانه، بالسير على هدي هذه التوجيهات القرآنيّة الحكيمة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ- عن الإمام الصادق (عليه الصلاة والسلام): «المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله، لا يخونه ولا يظلمه ولا يعيبه ولا يعده عدة فيخلفه»[4]- فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ - إن فسد ذات بينهم- وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً - عند الله تعالى- مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ - أي: لا يعب بعضكم

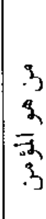
---

(١) سورة الفرقان، الآيات: ٧٢-٧٤.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ١-٥.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ٨-١١.

(٤) الكافي ٢: ١٦٦، كتاب الإيمان والكفر، باب أُخوّة المؤمنين بعضهم لبعض، الحديث ٣، ووسائل الشيعة ١٢: ٢٠٥، كتاب الحجّ، أبواب أحكام العشرة في السفر والحضر، باب ٢٢، باب وجوب أداء حقّ المؤمن، الحديث ٦. وفي المصدر: «ولا يغشّه» بدل «ولا يعيبه».







بعضاً- وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ - أي: لا يدعوا بعضكم بعضاً بلقب السوء- بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾[1]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ - عن أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام): «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه. ولا تظنّن بكلمةٍ خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً»[2] - إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا - أي: تبحثوا عن عورات المؤمنين- وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[3].

والمؤمن التقيّ الذي يرضاه الله تعالى هو الذي يتبع الله تعالى في قضائه وتشريعاته التي فرضها للبشر ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا.. * وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا - اختيالاً- إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾[4][5].

أمّا أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين (عليه أفضل التحيّة والسلام) فإنّه يبدأ جوابه للسائل - بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه وصلّى على النبيّ ﷺ -

---

(١) سورة الحجرات، الآيتان: ١٠-١١.

(٢) الكافي ٢: ٣٦٢، كتاب الإيمان والكفر، باب التهمة وسوء الظنّ، الحديث ٣، ووسائل الشيعة ١٢: ٣٠٢، كتاب الحجّ، أبواب أحكام العشرة في السفر والحضر، الباب ١٦١، باب تحريم تهمة المؤمن وسوء الظنّ به، الحديث ٣.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٤) سورة الإسراء، الآيات: ٢٣-٢٤، و٣٧.

(٥) اقتبست معاني الآيات من كتاب (تفسير الصافي) للفيض الكاشاني [٣: ١٩٣] (رحمه الله تعالى) (منه قدّس سرّه).

قائلاً: «أمّا بعد؛ فإنّ الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم، غنيّاً عن طاعتهم، آمناً من معصيتهم؛ لأنّه لا تضرّه معصية مَن عصاه، ولا تنفعه طاعة مَن أطاعه، فقسّم بينهم معيشتهم، ووضعهم في الدنيا مواضعهم، فالمتّقون فيها هم أهل الفضائل، منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد[1] ومشيهم التواضع، غضّوا أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم».

ثمَّ يقول (عليه الصلاة والسلام) في صفتهم أيضاً: «قلوبهم محزونة» من خوف الله «وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة» من الزهد والعبادة، ولأنَّ هزل الجسم في سبيل رضا الله تعالى خير من أن يسمن من المال الذي حرّمه الله عزّ وجلّ «وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة».

[ثُمَّ يقول]: «فمن علامة أحدهم أنّك ترى له قوّةً في دينٍ، وحزماً في لينٍ، وإيماناً في يقينٍ، وحرصاً في علمٍ، وعلماً في حلمٍ، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتجمّلاً في فاقةٍ» [أي:] الفقر «وصبراً في شدّةٍ، وطلباً في حلالٍ» أي: طلب المال بواسطة الوسائل التي يجيزها الشرع الإسلامي «ونشاطاً في هدىً، وتحرّجاً عن طمع... يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريباً أمله» أي: لا يطمع بالآمال البعيدة التي لا يمكنه تحقيقها «قليلاً زلَـلُه خاشعاً» لله تعالى «قلبه، قانعةً نفسه، منزوراً» [أي:] قليلاً «أكله، سهلاً أمره، حريزاً دينه، ميّتةً شهوته» وهي هنا: جميع المطامع التي تستوجب اللذّة الماديّة «مكظوماً غيظه، الخير منه مأمول، والشرّ منه مأمون».

ويستمرّ (عليه أفضل التحيّة والسلام) في ذكر صفة المؤمن قائلاً: «يعفو عمَّن ظلمه، ويعطي مَن حرمه، ويصل مَن قطعه» وهل هناك أعظم من مجازاة السيّئة بالإحسان؟ «بعيداً فحشه، ليّناً قوله، غائباً منكره، حاضراً معروفه، مقبلاً

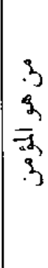
(١) القصد والاقتصاد: الإنفاق من غير سرف ولا تقتير (منه قدس سره).

خيره، مدبراً شرُّه، في الزلازل» [أي:] الشدائد المرعدة[1] «وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، لا يحيف» [أي: لا] يجور «على مَن يبغض، ولا يأثم فيمَن يحبّ»، أي: لا يجعل محبّته للشخص مبرّراً لارتكاب ما يغضب الله تعالى معه- «... نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه»[2].

وأمّا الإمام زين العابدين وسيّد الساجدين (عليه أفضل الصلاة والسلام) فهو يدعو الله تعالى خشوعاً وتضرّعاً، ليكرّر هذا الدعاء مواليه وشيعته من بعده، حتّى ينال كلٌّ منهم المرتبة العليا التي يرضاها لهم، وهو يدعو الله تعالى قائلاً: «اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، وأعزّني ولا تبتليني بالكبر، وعبّدني لك ولا تُفسد عبادتي بالعُجب، وأَجْرِ للناس على يدي الخير، ولا تمحقه بالمنّ، وهب لي معالي الأخلاق، واعصمني من الفخر.

اللّهُمَّ صل على محمد وآل محمّدٍ، ولا ترفعني في الناس درجةً إلّا حطَطْتَني عند نفسي مثلها، ولا تُحدث لي عزّاً ظاهراً إلا أحدثتَ لي ذلّةً باطنةً عند نفسي بقدَرها».

ثمَّ يستمرّ (عليه الصلاة والسلام) في الدعاء قائلاً: «اللّهُمَّ صلّ على محمّدٍ وآل محمّدٍ وحلّني بحلية» [أي:] بصفة «الصالحين وألبسني زينة المتّقين، في بسط العدل، وكظم الغيظ، وإطفاء النائرة» [أي:] العداوة والشحناء «وضمّ أهل الفرقة، وإصلاح ذات البين، وإفشاء العارفة» المعروف «وستر العائبة ولين العريكة» يُقال: فلان ليّن العريكة، أي: سلس[3] «وحسن السيرة وسكون الريح» [أي:]



(١) هامش نهج البلاغة لمحمّد حسن نائل المرصفيّ (منهقدس سره).

(٢) نهج البلاغة، جمع الشريف الرضيّ[٢: ١٦٠-١٦٤، شرح محمّد عبده، خطبة المتّقين] (منهقدس سره).

(٣) ما سبق من معاني ألفاظ هذا الدعاء، منقولٌ عن: المختار من صحاح اللّغة [٢٢٥: باب بالعين، مادّة (ع ر ك)] (منهقدس سره).

الهدوء «وطيب المخالَقة» المعاشرة بخلق حسن «والسبق إلى الفضيلة، وإيثار التفضّل، وترك التعيير» التوبيخ[1] «والإفضال على غير المستحق، والقول بالحقّ وإن عزّ، والصمت عن الباطل وإن نفع، واستقلال الخير وإن كثُر من قولي وفعلي، واستكثار الشر وإن قلّ من قولي وفعلي، وأكمل ذلك لي بدوام الطاعة ولزوم الجماعة ورفض أهل البدع ومستعملي الرأي المخترع»[2].

هذا هو المؤمن، وهذه هي الصفات التي يُريد الإسلام للمرء أن يتحلّى بها، وهذا هو سبيلٌ من سبل الإسلام لإصلاح البشريّة والسير بها إلى كمالها المنشود، والأخذ بيدها إلى الفوز في الدنيا والآخرة.

محمّد الصدر

النجف الأشرف

---

(١) المختار من صحاح اللّغة [٢٤٢، باب العين] (منهقُدِّسَ سِرُّه).

(٢) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمّي (رحمه الله تعالى)، [الصحيفة السجّاديّة الكاملة]: ١٠٠-١٠٤، دعاؤهعليه السلام في مكارم الأخلاق.





بين يدي التجارة الرابحة

بين يدي التجارة الرابحة[1]

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

صدق الله العلي العظيم.

أيُّ تجارةٍ تلك التي تكلّف القليل وتعطي الكثير؟

وكم تكون رابحةً هذه التجارة التي يكون الثمن فيها شيئاً صغيراً فانياً، والسلعة فيها أمراً عظيماً خالداً؟

وكم يكون سعيداً هذا الإنسان الذي يقوم بهذه التجارة، وتتمّ في يديه هذه المعاوضة الرابحة؛ إنَّه يعطي قليلاً ويأخذ كثيراً، يعطي عدماً ويأخذ وجوداً، يعطي ظلاماً ويأخذ نوراً.

إنّها تجارةٌ رائعةٌ لا يمكن أن تخطئ أبداً، ولا يشوبها احتمال خسارةٍ أو نقصان. تجارةٌ تكفل للفرد الشرف والعزّة أثناء دفع الثمن، وبعد قبض السلعة.

رغم ذلك، فإنّها تجارةٌ بما للتجارة من معنى، إنّها مسألة بيع وشراء، بيع لهذه الدنيا الفانية ولما فيها من زخارف وأباطيل، وشراء للسعادة والخلود في



(١) [تاريخ كتابة البحث] الخميس: ١١/ ٣/ ١٣٨٣ = ١/ ٩/ ١٩٦٣ (منه قدس سره).

(٢) سورة الصفّ، الآيتان: ١٠-١١.

الدار الآخرة؛ وفي ذلك يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

وأيُّ فوزٍ أكبر من هذا البيع الرابح، الذي يكون فيه أحد العوضين هو المال، ذلك المال الذي لابدَّ أن يفنى مهما طال أمده، والنفس تلك النفس التي لابدَّ لها أن تموت، فخير لها أن تموت في طريق الكمال والخلود. ويكون العوض الآخر هو الخلود في السعادة الأبديّة، وفي الضوء الوهّاج السرمديّ الاشتعال.

ومن الواضح الوجداني، أن ليس بذل المال والنفس سهلاً ولا يسيراً، إنَّه عقبةٌ شاقّة، على المؤمن أن يجتازها لكي يستطيع الوصول إلى مثله الأعلى الخالد. إلَّا أنَّنا نرى المؤمن، سواء في صدر الإسلام، حين كان النبيﷺ يقود الجيوش لحرب مناوئيه، أو في الأزمنة التالية، عندما كان يتهدّد الإسلام خطرٌ محدقٌ مخيف، نرى المؤمن ينسى عزّة ماله ونفسه، وينسى حبّه لهما وحرصه عليهما، ويندفع إلى حومة الوغى بكلِّ إخلاصٍ وإيمان، يندفع عن طيب خاطرٍ واطمئنان ضمير، بل إنَّه يندفع بحماسٍ بالغ، وقوّةٍ دافعةٍ شديدة التأثير.

إنَّ لهذه الظاهرة سرّاً، التفت إليه الإسلام، فصاغ أنفس معتنقيه بهذا النحو الفريد؛ ذلك السرّ هو أنَّ الفرد المؤمن يشعر بأنَّ ألم بذل النفس والمال ألمٌ وقتيٌّ زائلٌ مهما طالت مدّته، وأنَّ وراء خسارته هذه ربحاً عظيماً خالداً، وأنَّه وإن كان يمرّ بالموت ساعةً من الدهر، إلَّا أنَّه سوف يكون هناك من الأحياء الخالدين ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

* ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[1].

ومن أجل ذلك، يندفع المؤمن إلى التضحية والجهاد، وعلى شفتيه ابتسامة النصر، وفي قلبه برد الإيمان، وأيّ شيءٍ غير النصر يمكن أن يراه هذا المؤمن المجاهد، فإنَّه بين أمرين كلاهما محبّبٌ إليه وجميلٌ لديه، فإمّا أن يهزم أعداء الإسلام، وإمّا أن يصعد إلى مثله الأعلى وكماله المنشود؛ وإلى ذلك أشار الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم قائلاً: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾[2]، النصر أو الشهادة.

من هذا المنطلق بالذات، يمكننا أن نعرف - بوضوحٍ تامٍّ- مدى الدفع القويّ الذي يحدثه الوعد والوعيد الإسلاميّين في نفس المسلم، وما هو أثر وصف هذه التجارة بأنَّها تنجي من عذابٍ أليم، وأنّها توجب غفران الذنوب ودخول الجنّة[3]، في رفع معنويّات المسلمين، وإذكاء أوار حماسهم، ودفعهم دفعاً شديداً نحو الانصياع إلى تعاليم دينهم الحنيف.

فإنَّ في ذهن الإنسان صورةً للكمال المطلق الذي لا يشوبه نقص، ولا يكدّره شرّ، والإنسان يرى بطبيعته الناقصة، أنَّ هذه الصورة جميلةٌ جدّاً ورائعةٌ جدّاً، ويرى أنَّ الشخص الذي يعيش في ذلك المحيط الكامل هو في

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩-١٧٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٢.

(٣) ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (منهﷺ). [سورة الصف، الآيات: ١٠-١٢].



ومن ثَمَّ كان الكمال المطلق - بواقعه لا بصورته الذهنيّة- هو المثل الأعلى لكلِّ إنسان، يتّجه إليه في كلِّ أعماله وفي جميع حركاته وسكناته، يتّجه إليه بطبيعة وجوده وجبلّة فطرته. إلّا أنَّ السعيد مَن يستطيع أن يقترب من ذلك الحمى الآمن، فإنَّ الأخطاء في هذا الطريق كثيرة، والعثرات متعدّدة، والسقطات موجعةٌ مؤلمة، وكم من إنسانٍ تخيّل نفسه متّجهاً إلى الكمال، فإذا به يدور في حلقةٍ مفرغة، حتّى تقطّعت أنفاسه فمات.

وصورة الكمال المطلق وإن كانت موجودةً في أذهان البشر، إلّا أنّها صورةٌ غير واضحة المعالم ولا محدّدةٌ في كثير من الأذهان، وغير محرزة الوصول عند أكثر الناس. وهنا يبدو فضل الإسلام على البشر، ومدى حكمته البالغة في قيادتهم وتوجيههم، فقد عمد إلى الصورة فأوضحها في أذهان معتنقيه إلى أكبر حدٍّ ممكن، وأفهمهم بالضبط ما هو مَثَلَهم الأعلى الذي ينبغي أن يسيروا نحوه، وأن يجعلوا همّهم الوصول إليه. كما دلّهم بالضبط، على الوسائل التي تؤدّي حتماً إلى ذلك الكمال.

فالكمال المطلق هو الله عزّ وجلّ، ورضاؤه وقربه هو غاية كلّ آملٍ، ورجاء كلّ مرتجٍ، وإلى جنب ذلك فالجنّة مثواه.

أمّا إذا عصى وخالف تعاليم دينه القويم، فهناك «مثلٌ أدنى» وضعه الإسلام وأوعد به، ذلك هو غضب الله عزّ وجل والنار، وذلك هو العذاب الأليم والخسران المبين.

وأمّا الوسائل المؤدّية إلى ذلك الكمال المنشود، فهو ما حدّدته الآية باختصار: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[1].

---

(١) سورة الصفّ، الآية: ١١.

وحقّ للواعد بهذا الكمال والموعد بذلك الخسران أن يقترح في سبيله ما يشاء، وما رأيك بالإنسان حين يعيَّن له العمل ويعيَّن له الكمال، بحيث يكاد يراه رأي العين، هل يمكن أن لا يندفع ذلك الاندفاع الحماسي في سبيله؟!

إذن فهي تجارةٌ، أحد طرفيها الحياة الفانية والمال الزائل، وطرفها الآخر الحياة الباقية الخالدة التي لا يشوبها شرٌّ أو قصور، فهل يمكن للمسلم بعد ذلك أن يتوانى أو يقصّر؟

والآية التي نحن بصددها؛ إذ تحدّد المعنى الحقيقيَّ للمثل الأعلى والكمال المنشود، تعطي أيضاً الخطوط العريضة للمنهج الموصل إلى الكمال، وهو منهجٌ كلّه نورٌ وإشراقٌ وخيرٌ وكمال، حتّى مع صرف النظر عن كونه منهجاً موصلاً إلى الكمال. ذلك هو الإيمان بالله عزّ وجلّ وبرسوله، رسول الإسلامﷺ، ثُمَّ الجهاد في سبيله بالنفس والنفيس.

وهذا المنهج في نفسه هو من أعظم الأرباح والغنائم؛ فإنَّ غاية الإنسان أن يصل ببحوثه واستدلاله العلمي إلى الحقيقة، تلك الحقيقة التي تشوّق لها المفكّرون، وأتعب أنفسهم من أجلها المخلصون.

وهذه الحقيقة في أكبر صورها وأوضح مصاديقها، هي وجود الله عزّ وعلا؛ ومن ثَمَّ كان الإيمان به وصولاً إلى الحقيقة المطلقة بأدقّ شكلٍ وأعمقه.

وبهذا يكون الإسلام دين الله القويم وصراطه المستقيم، حقيقةً مطلقةً أيضاً، لأنَّه من أنوار الحقيقة المطلقة، وهو المنهج الموصل إلى حمى الحقيقة المطلقة، وليس الجهاد إلَّا العمل بجدٍّ وإخلاصٍ وبذل الغالي والرخيص في سبيل الوصول ضمن المنهج الإسلامي إلى ذلك الحقّ الأعلى والحقيقة المطلقة، إلى الله عزّ وجلّ.

وينبغي لنا فيما يلي من البحث أن نتميّز بوضوحٍ معالم المنهج الإسلامي الذي وضعته هذه الآية الكريمة، وما الذي يمكن أن تجنيه البشريّة منه، حتّى ولو لم يكن طريقاً نحو الكمال.

وممّا ينبغي أن يلاحظ في المقام، أنَّ فوائد هذا المنهج تعود على الفرد وتعود على المجتمع، والفائدة التي تعود إلى أحدهما، يجنيها الآخر ضمناً. فإنَّ الفرد مواطن في المجتمع، كما أنَّ المجتمع هو المحيط الذي ينشأ فيه الفرد وتنضج على أساسه عواطفه وعقائده.

وبهذا نرى أنَّ الإسلام يذهب إلى أنَّ كلّ ما هو فرديٌّ هو اجتماعيٌّ ضمناً، وكلّ ما هو اجتماعيٌّ هو فرديٌّ ضمناً، سواءٌ في تشريعاته أو فيما تجنيه البشريّة من وراء تلك التشريعات.

وبهذا يتخلّص الإسلام من الثنائيّة التي يتّصف بها الفكر الحديث، تلك الثنائية التي لا يستطيع الفكر الحديث التخلّص منها؛ لأنَّها فكرةٌ رئيسيّةٌ في تشريعاته ونظمه؛ وذلك حيث يفرّق بين الإنسان كفرد والإنسان كمواطن اجتماعي، فيهمل الجانب الفردي منه ويكتفي بتنظيم الجانب الاجتماعي.

وقد ترتّبت على ذلك عدّة مفاسد، كان من أهمّها: إباحة الفكر الحديث لكلِّ عمل يعمله الإنسان كفرد، ما لم يكن مصطدماً بحقوق الآخرين، وعدم إقامته وزناً لعمل الخير الفردي، ما لم تعد على المجتمع منه بعض الفوائد، وعدم إقامته الوزن للنيّات الحسنة والسيئة؛ لأنَّها ممّا لا اتّصال لها بالخارج.

في حين إنَّ الإسلام قد حلّق فوق هذا المستوى، ونظر إلى كلِّ هذه الأُمور وغيرها بمنظار المزج بين الشخصيّة الفرديّة للإنسان والشخصيّة الاجتماعيّة له، فتخلّص من هذه المفاسد، على ما سنرى نماذج منه فيما يلي:

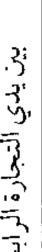
فمن فوائد الإيمان الفرديّة، تكوين ضميرٍ إسلاميٍّ في نفس الفرد، يأمره بالخير ويردعه عن الشر. وهذا الضمير هو الوازع الرئيس للإنسان في جميع أعماله؛ لأنّه صوتٌ نابعٌ من داخل النفس، صاعدٌ من بين حناياها وأضلاعها، وهو صوتٌ تحبّه النفس وتصدّق به، وهو أقرب الأصوات إلى الإنسان وألصقها به وأشدّها أثراً في توجيه سلوكه، وهو أكثر الأصوات ملاحقةً للإنسان في جميع ظواهر أعماله وخفاياه.

وبهذا الدرع الديني الحصين، الذي يتدرّع به أفراد المجتمع ضدّ الخبائث والرذائل، وفي سبيل الخير والصلاح، تضمحلّ الجرائم والاعتداءات، ويسود الخير والسلام في ربوع المجتمع.

ومن فوائد الإيمان الفرديّة: تكوين ضمانٍ قويٍّ في نفس المؤمن يستهين بالغالي والرخيص في سبيل الاتّجاه إلى الله تعالى وإطاعة أوامره ونواهيه، كما سبق أن تحدّثنا.

وهذا الضمان يكون في نفس الفرد الأثر الثالث للإيمان، وهو عدم اندفاعه اندفاعاً حماسيّاً في سبيل جمع المال وبهارج العيش، واقتصاره على ما يسدّ به حاجته، ومن ثَمَّ تقل قيمة المال في نظره، ممّا هو فائض عن الحاجة، فيسخو به عن طيب نفسٍ للفقراء والمعوزين والمرضى والمضطرّين من مواطنيه في المجتمع وإخوته في الدين. وبذلك يتخلّص المجتمع الإسلامي من ويلات الرأسماليّة والإقطاع، ويسود في ربوعه الرخاء والرفاه.

وممّا ينبغي أن يُلاحظ في المقام: أنَّ الإسلام لم يحرّم من طرق جمع المال إلّا أُموراً معيّنة تنظّم بها الحياة الاقتصاديّة وحدود معالمها، وقد أباح ما وراء ذلك من الطيّبات من الرزق ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ



الرِّزْقِ﴾[1]. إلَّا أنَّه في نفس الوقت صاغ نفسيّة المسلم بشكلٍ يستغني معه حتّى عن الأمر المباح، فإنَّه ليس كلّ مباحٍ هو راجح الارتكاب بالنظر الحِكَميّ الدقيق.

أمّا فوائد الإيمان الاجتماعيّة، فمنها هذه الوحدة العقائديّة الجبّارة التي تربط الأفراد بعضهم إلى بعض، والمجتمعات الإسلاميّة ببعضها البعض، حيث إنَّ جميعهم يفكّرون بأُسلوبٍ واحد، وينظرون إلى الحياة من زاويةٍ واحدة، ويفسّرون الأحداث بشكلٍ واحد، ويقومون بعملٍ واحد، ويتّجهون إلى هدفٍ واحدٍ ومثلٍ أعلى واحد؛ بحيث إنَّ المسلم في زاويةٍ من زوايا الأرض، يعلم أنَّ المسلم الآخر في أقاصي الدنيا يرى ما يراه وينظر إلى الحياة من خلال الزاوية التي ينظر [من] خلالها هو.

وقد بدأت هذه الوحدة بالتفكّك والاضمحلال في العصر الحديث، عندما غزت بلاد الإسلام المبادئ الوافدة من وراء الحدود، تحمل بين طيّاتها الشرّ والدمار، وعندما صار المسلمون وآخر همّهم الحديث عن دينهم والتفكير في إسلامهم، إن كان هناك حديثٌ وتفكير.

ومن فوائد الإيمان على المجتمع: سيادة الأخوّة والمحبّة والتضامن بين أفراده، لما تربطهم من وحدة أوّلاً، ولما أمر به الإسلام من التراحم والتعاطف بين الأفراد ثانياً. فقد حثّ على الأخوّة في الله تعالى وعلى صلة الرحم وعلى برّ الفقير وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج، والتعاون على البرّ والتقوى، إلى غير ذلك من الأعمال البنّاءة التي تبذر في المجتمع المحبّة والتعاون، وتقضي على البغضاء والخلاف، ومن ثَمَّ تصعد بالمجتمع إلى قمّة السعادة والعدل.

ومن فوائد الإيمان على المجتمع أيضاً: إلغاء الفروق الشاسعة بين

(1) سورة الأعراف، الآية: 32.

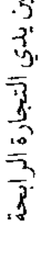
الطبقات؛ فإنَّ الإسلام لمدى تأكيده على بذل المال ومعونة الفقراء والمحتاجين، ولجعله في نفس الفرد ملكةً قويّةً تقاوم إغراء المال، على ما سبق أن عرفنا، ولحثّه على التعاطف والتراحم.

فمن مجموع هذه العوامل، بالإضافة إلى شعور الأفراد بالأُخوّة فيما بينهم، وبأنَّ المال أهون في نظر الإسلام من أن يكون ميزاناً للتفاضل بين الناس، من كلِّ ذلك تذوب الطبقات وتضمحلّ الفوارق الشاسعة فيما بينهما، وتنشأ الثقة المتبادلة بين الفقراء والأغنياء، وبين العمّال وأرباب العمل، وبين الفلّاحين والمزارعين.

ومن هذا المنطلق بالذات، يمكننا أن نعرف نظرة الإسلام إلى المال، فإنَّ المال ليس هو ميزان التفاضل بين أفراد المجتمع، بل الميزان الصحيح هو هذه القيم الثلاث: التقوى والعلم والجهاد، وأخلق بهذه القيم الأخلاقيّة الروحيّة أن تسود المجتمع وأن تكون ميزاناً للتفاضل بين البشر.

وغاية ما للمال في نظر الإسلام من منزلة، هو كونه وسيلةً لا غاية، وطريقاً لا هدفاً، فهو وسيلةٌ للتقوى، بعمل الخير وإعانة الفقير والمحتاج، والصرف على الجوانب التي تعود على المجتمع بالخير والرفاه، وتوفّر له الحياة الإسلاميّة الفضلى، وبالتالي الحصول على رضاء الله تعالى، الذي هو المثل الأعلى للفرد المسلم.

والمال أيضاً وسيلةٌ لطلب العلم والسعي وراء الحقيقة؛ فإنَّ الحقيقة أهل لصرف المال في سبيلها مهما كثر، وأنَّ الإنسان لينسى لذّة متاعبه عند الوصول إليها. وهو أيضاً وسيلةٌ للجهاد في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته وإطاعة أوامره ونواهيه وخدمة المجتمع الإنساني، ومن هنا أمرت الآية التي نحن



بصددها بالجهاد بالأموال.

وينبغي بكلمةٍ أخيرة: أن نعرف المقصود الإسلامي من الجهاد، وهو كما تشير إليه الآية، جهادٌ بالأموال وجهادٌ بالنفوس. وبهذا تعرف أنَّ مفهوم الجهاد غير مختصٍّ بحمل السيف والدفاع عن الإسلام في حربٍ ضروس، وإنَّما هو الإخلاص والتفاني في سبيل إطاعة تعاليم الإسلام وتطبيقها بأمانةٍ وإخلاص، سواءً بالأموال أو بالنفوس.

فمن الجهاد بالأموال بذل المال في سبيل الله تعالى، ولمعونة الفقراء والمعوزين وقضاء حاجة المحتاجين، ولتكوين مرافق اجتماعيّة، ومؤسّساتٍ إسلاميّة، وغير ذلك من وجوه البرّ والإحسان.



ومن الجهاد بالنفس - بالإضافة إلى إهراقها في الحرب- بذل القوّة البدنيّة والطاقة الفكريّة في سبيل الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه، وفي سبيل خدمة الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي، كما أنَّ [من] الجهاد بالنفس أيضاً: الضغط على الاندفاع الغرائزي المقيت، الذي تقوم به الغرائز البشريّة عند تجرّدها عن الوازع الصحيح، والتقيّد بها ضمن إطار التعاليم الإسلاميّة والحدود الدينيّة.

ومن هنا يمكن أن نرى منشأ الأهمّية التي وضعها الإسلام على الجهاد، كعنصرٍ هامٍّ من عناصره الرئيسيّة، في قبال التقوى والعلم من ناحية، وبعد الإيمان بالله ورسوله من ناحيةٍ أُخرى، على ما نطقت به الآية.

كما يمكننا بهذا أن نتميّز بوضوحٍ الفوائد الكبرى والثمرات العظيمة من سنّ هذا المفهوم في شريعة الإسلام، وصدق الله عزّ وجلّ حين قال، بعد ذكر المنهج الإسلامي المؤدّي إلى الكمال، ذلك المنهج الذي عرفنا بعض خطوطه

العريضة فيما سبق، قال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]، وإنّه لخير وأيُّ خير!

ومن مجموع ما مضى يتّضح وجه ما في الآية من بلاغةٍ وإعجاز، فإنّها حين لخّصت المنهج الإسلامي الذي ينبغي للفرد اتّباعه في اتّجاهه نحو الكمال، حين لخّصته بهذين المفهومين: الإيمان والجهاد، إنّما جمعت بهذين المفهومين جميع فرائض الإسلام وسننه، وجميع أُصوله وفروعه، فإنَّ كلّ ذلك لا يعدو مفهومي الجهاد والإيمان بأوسع صورهما وبأشمل مصاديقهما.

* * * *

والأضواء، إذ تواصل جهادها في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، لسنتها الرابعة، ترجو مخلصةً أن يكون ماضيها الذي بذلت قصارى جهادها لكي يكون تبسيطاً لمفاهيم الإسلام، وهدايةً للخارجين عن الإسلام، ومستمسكاً للجاهلين بالإسلام، وثقافةً إسلاميّة عالية وجهاداً في سبيل الحقّ، ترجو أن يكون قد أثمر ثمرته المطلوبة، وحاز عند الله عزّ وعلا وعند القرّاء الكرام المنزلة المأمولة.

وهي ترى أنَّ كلّ ما مضى منها، إنّما هو جزءٌ ضئيلٌ ممّا ينبغي أن يقوم به المسلمون في سبيل الدعوة إلى دينهم والدفاع عن إسلامهم الحنيف، وجزءٌ ضئيل ممّا يحتاجه الدين وما تحتاجه العقيدة الإسلاميّة، وهي طريحةٌ في خضمٍّ مزعجٍ من العقائد الوافدة والنظريّات المنحرفة، ممّا يتطلّب منّا كمسلمين أضعاف هذا الجهد المبذول.

وليس هذا الجهاد الذي قامت به الأضواء، إلّا شيئاً بسيطاً، بالقياس إلى ما قام به رجال الإسلام في سبيل إقامة أوده وتثبيت أركانه، كالحروب التي

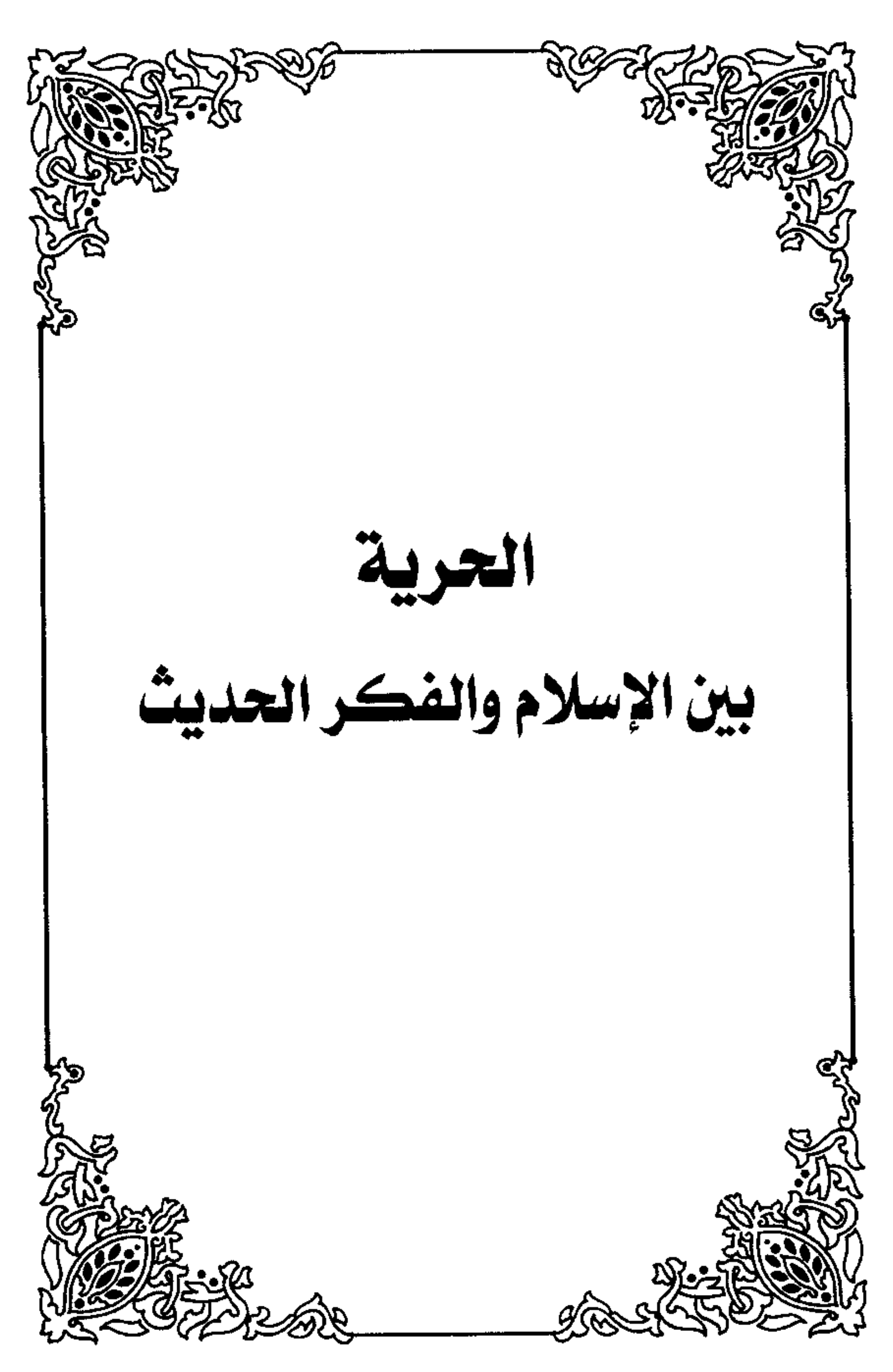
(١) سورة التوبة، الآية: ٤١.

خاضها بسيفه أمير المؤمنين وإمام المتّقين عليه أفضل التحيّة والسلام، وكثورة الحسين عليه السلام الكبرى التي اندلعت في سبيل تحطيم الفساد والقضاء على عنصر الرجس وعبادة الشيطان، وكالأموال التي بذلتها خديجة الكبرى أمّ المؤمنين، عند ضعف الإسلام في أوّل عهده، ممّا كان له الأثر الكبير في حفظ حياة المسلمين والإبقاء على الإسلام.

وإنَّ الأضواء لتمدّ يد الابتهال إلى الله العليّ العظيم، مخلصةً مؤمنةً إلى أن يجعل مستقبلها خيراً من ماضيها، وأن يجعل سنتها الرابعة سنة ازدهارٍ ونشاط، وأن يوفّقها إلى الهداية والإرشاد إلى دينه القويم إلى أكبر حدٍّ مستطاع، وأن يجعل ذلك كلّه قربةً لوجهه الكريم، ويتلقّى جهادها بالرضاء والقبول، إنَّه تعالى غاية كلّ مأمول، ونهاية كلّ مطلوب، وهو على كلّ شيءٍ قدير[1].

محمّد الصدر

(١) نُشر قسمٌ من هذه الكلمة في مجلّة الأضواء الإسلاميّة، السنة الرابعة، ونشرت بكاملها - ما عدا القسم الذيلي الأخير - ضمن كتابٍ مستقلٍّ بعنوان (أشعّة من عقائد الإسلام) للمؤلّف هو الكتاب الخامس من السنة الرابعة من منابع الثقافة الإسلاميّة، رقم ٣٥ (منه قدّس سرّه).



الحرية
بين الإسلام والفكر الحديث

الحريّة بين الإسلام والفكر الحديث[1]

الحديث عن الحريّة، حديثٌ ذو شجون.

فإنَّ الحريّة رغم كونها فكرةً رئيسيّةً في مجال الفكر الحديث، وكونها الهدف الأسمى والمثل الأعلى للإنسان الحديث، ورغم كونها قضيّةً بديهيّةً غير قابلةٍ للنقاش عند كثيرٍ من الأوساط، رغم ذلك، فإنَّ الحديث عنها ذو شجون.

فإنَّ لفظ الحريّة في نفسه من الألفاظ العامّة المطّاطة التي لا تحمل معنىً محدّداً ينطبق على شيءٍ مضبوط. ومن هنا نجد الناس ينظرونها كلٌّ من زاوية مصلحته الخاصّة، وبحسب أُفق تفكيره ومن خلال نظرته إلى الحياة. ومن ثَمَّ يمكن أن نحصل للحريّة على تعاريفَ وتفسيراتٍ لا تُحصى، متعدّدةٍ بعدد مصالح الناس واختلاف مشاربهم وأهوائهم. فهي عند القويّ المستبدّ وسيلةٌ لتنفيذ مآربه وبسط سيطرته، وهي عند الضعيف ذريعةٌ للتمرّد والاحتجاج على الظالم المستبدّ، وهي عند الرأسمالي وسيلةٌ لكسب المال وتوسيع التجارة إلى أكبر حدٍّ مستطاع، وهي عند أصحاب المذاهب الهادفة وسيلةٌ لترويج آرائهم والدعوة إلى مذاهبهم. وأخيراً نجد الحريّة - في النتيجة وعند نهاية المطاف- قيداً حديديّاً يقيّد الناسُ به بعضُهم بعضاً، وسوطاً يلوّح به بعضُهم بوجه بعض.

(١) [تاريخ كتابة البحث]: الأربعاء ١١/ ٢/ ١٣٨٣ هـ = ٢/ ٧/ ١٩٦٣ م (منه قدس سره).

ولكنّنا إذا رجعنا إلى ما يمكن أن يُفهم من هذا اللفظ (الحريّـة) بطريقـةٍ علميّةٍ موضوعيّة، نجده يعني: إخـلاء السبيل وإطـلاق السرب، بـدون أن يكون هناك مانعٌ يقيّد الفرد عن القيام بالتصرّف المعيّن سوى إرادته الخاصّة.

وللحريّة بهذا المعنى موارد وصور، ولكلّ موردٍ حكمٌ معيّنٌ نستمدّه إمّا من العرف الاجتماعي أو الدين أو القانون، ولكلّ موردٍ أيضاً مجالٌ في التطبيق العملي غير مجال الآخر.

إذن، فإطلاق القول في الحريّة، والحكم عليها بحكمٍ مّا، من حيث هـي لفظٌ غير محدّد، عملٌ جزافيٌّ لا يؤدّي إلّا إلى المغالطة وعدم الموضـوعيّة. ومـن ثَمَّ كان علينا أن ننظر إلى أقسام الحريّة، وما يمكن أن تنطبق عليه من مجالات.

ويمكننا أن نعلم - بقليـلٍ مـن التفكـير - أنَّ الحريّـة يمكـن أن تـشمل المجالات الآتية:

١. **حريّة السكن**: وهي أن يكون الفرد مطلق السرب من حيث اختياره لمسكنه، سواء من حيث الدولة أو المدينة، بـما في ذلـك حريّـة التنقّـل مـن أيّ مكان إلى أيّ مكان.

٢. **حريّة الرأي**: وهي أن يكون للفرد الحقّ في أن يقول كلّ ما يخطر على ذهنه من آراءٍ وأفكارٍ، مهما كانـت تلـك الآراء والأفكـار، بـدون أيّ رادعٍ أو مانع.

٣. **حريّة التصرّف**: وهي أن يكون الفرد مطلق السرب بـأن يعمـل أيّ عمل يشاء مهما كان العمل.

٤. **حريّة العقيدة**: وهي أن يكون للفرد أن يعتقد ما يشاء وأن يفكّر كـما يشاء.

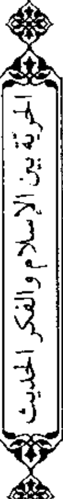
٥. **الحريّة الشخصيّة**: وهي في مقابل ملك الإنسان للإنسان.

٦. **الحريّة الاقتصاديّة**: وهي أن يكون للفرد الحقّ باستثمار أمواله كيف يشاء، وأنّى يشاء.

وحيث كان من البديهي أنَّ الحريّة المطلقة - بمعنى: إطلاق السرب وإخلاء السبيل لكلِّ أحدٍ في كلِّ عمل- لا تؤدّي إلَّا إلى الفوضى والفساد، وإلَّا إلى انحلال المجتمع الإنساني وتفسّخه؛ وذلك لأنَّ للإنسان غرائز عديدةً تطلب الإشباعَ بإلحاحٍ شديد، وبأيّ طريقٍ كان، والغرائزُ بطبيعتها لا عقل لها، أي: أنَّها لا تفكّر في النتائج التي يمكن أن تترتّب على الطرق المتّبعة في إشباعها؛ فإذا لم يجد الفرد بعقله الواعي مانعاً من قانونٍ أو دين، عن الانطلاق الجنوني بغريزته، فإنَّه سوف ينطلق بها إلى ما لا يحمد عقباه؛ ومن ثَمّ بادرت القوانين والشرائع إلى وضع الحدود والسدود أمام تصرّف الأفراد بحريّةٍ مطلقة؛ لكي تلائم بين البيئة والغريزة، ولكي تضمن الأمن والنظام وراحة المجتمع ورفاهه.

وفي هذه النقطة اختلفت الأذواق والمشارب، وتباينت الحدود التي تضعها كلّ جماعةٍ أمام الحريّة المطلقة؛ فإنَّ كلّ مشرّع نظر إلى المصلحة التي يريد تطبيقها على المجتمع، وإلى ما يمكن أن يؤدّي إلى هذه المصلحة من القيود والحدود.

وباختلاف تصوّر المصالح، اختلفت التشريعات وتضاربت أساليب وضع الحدود. فقد رأى المتحلّلون أخلاقيّاً أنَّ القيود كلّما كانت أقلّ عدداً وأخفّ تحمّلاً، كانت أفضل وأقرب إلى مصالحهم. ورأى المتمسّكون بالأخلاق بأنَّ القيود كلّما كانت أكثر وكلّما استطاعت أن تضمن حسن



السلوك وسيادة الفضيلة في المجتمع، كانت أفضل وأقرب إلى المصلحة. ورأى أصحاب العقائد الهادفة أنَّ القيد كلّما كان دائراً في فلك عقيدتهم، وكلّما كان في صالح خططهم ومنفّذاً لأغراضهم وأهدافهم، كان أحسن وأقرب إلى مصالحهم.

ورأت الحكومات أنَّ القيود كلّما كانت تضمن أكبر حدٍّ مستطاع من الأمن والنظام وقلّة الجرائم وعدم اعتداء الناس بعضهم على بعض، كانت أفضل وأقرب إلى المصلحة. ورأى الرأسمالي أنَّ القيود كلّما كانت خفيفة الحمل عليه، بحيث تسمح له بالحصول على أكبر قدرٍ مستطاعٍ من الأموال وعلى أكبر فرصةٍ للاستثمار، كانت أفضل وأقرب إلى مصالحه.

إلى آخر ما في هذه القائمة من أسماء وعناوين.

أمّا نحن، فماذا يمكن أن نستفيده من هذا الخضمّ المتعارض من الآراء والمشارب؟

يمكن أن نستفيد من ذلك: أنَّ الحريّة المطلقة يستحيل أن تتحقّق في المجتمع البشري، وإن لم تكن هناك قوانين وشرائع، وأنَّ بعض القيود نابعةٌ من طبيعة المجتمع الإنساني. فإنَّه مادام هناك آراءٌ وأفكار، ومادام هناك مصالح وأهدافٌ متضاربة ومتناقضة، فإنّها - حتماً- سوف تتعارض وتتصادم، في ظلّ الحريّة المطلقة، وسوف يرى الناس منها شرّاً مستطيراً، ويشعرون بالحاجة الملحّة إلى الأمن والنظام.

ومن ثَمَّ سوف يحاول كلّ فردٍ منهم عن طريقٍ شعوريّ أو لا شعوريّ أن يخفّف من غلواء اندفاعه في سبيل أن يأمن شرّ الآخرين وينعم بشيءٍ من الطمأنينة. فتنشأ بذلك قهراً قيودٌ بدائيّةٌ تلقائيّةٌ لا تفصح عن نفسها إلّا عند

اشتداد الخطر.

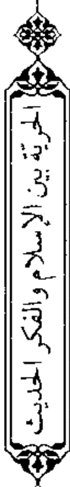
ثُمَّ يظهر على مرور الزمان أنَّ هذه القيود - لمدى بدائيّتها وغموضها- غير كافيةٍ لسيادة الأمن والنظام، فإنَّها سرعان ما يرفضها الفرد إذا وجد أنَّها تتعارض - ولو جزئيّاً- مع مصلحةٍ من مصالحه، وهنا تسود الفوضى وسوء استغلال القيود، فيشعر الناس بلزوم وجود ضابطٍ معيّن محدّد يضطرّ كلّ فردٍ إلى التقيّد بالقيود، بالإضافة إلى أنَّ تلك القيود البدائيّة لا تفي بالمقدار المطلوب من الأمن والنظام وإن التزم الناس بها، فلابدَّ من قيودٍ جديدةٍ. وهنا يأتي دور القوانين والشرائع.

وهنا أجد من حقّي أن أسألك: أيّ القوانين والتشريعات حسن؟ هل هي التي تضع القيود بشكلٍ يضمن أكبر قدرٍ ممكن من الحريّة، أم هو ذلك التشريع الذي يضمن بقيوده أكبر قدرٍ ممكن من الأمن والنظام وسيادة الأخلاق والآداب بين الناس؟

ومهما يكن رأيك، فإنّي أذهب إلى الرأي الأخير؛ لأنّه إذا لم يكن للبشريّة مناصٌ عن القيود، فينبغي أن تكون هذه القيود، من الحكمة والدقّة بحيث تضمن سيادة العدل والرفاه في ربوع المجتمع. وعلى هذا أيضاً بنى الإسلام مذهبه في سنّ القوانين والتشريعات، كما سوف يظهر لك في غضون هذا البحث.

****

بعد هذه المرحلة من البحث، ينبغي لنا أن ننظر إلى القيود التي وضعها الفكر الحديث أمام تلك الأقسام من الحريّات التي سبق ذكرها، وأن نرى القيود التي وضعها الإسلام في نفس المورد؛ لنرى في النهاية عدالة الإسلام



وحكمته وصواب نظره، وتوصّله إلى خير ممّا توصل إليه الفكر الحديث بعد أكثر من أربعة عشر قرناً بعد الإسلام.

وقيود الفكر الحديث على هذه الحريّات - يمكن أن تتلخّص فيما يلي، مقتبسةً من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان[1] - أنضج ثمرة من ثمرات الفكر الحديث.

١. **أمّا حريّة السكن**، فقد اعترف بها الفكر الحديث في ضمنِ حدودِ الدولة، واعتبر أنَّ (لكلِّ فردٍ حريّة التنقّل واختيار محلّ إقامته داخل الدولة). أمّا الخروج عن الحدود الدوليّة، فقد حرّمته القوانين الحديثة إلّا بإذنٍ خاصٍّ، ومع الحصول على جواز للسفر، إلّا أنَّ الإعلان العالمي ينصّ على أنّه (يحقّ للفرد أن يغادر أيّة بلادٍ، بما في ذلك بلده، كما يحقّ له العودة إليه)، ولكن لابدَّ أن يكون المقصود من البلاد التي يحقّ له أن يغادرها وأن يعود إليها، ما كانت في ضمن حدود الدولة؛ وذلك بقرينة الفقرة الأُولى من نفس المادّة من الإعلان، وهي المذكورة أعلاه، وبقرينة تحريم القوانين الخروج إلى ما وراء الحدود إلّا بإذنٍ خاصٍّ.

٢. **أمّا حريّة نشر الآراء**، فقد نصّ عليها إعلان حقوق الإنسان بقوله: (لكلِّ فردٍ الحقّ في حريّة الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحقّ اعتناق الآراء دون أيّ تدخلٍ، واستقاءٍ، وتَلَقٍّ، وإذاعة الأنباء والأفكار دون تقيّد بالحدود الجغرافيّة، وبأيّة وسيلةٍ كانت).

وبهذا نرى أنَّ هذا الإعلان قد ضمّن هذه الحريّة بأوسع ما لها من

(١) أُصول العلاقات السياسيّة الدوليّة، للدكتور أحمد سويلم العمري، ابتداءً من الصفحة ١٢٨٥ (منه قدّس سرّه).

معنى، من دون تقييد بالوسيلة أو الغاية، وبدون أيّ شرطٍ آخر.

٣. **أمّا حريّة التصرّف**، فقد ضمّنها الفكر الحديث في ضمن حدود القانون، وأجاز الحريّة المطلقة فيها وراء ذلك؛ فإنَّه لابدَّ أن (يخضع الفرد في ممارسة حقوقه وواجباته، لتلك القيود التي يقرّرها القانون فقط).

أمّا في ضمن هذه الحدود فله أن يعمل ما يشاء، وليس لأحدٍ أن يمنعه عن شيءٍ من أعماله، فإنَّه (لا يُدان أيُّ شخصٍ من جرّاء أعمالٍ، أو امتناع عن أعمال، إلَّا إذا كان يُعتبر جرماً وفقاً للقانون الوطني أو الدولي وقت الارتكاب).

٤. **أمّا حريّة الاعتقاد**، فقد اعترف بها الفكر الحديث بأوسع صورها، فقد ضمن (لكلِّ شخصٍ الحقّ في حريّة التفكير والدين والضمير، ويشمل هذا الحقّ حريّة تغيير ديانته أو عقيدته، وحريّة الإعراب عنها بالتعليم والممارسة، والقيام بالطقوس الدينيّة ومراعاتها، سواء كان ذلك سرّاً أو جهراً، منفرداً أو مع جماعةٍ).

٥. **وأمّا الحريّة الشخصيّة**، فقد اعترف بها الفكر الحديث بأوسع صورها، وذهب إلى أنّه (لا يجوز استرقاق واستعباد أيّ شخصٍ، ويحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بسائر أنواعها).

٦. **وأمّا الحريّة الاقتصاديّة**، فلم يتعرّض لها هذا الإعلان، لضمانها على أوسع صورها؛ وذلك لأنَّ تقييم هذه الحريّة ومدى الاعتراف بها راجعٌ إلى الاختلاف في المشارب الاقتصاديّة، وحيث كان الموقّعون على هذا الإعلان مختلفين في مشاربهم الاقتصاديّة، لم يكن من المستطاع ضمان هذه الحريّة بالشكل الواسع التامّ في الإعلان.

وإنَّما تعرّض الإعلان لبعض موارد هذه الحريّة، كأن ينصّ على أنَّ (لكلِّ شخصٍ حقّ التملّك بمفرده أو بالاشتراك مع غيره)، كما أنّه (لا يجوز تجريد أحدٍ من ملكه تعسّفاً). أو ينصّ على أنَّ: (لكلِّ فردٍ الحقّ في العمل، وله حريّة اختياره بشروطٍ عادلةٍ مرْضية)، ومن ثَمَّ فإنَّ (لكلِّ فردٍ يقوم بعمل، الحقّ في أجرٍ مُرضٍ يكفل له ولعائلته عيشةً لائقةً بكرامة الإنسان).

وهناك حريّة أُخرى يضيفها الفكر الحديث إلى قائمة الحريّات، وهي أن يكون لكلِّ فردٍ الحقّ في أن يسنّ القوانين إمّا بنفسه، أو بواسطة ممثّليه الذين ينتخبهم انتخاباً حرّاً. لذا فقد نصّ إعلان الأمم المتّحدة على (أنَّ إرادة الشعب هي مصدر سلطة الحكومة، ويعبّر عن هذه الإرادة بانتخاباتٍ نزيهةٍ دوريّةٍ تجري على أساس الاقتراع السرّي، وعلى قدم المساواة بين الجميع، أو حسب أيّ إجراءٍ مماثلٍ يضمن حريّة التصويت).

إلَّا أنَّ هذا القسم من الحريّة لا يندرج في قائمة الحريّات؛ لأنَّها من قبيل «الحقّ» لا من قبيل الحريّة، فإنَّها ترجع في أساسها إلى فكرة أنَّ الأصل في الفرد أن يحكم نفسه بنفسه، وحيث إنَّه لم يمكن ذلك في جميع الأفراد، فلابدَّ أن يكون لكلِّ فردٍ الحقّ في انتخاب جماعةٍ للقيام بهذا الغرض.

****

والآن، وبعد أن عرفنا - باختصارٍ - وجهة نظر الفكر الحديث في هذه الحريّات، عن طريق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ثمرته الناضجة، ينبغي أن نعرف وجهة نظر الإسلام في هذه الحريّات، ونتبيّن - باختصار - القيود التي وضعها الإسلام عليها؛ لنعرف في النهاية صواب وجهة نظريّة الإسلام ومدى حكمته البالغة، ومدى تفوّقه على أنضج ثمار الفكر الحديث.

ولكنّنا فيما يلي سوف نقتصر على ذكر وجهة النظر الإسلاميّة في الحريّات الخمس الأُولى؛ لأنّنا مضطرّون إلى أن نضرب صفحاً عن الحريّة الاقتصادية وحريّة التصويت؛ لأنَّ مناقشة الحريّة الاقتصاديّة في ضوء الإسلام تستدعي ذكر المذاهب الاقتصاديّة، وتحديد موقف الإسلام منها، ثُمَّ تحديد وجهة نظره الاقتصاديّة الخاصّة. كما أنَّ مناقشة حريّة التصويت على أساسٍ إسلامي، يستدعي عرض الأنظمة البرلمانيّة والنظم المتّبعة أثناء الانتخابات، ثُمَّ عرضها على الإسلام، وكلّ من هذين البحثين يستدعيان ما يعادل هذا المقال، مع بالغ الاختصار.

أمّا وجهة النظر الإسلاميّة في تلك الحريّات الخمس، فهي كما يلي:

١. **أمّا حريّة السكن**، فقد ضمنها الإسلام بصورةٍ مطلقة، فيما عدا بعض الصور الاستثنائيّة، التي يقضي فيها صالح الإسلام أو المجتمع، أو مصلحة الفرد تقييدها. فهو لم يحرّم - بصورةٍ عامّة- الدخول إلى أيِّ مدينةٍ أو الخروج منها أو التنقّل في أيّ بقعةٍ من العالم؛ وذلك لأنّه دينٌ عالميّ لا يعترف بالحدود الدوليّة بين البلاد.

نعم، هناك بعض الموارد التي ألزم فيها الإسلام الفرد ببعض التشريعات في هذا الصدد، فقد حرّم سفر المعصية، وهو السفر الذي يُقصد منه ارتكاب محرّم إسلامي، أو الذهاب إلى مدينةٍ يضطرّ فيها إلى ارتكاب بعض المحرّمات، أو التخلّف عن بعض الواجبات، أو توجب فساداً في عقيدته أو عقيدة أيّ فردٍ آخر أو جماعة. كما أنَّ الإسلام أوجب السفر إلى الحجّ عند الاستطاعة، كما أنّه أوجب البقاء في المسجد أثناء الاعتكاف الواجب فيه.

كما أنَّ هناك بعض الجرائم أوجب فيها الإسلام نفي المجرم إلى خارج

البلاد؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾[1].

ومن هنا نرى الإسلام إنّما أوجب السفر أو حرّمه، في حدودٍ معيّنةٍ ولمصلحةٍ استثنائيّة، وأباح ما وراء ذلك من حريّة التنقّل والسكنى، وبذلك استغنى عمّا شرّعته القوانين الوضعيّة الحديثة من المنع التامّ عن اجتياز الحدود إلّا بإذنٍ خاصّ.

٢. **أمّا بالنسبة إلى حريّة نشر** الآراء وإذاعتها، فالإسلام بصفته مبدأً هادفاً، له تعاليمه ونظمه الخاصّة وله غاياته ووسائله المعيّنة، فقد حرّم نشر تلك الأفكار التي تضرّ بالعقيدة الإسلاميّة لشخصٍ معيّن أو جماعةٍ أو مجتمع، وتلك التي تسبّب انتشار المحرّمات الإسلاميّة ومنافيات الأخلاق والفضيلة بين الناس، فـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[2]. كما حرّم نشر تلك الأفكار التي توقع الفتنة في المجتمع وتوجب التفرقة بين أفراده، وسلب الثقة بعضهم من بعض. كما حرّم استخدام الوسائل التي تحتوي على محرّمٍ إسلامي، في سبيل نشر أيّ فكرةٍ أو رأي، وذلك كالغناء وإقامة الحفلات الخلاعيّة للدعاية.

ولكن الإسلام من ناحيةٍ أُخرى، أوجب نشر بعض الأفكار، وهي العقائد الإسلاميّة والتعاليم الدينيّة، عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وذلك عند الحاجة إليه ومع احتمال تأثير الوعظ بالمخاطب ولو

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

(٢) سورة النور، الآية: ١٩.

باحتمالٍ ضعيف، حتّى أنّه جعل ذلك فريضة [من] فرائض دينه الرئيسيّة.

أمّا سائر الأفكار الأُخرى على اختلافها، فقد رحّب بها الإسلام وندب إليها، سواء الأفكار الأدبيّة أو العلميّة أو الأخلاقيّة أو الفلسفيّة أو غيرها. ومن هنا نرى الدقّة البالغة في وجهة نظر الإسلام بالنسبة إلى حريّة نشر الآراء، فهو قد نزّه المجتمع الإسلامي من الآراء الهدّامة المشكّكة، وأوجب نشر التعاليم الإسلاميّة الخيّرة، وندب إلى سائر الأفكار البنّاءة المفيدة.

والإسلام بهذا التقسيم استطاع أن يبلغ أوجاً رفيعاً لم يستطع الفكر الحديث - بعمقه ودقّته- أن يصل إليه.

٣. **وأمّا حريّة التصرّف،** فنحن نرى الإسلام يتّفق جزئيّاً مع ما نصّ عليه الإعلان العالمي بهذا الصدد. فإنَّ الإسلام يعترف بأنَّ الفرد (يخضع في ممارسة حقوقه وواجباته لتلك القيود التي يقرّرها القانون فقط)، ويوافق على أنّه (لا يدان أيّ شخصٍ من جرّاء أعمالٍ، أو امتناعٍ عن أعمال، إلّا إذا كان يعتبر جرماً وفقاً للقانون)، غاية الأمر أنَّ المقصود من القانون في منطق الإسلام هو تشريعاته وتعاليمه. فإنَّ الفرد المسلم إذا قام بجميع ما يتطلّبه الإسلام فليس من حقّ أحدٍ بعد ذلك أن يجبره على عملٍ آخر، أو يعاقبه على عدم القيام بعملٍ معيّن، وإلّا كان معتدياً عليه، خارجاً عن تعاليمه المقدّسة.

ولكنّ الفرق الرئيسيّ بين القانون الوضعي والدين الإسلامي في هذا الصدد، هو فيما أوجبه كلٌّ منهما أو حرّمه، فإنَّ الإسلام حرّم جملةً من الأُمور المنافية للإنسانيّة أو الأخلاق أو الفضيلة، أو الضارّة بالمجتمع أو بالدين أو بالشخص نفسه، وندب إلى الفضائل الاجتماعيّة والأخلاق الفاضلة والتقرّب إلى الله تعالى بمحاسن القرب، كلّ ذلك ليضمن للمجتمع السعادة والرفاه،

ولكي يسعى بالإنسانيّة إلى كمالها المنشود، في حين إنَّ القانون إذا كان قد حرّم بعض الجرائم، فإنَّه لم يندب إلى الأخلاق ولا إلى الفضيلة، ومن ثَمَّ صار قانوناً غير هادف، تاركاً البشريّة مطلقة السراح من حيث الفضيلة وعمل الخير، تتدهور إن اقتصرت عليه، إلى حضيض سحيق. فإنَّه متى كان ترك الجريمة فقط من دون أن يعتضد بعمل الخير، من أسباب السعادة والرفاه للمجتمع الإنساني؟!

٤. **أمّا بالنسبة إلى حريّة العقيدة**، فينبغي أن نعرف أوّلاً ما إذا كانت العقيدة من ناحيةٍ واقعيّةٍ حرّةً، وقابلةً للتغيير اعتباطاً وحسب الرغبة.

لا شكّ أنَّ الحقيقة واحدةٌ لا تعدّد فيها، وأنَّ الإنسان إنَّما ينحو بعقائده وعلومه وبحوثه نحو هذا الواحد المجهول، وهو إنَّما يحرص على عقيدته وعلى نتائج أبحاثه؛ لأنَّه يعتقد أنَّها قريبةٌ من الحقيقة. وعليه فإذا كان يعتقد عقيدةً أو يرى رأياً ثُمَّ يكشف له الدليل فساده وصحّة رأيٍ آخر، فإنَّ عليه - إذا كان موضوعيّاً مخلصاً للحقيقة غير متعصّب لهواه- أن يعدل عن رأيه الأوّل وأن يأخذ بالرأي الأخير. كما أنَّه إذا تبيّن له عن طريق البرهان أنّ الرأي الذي يتبنّاه هو الصحيح والأقرب إلى الحقيقة، وأنَّ الآراء الأُخرى باطلةٌ وزائفة، فإنَّ عليه - تمسّكاً بالحقيقة- أن يتمسّك بمذهبه وأن يحرص عليه.

هذا كلّه من ناحيةٍ واقعيّة.

وهذا هو الذي ينبغي أن يكون المنطلق للتشريع في إباحته أو تحريمه، الانتقال من عقيدةٍ إلى أُخرى، وكذلك فعل الإسلام، فإنَّه أجاز بل أوجب في كثيرٍ من الموارد الانتقال من العقيدة الفاسدة إلى الرأي الصحيح عند اتّضاحه، وحرّم الانتقال من الرأي الصحيح إلى الفاسد. ولكن هذا التشريع لا يرد -

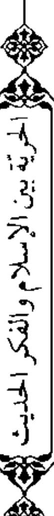
بالطبع- في الإيمان بأصل الإسلام، فإنّه يحتوي على مصادرة على المطلوب، وإنّما هو خطابٌ للفرد المسلم لكي يصوغ أبحاثه الإسلاميّة والعلميّة وغيرها، على هذا الأساس الواقعي.

والإسلام بهذا التشريع كان أبعد نظراً من الإعلان العالمي الذي أجاز حريّة العقيدة والضمير بصورةٍ مطلقة، كما أجاز القيام بالشعائر الدينيّة بدون أيّ رادع، وإن كانت تلك العقيدة وهذه الشعائر واضحة الزيف والبطلان.

والذي ينبغي أن يلاحظ في المقام، أنَّ في ضمان الفكر الحديث لحريّة العقيدة تطفّلاً على مجالٍ لا يمكن أن تصل يده إليه، فإنَّ دخيلة النفس حرزٌ حصينٌ عن أيِّ تدخّلٍ خارجيّ، وللإنسان كامل الحريّة أن يعتقد ما يشاء وأن يفكّر كما يشاء، ما دام ذلك في حدود نفسه، مهما كان الضغط الخارجي شديداً.

ولكنّ الإسلام بصفته عقيدةً كبرى ينمو في كنفها الضمير وتنصهر في بوتقتها النفس، وتتبلور في حدودها الأفكار والعواطف، لذلك كان مستطيعاً أن يدخل إلى ضمير الإنسان فيقطع عليه سلسلة أفكاره ويحرّم عليه عقيدةً ويبيح أُخرى، بتلك القوّة المعنويّة العالية.

٥. **وأمّا الحريّة الشخصيّة** التي تقابل ملك الإنسان للإنسان، فإنَّ الحديث عنها من وجهة النظر الإسلاميّة، حديثٌ جميلٌ وحكيم، رغم ما يُقال من أنَّ الإسلام يميل إلى إقرار الرقّ والاعتراف به، فإنَّ الإسلام إنّما اعترف بالاسترقاق في ظروفٍ يكون فيها الرقّ خير حلّ للمشكلة القائمة، ويكون هو الموافق لمصلحة الإسلام والمجتمع الإسلامي، ثُمَّ إنَّ الإسلام بعد ذلك حثّ على العتق وأكّد عليه، بل أوجبه في كثير من الموارد.



فالإسلام لم يعترف بالرقّ إلّا ما كان ناشئاً من أحد سببين لا ثالث لهما في الإسلام، وكلّ شخصٍ يحاول أن يتجاوزهما وأن يسترقّ شخصاً بسببٍ آخر، يكون معتدياً عليه، خارجاً على تعاليم دينه الحنيف.

وهذان السببان هما:

١. كون الفرد مولوداً من أبوين رقّين لم ينعتق منهما شيء.

٢. ما يستولي عليه الجيش الإسلامي الفاتح من الأسرى، ضمن ما يستولي عليه من غنائم، إذا اختار الإمام عليه السلام (رئيس الدولة الإسلاميّة) استرقاقه؛ فإنَّ للإمام عليه السلام أن يختار في الأسرى إحدى ثلاث خصال:

فإمّا أن يطلق الأسير ويدعه يذهب إلى بلاده سالماً، وإمّا أن يفديه بأن يشترط على إطلاقه عوضاً، وإمّا أن يسترقّه.

وفي هذا التشريع غاية الإنصاف والإنسانيّة في مثل هذا الظرف؛ فإنَّ الإمام ينظر بثاقب نظره إلى ما هو الصالح للمسلمين من هذه الخصال. فإن أطلق، كان متفضّلاً. وإن فدّى، كان الفداء من جملة أموال المسلمين التي تصرف في مصالحهم. وإن استرقّ الأسرى، ذهبوا إلى دار الإسلام ورأوا عدالة المجتمع الإسلامي ورفاهه، وعرفوا تعاليم الإسلام وأحكامه، فلعلّهم يؤمنوا به ويهتدوا بنوره.

أمّا أنصار الفكر الحديث ودعاته، فما الذي يعملونه في مثل هذه المواقف؟

ليس عندهم سوى القتل والإبادة الجماعيّة لجموع الأسرى الذين غنمهم الجيش المنتصر، على أساس أنَّ هؤلاء من الجانب المعادي لهم ولابدَّ من قتلهم!

وغاية ما توصّل إليه الفكر الحديث في الأيّام المتأخّرة، هو فكرة «تبادل الأسرى»، بأن تعطي إحدى الدولتين ما غنمت من الأسرى وتأخذ لقاءهم

عدداً مساوياً من أسراها من الدولة الأُخرى. وهذه الفكرة على ما فيها من رحمةٍ بالإنسان وتحفّظ على النفس البشريّة، فإنّها لا تعدو في جوهرها فكرة الفداء في الإسلام، فإنّها ليست إلّا فداء الإنسان بالإنسان.

أمّا طرق الإسلام إلى العتق فهي كثيرة، نذكر منها على وجه الاختصار:

١. المكاتبة: وهو أن يعاقد السيّد عبده، على أنّه إذا جاء بكميّةٍ معيّنةٍ من المال في مدّةٍ معيّنة، فهو حرٌّ.

٢. التدبير: وهو أن يقول المولى لعبده: أنت حرٌّ بعد وفاتي، فيتحرّر بعد وفاته.

٣. يتحرّر العبد إذا نكل به مولاه، أو إذا أُقعد أو أُصيب بالعمى أو الجذام.

٤. يتحرّر العبد إذا اشتراه ابنه أو بنته، أو أحد أبويه أو أحد أجداده أو أحفاده، فإنَّ الشخص لا يملك أولاده وإن نزلوا، ولا آباءه وإن علوا.

٥. تتحرّر الجاريّة إذا أصبحت أُمّ ولد، بأن تلد ولداً من مولاها، فإنَّ الولد يكون حرّاً؛ لأنَّ المولود يتبع أشرف الشجرتين، ثُمَّ هو يرث أُمّه بعد وفاة أبيه، فتنعتق من نصيبه من الإرث؛ لأنّه لا يمكن أن يملك أُمّه. وهي في أثناء حياة سيّدها، يحرم بيعها، لأنّها متشبّثة بالحريّة.

٦. وهناك عدّة من المحرّمات الإسلاميّة التي إذا ارتكبها الفرد، فإنّه يجب أن يعتق عبداً، كفارةً له عن عصيانه لأوامر الإسلام، كالظهار وقتل الخطأ وإفطار يومٍ من أيّام شهر رمضان.

وهناك وراء ذلك كلّه النداء العامّ الذي وجّهه الإسلام لإعتاق العبيد وتحريرهم، قال النبيﷺ: «**مَن أعتق مؤمناً أعتق الله العزيز الجبّار بكلّ عضوٍ عضواً له من النار، فإن كانت أنثى أعتق الله العزيز الجبّار بكلّ عضوين منها عضواً**

من النار»[1]. وقال صلى الله عليه وآله: «مَن أعتق رقبةً مؤمنةً كانت فداءه من النار»[2][3].

وبهذا نرى أنَّ الإسلام قد أعدّ العدّة لتحرير العبيد، لكن بشكلٍ تدريجي؛ لكي يمكن أن يتوفّر لكلِّ عبدٍ يتحرّر ما يكفيه في حياته الجديدة من مستلزمات العيش. وبذلك تجنّب الإسلام ما وقع فيه الغرب، في العصر الحديث، عند إعلان حريّة العبيد، من مشاكل خطيرة نتجت عن تسيّب آلاف من العبيد الذين فارقوا مواليهم، لا يعلمون إلى أين يتّجهون ولا من أين يرتزقون.

****

ولا يفوتنا ونحن في مجال الحديث عن الحريّة أن نشير إلى أنَّ هناك قسماً آخر من الحريّة هو أقرب إلى الحريّة الجماعيّة منها إلى الحريّة الفرديّة، تلك هي الحريّة من الاستعمار، هذه الحريّة التي أصبح النداء بها في العصور المتأخّرة قويّاً مجلجلاً، بعد أن ذاقت البشريّة من ويلات الاستعمار وتعسّفه الشيء الكثير.

وهذه الحريّة ممّا يقرّها الإسلام ويعترف بها، إذا كان المستعمر كافراً، فإنّه ﴿لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾[4] وقال الله عزّ وجلّ في كتابه

---

(١) الكافي ٦: ١٨٠، كتاب العتق والتدبير والكتابة، باب ثواب العتق وفضله والرغبة فيه، الحديث ٣، وثواب الأعمال (للصدوق): ١٣٨، ثواب مَن أعتق مؤمناً، وسائل الشيعة ٢٣: ١٣، كتاب العتق، الباب٣، باب استحباب اختيار عتق العبد على عتق الأمة، الحديث ١.

(٢) الروضة البهيّة في شرح اللمعة الدمشقيّة، للشهيد الثاني قدس سره [٦: ٢٣١-٢٣٢]، كتاب العتق (منه قدس سره).

(٣) ثواب الأعمال (للصدوق): ٢٩٣، عقاب مجمع عقوبات الأعمال، عوالي اللئالي ٣: ٤٢١، باب العتق، الحديث ١، بحار الأنوار ١٠١: ١٩٤، كتاب العتق والتدبير والمكاتبة، باب فضل العتق، الحديث ٥.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٤١.

الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(١)، فجعل المتعامل مع الكفّار والمعترف بسيطرتهم عليه كافراً ظالماً.

بالإضافة إلى ما في الاستعمار من مساوئ كثيرة، كاستذلال الشعب المسلم وسلب خيراته، والتعسّف عليه وإرهابه وإفقاره، وما يحمله الاستعمار من خطرٍ على العقيدة الإسلاميّة وعلى المجتمع الإسلامي، وكلّ ذلك ممّا يأباه الإسلام لمعتنقيه، فإنَّ ﴿لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٢)، ولا يمكن أن يخضع المسلمون لذلٍّ واستعباد.

نعم، هناك نوعٌ واحد من السيطرة يقرّه الإسلام، هو سيطرة «الدولة الإسلاميّة» على الشعوب غير المسلمة، حيث تُوفّر لهم الحماية والأمن، ويكونون في ذمّتها تحت شروط معيّنة؛ وذلك لأنّها هي الدولة الوحيدة التي تهدي إلى الحقّ وتسعى إلى نشر العدالة والسعادة في ربوع المجتمع الإنساني.

ولا بأس من سيطرة الحقّ على الإنسان، فإنّه ليس وراء الحقّ إلّا الضلال، وإنَّ الحقّ هو أمل الإنسان في سعيه نحو كماله المنشود(٣).

محمّد الصدر

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨.

(٣) تمّ نشر هذا البحث في مجلّة الأضواء العدد: (١-٣)، من السنة الرابعة، بتاريخ: ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣م.



فهرس المحتويات

محطّات سريعة

من حياة آية الله العظمى السيّد الشهيد محمّد الصدر قدس سره